

الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

العدد 8/ جمادى الثانية 1412 ـــ دجنبر 1991





الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

العدد 8 / دجنبر 1991

رقم الايداع القانوني بالخزانة العامة وحفظ الوثائق 1982/29

أكاديمية المملكة المغربية
كلم 6,4 شارع الإمام مالك ــ السويسي. ص. ب. 1380
الرباط ــ المملكة المغربية



أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

ليوبولد سيدار سنغور : السينغال
هنري كيسنجر : و.م. الأمريكية
محمد الفاسي : المملكة المغربية.
موريس دريون : فرنسا.
نيل أرمسترونغ : و.م. الأمريكية.
عبد اللطيف بن عبد الجليل : المملكة المغربية.
ايميليو ݣارسا ݣوميز : المملكة الاسبانية.
عبد الكريم غلاب : المملكة المغربية.
أوطودو هابسبورغ : النمسا.
عبد الرحمٰن الفاسي : المملكة المغربية.
جورج ڤوديل : فرنسا.
عبد الوهاب ابن منصور : المملكة المغربية.
محمد عزيز الحبابي : المملكة المغربية.
محمد الحبيب ابن الخوجة : تونس.
محمد ابن شريفة : المملكة المغربية.
أحمد الأخضر غزال : المملكة المغربية.
عبد الله عمر نصيف : م.ع. السعودية.
عبد العزيز بن عبد الله : المملكة المغربية.
محمد عبد السلام : الباكستان.
عبد الهادي التازي : المملكة المغربية.
فؤاد سزكين : تركيا.
محمد بهجة الأثري : العراق.
عبد اللطيف بربيش : المملكة المغربية.
محمد العربي الخطابي : المملكة المغربية.
المهدي المنجرة : المملكة المغربية
أحمد الضُبيب : م.ع. السعودية
محمد علال سيناصر : المملكة المغربية
أحمد صدقي الدجاني : فلسطين
محمد شفيق : المملكة المغربية
لورد شالفونت : المملكة المتحدة
محمد المكي الناصري : المملكة المغربية
أحمد مختار امبو : السينغال
عبد اللطيف الفيلالي : المملكة المغربية

أبو بكر القادري : المملكة المغربية
الحاج أحمد ابن شقرون : المملكة المغربية
عبد الله شاكر الكرسيفي : المملكة المغربية
جان برنار : فرنسا
أليكس هالي : و.م. الأمريكية
روبير امبرودجي : فرنسا
عز الدين العراقي : المملكة المغربية
ألكسندر دومارانش : فرنسا
دونالد فريد ريكسن : و.م. الأمريكية
عبد الهادي بوطالب : المملكة المغربية
ادريس خليل : المملكة المغربية
رجاء ݣارودي : فرنسا
عباس الجراري : المملكة المغربية
بيدرو راميريز فاسكيز : المكسيك
محمد فاروق النبهان : المملكة المغربية
عباس القيسي : المملكة المغربية
عبد الله العروي : المملكة المغربية
برناردان ݣانتين : الفاتيكان
عبد الله الفيصل : م.ع. السعودية
روني جان ديبوي : فرنسا
ناصر الدين الأسد : المملكة الأردنية
محمد حسن الزيات : ج. مصر العربية
أناتولي ݣروميكو : الاتحاد السوفياتي
جاك ايف كوسطو : فرنسا
جورج ماثي : فرنسا
كامل حسن المقهور : الجماهيرية الليبية
إدواردو دي أرانطيس إي أوليڤيرا : البرتغال
عبد المجيد مزيان : الجزائر
محمد سالم ولد عدود : موريتانيا
بوشو شانغ : الصين
محمد ميكو : المملكة المغربية
إدريس العلوي العبدلاوي : المملكة المغربية
الفونسو دو لاسرنا : المملكة الاسبانية
الحسن ابن طلال : المملكة الأردنية

الأعضاء المراسلون

– ريشار ب. ستون :و.م. الأمريكية.
– م. هداية الله : الهند
– شارل ستوكتون : و.م. الأمريكية.
– حاييم الزعفراني : المملكة المغربية

* * *

أمين السر الدائم : عبد اللطيف بربيش.
أمين السر المساعد: عبد الله العروي.

* * *

مدير الشؤون العلمية : مصطفى القباج.

• «الماء وما ورد في شربه من الآداب» تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، مارس 1985.
• «معلمة الملحون» محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986، أبريل 1987.
• «ديوان ابن فركون» تقديم وتعليق محمد ابن شريفة، ماي 1987.
• «عين الحياة في علم استنباط المياه» للدمنهوري، تقديم وتحقيق محمد بهجة الأثري 1989/1409.
• «معلمة الملحون»، محمد الفاسي، الجزء الثالث، روائع الملحون، 1990.
• «عمدة الطبيب في معرفة النبات» القسم الأول والقسم الثاني، لأبي الخير الإشبيلي حققه وعلق عليه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطابي، 1990/1411.
• «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»، لابن زهر، حققه وهيأه للطبع وعلق عليه محمد بن عبد الله الروداني، 1411 هـ/1991 م.
• «معلمة الملحون» محمد الفاسي الجزء الثاني، القسم الأول، معجم لغة الملحون، 1991.

III ـ سلسلة «معاجم»

• «المعجم العربي ـ الأمازيغي» محمد شفيق، 1990/1410.

IV ـ سلسلة «ندوات ومحاضرات» :

• «فلسفة التشريع الإسلامي» الندوة الأولى للجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.
• «وقائع الجلسات العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد» (من 1401 / 1980 إلى 1407 / 1986)، دجنبر 1987.
• «محاضرات الأكاديمية» (من 1403 / 1983 إلى 1407 / 1987)، 1988.
• «الحرف العربي والتكنولوجيا» الندوة الأولى للجنة اللغة العربية فبراير 1988/1408.
• «الشريعة والفقه والقانون» الندوة الثانية للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.
• «أسس العلاقات الدولية في الإسلام» الندوة الثالثة للجنة القيم الروحية والفكرية 1989/1409.
• «نظام الحقوق في الاسلام»، الندوة الرابعة للجنة القيم الروحية والفكرية، 1990/1410.

V ـ سلسلة «المجلة» :

• «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الافتتاحي، فيه وقائع افتتاح جلالة الملك

الحسن الثاني للأكاديمية يوم الاثنين 5 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل 1980.

- «الأكاديمية»، العدد الأول، فبراير 1984.
- «الأكاديمية»، العدد الثاني، فبراير 1985.
- «الأكاديمية»، العدد الثالث، نونبر 1986.
- «الأكاديمية»، العدد الرابع، نونبر 1987.
- «الأكاديمية»، العدد الخامس، دجنبر 1988.
- «الأكاديمية»، العدد السادس، دجنبر 1989.
- «الأكاديمية»، العدد السابع، دجنبر 1990.

الفـهـرس

النصوص الواردة في هذا الكتاب أصلية، فينبغي الاشارة إلى هذا الكتاب عند نشرها أو الاستشهاد بها.

ترجمت ملخّصات النصوص العربية إلى الفرنسية والإنجليزية والإسبانية وترجمت ملخّصات النصوص غير العربية إلى اللغة العربية وحدها.

الآراء والمصطلحات الواردة في هذا الكتاب تُلزم أصحابها وحدهم.

I - البحوث

II - ملخصات

III – أنشطة الأكاديمية

القسم الأول

البحوث

من مذكراتي عن الزّميل الذي فقدناه

– القســـم الأول –

عبد الرحمٰن الفاسي

تغمد الله الفقيد الحاج محمد ابّا حنيني برحمته، فقد جمعت بيني وبينه صداقة خمسين سنة، غطّت عهد الشباب والكهولة، وصحّ لنا على مداها صدق الوداد، وما كنّا نفترق إلاّ في فترات معدودات، وحتى في فترة عملي بعيدا في الخارج قد كان يجمعنا على بعد الدار بريد المطبوعات المتبادلة بيننا وكأننا على موفور اللقاء. وقد ابتدأ عهد الاتصال المتصل من ساحة الرياضة بفاس، لينتهي إلى ساحة الأكاديمية بالرباط. وأذكر أنني حين قصدت مكتب الجمعية الرياضية الفاسية للتحصيل على ورقة الانخراط في فريق الشباب، واتصلت بعدها مباشرة في ميدان التمرين بالكبار والصغار، لاحظت أن الإعجاب بلاعب الرديف الأخ أبّا حنيني الذي أدرج يومئذ في الفرقة الأولى، كان يجري على ألسنة اللاّعبين والمسيّرين والملاحظين، فقد امتاز بخاصية قذف الكرة بقدمه اليسرى وبنفس القوة التي يستعمل بها اليمنى، وبالانضباط في مواعيد التمارين، وبأنه لم تحفظ عليه في الميدان أي زلّة مخالفة، حتى ان التنويه بالروح الرياضية أصبح وقفا عليه، ولازمة تذكر مع اسمه في الحضور والغياب، فكنا نحن الصغار نرى فيه القدوة والمثل المنشود الذي نحلم به في اليقظة والمنام، واني لأستجلي من خلال هذه السنين وعهودها أن الأقدار التي ساقتنا إلى ميدان الرياضة وهي هي التي كتبت أن تجمع بيننا إلى آخر المطاف، قد ألفت بين اتجاهينا في ميدان الفكر، ودفعت بنا إلى صعيد واحد نحو الإدارة، وأناطت بنا مسؤوليات خاصة ولم يكن الاختلاف الغالب بين مدرستينا ـــ المدرسة الفرنسية وجامعة القرويين ـــ في المقاصد والأهداف، وفي المناهج والمواد، ليطغى على حصانة وصلابة اتجاه المحافظة في الأسرة والمهاد، فالتقليد العائلي هو الذي مكّن لنا في التراث العلمي، وحَصَّننا من كل توجه قد يغري به التجديد، أو يلوي به مبدأ التحرّر في غير ترو ولا تمحيص، وبذلك لم ألاحظ كما لم يلاحظ غيري من

عارفي هذا الفقيد انه نزع بحكم الاعتداد بمدرسته كآخرين إلى الثقة بالنفس، أو التحرّر من القديم لمجرد أن التمسك به كما يقال : «مذهب الجامدين»، وان معاشرته الطويلة لتتيح لي القطع بأن فراهة المادة العربيّة في ثقافته، ترجع في أصلها **أولا** إلى مدرسة البيت حيث كان يتلقى عن والده دروسا رتيبة كانت له مددا لتحصيل آلياته العربية، وأمنت له استعدادا لمتابعة دراسته بهمّة وجدية.

وترجع **ثانيا** إلى البرنامج العربي بـ «كوليج مولاي ادريس أو ثانوية مولاي ادريس» كما هو مسجل على جدار مدخلها العتيد، فقد كان برنامجا عامرا كمّا وكيفا كما أراده الماريشال (اليوطي) مقيم فرنسا وهو الذي كان ينظر إلى مؤسسة فرنسية عربية متوّجة باسم مولاي ادريس نظرة شعرية لزواج فرنسي مغربي مؤبّد وسعيد، لأنها ستتمخّض كأختها ثانوية مولاي يوسف بالرباط، عن مواليد الفكر الفرنسي أولئك الأوائل الذين كان الماريشال يتعهدهم بالزيارة وهم في أقسام الدروس. وأمعن في هذا الاتصال ففتح بين دار الاقامة بفاس وبين ساحة الثانوية بوابةً لتيسير مثل ذلك اللقاء، فهو يتراءى في هؤلاء التلاميذ رجال المستقبل السعداء الذين أرضعتهم الثقافة الفرنسية وسقتهم من لبان علومها وفنونها العهاد، ونفحتهم بألوان أزاهير حضارتها حمراء وبيضاء وزرقاء.

لقد كان برنامج ثانوية مولاي ادريس مشحونا بالمواد العربية الأساسية الدينية والأدبية، ويبدو فيه الحرص على دمج بعض المقرّرات المعروفة في جامعة القرويين كـ «تحفة الحكام» لابن عاصم التي هي شعار الفقه والفقهاء، ومن شأن ادماجها في البرنامج أن يطمئن الآباء على مستقبل أبنائهم العلمي والديني ولا مِراء.

وعندها يتأمن الاقبال على المدارس الفرنسية في ذلك الوقت الذي كانت فيه بعض الأسر تقدم رجلا وتؤخر أخرى في الحاق أبنائها بمثل هذه المدارس التي يسمونها بالفرنسية، ويطغى هذا الاتجاه عند بعضهم لينقلب خشية عارمة من سيطرة الاتجاه الأجنبي على أبنائهم، فتنفصم عرى الأسرة بالاستغراب والاستلاب، ولربما أصبح الدين في غربة اذا ما استمر السير في هذا الأخدود إلى نهاية غير معروفة المآل.

ولأجل هذه الحقائق أدرجت «تحفة الحكام» في البرنامج شعارا وضاء يهدىء الخواطر ويعشى العيون، وأضيف إلى «التحفة» علم التوحيد والقصد من ذلك غير بعيد، وحتى درس الخط المغربي أدرج بين المواد العربيّة لأنه يمثّل شعارا مغربيا تنتصب فيه الصورة التراثية التي كان الماريشال (ليوطي) يتعشقها حتى في «الجلاّبة» التي كان طلاّب المدرسة الثانوية يرتدونها مثلما كانوا ينتعلون البلغة الصفراء اللّماعة، فكان الماريشال

يحسّ احساسا كاملا أن فرنسا قد حطّت رحالها في ما وراء البحار، يقظة لا مناما، وكالشمس في رابعة النهار.

أما الاختيار من ناحية الكيف، فيلاحظ أن خطّة المقيم ليوطي، قد اختارت إطار المدرسين من أهم شيوخ الفقه والفتيا، ومن أهل الحل والعقد بفاس للتدريس بالثانوية، وناهيك بأمثال السيد عبد السلام السرغيني والفقيه أقصبي ومولاي احمد الشبيهي والسيد عبد السلام الفاسي الفهري، والمقصود واضح في وضع المقيم العام يده على مثل هذه الأساطين، فهم الأعمدة التي أراد أن يشيد عليها مستقبل الثقافة الفرنسية لا مستقبل الثقافة العربية. فهؤلاء يشكلون عند الآباء أكبر ضمان لحماية السلوك الديني وتنميته في أبنائهم، ولتحصينهم من أي انحراف أو انعطاف نحو الغوايات والوافدات التي يتعين سدّ الطريق دون وصول عدواها إلى مجتمعنا، وتخريب الوجهة التي نريدها لأبنائنا، وبذلك استُميل الآباء وتأمَّنَ للمدرسة الإقبال.

ونرى بهذا ان كثافة المواد الاسلامية والعربية في برنامج ثانوية مولاي ادريس قد كانت ماثلة حتى عهد دراسة الفقيد إلى جانب المواد الفرنسية، وهي الرئيسية الهادفة عندهم، والجمع بينهما يكوّن ـــ كما هو ظاهر ـــ عبئا ثقيلا مرهقا لقابلية أي تلميذ، وان الرجوع إلى وزنها الثقيل ليسفر عن مخالفة تربوية فظيعة كما هو مقرّر عند أهل هذا الشأن، حيث تكون النتيجة الحتمية أن خمسة طلاّب مثلا من عشرين هم الذين يستطيعون استيعاب الدروس ومتابعة البرنامج، وهذا أيضا اذا أتيح الأخذ فيه بيد هؤلاء الخمسة بمراجعات رتيبة خاصة، أو صادف الحال نشأتهم في بيئة علمية، لها عطاؤها التلقائيّ من غير قصد ولا اجهاد، حيث لا يعدمون المساعد والراعي الموجّه، وهم بهذا يتجلون من الشواذ بحكم هذه الامتيازات التي امدتهم بنشاط عقلي، واحتمال فوق الطبيعي، أما زملاؤهم الآخرون فهم القاعدة في الواقع ونموذج التلميذ الطبيعي العادي، ولهذا فقد عاينا على مرّ السنين أن المتخرجين في العهود الأولى من ثانوية مولاي ادريس وهم على كفاءة في المادة العربية التي تابعوها قبل تخرجهم من الثانوية وبعده، ما كانوا الاّ قلّة قليلة، ومن بينها رفيقنا الراحل الذي عرف بثقافته المزدوجة المتوازنة.

ونرى **ثالثا** من فراهة محصوله العربي ما استفاده من جِوَار سكناه بفاس الجديد، وأفاء على ثقافته العربية بالاثراء والتمكين، وأعني صلته بالمرحوم العالم الشريف مولاي الصديق العلوي، الذي عرف بعلمه الجم، وبملكته الضاربة في مدارك جهابذة المنقول والمعقول، والمتجملة بمحصول وافر في متن اللغة، وبمحفوظ من عيون الشعر، الى اطلاع على فتوح العلم العربي الذي كانت له ومازالت عائدة على النهضة الأوروبية وعلومها

الحديثة. ولقد ساقت هذه المقومات العلمية وطيب الأحدوثة إلى باب هذا الشريف ثلة من جيرانه شبان ثانوية مولاي ادريس، فقد كانوا يتحلقون عليه من حين لآخر تحلق الفراش على الأزاهير، فاعتدّوا بمعارفه، ورأوا في أصالته وعلمه الكمال الذي حدّ من غلوائهم في الافتتان بأساتذة أجانب، جاؤوهم بالجديد في المادة والمنهاج، ليستبدوا باهتبالهم، وليملأوا فراغ أذهانهم.

وفي هذا النادي لاحظت أن الفقيد كان معنيا بوعي الأدبيات والرقائق، وبأشعار الغزليين القدامى من شعراء الحجاز، وكان شعر ابن أبي ربيعة ومسلم بن الوليد وجميل بثينة ممّا يجري في انشاداته، وأعني أنه كان مغرما بالديباجة الناصعة، والتعبير الجميل، والروح الوجدانية، وبالاجمال بالشعر اللطيف المهبوب كما يعبر عنه الأندلسيون، وذلك أصل انعطافه في هذا العهد المبكر إلى الأستاذ الشاعر عباس محمود العقاد وشكري من المحدثين وإلى هيامه بالشعر الأندلسي ومصاحبته لابن زيدون وشعراء طبيعة ذلك الفردوس المفقود.

وبالاجمال فان جو مجلس فاس الجديد قد كانت له عائدته المنتظرة على الفقيد في تقوية الدرس والنزوع إلى التحصيل. كما أن تشوفه إلى الشعر العربي القديم ـــ كما سمعنا في هذه الفترة من حياته الثقافية ـــ قد دفع به إلى طلب متن اللغة، وشد أكثر مطالعاته إلى الأدبيات، ومن مظاهر كلفه بها وغلبتها على اهتمامه الثقافي أنه تاق للقاء الأديب النابه الأستاذ المرحوم محمد بن عبّاس القباج، فرحل إلى الرباط مصحوبا ببعض المعجبين بالقباج من زملاء المدرسة، وهذا الأديب هو الذي افترع باب النقد الأدبي بفصوله التي كان ينشرها في مجلة «المغرب»، فقد أثارت هذه الفصول حركة أدبية، وفتّقت استعدادات وهوايات، وهذه الزيارة التي خفّ بها اليه الفقيد، قد ساندت توجّهاته الأدبية بانسجامها مع مذهب القباج الأدبي، وانعطافه إلى الشعر الأندلسي وما هو من بابته في ديوان المشرقيات، لا سيما وقد توشج الاتصال بينهما وصحّت المثاقفة بتوالي المدارسات الجادّة منذ انتقل الفقيد لمتابعة دراسته بمعهد الدروس العليا بالرباط، فكان يقع في مكتبة القباج الخاصة على طلبته من دواوين الشعر قديمه وحديثه، فنقع غلته منها، وأصبح على مستفيض الهيام بشعرائها.

وأسرعت الأيام في جريتها لتفسح لي معهما في لقاء الرباط، والفقيد يومئذ موظف بادارة الشؤون الشريفة، ويتابع تحضير شهادة ليسانس العربية اثر تحصيله على ليسانس الحقوق، وما من شك في أن محصوله العربي قد كان عدته في الجمع بين الإجازتين في مدتين متعاقبتين. وكانت يومئذ نذر اتساع رقعة الحرب الثانية قائمة،

وآلتها الجهنمية مشرعة، وحرب الدعاية الألمانية تحصد المكاسب حصدا، وتنقل البلاد الرازحة تحت نفوذ الحلفاء من حال إلى حال، وتدفع بنصر الألمان في المسافات والأبعاد، وفي هوى المغاربة قبل أن يشهّرها المذياع، وازاء هذا الهول المستطيل، نهدت الاقامة العامة بالمغرب إلى اعتراض هذا المد المديد، والعهد يومئذ عهد المقيم العام الجنرال (نوكيس) الذي بيّت مهمته في المغرب، وأعلنها ساعة وصوله على تصفية الحركة الوطنية، فاكتظت السجون والمعاقل، واستقصت عمليات القمع كل قابل ودابر، وأحيط بقادة الحركة الوطنية وأنصارها في مختلف المدن والقرى، وعلى عهده غرّب الأستاذ علال الفاسي إلى (الكابون) وأبعد الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني إلى (ايتزر) بضاحية فاس، وعلى عهده أيضا حوّل ماء أبي فكران بضاحية مكناس عن مزارع الفلاحين لصالح أراضي المعمرين، وهو الذي أرسل جيشه على المظاهرات السلمية التي استحرت في مختلف أنحاء البلاد وخاصة في مكناس وفاس، مطالبة بردّ الماء إلى أصل مجراه، وقد انتصب لها الجنرال في فاس على رأس عسكريته ببذلة الميدان، وهجم هجومه الساحق عليها، وكان كلما فتح حيّا من أحيائها، أصدر بلاغا حربيا مدوّيا إلى أن وقف أمام بوابة مركز الحركة الوطنية في غيابات المدينة، وركز على واجهتها الراية المثلثة الألوان.

وبنفس الهمة وقف الجنرال وقفة المهارات ليضع حدّا لدويّ إعصار الدعاية الألمانية التي غزت الألباب وكادت تذهب بهيبة فرنسا في المغرب إلى غير اياب، فاقتضاه التدبير ان تفزع الاقامة العامة إلى الحسم بالمجابهة، وبعدّة دعاية تبكم ترّهات المذياع الألمانية، كما ستفحم آلةَ الحرب الفرنسية أصوات المدافع الألمانية، فلا يسمع لها حسيس — كما ينتظر — في الأيام المقبلة.

وبهذا التخمين وقع الجنرال على خطّة فتح مركز معصّب باسم «مكتب المستندات والبحوث الاسلامية»، ونُفِّذ النطق المقيمي في الحال لغرض المبادرة باستدراج المتأثرين الذين مالوا ميلا إلى دعاية الألمان، وللرّد على الدعاية بأوسع منها حتى لا تسري في الواجهة المغربية بوادر الإحباط، وأُشرع هذا المكتب المنقذ من الضلال بالسرعة المطلوبة في الحال، واتخذ له في الحال مستودع خشبي من ملحقات مرأب الإقامة العامة، وفي مواجهة بنايتها بالذات، حتى تكون صلة المقيم العام به مباشرة في كل آن، ونَصّب على رأس هذا المكتب ضابطاً بدرجة قبطان من سلك الحربية لا من سلك التراجمة الضباط الذين كانوا تابعين لإدارات ما يسمّى بالشؤون الأهلية، وكان قصد المقيم أن ينصّب على رأس المكتب من لا تشمّ بمظهره رائحة الاستعلاء في أولائك التراجمة الذين كانوا بحكم انتشارهم في الإدارة المغربية مظهرا صارخا باستعلاء الحماية، وكفالتها أمر هذه الأمة.

ولهذا جاءت الخطة بالقبطان العسكري الذي كانت تربطه بالمقيم علاقة شخصية، وقد كان في شرخ الكهولة، وضّاء الطلعة، ومثاليا في ثقافته الأدبية والفلسفية، وفي سلوكه الديني، وتشبّعه بالأمجاد الفرنسية، وفي تجمّله بالتلطف والإيناس، وتلك كلّها مقومات رأتها سياسة الإقامة ضرورية لمن سيكون على رأس مجموعة مغربية مثقفة من خريجي المدرستين، وهي التي ستتولى بنفسها رجم دعاية العدوّ بالحديث عن الأمجاد الفرنسية والتحضر الفرنسي، والاشادة بالثقافة الفرنسية وبالفنون وما إليها، وكل هذا مع تجنّب ما يشير إلى محامد العمل الفرنسي في المغرب حتى لا يحجم المغاربة الشبان عن الالتحاق بالمركز، وحتى لا يداخلهم شعور بالغضاضة. فكان التدبير أن يستدرجوا اليه بما يفسح لهم مجال العمل فيه بكل ارتياح.

وفتح القدر سجلّه ليدرجنا نحن الثلاثة في هذه البراكة الحالمة : المرحوم (بّا حنيني) وعبد ربّه، والأديب المذكور المرحوم محمد بن عباس القبّاج، كما كتب لنا أيضا أن يكون عملنا موحداً في التحرير العربي وفي مكتب واحد أيضاً، ويتعلق الأمر بمقالات مركزة على مطالب الاقامة الآنفة الذكر، وكان أكثرها ينشر بتوقيع مستعار خارج المغرب، وفي الغالب بتونس والجزائر، وأحيانا بمصر. وقد طعمت الجماعة بالمستشرق المعروف الأستاذ «لاووست» الذي جنّد عند قيام الحرب برتبة قبطان، وأحيل على العمل في مهمة مكتب المستندات، مثلما أحيل آخرون من طبقته على مهمات أخرى حتى لا تأخذهم الحرب بثفَالِها.

وأُلحق بالبراكة اخوان آخرون على رأسهم صديقا محمد بلقزيز، متعه الله بعافيته، وقد كان ترجمانا بالمحكمة الفرنسية، والسيد عبد الحميد الحجوي نجل الوزير الفقيه الحجوي، وأُسندت إلى هؤلاء جميعا أعمال الترجمة. وعصّبت هذه المجموعة الثانية بالأستاذ خياط وهو لبناني مسيحي معروف بعمله في التدريس بالرباط ويمتاز باتقان الترجمة وبالتحرير العربي، واذا لم تخني الذاكرة فقد حظي بالتدريس في المدرسة المولوية.

ويسبق الى ذهني دائما كلما ذكرت هذا العهد، فقيدنا الأستاذ بّا حنيني، فقد كان على ما عرفت عنه من وقار حركاته، وحتى سكناته، ينصب نفسه لمراجعة جصيلة أعمال اليوم، والاطلاع على إضبارات المحرّرات الجاهزة للنشر، وذلك — كما يظهر — مخافة من أن تكون هناك يد تعبث فيها بالزيادة أو النقصان بمّا يغيّر مقاصدها، أو يخرج بها عن مجراها إلى ما يرضي السياسة الفرنسية ولا يلتئم مع اتجاهاتنا الوطنية.

ومع وضوح القصد من الفقيد فإن الإقدام على هذه العملية كان يدور — كما

يبدو — بين حالتي العزم والضّعف، وينم بأية حالة منهما على أن الفقيد لم يكن على ارتياح من عمله في (البراكة) والواقع أنه كان شعورا مشتركا بيننا، ومستحكما في طوايانا، وكنا نخفّف من وطأته على النفس بما نقرّره ونتوق إليه من أن عملنا موقّت، فهو منوط بظروف الحرب، وحين تضع أوزارها فربنا الرحيم يفعل ما يشاء ويختار لنا.

وهكذا كنا في فترة تساؤل وانتظار، ولكن أُلفتنا نحن الثلاثة، قد كانت تُسرِّى عنا، وتؤمِّن لنا هناء نفسيا أتاح لنا أن نُخْلِدَ إلى مراجعات أدبية طوال أيام الأسبوع، بما فيها الجُمَع والآحاد، فكنا نُيَمِّم منزل صديقنا القباج الذي تقوم فيه مكتبة من ناطحات السحاب فقد توفّرت على طِلْبتنا من مجموعة أمهات كتب الأدب، ومصادر لغته وتاريخه، واتجه أَرَبُنا في بادىء الأمر إلى كتاب (الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني)، فقد ربطتنا نحلة الأدب بهذا الواعية الحُفَظَة، الجامع بين سعة الرواية والحذق في النقد والتقيم ورهافة الاحساس بما تكنه خواطر الشاعرين والناثرين، ومن فيض ما ذكر به قول التنوخي الباقعة في تاريخ الأدب العربي : «انه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار، والأحاديث المُسندة والنسب، ما لم أر قط من يحفظ مثله، ويحفظ من علوم أخرى مثله، ومنها اللغة والنحو والخرافات والمغازى والسّير، ومن ءالة المندامة الكثير، ومن علم الجوارح والبيطرة إلى نتف من الطب والنجوم والأشربة» وإلى هذا الجانب يقول عنه الثعالبي في «اليتيمة» : «وله شعر يجمع اتقان العلماء واحسان ظرفاء الشعراء»، واحسب ان هذا قُلّ من كثيرِ مَا قيل ويقال في حق هذا الواعية الذي ليس لكتابه نظير، وقد وقعنا حقّا في اسفاره العامرة على ما يسلى ويفيد، ويواتي أَرَبنا النّهِم بخلوص مادته الأصلية للغناء وأجوائه، فمبناه على مائه الصوت التي اختارها المغنون للخليفة الرشيد بما احتوت عليه من النغم والايقاع على ءالات تعدّدت، وبأدائها اختلفت واتفقت !! وما غنى به غير أساتذة التلحين، وبارعات القيان المغنيات في ساعات الأنس وتجلياته ءاناء الليل وأطراف النهار، ومع اتساع روايته بما يشاكل من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين، وبكل رائق مما نثر من مطولاتها ووحيداتها، وقطعها في ساحة الملوك وولاتهم. وما قيل في انساب العرب، ومشهرات أيامهم وعجائب اخبارهم، وغُرر قصصهم، و لم تقف جَرْيَة املاءاته عند الماضي والماضين وانما جاء بأخبار عصره من معاينة واطلاع، فكان شاهد عصره العباسي بظواهره وخفاياه. وان التشوق للعودة إلى هذا الكتاب الذي كانت لثلاثنا فيه مراجعات فردية ومطالعات عابرات، قد حدانا إلى الأخذ به مؤانسا ومعلّما في ظروفنا الحالية، وهكذا صحّ الرأي على أن نداول بين أبي الفرج الأصبهاني في رواية أشعار ديوان العرب في الغناء ومجالس الأنس والطرب، وبين أبي زكرياء الخطيب التبريزى في شرحه لـ«ديوان العرب» الذي

اختاره شاعرهم وحكيمهم أبو تمام من شعر حماستهم ومواقف نزالهم. وقد كان شرحا لغويا دفّاقا، أفاء علينا من اشراقات توضيحه بما لا مزيد لمُسْتزيد، ولم تكن بيدنا في ذلك التاريخ بجانب شرح الديوان المطبوع بهوامش لا تُسمِن ولا تُغني غير نسخة مصورة عن خطّية أصلية شامية ظَفِر بها زميلنا المرحوم القباج، ولا تحتوي إلاّ على نصف هذا الشرح الفياض. فكنا نتناوب التلاوة فيها، وننحني لنتبين ما انبهم بالتصوير أو ابيضّ من بعض كلماتها حتى نروى الغلة بالنهل من فيض افادات وتحقيقات الخطيب رحمه الله، وهمّك به من باقعة اللغة، المعروف بضلاعته وابداعاته في شرح دواوين شعرها كديوان الحماسة الذي بيدنا، والقصائد العشر الطوال، والمفّضليات، وديوان أبي العلاء واشتهر بالرواية عنه من المشارقة والمغاربة أمثال الخطيب البغدادي صاحب التاريخ، وأبي منصور الجواليقي وابي الحسن سعيد الخير ابن محمد بن سهل الأندلسي وآخرين ممن عبُّوا ونَهلوا من قَليب لغوياته وتحقيقاته.

ولقد كان الفقيد معنيا بملازمة هذه المدارسات التي كانت مددا له في محصوله العربي واتجاهه التراثي، كما أفاءت علينا بمثاقفة مِعطاء مع هذا الفقيد، وتعتبر ثمرة طبيعية لتلاقي اتجاهين مختلفين في منابع ثقافتين متباينتين، ووجهتين في المناهج متضاربتين. لقد كنا نلاحظ أن الفقيد رحمه الله كان يتلمّظ مذاق الأدب القديم شعره ونثره، وينظر إلى التبريزي في شروحه التي كنا نلمّ أحيانا بها نظرة خاصة بين شراح الشعر، ويستملح منها خاصة من يجنحون أحيانا كالخطيب في شروحهم إلى طريقة عرض الشعر منثورا في أبهة منضوده بغير ميزان ولا قافية، وذالك ما كان يهفو إليه في آثار المترسلين التي كان له هيام بها، فاحتذاها وعرف بالاجادة فيها.

وبينما كنا هكذا في دنيا أدبنا منغمسين، وعن أشغال البراكة متجافين، اذا بِنُذُرِ الحرب الدائرة توافينا بتطوراتها المباغثة، وباصابة فرنسا بمحنتها الفاجعة، وكانت النازلة بها في الشهر السادس من سنة 1940، وما ان حلّ بالبراكة يقين خبرها حتى شلّت الأشغال بها، وأصفت القرائح المحرّرة، وهمدت الآلات الواقنة، وسكن هاجس فقيدنا، فاستراح من عمليات تفقده الدائبة للمحرّرات الجاهزة للاصدار، وغدا مُكِّباً على مكتبه، منصرفا تارة إلى ابن زيدون شاعره المفضّل، والذي كان يحفظ ديوانه عن ظهر قلب، أو إلى أستاذ العصر وباقعته، الشاعر عباس محمود العقاد، فهو معه في ديوانه الأول، أو في كتابه عن ابن الرومي الذي كان يلمّ به من حين إلى آخر، وتارة يجنح إلى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» أو في «قصّة أديب» التي كان يتلوها ويعيد. ومازلت أذكر انه خفّ كعادته لأشاركه الاعجاب بالدكتور العميد في تناوله لقصيدة أبي نواس التي يقول في مطلعها :

صلّ على الخمــــر بآلائهـــــا وسمّهـــــا خير أسمائهـــــا
لا تجعـــــل الماء لها قاهــــرا ولا تسلطهـــــا على مائهـــــا

فقد عمد الدكتور العميد إلى تقديم القصيدة بعنوان «صلاة» ثم سار على هَدي روح العبادة يبين عن الصلة بين الشعر وروح الشاعر وكأن القارىء على مسمع منه في الحال وهو يوضح بنبرات عباراته أن هذا الجوّ الذي يوحي به مطلع قصيدة أبي نواس هو الذي عمل عمله في الابداع، وحقّ بمثلها للعرب، وقد كانوا على خيال شعري شفاف، ان يتخيلوا لشعرائهم تابعين من الشياطين الملهمين بكل اقتناع.

وهكذا كان هذا اللقاء بيننا في البراكة صدفة رابحة بلقاءاتنا في مدارسات دائبة، كنا نفزع إليها تملّصا من جو العمل الذي لم تكن له صلة باهتماماتنا، فكان نَصْب العين على الدوام أن ليس من المنتظر ان تضع الحرب أوزارها، وان يظل لمكتب المستندات والبحوث الاسلامية هذا محلّ من الاعراب، فلم يكن من أشغاله حتى في بحبوحة الحرب ما كان يعد حقّا من البحوث فضلا عن الاسلاميات، حتى تلك المبارزات التي كنا نحرّرها ان بالصدق أو بالبهتان الصّراح، فلن يكون لها بعد هذه الهزيمة المنكرة موضع ولا موضوع بحال من الأحوال.

وشاء القدر ان لا يطول الانتظار، فسرعان ما أتيح لزميلنا الفقيد أن يُحال على وظيفته الأصلية بادارة الأمور الشريفة (تابعة لأشغال الحكومة المغربية) فغادرها مُسرِع الخطى وكأن البحر من ورائه قد طغا على مدينة الرباط، فألمت بنا بعده خشية عارمة من أن نظل أحلاس عمل البراكة الذي لا يعرف له يومها اتجاه، ومن يدري وقد مدّ المقيم العام العسكري يده للألمان، واندفع لصد النزول الأمريكي على الشاطيء المغربي من غير استيذان ملك البلاد، أفلا تدفع به عسكريته المفجوعة اليوم أن يُعيدها جَذَعَة بجماعة البراكة للاشادة بعبقرية الألمان الذين كنا قبل أيام نضربهم بقاصمات الأقلام، ولكن الله سَلَّم، فقد سار بنا قَدَرُنا نحو اتجاه سليم، وتم هذا في نطاق نزوع المقيم العام إلى سياسة الحسنى، والتحرّك لتلطيف الجو بالمغرب، ولم يكن له اليوم بُدّ منها، وقد تدهور فيه المقيم العسكري، وألحت عليه غائلات تورطات طمست فيه النُّهْية، ورمته بالاحباط، فانتفض فيه المقيم السياسي الذي يسدّ الثغرة الراهنة بالتي هي أحسن، وحتى لا تذهب يقظته بخسا أمام تسلسل انتفاضة الحركة الوطنية إلى انتفاضة مغالية، فلن تصح له معها دَعَة في الظروف الحاضرة والآتية، لا سيما وقد تماوجت في أذنه أصداء مخابراته بجنوح خريجي ثانوية مولاي ادريس بفاس واليوسفية بالرباط، ولربما حتى تلك القابعة في آزرو والمأخوذة عند الفرنسيين بالاحْضان، إلى الارتباط بالحركة الوطنية،

والأخذ بنزعات الجامعة القروية الجامعة الشنئان، وأمام لَهبة الحادث الجلل، نَهَدَ المقيم لها بهدوء فرضته الظروف، إلى تحقيق مشروع سياسة استدراج، من شأنها أن تُسلِس الجموح برفد فسيح يَدرأ الغائلة، ويُطفيء اللاّهبة. وكالمفتون حيال رؤيا تموج بالاغراء قضى بتنفيذ مشروع يقوم على اختيار نخبة من خريجي هذه الثانوية، ومن خريجي جامعة القرويين التي طغت في أبنائها النزعات، والمقصود أن يُستدرجوا للتعيين في مناصب مخزنية، فهي التي ينظر إليها ويتوق كل من يتطلع إلى جلوة الوظيفة السنية في رحاب وزارات ورياسات السدة الملكية، والهدف من هذا هو تلقيح (بنادق المخزن) بهذه العناصر الشابة إلى جانب الشيوخ الذين تحتضنهم الوزارات في نطاق التقاليد المخزنية والأصول المرعية، وقد تنفع التجربة، فتحد من مستفيض الغليان، واذا هي نَبَتْ عن المأمول، فأقل ما ينتظر منها احداث شَرخ في اتحاد الوجهة الوطنية، فلن تظفر بعدها بصفٍّ مرصوص.

وما قُدِّر كان، وجاء الراهن والقابل على عكس مراد السياسة الفرنسية، كما أثبتت الأيام، ففي نطاق هذه السياسة الفرنسية الحالمة كتبت الأقدار ان ألتقي مع الفقيد كَرَّةً أخرى على صعيد القضاء بالمحكمة العليا. فأسند إلينا مشروع مقابلة ومقارنة بين فقه البيوع في المذهب المالكي والقانون الفرنسي. وكان القصد توطيد العمل بظهير العقود والالتزامات الذي كان الاعتماد عليه بالغرفة المدنية في اصدار الأحكام. وما كانت صورية هذا التكليف بغائبة عن البال، فما هي — كما هو واضح — إلاّ محاولة قُصِد بها كَبح جماح هؤلاء الشبان الطارئين على المحكمة. وقد كنا نعرف ان المندوب المخزني بالمحكمة العليا — وهو كولونيل من ضباط الترجمة — يسيطر سيطرة كاسحة على الأحكام مدنية وجنائية.

وبانتساب الفقيد ابًّا حنيني ورفقائه إلى المحكمة العليا، أصبح يروج ان المندوب المخزني يتجاوز صلاحياته، فلا يَحِقّ له أن يكون في ءان واحد القاضي ووكيل الدولة، وحق المندوب المخزني منوط بصلاحيات وكيل الدولة فلا يتجاوزها وله أن يستأنف لدى صاحب الجلالة ما لا يوافق عليه من الأحكام، وهذا هو اختصاص وكيل الدولة في مختلف الأنظمة القضائية، وهي حقائق لم يكن لها رواج إلاّ عندما تعزّزت المحكمة العليا بهؤلاء الشبان الذين كانوا مُدَرَّعين بمعرفة الحقوق والفقهيات.

وأذكر أن الفقيد الأستاذ ابّا حنيني، كان صاحب فكرة الخروج إلى العَلَنية بهذه الحقيقة، ولكنه بحكم طبيعته في التروي والتأني كان يراجع رفقاءه ليَظفر بتصديقهم وعزماتهم. وهكذا تصدى لها المرحوم الأستاذ عبد الكبير الفاسي، وفي جلسة الأحكام

أعلنها. لكن المندوب المخزني قابلها ببرود، فلم يعلن تشبثه بموقفه، و لم يتخذ أي إجراء في حق من قام بهذه المعارضة، اذ من شأنها، إن علا صوتها، ان تحدث شرخا في التقليد المتبع بالمحاكم المغربية، وانما تمسك بالاغضاء عن القضاة الجدد، فلم يعد له تدخل في القضايا المُسندة إليهم، وأحجم بطبيعة الحال عن المعارضة التي تقتضيه الاستيناف لدى صاحب الجلالة، وذلك حرصا من سياستهم على أن تبقى تلك الاحالة على السدة العالية مجرد شعار لاحالة قضائية هامدة. ودامغة أخرى، فقد اتجهنا إلى المحامين وهم في التقليد المرعي بالمحكمة يترافعون باللغة العربية، وبها يقدمون المذكرات، فعرضنا عليهم مباشرة ان يقدموا للمحكمة جميع أوراق ملفاتهم من المستندات وتوابعها باللغة العربية، ويتعلّق الأمر بأن يسندوا الأصول اذا كانت بالفرنسية أو غيرها بنسخة مترجمة ترجمة رسمية، وقد تقبلوا منا هذا ورأوه في صالح التعجيل بالأحكام في قضاياهم، ومن التراتيب المرضية.

وحتى هذه، لم يسع المندوب الفرنسي الاّ أن يسكت أمامها على امتعاض، فصار الملف القضائي بالمحكمة العليا عربيا من البداية إلى النهاية.

لقد كانت لفتة من الفقيد الأستاذ ابّاحنيني، وعزمة من الفقيد الأستاذ عبد الكبير الفاسي، وقد استردّا بصرامتهما الهادئة والهادرة، حقّا كاد يضيع بين غفلة أهله ونزوة غاصبه، وهكذا الحق بين اقبال وادبار، والعبرة في هذه أن المنتزى عل الحق كان متدثّرا بحصانة الحاكم وسطوة الغالب، فلم يزد على أن بلع ريقه وصار في دربه وكأن كل ذلك لم يكن، وهكذا أقبرت الدّامغة في محلّها، وظل الزمام بيده مرتجفا في الأيام الأولى.

وقد صدّقت الأيام ما قدرنا، فقد أدرجت أسماء الجماعة في القائمة السوداء، وفي طليعة من سَتُطَهَّر منهم مراكز الوظيفة، ومن مآلهم ياخذ العبرة شبّان جيلهم فلن يتجاوزوا بعدها تراتيب أنظمة الحُماة.

وهكذا لم تُرتَجَل في حقنا محاولات من هذا القبيل، وانما كانت ترصد لها ظروف ضربات لا تلين، إلى أن كان ما قدّر ونزل بنا من امتحان عسير كما سنعرفه بعد قليل.

وباضافة شغل المقابلة والمقارنة المذكور سلفا إلى أشغال ملفات الأحكام لم يعد لنا في الوقت مُتَّسع يفي بمطالبنا الشخصية في مدارساتنا الليلية والأسبوعية، ولا سيما وقد طرأ في نفس الوقت تعيين زميلنا الفقيد مدرّسا بالمدرسة المولوية، وقد انتخب سنة 1942 لها من قِبَل جلالة مولانا الامام محمد الخامس، ووقع عليه الاختيار للتدريس في الفصل الذي يتابع فيه دراسته يومئذ صاحب السمو الملكي مولاي الحسن، وقد جاء اختيار الفقيد كما لاحظ الجميع عن تَخيُّل صادق ومضبوط لواقع المُقوِّمات المطلوبة من الخلائق والطباع لأستاذ التلميذ الموهوب الذي تتحرك سَليقته بموروثات طَبَعَتْه على

أسمى الخصائص والملكات، ونحن زملاء الفقيد نعرف من قريب ـــ كما يعرف البعيد ـــ أن صرامة الخُلق، وحاسة الواجب لدى هذا المدرّس الكامل المقومات قد كانتا معبرتين عن أصالتهما في شخص هذا الفقيد الأستاذ، تغمده الله بواسع الرحمات.

وقد تطلّب هذا التكليف وقفة مؤقتة في مدارساتنا وذلك لضرورة توظيف الوقت تجاه عملنا المشترك بين مشروع المقارنة التي عهد به إلينا وبين أشغال ملفات المحكمة العليا وبين مدارساتنا الليلية والأسبوعية، هذا إلى ما قد يجِدُّ من أشغال ملكية خاصة.

وحينما أخذنا بزمام الأشغال بعد أيام معدودات، وانضبطت الأوقات، وبانت لنا سعة الوقت لممارسة أشغال هذه المأموريات، جاشت عندها في صدورنا رابطة أسمارنا الأدبية، فانقلبنا بلَهفة عارمة إلى مباهج محضر أبي زكرياء الخطيب في سديد تحقيقاته، وفيض املاءاته، وإلى أضواء ليالينا مع أبي الفرج الأصبهاني على غناء عُلية، وترانيم مزمار أخيها المهدي، وبارعات نقرات أستاذَيْ الغناء الموصلين ابراهيم واسحاق، ويا ما كان أوسع رواية أبي الفرج التي تزيغ عيوننا الساهرة نحو قيانه المجدولات، والشيخ يُنشِد مخمورا أو كالمخمور قول عمرو بن الاطنابة :

يتبراريـــن في النـــعيم ويصبـــ ـــبْن خلال القرون مسكا ذكيا
انما همّهــــــــنّ تحلّيـــــــــ ـــن سموطـــا وسنبـــلا فارسيـــا
من سموط المرجان فُصِّل بالـدّ ر فـــــأذهِب بحليهن حلّيـــــا

ويا للعجب، فان هذا الشيخ المتصابي في رواياته التي ظلّ خمسين حَجَّة بالتمام والكمال وهو منغمس في محضر ومخبر ناعمات القيان في تغريدهن وعزفهن، ونسمات روائح الجنة تعطو من شبابهن، وباصرتاه لا تريمان عن سموط المرجان على خصورهن، هو هو بكل قسماته الذي جاء عنه في كتاب أبي هلال الصابي في أخبار الوزير المهلّبي أنه : كان وسخا قذرا، لم يغسل ثوبا منذ فصّله إلى أن قطعه، حتى أنه لم يكن ينزع عنه درّاعة يقطعها إلا بعد ابلائها، ولا يطلب غيرها مدّة بقائها، ومع ذلك فقد كان منقطعا إلى الوزير المهلّبي، ومن ندمائه وخاصّة غاشيته، مع أن المهلّبي كان عزوف النفس عن مثل هذه الأسباب إلاّ انه كان يتكلف احتمالها من أبي الفرج، وكان هذا الوزير من نظافته اذا أراد أكل شيء تناوله بالملعقة لا باليد، وهو تقدير سابغ غَطًّى على مباذل أسمال أبي الفرج فما عاد الوزير يرى فيه بباصرتيه غير زينة بالنقاء والبهاء، وأحسب وهو ينظر إليه بالبصيرة انه لو تحسّس بيده ملبسه لما لامس غير بهيّ المخمل، الصادق المظهر والخبر.

بهذا تداعت الأفكار والأخبار ليثب إلى أذهاننا سحبان البلاغة أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في جمالية سابغة، وبداعة مشرقة، تتداعى أمامها شائنات خلقته صغير الوجه ذميمه، صغير أذنيه الناتئتين وراء صدغيه، وبارز الجبهة، دقيق العنق، جاحظ العينين، ولكن سرعان ما تنكشف هذه الخلقة أمام بهجة الرؤية النافذة إلى مجالي الجمال ورؤى الأحلام على مر الأيام، فما تراءى في غير جلوة الجمال، وفي قسمات أسبل عليها بيانه النضارة والغضارة، ونوّرت طلعته شموس معرفته المشرقة، فصدّر في ديوان الرسائل على أيام المأمون الذي أعجب به وفتن، ورأى من فضله ما رأى، فشهد له به على جميع غاشية مجلسه، وخدام ديوانه، ولكنه غادره بعد ثلاثة أيام، وقيل عنها انه لم يحتمل رتابة الديوان، وفضّل البراح على ثواء تكتنفه الغمزات، وخساسات شركاء المهنة التي تضرب في كل مجال بالقيل والقال — وبالرغم عن طيبوبته قال عن جفوله غير المنتظر : ورأيت قوما قد صقلوا ثيابهم، وصفوا عمائمهم، ووشوا طُرُزَهُم، ثم اختبرتهم فوجدتهم كما قال الله تعالى ﴿«فاما الزبد فيذهب جفاء﴾»، ظواهر نظيفة، وبواطن سخيفة، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون». وسيتاح لنا في حديث تال، أن نشير إلى أن ديوان الخلافة لم يستغن عن معرفته ومهارته، فكان يطوقه بالمهمات خارج الديوان، وغدا المدبر القريب البعيد، وصاحب الميزة التي جلّت عن الاعتبارات المتعارفة والمقاييس، ولقد صحت له من بعد خلافة ابراهيم بن عباس الصولي في ديوان الرسائل، وظفر به في ديوانه الوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات، وزير المعتصم والواثق والمتوكل، وهو هو أبو عثمان الذي تأبّى على ديوان الخليفة المأمون، وهي لعمري صلة الأدب فعلت فعلها من غير احتراس في اظهار وثاقة الصلة بين أديبي زمانهما بلا خلاف، وتوالت التجلات ومعارج القمم، فكتب الفتح بن خاقان إلى أبي عثمان : «ان أمير المؤمنين يجد بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه»، وقد روى عندما حمل نبأ وفاة أبي عثمان إلى المعتز بالله خليفة بغداد، صرخ في فزع : «لقد كنت أحب ان أشخصه إليّ ويقيم عندي» وهي اعتبارات تثب به إلى الأذهان من وراء حديث الأيام، في جمالية المظهر والمخبر كما شاء الحظ.

وازاء هذه الحظوة في قصور دواوين الخلفاء والوزراء، في حالتي القرب والبعد على السواء، ترفل صفحات مؤرخيه مزهوة بتقريظ نفثاته التي تجيز بسحرها المُحال، وترفع الشبهات عن ما أباح وأجاز، ولا يراه قارئه الاّ على رطابة عود، وجمال مشهود ورواء، والله يوتي فضله من يشاء، ويثب إلى الذهن في المقام من ومضات جماليات أبي عثمان ما رواه أبو الفرج الأصبهاني من حديث له عن عبد الله بن جعفر الوكيل قال : «كنت يوما عند ابراهيم بن المدبر، فرأيت بين يديه رقعة يردّد النظر إليها، فقلت

له : ما شأن هذه الرقعة، كأنه استعجم عليك شيء منها، فقال : هذه رقعة أبي عثمان الجاحظ، وكلامه يعجبني وأنا أردّده على نفسي بشدة اعجابي».

وقد لاحظنا لشيخنا أبي الفرج الأصبهاني تشوفا خاصا في كتابه «الأغاني» إلى رواية ما يتصل بأبي عثمان الجاحظ، وكأنه يحرص على تجميل صفحات كتابه العظيم واغناء مروياته ونظرياته بما ينقله من بليغ القول وسديد الرأي عن أبي عثمان.

ومن التقاريظ التي عني المؤرخون القدامى بنقلها وخسفت أمامها الشائنات ما أورد ياقوت في «معجم الأدباء» من قول ثابت بين قرة وهو من لا عرق له ينزعه إلى عروبة يكبرها في الجاحظ ويعظم مقامها حين أعلن مهتز الأعطاف:«انني ما أحسد هذه الأمة إلاّ على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب والثاني الحسن البصري، ويذكر وصفه، والثالث أبو عثمان الجاحظ». ويقول عنه : «خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدره المتقدمين والمتأخرين ان تكلم حكى سحبان البلاغة، وان ناظر ضارع النظام، والخلفاء تعرفه، والأمراء تصفه وتنادمه والعلماء تأخذ عنه».

ومن مرويات ياقوت قول أبي الفضل العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس أما الفقه فعلى أبي حنيفة، وأما الكلام فعلى أبي هذيل العلاف، وأما البلاغة والفصاحة واللّسن والمعارضة فعلى أبي عثمان.

ويقول عنه ابن نباتة في «سرح العيون» : انه امام الفصحاء والمتكلمين الذين ملأت الآفاق أخباره وموائده حتى قيل : ان ما فضّل الله تعالى أمة محمد على سائر الأمم. ويقول ابن قتيبة في كتابه : «مختلف الحديث»، وهو في طليعة من قلّد الجاحظ في رواية الأخبار وترصيعها بالنكت والنوادر المسليات : ان الجاحظ آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة حتى انه ليعظّم الصغير ويصغّر العظيم.

وأخيرا وليس آخرا، فقد تصدى تلميذه النابه الذكر في القرن الرابع أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء إلى تقريظه واعلان فضله في كتاب سماه «تقريظ الجاحظ»، وقد عني ياقوت في معجم الأدباء بالنقل عن هذا الكتاب في غير ما مجال، ومن ذلك قول أبي حيان : «سمعت ابن توّابة يقول : أول من أفسد الكلام أبو الفضل لأنه تخيّل مذهب الجاحظ وظن انه ان تبعه لحقه، وان تلاه أدركه، فوقع بعيدا عن الجاحظ قريبا من نفسه ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبّر بأشياء لا تلتقي عند كل انسان، ولا تجتمع في صدر أحد وهي بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتيح قلّما يملكها واحد وسواها مغالق قلّما ينفك منها أحد».

وتوالت على هذا المنوال تقاريظه مُعزِّزةً وافِر رَيع علمه، وصفاء دينه ونقاء طَويّته، ثم سرعان ما فاجأتنا سهراتنا الطويلة مع مختلف مصادر ترجمته بحسرة عاتية باغية، فلقد استحرت الحملات الناهكة مندّدة بأبي عثمان المعتزلي الذي مرق، وتثير عليه العامّة بدعوى زيغه عن الدين، وازدراء العُبَّاد الزاهدين، واطلاق كلمة الصوفية على جماعتهم من باب التهويل لنحلتهم في لباسهم ولبوسهم.

وكاد يُخيّل إلينا إزاء هذه الحملات المدوّية أن الشيخ انزعج لها في مرقده بين الصفائح والتراب، ولكن الواقع أن سخريته ــ كما عرفنا من قبل وسنعرف من بعد ــ قد جنّبته الضعضعة والالتياع بالنسبة للقدماء أو المحدثين، فما عبّر عنها بأكثر من أنها رشقة حَسَد وهراء، وخاصة في مثل قول القاضي محمد بن أبي دؤاد : ((أثق بظرفه ولا أثق بدينه)). وبسخرية مثلها جهر بها قيد حياته مُتبطِّنة برشقة الحسد التي عبرت عنها هذه الأقوال التي تهاوت إلى غير معاد، فقد قال عنه ثعلب : ((انه كان كذابا على الله وعلى رسوله وعلى الناس))، ومثل التي قالها أبو منصور البغدادي حيث قذفه بالجهالة والضلالة، وجرّده من كل معنى انساني، وأبو منصور هذا هو الذي تخنزر وقال فيه هجر بيته الشهير :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ما كان الاّ دون مسخ الجاحظ

وعنّف عليه ابن الراوندى في كتابه : «نصيحة المغترين» واتهمه بالافتراء والباطل، متطلعا إلى نقض كتاب «فضائل المعتزلة» لأبي عثمان. ويقول عنه ابن حزم : «انه أحد المجان، وأهل الضلال، وغلب عليه الهزل ومع ذلك فاننا ما رأيناه في كتبه قد تعمد كذبة يوردها مثبتا لها، وان كان كثيرا الايراد لكذب غيره». والملاحظ ازاء هذا ان للأندلسيين صوت اعزاز وتقدير يخالف صوت ابن حزم على ما فيه من احتراس مبين، فقد روى ياقوت ان اندلسيا قرأ بجزيرة بلده كتاب «البيان والتبيين»، و«رسالة التربيع والتدوير»، فهاجر متطلعا إلى لقاء أبي عثمان، وأن هذا الأندلسي أعلن أن آخذ العلم بالمشرق قد كان يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان. ويقول ابن وحشية حسبما يقرر قولته ابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان» : «ان الجاحظ يكمل الشيء وينقضه، فتجده مرة يجنح للعثمانية على الرافضة، ومرة للزندقة على أهل السنة، ومرة يفضل عليا ومرة يؤخره».

وازاء هذه الحملات الناهكة في نطاق الدين والعقيدة، تطاولت على قمة أبي عثمان البيانية أصوات مدخولة، أسفّت بمدخول القول، فلم تعل لها نبرة، فهذا الباقلاني وما أدراك، وهو في الكلام على إعجاز القرءان العارم المعرفة والنهية، نراه يضيع عن نفسه وهو يفيض بهذا الهذيان عن أبي عثمان حين قال : «قد يزعم زاعمون ان كلام

الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ منه، والباب الذي لا يذهب عنه، وانت تجد قوما يرون كلامه قريبا، ومنهاجه معيبا، ونطاق قوله ضيقا، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع إلى ما يوشح به لكلامه، من بيت سائر، ومثل قادر، وحكمة مهدّة منقولة، وقصة عجيبة مأثورة، واما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة، وألفاظ يسيرة» إلى آخر كلام له ناقض به هذه الافتياتات.

وجاءت نقدات بديع الزمان الهمداني معبأة في مقامته المعروفة بالجاحظية. ولقد كان حقا بديع زمانه وفرد دهره الذي لم يُلْفَ نظيره كما دبّج فيه غير ما واحد من مترجميه، فصاحب «يتيمة الدهر» يشيد بذكائه، وبقريحته وسرعة خاطره، مع شرف الطبع وصفاء الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكته، و لم يرو أن أحدا بلغ مبلغه من لبّ الأدب وسرّه، ويزيد صاحب (اليتيمة) انه كان مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، عظيم الخلق، شريف النفس.

وجاء أبو اسحاق الحصري من آخر دنيا المغرب ليقول فيه «ان اسمه البديع طابق مسماه، ولفظ طابق معناه، كلامه غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد يسرقه لُطفا، والهوى يعشقه ظرفا».

والذي يبدو أن أديب الدنيا هذا وجميل المحيّى وخفيف الروح، والعظيم الخلق وشريف النفس، والحسن العشرة، قد تبرج في مقامته الجاحظية محروما من كل ما زانه به هؤلاء المتغزلون في طلعته البهية، وما كان رب هذه المحاسن غير الحسود والجافي، والبشيع الصورة وهو يتحدث عن بلاغة الجاحظ بهذه اللهجة الفظة الغليظة :

«ان الجاحظ في احد شقّيْ البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، و لم يُزر كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعرا رائقا، قلنا : لا فهلموا إلى كلامه، فهو بعيد الاشارات، قريب العبارات، قليل الاستعارات، منقاد لعريان الكلام يستعمله، بقدر من مُعتاصه يُهمله، فهل سمعتم بكلمة غير مسموعة، أو لفظة غير مصنوعة».

وسنرى عند ذكر الاستعارة، واللفظ المصنوع وغير المصنوع، أن هذا البديع باسمه وبطلعته لو ذكر قصة تاريخ الاستعارة وغيرها من ألقاب البلاغة، ولو فتح عينيه على الصور التي جاء بها الجاحظ لرآها أبلغ من الاستعارة والمجاز. وفيها دعوى الشيء بمشاهدته عيانا لا ببينة كما يقول البلاغيون في التمجُّز بوجهيه.

لقد كانت هذه المتناقضات بين ما للجاحظ وما عليه، ممّا شاقنا إلى الرجوع إلى آثاره، ففيها مفارقات قد نجد لها مرجعا في آثاره التي تعبّر باللسان عما في الجنان،

وكان هذا التقدير واقع الحال، فقد ظل بديع زمانه فارس أحلام عصره ولحِيُّه وشارباه وعِقاله مطروحة أرضا في انتظار مُنازِلٍ يطرح قفازه لمطاولة طواحين الهواء. أما أبو عثمان فقد سمعناه ينافح عن منهاجيته ببراعات بيانه مع تحفظ من سقطات اللسان، ولم يدخل في المحاجة اللافحة إلا مع الفرق الدينية التي رأى فيها زيغا عن المحجة الاسلامية كالدهرية وكالشعوبية والمُعطِّلة وحتى أهل السنة والجماعة، فقد كان مذهبه الجاحظي لا يسمح له بالتورع حتى عن منازلة شيخه النظام. أما بالنسبة لعلماء الشريعة ممّن ثلبوه في يقين اسلامه فلم يأبه للمعاصرين منهم أو لمن كان يعلم أنهم سيأتون بعدهم، ومردّ ذلك إلى أنه كان آخذا بالمذهب الطبيعي، وأعني معنيا بطبيعة الكائنات الإنسانية والحيوانية، وكان في هذا الحقل الحيواني يبحث عن علة أولى واحدة للكون، واختلف من هنا عن الفلاسفة الطبيعيين الذين لم يعترفوا بوجود الخالق. وباتجاه الجاحظ المخالف لم يقع في المحظور الذي تخبط فيه فلاسفة يونان وبعض فلاسفة العرب حيث كانوا — كما يقول الجاحظ في كتاب «الحيوان» — يرون أن الأفلاك السماوية تندرج في سلسلة متواصلة، ولكل منها نفس وعقل وتأثير أحدهما في الآخر، وتؤثر في الأرض وما عليها، وتستمدّ هذه الكائنات الأرضية وجودها من تلك الأفلاك.

وعلى كل حال فالمستفاد من آثاره وأهمها «كتاب الحيوان» وهو المرجع الذي تُتوخى فيه مثل هذه الاتجاهات، وما جاء فيه يفيد بكل وضوح تمسكه بالوجهة الإسلامية، واليبس على القول بأن الله خالق الطبيعة وراعيها، وتتجلى حكمته فيها، فأبو عثمان لايتصل بالفلسفة الطبيعية إلاّ في ميدان الجمال والأخلاق، وذلك مالاحظه الدكتور علي بوملحم الذي عني بالمناحي الفلسفية الجاحظية وذلك ماأوحى إليه بجملة آراء في نطاق المجتمع والأسرة، وارتطم بها مع أهل السنة والجماعة فنالوا من وجهته الاسلامية على الوجه الذي نقلناه. وممّا يعلنه باعتداد في نطاق هذا المذهب الطبيعي أنه يرى أن المرأة مساوية للرجل، فلا يعلو عليها، وقد لاحظ كما قال في «رسالة النساء» : «أن الناس يزرون على النساء، أشد الزراية، ويحتقروهن أشد الاحتقار، ويبخسوهن أكثر حقوقهن». ثم ذهب مدافعاً عن المرأة بإبراز مختلف مزاياها.

وللجاحظ فكرة مذهلة وهي الاشتراك في النساء، وهو في هذه يقول : إن الأصل إباحة النساء بين الرجال إذ ليس لأحد الحق بالاستئثار كما هو الحال بالنسبة للسائمة سواء بسواء، فليس لبعضها أن تستبد بمواقع الكلإ دون الأخرى، وإنما الشريعة قيدت الزوجين بعقد وحرمت على الزوج النساء الأخريات لتخلص الذرية من شبهة الاشتراك، ولحصر الإرث في العقب فلا يصحّ لسواه. كما عبر عن هذه الآراء في «رسالة القيان» بأوضح وأفصح بيان ممّا يدل على إيمان واعتداد بهذه الاتجاهات. وفي هذا

النطاق يلفت الأنظار إلى أنه لم يكن بين الرجال والنساء حجاب في محيط العرب، فكانوا يجتمعون نساء ورجالا في الأحاديث والمسامرات وسمي المولع بمجالستهن بالزير وهي من الزيارة — كما قال — وكل هذه الازدواجيات مانوسة للأزواج وللأولياء وعلى أعينهم، ونظر بعضهم إلى بعض لم يكن عاما في الجاهلية ولا محرّما في الاسلام.

ولأبي عثمان آراء وأفكار تتجلى مذهبا خاصا به في نطاق علم الكلام. وانعزاله عن شيخه النظام إنما ترتب عن مخالفات تلفت الأنظار. كما أن له رأيا خاصا في المعرفة وآخر في حرية الانسان، والمعروف أن ابن الراوندي نسب غير ما رأى إلى أبي عثمان من قبيل أن الله لا يدخل أحدا في النار ولا يخلّد أحداً فيها. وان الأنبياء ارتكبوا المعاصي ومنحولات أخرى من هذا القبيل الذي لم يؤيده فيه وفي مثله الخياط في «كتاب الانتصار».

وإزاء هذا ومن يومها اتجهنا في مسامراتنا إلى كتبه الأدبية بطبيعة وجهتنا، والآثار الأدبية ترشح بما تجيش به الصدور، سواء بما أعطى الأديب من ذات نفسه أو مما انتقاه من منظوم ومنثور أدباء زمانه.

وهكذا أمسينا تحت تأثير تلك الملحوظات المتباينة بين ما لأبي عثمان وما عليه منجذبين إلى عهد سابق لنا به، لا سيما والمعرفة السابقة لم تتجاوز المطالعات والجولات العابرات، غير أن فيض مختلف المواضيع التي يثيرها أبو عثمان حسب العهد به، ثم التعبير عنها بعذرية وبيان، جعل عزمنا قائما على العودة إلى مجالاته الجاحظية الوافية الريع المستطاب، ولم يتح لي شخصيا من قبل غير النظرة الأولى في كتاب «البيان والتبيين». ولم يكن الدرس المتتابع الاّ عند هذه المدارسة الثلاثية بينما كانت للمرحوم القبّاج في «البيان والتبيين» وفي «الحيوان» وبعض رسائل الجاحظ الأدبية كالتربيع والتدوير وسواها جولات، أما زميلنا المرحوم أبّا حنيني فقد انتهى من حيث ابتدأنا نحن في تلك الدراسات العابرات، فكان يغرينا من حين إلى حين، بما ينهل ويعبّ من كتاب «البخلاء»، ولاحظت في اثناء عملنا بالمحكمة العليا انكبابه على هذا الأثر النفيس الذي لم يتح لي الظفر به من قبل، وكان اهتبال الفقيد به مشوبا في نفس الوقت بالتأفّف من طبعته التي تفشّت فيها أغلاط مطبعية تفسد على القارىء استرساله مع سخريات أبي عثمان التي تتماوج بها صفحات كتاب «البخلاء»، وهذا بالرغم من أن هذه الطبعة أخذت من طبعة مستشرق ينتظر من عمله التصحيح إن عزّ التعليق المستجاد كما يقع في كثير من الأحيان.

وقد كانت مناسبة عودتنا إلى مسامراتنا الليلية داعية للتفحّص والامعان في مجالي بيانه الحافلات، وكنّا يومئذ قد ضربنا في صفحات مصورة شرح التبريزي حتى نصفها

أو يزيد، فارتأينا أن نجعل النصف الباقي تفاريق موزعة، على أيام العطل التي ستزهر علينا بلآليء افاداته وانشاداته، وتخلص بذلك حصّته المنتظرة في هذه الأسمار، ونظفر عندها بالجمع بين الحسنيين، فتكون الأسمار مداولة بين أبي الفرج في سهرات أغانيه وبين قيانه، وفي تحقيقاته ونقداته، وبين أبي عثمان في بيانه وتبيانه وجدّه وهزله، وعدنا إلى مدارساتنا وفق هذه القسمة، ولكن سرعان ما تبين أنها كانت قسمة ضيزى بالنسبة إلى أبي الفرج وأيم الله، فالبرغم من بهجة لياليه وتألقها بغنج القيان، وبرنّات مثاني ومثالث المزهر والمزمار، فان أبا عثمان الجاحظ قد استدرجنا في هذه السهرات إلى مسارح دنيا متسعة الآفاق، متنوعة الانواء، وتحت أضواء جماليات بيانه الذي يموج بالمحاسن والأضداد، فمن الحديث عن البلاغة والبيان، والكتاب والشعراء، إلى أخبار الزهاد والنساك، وإلى شطار اللصوص بالليل وبالنهار، إلى الصاهل والساجح من الحيوان، والسانح والبارح من الطير، وما يصحّ وما لا يصحّ في الديانة من الأقوال والأفعال، إلى اشارات بيّنات تطفح بها آراؤه العامة في دنيا الناس وفي دنيا الطير والحيوان.

وهكذا كانت تنطوي أكثر ليالينا مع أبي عثمان الذي يطل بنا على ثقافة عصره بتنوعها وشمولها ومظاهر الثقافات فيها، ويضرب فيها طولا وعرضا وعمقا في ليالينا معه إلى أن تطل علينا رسغة ذكاء الأولى لتضيء علينا صالة زميلنا القبّاج والشيخ بعدها لم يفتر صبيب بيانه الهتان إلى أن يضحّي النهار، وتذهب حصّة الليل المخصّصة لأبي الفرج الأصبهاني في خبر كان.

ولكن زميلنا الفقيد بالرغم من أنه كان مُنعطِفا في نفس الوقت إلى أبي عثمان في بخلائه، ومُكبًّا على دراسة «رسالة التربيع والتدوير» ولا يني يثير معنا أسئلتها التي كان يرسلها الجاحظ شواظا من التعجيز والسخرية ببطل بخلائه احمد بن عبد الوهاب، فقد كان انعطاف الفقيد إلى أبي عثمان لا يلوي به عن حظ أبي الفرج الذي كاد يضيع في استغراقات سهراتنا مع أبي عثمان، وكأنما كانت ملاحظة الفقيد من صميم حاسّة وظيفته كقاض قوّام على الحقوق وحريص على التسوية في المقامات، وكانت هذه الحاسّة القضائية تهيمن على توجّهاته في أفكاره وتصرفاته فدرج على أن يفتح كتاب «الأغاني» حين يحلّ الميعاد الذي ضربناه لمناصفة السهرة بين الشيخين، وبهذا أتاح لنا أن نأخذ بالنّصفة بين الشيخين وكأنما كان يبدو لنا ونحن نراوح بينهما في التلقي أن كلا منهما كان من همّه ان يستدرجنا إليه، ويهيمن على حصّة الآخر بروادف الافادات وروائع الانشادات، وكان ذلك من حظنا في الواقع، فقد أتيح لنا أن نجمع شتات الحسنيين ونتمثل مقوماتهما وشخصيتهما وخلقتهما وهيئتهما في صورتها الجمالية التي انطبعت في

اذهاننا عنهما، وادركنا بانصاف أبي الفرج أهمية منهاجه في تصريف تلك الثورة الطائلة من روايات أخبار وقصص وأشعار العرب وهو النهج الذي وصفه التنوخي بالحذق في التأليف، واقامه بنظرياته النقدية على رأس النقاد من رواة الأخبار علما بأن نقد الشعر وثيق الصلة بروايته، وعلى رأس رواة اللغة الذين فرضوا سلطانهم على الشعر والشعراء حتى لقد وصفهم ابن سلام الجمحي بانهم أهل العلم بالشعر والنفاذ بكلام العرب، وكل الحق في ما قال، فان أسماء الأصمعي وأبي عبيدة والمفضّل الضّبّي وأمثالهم لتعطي صورة عن أهميتهم في تزويد النقد العربي على مختلف عهوده بالمادة التي لا يستغنى عنها كما هو واقع المدوّن المنتهى حتى عهودنا اليوم.

وقد حفلت هذه الصورة الشاملة عند أبي الفرج بمعظم ومحكم روايات التراث الأدبي والنقدي والمتنوع منه على اختلاف مراحله منذ عهد خِباء الأَدَم الذي كان يتربع فيه النابغة حَكَما بين الشعراء، إلى عهد أبي عثمان الجاحظ حيث تأصلت نظرياته ونظريات ابن قتيبة التي أخذت بالنظر إلى قيم الشاعر الذاتية، واعتبرت الشعر ابتداء ونهاية عطاء طبع وموهبة، ووحي عاطفة، ومتنفس مشاعر، وهو الذي يمثل عهد الشاعر ومعطياته بغَضٍّ النظر عن أنه نفس الشعر الجاهلي وما يقرب منه من المخضرم والاسلامي وهو الذي كان عيارا على العطاء الشعري إلى عهد الجاحظ، وما هو موصول بما بين العهدين، وكل ذلك في منهاجية محكمة جمعت أطرافه وأحكمت ترتيبه ممّا أثار اعجاب المتقدمين والمتأخرين على السواء.

وهكذا أتيح لنا باقامة النصفة بين الشيخين في هذه السهرات أن نوسع محصولنا السابق من مطالعاتنا العابرة في كتاب الأغاني، وان نسرح بذوقنا بين منهاجين مختلفين في عرض مقومات اللغة والهداية إلى طرائق تَذَوُّقها ومنابع روائعها. ومع كل هذا فان أبا الفرج قد كان قوّاما على التدقيق في التحقيق، وظاهر الاعتداد بما ينتهي إليه في أحكامه، فقد كان أحيانا اذا عزم فصل الخطاب في ما يهم القول به خارجا عن مضمون الروايات، فانه يلوذ بشيخنا أبي عثمان وينصت اليه من وراء حاجب الزمان ليظفر بقوله تُكَأَةً لما يريد التوسع فيه، وذلك كموضوع الأشعار التي نسبت خطأ لغير قائليها، وتبنت هذا الخطأ أكثر الروايات وشاع وذاع على ضلال هديها. ونراه مثلا في سياق تحقيق نسب بعض أشعار المجنون يورد قول أبي عثمان : «ما ترك الناس شعرا مجهول القائل في ليلى الاّ نسبوه إلى المجنون، ولا شعرا هذا سبيله قيل في لبنى الاّ نسبوه لقيس بن ذريح». ثم انطلق أبو الفرج بعد قولة أبي عثمان بهجوم صارخ على الموضوع فأعلن التشكك في حقيقة المجنون، وعني بجمع كل ما نقل من المطاعن التي التفت بقصة وجوده وليردّ كل ما نسب للمجنون إلى أصحابه. وما من شك في أن هذا وغيره

من الوارد في موضوع تحقيق نسب الأشعار هو أصل بعض ما شاع عند المحدثين من شك ومن قول في الشعر الجاهلي بوجه عام.

وبهذا فما إن انتهينا إلى الجزء العاشر من كتاب الأغاني وهو آخر جزء كان في يدنا من أجزائه العشرين حتى اتجهنا إلى آثار الجاحظ الأدبية، فأكببنا على كل من «البيان والتبيين» باعتبار انه ينطوي على نظرية الجاحظ البيانية وعلى «الحيوان» و«البخلاء» و«رسالة التربيع والتدوير» بوجه خاص.

لقد كانت غِبطتنا العارمة لا تُلقِي بالا لاستطرادات أبي عثمان التي لاحظ بعض النقاد انها تخرج عن الحدّ الذي تلتمس له المناسبة ولو بذلك الخيط العقلي الذهبي الرقيق الذي يصل به أحيانا بين موضوع وموضوع، وذلك هو نفس الصنيع في كتابه «الحيوان»، وقد فسحت هذه الظاهرة المنهجية غير المنتظرة باب التحامل عليه للباقلاّني كما سمعنا في نصّه من قبل، والجاحظ نفسه قد شعر بهذه الطفرات الاستعراضية، فاعتذر عنها غير ما مرّة في «البيان والتبيين» وفي «الحيوان»، فقد قال في كتاب «البيان» معتذرا حين بدأ يتحدث عن أبي حمزة الضبّي في معرض كلامه عن انجاب الأمهات فقال معتذرا : «وهذا الباب يقع في كتاب «الانساب» من كتاب «الحيوان»، ومن فصل ما بين الذكران والاناث. وليس هذا الباب ممّا يدخل باب كتاب «البيان والتبْيين»، ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارىء الكتاب، لأن خروجه من الباب طال لبعض العلم كأن ذلك أروح على قلبه وأزيد في نشاطه ان شاء الله». وفي موضع آخر من كتاب «الحيوان» يعتذر عن الاستطراد وعدم التبويب والتدقيق وذلك بما يعانيه من علة النقرس والفلج التي أصابته وأثرت في تفكيره وتوجيهه.

وقد كان تأثير هذه العلّة المزدوجة في حالات مختلفة، فكان يضع الشيء في غير موضعه، ويُكرّر الألفاظ والمعاني في سياقات متعدّدة، ومن ثمّ اعترف غير ما مرة بمثل هذا، وأعلن في خصوص ما وقع له منه في كتاب «الحيوان» حيث اعتذر طويلا مستهلا كلامه بهذه الفقرات المغنية عن كل ما يمكن أن يقال : «ولقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الاجادة فيه، أول ذلك العلة، والثانية قلّة الأعوان، والثالثة طول الكتاب...» إلى آخر اعتذاره الذي أبداه على وجه آخر يلتمس فيه الاغضاء عما ينكر عليه، وكان قد عني في أول الحيوان باعطاء صورة عن حاله بما يغني عن كل اعتذار وبيان عن واقع الحال.

على أن تلميذه أبا حيان قد اعتذر لهذه الاستطرادات بما التقى فيه مع الجاحظ في بعض ما اعتذر به حيث أعرب التوحيدي باجادته المعروفة حيث قال في كتاب

«البصائر والذخائر» : «اياك أن تَعَاف الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السُّخف، فإنك لو أضربت عنها جملة ينقص فهمك، وتبلّد طبعك، ومتى ضاقت نفسك فَرَّجَ الهزل كربها ولا ريب».

وهكذا جدّدنا في البداية عهدنا بالجاحظ في كتابيه «البيان والتبيين» و«الحيوان» وفي ساعات اشراقات الشيخ كنا نتافنه على كتاب «البخلاء»، تطلّعا إلى النواحي النفسية الذاتية التي يسجلها الشيخ بشكل صريح، وخاصة تجاه الشخصيات التي يتحدث عنها ومتعلقات ظروفها، وتتجلى عندها طاقة بيانه، وتجلّيات اندماجه في غيره، والتحدث بلسانه، وان جوّ غابة أبي عثمان لينفسح لهذا الفيض النفسي الذي يمثل وجها آخر لأدبه المتفرع الأفنان، وتعبر عنه منهاجيته الضاربة هنا وهناك.

وان قارىء كتاب «الحيوان» ليقع في الكلام عن الشعر ومتعلقاته على صفحات متعدّدة، وفي اجزاء مختلفة، وكذلك الأمر في ما يتعلق بالترجمة والمترجمين واللغة وأصولها وغير ذلك من النظريات الراجعة إلى البلاغة والبيان، فحظها في هذا الكتاب مما لا يستغني عنه قارىء نفس الموضوعات في كتاب «البيان والتبيين». وقد نَقعُ في مجال كتاب «البيان» على حديث لأبي عثمان ممّا يتصل بالحيوان كحديثه عن الديك والكلب وغيرهما. وهي ملحوظة تلفت النظر باعتبار ان كتاب «الحيوان» وضع أساسا كاسمه لما يتعلق بالحيوان، ثم تبع ذلك وفق منهاجية الجاحظ شتيت المعلومات عن العالم وانسانه وتكويناته، والأفكار الفلسفية ومذاهب المتقدمين والمتأخرين فيها، وعن كل ما يتصل بذلك حول المعرفة، كما ياتي بتراجم الرجال، وترجم للصوفية والنساك إلى جانب اللصوص والشطار وكل ما عظم من شأن الانسان أو تدنى به إلى درجة الحيوان، وهو في كلّ بحوثه سائر على تطبيق المنهج العلمي التجريبي وخاصة في ما يتعلق بالحيوان الذي تجلّى كتابه فيه فتحا مبينا في تاريخ هذ العلم. وخاصيته في هذا المجال تتجلى في عنايته بالبحث عن علّة أولى واحدة للكون، ومن هنا اختلف مهيعه عن وجهة الفلاسفة الطبيعيين الذين لا يعترفون بوجود الخالق، وخالف كل اتجاه يشرك رب العالمين في قدمه.

ولقد صحّ عن هذا الكتاب ما قاله عنه أبو عثمان في طالعته حيث قال : «وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وان كان عربيا أعرابيا واسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، والشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة».

وبهذه الحقيقة، ووفقاً لما أشير إليه من قبل، فلا مناص لأي باحث من أن يكمل ما قرأه في البيان بما يجد تكملته أو شرحه في كتاب «الحيوان»، والأمر بالعكس، حينما

يتعلق الأمر بالبلاغة والبيان، فقارىء «الحيوان» سيضطر لأخذ الصورة الكاملة إلى الرجوع إلى كتاب «البيان».

وحين نفرغ إلى كتاب «البخلاء» بعد ورقات عامرات من كتاب «الحيوان» نلاحظ أننا طلبنا شيخنا أبا عثمان في أدبه، فوجدناه قبلها وبعدها أديبا في كل ما سوّد وبيّض عن الحيوان أو عن الانسان وبيئتهما وطبيعتهما، واذا نحن أيضا نجده في هذين الأثرين مؤرخا راصدا دقيقا لتطورات هذه البيئات، وبيئة عصره بصفة خاصة، فكان العصر كله مصوّرا فيهما خاصة وفي كل آثاره تصوير من عانى وسمع وعاين، فكل من كتابه «البخلاء» و«الحيوان» يصوران بعدا تاريخيا للاجتماع وطبقاته في مختلف الميادين بالبصرة وبغداد وخراسان، ولا أعني انه كان مؤرخا كابن الأثير أو الطبرى، وانما أعني انه كان مثلا في «الحيوان» وفي «البخلاء» لا يعنى فقط بالمعلومات وتسجيلها، بل انه يصور ما في هذه البيئات من الجزئيات ومظاهر تكوّنها، وكل ذلك بأسلوب عرض فيه أخلاق الناس من الطبقات الشعبية والطبقات النبيلة والثرية، ولعل ابن قاضي الأسدي هو الذي عني من بين المتقدمين بالتنبيه على هذا المقوّم التاريخي فحلاّه في طبقات النحاة واللغويين باللغوي الأخباري.

ومن هذا القبيل أيضا نجد الخطيب البغدادي في التاريخ يعرض علينا أبا عثمان، في الجزء الثاني عشر، مُحدّثا مُسنِدا ورَاويةً تُشدّ إليه الرحال في البصرة ليحدث قاصديه بما رواه بسنده عن رسول الله، وصدق بذلك من لقبه بشيخ المسلمين كما سمعنا في ورقة سابقة.

وتظل طريقة التشعيب بالخروج من موضوع إلى موضوع ماثلة في الكتابين البيان والحيوان، وجرى بعض المعاصرين على أن يطلق عليها كلمة العشوائية، والواقع أن الشيخ قد اعتذر عن الظاهرة — كما سمعنا — بعلّة المرض الذي ألحّ عليه، وبغياب المعين الآخذ باليد، وانتهت إلينا آهاته في الكتابين تأففاً من ضراوة الكلمة، فالتشعيب ليس بحرفية العشوائية، لا سيما وقد يتلمح لها أحيانا، وفي بعض المقامات، أن هناك — كما رأينا — خيطا عقليا رقيقا يربط بين الأصليات والوافدات، ولعل هذا التخريج راجع إلى أن رُفقة هذه المدارسات، قد كانت في غمرة بيانه تمثل ذلك القارىء المنشود الذي يتمثله أبو عثمان ناظرا معه إلى قوله : «ان جملة الكتاب وان كَثُر عدد ورقه، فان ذلك ليس ممّا يمل ويعتدّ عليّ فيه بالاطالة، لأنه وان كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أم على حدة، فان أراد قراءة الجميع، لم يطل عليه الباب الأول، حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبدا مستفيد ومستطرف، وبعضه جمامٌ لبعض، ولا يزال نشاطه زائدا».

وهذه نغمة أخرى ولا أقول انها عودة إلى الاعتذار عن ذلك الانتشار، فانها ــ كما سمعت ــ بادرة تقريع، وعزمة تنديد، كشفت ان ما اعتذر به سابقا من علة المرض، وغيبة المساعد الآخذ باليد، انما كان منه توجها من صميم طريقة القوم «المعتزلة»، فهي تفضي بالتدرج في الحوار والتبيين، ففيض البِشْر سابق على الجهامة والجفاف ودمدمة التنديد، وكذلك سمعنا واقع الحالين في الاعتذار وفي التنديد الذي يصدع به الآن حتى ان القارىء ليحسّ أنفاسه الحِرار تتصاعد وقد نبر محتدا على غير انتظار : «ان كل من التقط كتاب جامعا، وبابا من أمهات العلم مجموعا، كان له غُنمه، وعلى مؤلفه غُرمه، وكان له نَفعه، وعلى صاحبه كَدّه، مع تعرضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافقين، ومع عرضه عقله المكدود على العقود الفارغة، ومعانيه على الجهابذة وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة».

وعلى كل حال فقد انتهت بنا احدى سهراتنا بتعليق لزميلنا المرحوم حول ما قيل من تشعيبه وتنقلاته في مسارح بيانه وكأنه يَمْتَح من قَلِيب الجاحظ فيصور تشعيب المنتقد بهذا التوجيه الذي وان كان لا يخرج عن مقاصد الجاحظ فانه وجهة نظر جديرة بالاعتبار وذلك حين قال : «إن هناك من يُفضّل الحديقة اليابانية المنظمة باليد والآلة، واللاعقة مياه السقي نقطة نقطة، والمشجّرة بترتيب وتنسيق في الألوان، وما ينفح من أزاهيرها بالنهار، وما يسري مع هبّات النسيم في الليالي المقمرات» ويزيد المرحوم : «وهناك من يفضل الغابة الفارعة الأغصان، والتي تتعانق فيها الأزاهير والرياحين بأشكال وألوان في غير نظام ولا اتساق، وترف على أرضها الظلال هنا وهناك، وتتناثر البُقع الشمسية المستديرة أقمارا على أرضها منيرة، فتغرد لها الطيور وكأنها معها على ميعاد»، انه وحي ذوق على كل حال.

نُبْذَةٌ مِنَ الأَمْثَالِ الأَمَازِيغِيَّة

محمد شفيق

يُتمثَّل في اللغة الأمازيغيّة بِعدد لا يُستهان به من الأمثال المستوحاة من نمط العيش في الأوساط الزراعيّة والرعويّة، منها ما هو منتشر على مستوى المغرب الكبير، ومنها ما هو متداول إقليميًّا أوْ جِهَوِيًّا. وقد يكون لِلمثل الواحد أكثرُ من رواية، من حيث اللفظ أو من حيث الصيغة والتركيب والبِنية. لكنّنا لَمْ نَرَ حاجة هُنا إلى سرد الروايات كلِّها، لأن قصدنا من نشرها الأوّلِ هذا هو تمكين القارىء غير الأمازيغيّ اللِّسان من الاستئناس بها، لا من التوسّع في معرفة أصولها وفروعها.

وممّا يجب التنبيه إليه بادئً بدءٍ أنَّ قواعد الكتابة في النَّصِّ الأمازيغيّ ليست بالضّبط هي قواعدَ الكتابة المألوفة في اللغة العربيّة (كما أن قواعد الكتابة في الانجليزيّة، بالحروف اللاَّتينيَّة، ليست هي قواعدَها في الفرنسية ولا في الألمانيّة ولا في الأسبانيّة... مَثَلاً). ولذا تَرَى الهمزة مكتوبة على الواوِ أو على الياءِ في أوّل الكلام، وَتُلاحظ أن النّصّ الأمازيغيّ مُجرَّد من الشّكل بالحركات الثلاث ــ الضمّة والكسرة والفتحة ــ، لأن الألِف والواو والياء هي الّتي تقوم فيه مقام الصوائت المُحرِّكة للصّوامت من الحروف، ولكنْ دون استيجاب للمدِّ في النُّطق، اعتباراً لِانعدام المَدِّ البنيَوِيّ في اللفظ الأمازيغيّ، مَا لَمْ يكن حَرْفَ نِدَاءٍ كَـ «آ» و«وآ»، ولَمْ يَكُنْ مُتَغَنًّى بِهِ.

من الأمثال الأمازيغيّة ما تُرجِم إلى العربيّة المغربيّة، فاستمرّ تداولُه فيها بكيفيّة تلقائيّة على نطاق مغربيٍّ أو مغاربيّ واسع ؛ وهُو ما نُشير إليه بنُجَيمة. ومِنها ما هو غير معروف في العربية المغربيّة ولم يُسمع مترجماً إلا في مناسبات قليلة، يُترجمه المُتَمَثِّلُ به لإفادة مُستمعٍ يجهل الأمازيغيّة ؛ وَقَدْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بنُجيمة تُحيط بها دائرة. وأما ما هو مصحوب بدائرة في وسطها نُقطة، فَمِن الأمثال التي كان كل واحدٍ منها مَغْزًى لِقِصَّة تُقَصّ على الأحداث في تنشئتهم الأولى، قصدَ تلقينهم مبادئَ الأخلاق وترويضهم على ممارسة الأساليب اللغوية التقليديّة. والملحوظ في الأمثال المُتَرجَمَة إلى العربيَّة العامّية المغربيّة أنها حافظت على مُمَيِّزات التّراكيب الأمازيغيّة مِن حَيث بِنيةُ الجملة وتتابعُ الكلمات فيها. وَالسَّبَبُ هُوَ أنَّ الترجمة، إذ كانت عَفويّة غَيْرَ مُنقَّحَة، لم تتجاوَز الحَرْفِيَّةَ في غَالبِ الحالات.

	المثل الأمازيغي	ترجمته الحرفية	مقابله العربيّ، أو مدلوله وفحواه.
1	ئمي يْقّنـن ورات كشّمـن ييـزان !	الفَمُ المُطْبَق (الشفتَيْن) لا يدخُله ذُبـاب.	«الصمت من ذهب». «الصمت حكمة».
2	ؤرا يْكّاتن سـ ودم غـاس تـازرزايت !	لاَ يُصيب الوَجْـهَ إلاَّ مَرَضُ الجُـدَرِيّ.	الصراحـة المُفرِطـة مُضِرَّة بالتعامل والتعايش بين الناس.
3	ؤنّـا يـلان اسالا وْر يكّيْد يـ تمجاكّشت	ذو الأَصْل لاَ يَخاف الزَّوْبَـعَـة.	كلُّ أصيل ثابت لا تنال منه الأحداث والمِحَنُ.
4	رْولغ زگـ يـزم، تشّايـي تيـزمت !	فَرَرْتُ مـن أَسَدٍ، فأكلتنـي لَبُـؤَة	«اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ !»
5	ترمض، داي تـارْو افغـول !	عَجِـلَتْ، فَـوَضَعَتْ مَسِيخـاً.	«كل حَثِيثٍ مَكِيثٌ». «في العجلة النّدامـة».
6	يوگـر «غـاشّ !» تاغاطّ !	الصُّـرَاخُ أكبـر مـن الماعِـزة.	«أَسْمَعُ جَعْجَعَـة وَلاَ أرَى طِحْناً !»
7	أ تاديست يـوران، أي ودم يزگّاغن ! *	مع فراغ البطن (من كلِّ خبث) تعلـو الحُمرةُ وَجْهَ الانسان.	للمثـل مدلـولان : أ – فراغ البطن مَصَحَّةٌ للجسم. ب – النَّزاهَة مَدْعاة للاعتزاز.
8	أبوض نـ تـازدايت وردا يْسمـولا !	لا يُستظلّ بـأَصْلِ النخـلـةِ.	رُبَّ قريبٍ لا يستفيد مِـن جـاهِ قَرِيبِـهِ.
9	وْت اغيول خف واليم اد يتّـو تيمژيـن ! ⊛	اِضْرِبِ الحمارَ من أجل التِّبْنَ تُنْسِه أكْلَ الشعير.	أرْهِبْ عَدُوَّكَ قَبْلَ أن تُغْرِيَهُ بِكَ المُغْرِيَاتُ.

10	وُردا يْتكشامن ينگر نْـ واشّر د وكسوم غاس يركان ! ⊛	لاَ يَدخُل بيْن الظُّفر واللَّحمِ إلا الـوَسَخُ	لا يسعى في التفرقة بين الإِخْوَةِ إلا الدَّنِيءُ.
11	ونّا يْلان يمي، ئلا تامازيرت !	مَـنْ مَـلَكَ الـلِّسَانَ مَلَكَ المَكَانَ.	الفَصَاحَةُ تُكسِب الجَاهَ والمَنْزِلَةَ.
12	ونّـا يْتتّـرن اغـو وردا يْتفّر تاگـرا!	سَائِــلُ اللَّبَــنِ لا يُخْفِي القَـعْبَ.	لاَ فائدَةَ في الترفُّعِ عِنْد الاستعطاء والاستجداء. «الـرَّاقِصَةُ لاَ تُخْفِــي وَجْهَهَا»
13	ئكّنّـا ياڭّوڭـ، أكال لّيغ ڭـيس !	السَّمَاءُ نَائِيَـةٌ ؛ أَمَّـا الأَرْضُ فَأَنَا عَلَيْهَا.	«العَيْن بَصيرَة، واليـد قَصِيرَة».
14	ئـزْوران وكْجّيــف أڭـ تّـارون تيينْـي !	إنَّمـا يَلِـدُ التَّمْـرَ جُــذُورُ النَّخْـلِ.	الأُمورُ بِأُصولِهـا لا بِفُرُوعِهَا. الأَصْلُ هُوَ المُتَحَكِّم.
15	سّمژي يخف نّك، اد يمغــور وول نّك !	صَغِّرْ رَأْسَكَ يَكْبُـرْ قَلْبُكَ !	التَّكَبُّر يَتَنَافَى والكَرَمَ والشَّهَامَةَ.
16	ؤردا تتّـان يزمـاون امــــورضوص !	الأُسُودُ لاَ تَأْكُـلُ الجِيَفَ.	الكَرِيمُ لا يَنْغَمِسُ في الرَّذَائِلِ، وَلاَ يَتَهَافَتُ.
17	تـِاضارت ووجيــل أڭـ بّين يشضيـف ! ⊙	قَدَمُ اليَتِيم هِيَ الَّتِي خَـرَقَتِ الـبِسَاطَ !	بالضَّعِيفِ تُلْصَقُ التُّهَمُ.
18	ئجّي ڭار اترس، ؤر يجّــي ڭار اوال ! ⊙	تلتئم جراحُ البَدَنِ على خُطورتها ولا تلتئم جراح النفس.	«عَضُّ اللِّسَانِ أَلْدَغُ مِنْ عَضِّ الحُسَامِ».

19	ونّا يْمونّ د وبريد يــووْض امـــان !	مَنْ سَارَ عَلَى الجَادَّةِ وَصَلَ المَاء.	«مَنْ سَارَ على الدَّرْب وَصَلَ».
20	تيــغيرضمت خــف يخف نّك ابـــو تفوناست ! ⊙	على رأسك عَقْـرَبٌ يـا سَارِقَ البَقَـرَة !	«للّي فيه الفزّ كَيْقفز».
21	أمنـاي نـــ واشال ور يكُصيد تاضوري !	رَاكِبُ الصَّعِيدِ، أي الأرض، لاَ يَخَـافُ السُّقُوطَ.	العَاجِزُ المِحْجَامُ غيرُ مُعَــرَّضٍ لِلْمَخَاطِــرِ.
22	ئمّاس نــ تسلـيت أكّ وملن تيسليت !	مَــدَحَتِ العَــرُوسَ أُمُّ العَــــرُوسِ.	«مول الفول ما يْقول غير طيّاب»
23	ؤر يلّي ما اس يتّينين يـ ييزم يرصّوض يمي نّك !	من ذا الذي يَجْرُؤُ عَلَى رَمْـي الأَسَدِ بالبَخَرِ !	النَّاسُ يُغْضُون عَلَـى مَثَالِبِ الأَقْوِيَاء مِنْهُـمْ وَأصحَابِ الجَاهِ.
24	ؤر يسّينّ ماي يْلاّن گ وؤلك غاس ماي يــيس يتّوواتـــن ! ⊙ *	لا يعلَم ما في المِزوَد إلا من يُضْرَبُ به.	«ما كَيْعرف لّي في المزود غير لّي كيتّضرب به». «أعْلَم بِهَا مَـنْ غَصَّ بِهَا».
25	ؤردا تّاسْي تامارت تامــارت غـــاس غر يسمضال !	لا تحملُ اللِّحيةُ اللّحيةَ إلاَّ إلَى المقبَرَة.	لاَ يَلِيقُ بالرَّجُلِ الشَّهْم أن يَتَذَلَّل لِأَيِّ أَحدٍ.
26	تيــمسّي وردا اس يتكّوسن غاس يغد !	النَّـارُ لا يَخْلُفُهَــا إلاَّ الرَّمَادُ.	رُبَّ خَلَفِ سَوْءٍ كَانَ عَقِباً لِسَلَفِ خَيْرٍ.
27	لا يْتتّو وْنّـا تّ يكّان، ؤردا يْتتّو وْنّا مــي تتّوييكّــــ !	يَنْسَى الَّذِي أَوْقَـعَ، وَلاَ يَنْسَى الَّذِي أُوقِعَ بِهِ.	الظَّالِــــــمُ نسَّاءٌ، والمَظْلُومُ ذَكُور.

28	ئكّـا نّ ايّــور، يـاوي د اباّيــور !	غـاب شَهْـراً، وَجـاءَ بِالمُوتَـانِ !	لا خَيْرَ في الإِغتِرَابِ مَا لَمْ يَكُنْ مَجْلَبَةً لِلْخَيْر.
29	أركّاز امّ يـــزم، تامازيرت يووض تينّس ايْنا !	الرَّجُـلُ الشُّجَـاعِ كالأَسَدِ ؛ أيَّ أَرْضٍ يَقْدَمْ فَتِلْكَ أَرْضُهُ.	الرَّجُلُ الشُّجَاعُ لاَ يَخْشَى الاِغْتِرابَ وَلاَ مَخَاطِرَهُ.
30	ئغ تريت وراد يكنو وضرف نّك، قّن سـ يتـري اوالّـو نّك !	إنْ تَرْغَبْ أَنْ يَسْتَقِيمَ تَلَمُكَ استِقامةً كامِلَةً فَشُدَّ مِحْـرَاثَكَ إلى نَجْمٍ في السماء.	العَمَلُ مَحْمُودٌ، والكَمَالُ للهِ.
31	وْنّا يْتّينين وردا يْتكّا ؛ وْنّا يْتكّان وردا يْتّيني !	القَوَّال المُتَبَجِّـحُ لا يَعْمَل، والعَامِلُ الفَعَّالُ لاَ يَتَبَجَّحُ.	التَّبَجُّحُ والرِّيَاءُ يَنِمَّانِ عَنِ الضَّعْفِ والعَجْزِ.
32	ئلس يژيضن يطّض تاسدّا !	بِالـلِّسَانِ الحُلْــوِ تُرضَعُ اللَّبُؤَةُ.	بالقَوْلِ الجَميلِ يُنَالُ رضى النَّاسِ وتُقْضَى الحَاجَاتُ.
33	تيمضلت ور تلي يـ امالو !	لَيسَ لِلقَبْرِ مِنْ ظِلٍّ.	إنَّمَا الجَاهُ والنُّفُـوذُ للأَحْيَاءِ، لاَ لِلأَمْوَاتِ.
34	تاژنكّارت د وسلام نـ واكـال !	استِعـلاءٌ وابتِـلاع تُرابٍ !	«رأسٌ في السَّمَاءِ واسْتٌ فـي المَـاءِ».
35	وْسين يكُضفــان تيـرّشــت !	حَمَـلَ النَّمْـلُ العُـرْمَـةَ.	«يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعةِ». (في العَمَلِ الجَماعيّ بَرَكـة، لاسيَّما مَـعَ المواظبة).
36	أدّا اك تنّغل، سمون ايْنّامـي تغييْـت !	إذا ما تَفرَّقَ أَمرُكَ فَتَدَارَكْ مَا استَطَعْتَ.	«مَالاَ يُدْرَكُ كُلُّهُ لاَ يُتْرَكُ جُلُّه».

37	أمدْيـاز يغـرم وردا يْتسايّا !	زفّانُ الحَيِّ لا يُلْهِي.	«رَاقِصَةُ الحَــيِّ لاَ تُطْرِبُ».
38	أبرّويُ ووينت وامان، أر يتّينـــي : ؤويغ امان !	النَّهْرُ سَائِرٌ بِالبَعْـرَةِ، وَهِيَ تَقُولُ : هَا أنا ذَاهِبَةٌ بِالنَّهْرِ !	البَلِيدُ الضَّعِيفُ مَغْلُوبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَهُوَ يَدَّعِي عَكْسَ ذَلِكَ.
39	ئـمش ورك انّايــن ا حمّو، گّ اسن اگّو !	إنْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ رأَوك يَا «حمّـو» فـأَرْسِلْ دُخَاناً.	الغَبِيُّ يَفْضَحُ أَمْـرَهُ بِنَفْسِهِ.
40	يازْوم اسگّاس يـرزْ وزْوم خـ تمورغي ! *	صَامَ عامــاً، ثُــمَّ أَفْطَرَ بِجَرَادَةٍ.	صَبَرَ على الحِرْمَانِ ولَمْ يَنَلْ شَيْئاً يُرضِي.
41	ؤر تلّي تالات نـ «سّيرد ات تشّت» !	لاَ وُجُودَ لِوَادٍ يُنَادَى فيـهِ : «ألاَ، اغْسِلْ يَـــدَيْكَ وأَقْبِــلْ لِلأَكْلِ !»	الحَيَاة كَدٌّ وَاجْتِهَادٌ.
42	لاّنت غوري تسرفين گـــــ وزْاغار !*	لِـي فِـي السَّهْـلِ مَطامِيرُ !	العَاجِزُ يُمَنِّي نَـفسَه وَيَتَوَاكَلُ.
43	أدّاي تكّر تمجاگّشت قّيـم سـ اشـال !	عِنْدَ هُبُوبِ العَجَاجَةِ اجْلِسْ وَالزَمْ مَكَانَكَ.	عند اختلاط الأمـور يَتَعَيَّنُ لُزُومُ الهُـدُوءِ وَالتَّصَرُّفُ بِحَذَرٍ.
44	يانّاي توگا ؤر يانّاي اسفّالو !	أَبْصَرَ الكَلَـأَ ولَـمْ يُبْصِرِ الجُرْفَ !	«شاف الربيع وما شاف الحافة».
45	ؤردا يتّواركا ووشّن غاس سـ ويّنا يْزْرا ⊙	لاَ يَحلُمُ الذِّئْبُ إلاّ بِمَـا قَـــدْ رَأَى.	«كُلُّ إنَاءٍ بِمَـا فِيـهِ يَـرْشَـحُ».

54	توفت يزم أي اموشّ !	أنت خَيْرٌ من الأَسَدِ يا هِــرُّ !	يُعابُ بهذا المثل كُلُّ متملّق وكلُّ راغب في التملُّق.
55	ئشيرّان د امّ ييردن، ڭــ والــوض اي تكّرن !	الفِتْيَان أشبهُ بحبَّات القَمْحِ ؛ في الطِّينِ تُسْتَنْبَتُ.	لا يُخَافُ على الفَتَى القَوِيّ أن يَلِين عند الامتحان أو عند سوء الحال.
56	ئلاّ وْمْيان ڭ ولّي !	إنَّ في القطيع تَيْساً !	اِحْذَرُوا ! إنَّ مِنْ بَيْنِنَا خائناً.
57	بنهدّي يْرا تاغصايت ! اسْي أ بنهدّي ! ⊙	«ابن هدّي» يريد يقطينةً ! ــ خُذْهَا يا «ابنَ هدّي» !	مَثَل يُغْمَزُ به على المُحتال يورِّي عن خِيانته وغَصْبه لحقوق الناس باحترام مشروعيّة يَصْطَنِعُهَا لِنَفسِهِ.
58	وْنّ يمّينسْون ســ وبغرير، يتّامــژ ت وباغرار !	من يَتَعَشَّ بالرغيف المُسَمَّنِ يَرِنْ عَلَيْهِ كابوسُ اللّيْلِ.	لاَ بُدّ أَنَّ لِلْكَسْبِ الحَرَامِ عَوَاقِبَ وَخِيمَةً.
59	وْردا يْتمّغاي وبرشنام !	لاَ يُستَنْبَتُ القَمْحُ العَفِنُ.	لاَ يُسْتَعَادُ المَجْدُ بَعْدَ ذَهَابِهِ.
60	تنّمرمت آ تيشعبين ! ⊙	تَوَرَّطْتُنَّ يَا ثَعْلَبَاتُ !	«رُوعِي جَعَارِ، وَانظُرِي أَيْنَ المَفَرُّ !»
61	سبو وْر يتّاسي وْرغا ؛ وْرغا وْر تّاسي سبو ! ⊛	نهر سبو لا يحتمل نهر ورغا ؛ ونهر ورغا لا يحتمل نهر سبو !	«لا يَخْطِرُ في الشَّوْلِ فَحْلاَنِ». يُضايِق النِّدُّ نِدَّهُ عند التلاقي.

62	ؤردا يْكُرّد ووشّن !	لاَ يَدْجُنُ الـذِّئْبُ !	«يَغْلِبُ الطَّبْعُ التَّطَبُّعَ !»
63	أكلي يْبرّكن، رنانت اس تيشراض !	العَبْدُ أَسْوَدُ فَزِدْنَـهُ الوَشْمَ.	«زَادَ الطِّيـنَ بِلَّـةً !».
64	أمّ حمّو امّ تامّوا !	ما أشبهَ «حمّو» بِـ «تامّو !»	«وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَـةَ !»
65	بو تيكلي يْمكساون يتّوغال د امكسا !	مَن يَمْشِ مِشْيَةَ الرُّعَاةِ يُصبِحْ رَاعِياً.	«من تشبَّهَ بِقَوْمٍ كَانَ مِنْهُم».
66	د اغْيول اي د يوجّان تاضصا !	الضَّحِكُ مِنْ تَرِكَـةِ الحِمَار.	إنَّمَـا يُكْثِـرُ الضَّحِكَ الأَغْبِيَاءُ.
67	ئوْل نْـ والاڭـ د امدلالاڭـ !	زَوَاجُ القَرَابَـةِ فِيــهِ لُزُوجَة وَدُسُومَة.	«اغتربـوا لا تضْوُوا». زواج القرابة غير محمود.
68	أمّ ثواراشت نـ تمغارت توشا تّ يـ والمسّي !	كَزُبْدِ المَخْضَةِ تَهَبُهُ العَجُوزُ للنَّارِ فــي مَوْقِدِهَا. ⊙	-«... وإن أنتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدا». -«كالـرَّاقِصِ أَمَــامَ عُمْيَانٍ».
69	لاّ تسغارانت تركّيْن يسافّن ! *	السَّوَاقِــي تُــنَضِّبُ الأَنْهَارَ.	النَّفَقَــات الصَّغِيــرَةُ المتعدِّدَة تُذْهِبُ الأَمْوَالَ الطائِلَةَ. «بكثرة السواقي تَنْشُفُ العُيُونُ».
70	أَلّن ونبكّي اي دا يْستّوان توغريـفت !	إنّما يُنْضِجُ الخُبْـزَةَ نَظَرُ الضَّيْفِ.	الإِقَامَــةُ على الشَّيءِ المَطْلُوبِ أَضْمَنُ لِقَضَاءِ الحَاجةِ. – وَاجِهْ مَنْ تَطْـلُبُ مِنْــهُ قَضَاءَ حَاجَتِكَ.

71	ئغال ونجوف ازكر امـلاّل قّـاح تـــ تّادونت !	يَظُنُّ البَليدُ أن الثَّوْر الأبيضَ كُلُّه شَحْمٌ.	يَعْتَقِـدُ المُغَفَّلُـونَ أن التَّظَاهُرَ بالنِّعْمَةِ نِعْمَةٌ.
72	وُردا اس يتّـــالسن غاس گار تالّونت !	إنما يَحْتاجُ إلى إعادة الغَرْبَلَةِ ما سَاءَ مِنَ الغَرَابِيلِ.	الرَّجُلُ الصِّنْديـدُ لا يَضْرِبُ إلاَّ الضَّرْبَـــةَ القَاضِيَةَ.
73	وُردا يْدمـو ووشّن غاس تنّا يْگا ! ⊙	لا يَخْطُرُ بِبَال الذِّئبِ إلاَّ مَا فَعَلَ !	لاَ يَظُنُّ المَرْءُ سُوءاً بِغَيْرِهِ إلاَّ وهُوَ مِـن خِصَالِهِ هُوَ.
74	وُدم يگان اجمو وْردا يْتّارودا ! *	الوَجْهُ المشتَرَكُ فِيـهِ لاَ يُغْسَلُ.	«الوجه المشروك مـا كيتّغسل» (ترجمة للمثل الأمازيغي). يُضرب مثلا في أن القوم يتواكلون إذا ما اشْتَرَكَ الأَمْرُ بَيْنَهم.
75	مـاني تگـــيت ات تّاويت !	حَيْثُمَا تَعْمَـلْ تَنَـلْ.	«مَنْ جَدَّ وَجَدَ وَمَنْ زَرَعَ حَصَدَ».
76	وُر تّ يوفين امّي تّا يْرا غاس بو يْتران !	لاَ يَنَالُ كلَّ مَا يُريد إلاَّ خَالِقُ النجوم.	«ما كلّ ما يتمنّى المرء يُدْركه.. تجري الرياح بما لا تشتهي السُّفُنُ».
77	ئـدروس ومـــرْواس يتّاوضن تانگّاروت !	مِنَ النَّادِرِ أن يُؤَجَّل أَداءُ الدُّيُـــــون إلى الآخِرَة.	يُعـاقَبُ الإنسانُ على سُوءِ أعمَالِهِ في الدُّنيا بِكَيْفِيَّةٍ مَا، لاَ مَحَالَة.
78	أَگيْرو وْردا يْتّلوغ !	لاَ يَحْمَأُ البَحْرُ.	الإنْسانُ الكَرِيـمُ لاَ يَحقِدُ.

79	تينوبگـا د يمنغـي ؛ وْت وتّاك يوْتـن !	الضِّيافَةُ قِتَالٌ ؛ إضْرِبْ مَنْ ضَرَبَكَ !	لاَ بُدَّ أَنْ تُضِيفَ مَنْ أَضَافَكَ.
80	وْنّا زكّمي تگّت، ماي اك ت يتّنـالان ؟!	ذاك الّذي تَخَافُهُ مَنْ ذَا الَّذي يُوَاجِهُهُ ؟!	لاَ يَلِيقُ بالمرءِ أن يَتَوَاكَلَ خَوْفاً من الشَّدَائِدِ والأهوالِ.
81	ئرژا يـ اغوشّو دات ووْتـول ! ⊙	كَسَرَ القَتَبَ قَبْلَ مَقْتَلِ الأرنَب.	عَجَّلَ بما كان ينبغي أن يُؤَخَّر ؛ فَضَيَّعَ كلَّ شَيْءٍ.
82	نس د امنايْ !	بِتْ فـارِساً !	يُدْعَى بِهِ مَنْ ظَهَرَتْ مَهَارَتُهُ إلى القَصْدِ في التَّظَاهُرِ بهَا، كَيْلا يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلإخْفَاقِ.
83	وُر ييّي اخليجّ الّي زرينت وولّي ! ⊙	صَارَ يَهُشُّ بَعْدَئِذْ مَرَّتِ الغَنَمُ.	«شَرُّ الرَّأيِ الدَّبَرِيُّ !»
84	تسّنم اخ اگّد گ يض ! ⊙	عرفتمونا حتّى في ظلام الليل !	يُضرَبُ مَثَلاً في إصرار القَوْمِ عَلَى ضَيْمِ المُسْتَضْعَفِ حَقَّه، حَتَّى وَلَو وَرَّى ضَعْفَهُ.
85	أياد اي ييّخ زكّيس ليّـخ ! ⊙	هَكَذَا أَنَا مُنْذُ وُجِدتُّ !	يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يُصارِحُ نَفْسَهُ بِضَعْفٍ فِيهِ يُخفيه عَلى الناس.
86	أدّاي تاكر تيكّي تيكّي، تازّطّاطّ ايْنّا !	إذا فَضَلَتِ العَطِيَّةُ العَطِيَّةَ صارت إتَاوَةً.	لاَ تُعَامِلْ إلاَّ كَمَا تُعامَلُ، حَتَّى لاَ يُظَنَّ أَنَّكَ ذَلِيلٌ.

87	كوي تاجليست غر منيدّن نّس د يزرزر !	كلُّ جُعَلٍ فِي نَظَرِ ذَوِيه غَزَالٌ.	«كلّ جدي عند مّو غزال».
88	تنّا يـ اس تمسّي : سا يْسافّن وفن ي سا يْفاسّن !	قالت النَّارُ : سَبْعَـةُ أنهارٍ خَيْرٌ لِي مِـنْ سَبْعِ أَيْدٍ.	العَمَـلُ الجماعِـيُّ لاَ فَائدَةَ فِيهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُنَسَّقاً مُنَظَّماً.
89	وْنّـا يُسمـولاّن يـــ وْيدي يْلّغ اس يمي !	مَنْ يَحْنُ عَلَى الكَلْبِ يُلْحَسْ فَمُهُ.	مَنْ يَتعاطَفْ مَعَ اللِّئامِ يَنْدَمْ لاَ مَحَالَةَ. «... وإِنْ أَنْتَ أكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدا».
90	ما يكّان ينيكّي نّك اي وشّن ؟ ئنّا اس د ابرضوض ينـو ! ⊙	مَنْ هُوَ شَاهِدُكَ يَا ذِئْبُ ؟ قَالَ : هُـوَ ذَنَبِي !	تَزْكِيَـــةُ الأَتْبَـــاعِ وَالمُقَرَّبِيــنَ لَــيْسَتْ بِتَزْكِيَة.
91	أكّد اغنجـا كـــ يفشكا ! ؟	تُرى، حَتَّى المِغْرَفُ مِنَ الآنِيَة !	يُقال تَعَجُّباً مِنْ إِدْخَالِ الرَّجُلِ الدُّونِ في عِدَادِ السَّرَوَاتِ.
92	ئنكـــژ وغُنجـــا تاغنجاوت !	نَفِسَتِ المِغرَفَةُ عَلى المِلْعَقَة، أي حَسَدَتْها.	مِنَ الغَرِيبِ أنَّ المُوسِرَ قَدْ يَحسُدُ المُعْسِرَ عَلى كَسْبٍ تافِهٍ، كَرَاهِيَةً.
93	وْنّا يْوت وفوس نّس وردا يالاّ !	مَن ضَربتْه يَدُهُ لا يَحِقُّ لَهُ بُكاءٌ.	مَنْ ظَلَم نَفْسَهُ لاَ يَلُومُ إلاَّ هِيَ.
94	تاديست اي دا يتّاسين يفادّن !	البَطْنُ هُوَ الَّذي يَحمِلُ الرُّكْبَتَيْن.	قُوَّةُ الجِسْمِ فِي غِذَائِه.
95	دّو يا يـ اعراب ار تافوست !	اِذْهَبْ عَرَبِيُّ، إِلَـى فَصْلِ الرَّبيع.	«حتَّى يَعودَ نَشيطٌ مِنْ مَرْو» (أي إلى أجلٍ غَيْرِ مُسَمًّى) «حَتَّى يَؤُوبَ المُنَخَّل».

96	غرف اس تّ، بار اد اك تّ يغرف ! ⊙	اِصْفَعْهُ بِهَا قَبْلَ أن يَصْفَعَكَ !	بادِرْ عَدُوَّكَ بِالشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يُبَادِرَكَ.
97	وْنّـا يْنغـان شا يْتش ت !	مَنْ يَقتُلْ (طَرِيـدَةً) فَلْيَأْكُلْها.	يُخَاطِبُ بِهِ الشَّرِيكُ شريكَهُ يُوعِدُه بِحَلِّ الشَّرِكَةِ، عِنْدَ الخِصَامِ.
98	ئسْو تّْ يون وغْنجا !	سُقِيَ الكَوْنُ بِمِغْرَفَةٍ وَاحِدَةٍ.	– عَمَّ البَلاءُ أو الدَّاءُ النَّاسَ كافَّةً. – «الناسُ فِي الهَمِّ سَوَاءٌ !».
99	تتوتّي تيشّي خف تِيشّي !	وَقَعَتِ البَعَرَةُ عَلَى البَعَرَةِ.	«وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَةَ !»
100	يوت تستّو يوت !	المُصِيبَةُ تُنْسِي أُخْتَهَا	«تَعَبٌ كُلُّهَا الحَيَاةُ !»
101	وْنّا اك يكّان اوال ييزم، أدور اس تكّا اوال وكرو !	لاَ تُخَاطِبْ بِلَهْجَةِ الخَرُوفِ مَنْ يُخَاطِبُكَ بِلَهجة الأَسَدِ.	لاَ تَتَوَانَ أَمَامَ مَنْ يَتَظَاهَرُ بالقُوَّةِ العَاتِيَة.
102	زّرن اس اكْجّيم، تّان اك د يويدج !	هَلَبُوا ذَنَبَهُ وَقَالُوا : لاَ يَزَالُ مُهْراً !	يُتَمثَّلُ بِهِ اسْتِهْزَاءً بِمَنْ يَتَصَابَى. «... وَهَل يُصْلِحُ العَطَّارُ مَا أفسَدَ الدَّهْرُ ؟!».
103	أدور تسكسيوْ سـ يضارن يـ ونّا اك يسكسون س ودم !	أُنظُر إِلَى وَجْهِ مَنْ يَنْظُرُ فِي وَجْهِكَ، لاَ إِلَى قَدَمَيْهِ.	جَامِلْ مَن يُجَامِلُكَ وَيَحْتَرِمُكَ.
104	وْنّا وْر تري تمطّوطّ، د امّي وْر يوويل !	مَنْ لا تُحِبُّه زَوْجَتُهُ عُدَّهُ غَيْرَ مُتَزَوِّجٍ.	تُعالَجِ الأُمُورُ بالتَّآنِي وَالتَّوافُقِ لاَ بِالقُوَّةِ والقَسْرِ.

105	تولّـــوغت دوزّال، وْژوض د وفّـــال !	الخيْـــرُ حديـــدٌ والشرُّ حِلْتِيتٌ.	«الحقُّ يَعْلو ولاَ يُعْلى عليه». (الخير يتغلّبُ علَى الشرّ لا محالةَ).
106	ئسّونضا وْبوهـــرار كْـ وشضاطّو ! ـــ ئضصا وْبوهرار خف تالّونت !	يَسخَرُ المُنْخُلُ مِنَ الغِرْبالِ الدَّقِيقِ. ـــ ضَحِكَ المُنْخُلُ على الغرْبالِ.	«يُبْصِرُ أحدُكم الْقَذى في عيْنِ أخِيهِ ولاَ يُبْصِرُ الجِذْلَ في عَينِهِ».
107	يوكّر اس ومـوشّ اڤـجـديـم !	صَارَ أصْغَرَ مِنَ القِطِّ جِلْسَةً.	«تصاغرت إلَيْهِ نَفْسُهُ» (أي صَغُـــرتْ ذُلاًّ ومَهَانةً).
108	ئـردن د يـــردرن، أكُرفـا د اكُرفـا !	الحِنْطَـــةُ حِنْطـــةٌ، والحُثَـالــةُ حُثَـالــةٌ.	النَّاسُ معَادنُ. «لَيْسَ القوادِمُ كالخَوافي !»
109	وُردا يْتّـواساغ وول يـ وْنّا يـ ور يلّي	لايُشْتَـرى الفُـــؤادُ لِغَيـرِ ذِي فُـــؤادٍ.	لاَسبيـــلَ إلى زَرْعِ الحَماسَةِ في نـــفْسِ الخَامـلِ الـــذّي لا نَبَاهَةَ لَهُ.
110	أكّار وردا يْتّـــارْو غـــاس اكّـــار !	الـــدّون لاَ يَلِـــدُ إلاّ الـــدُّونَ.	النَّـــاسُ بأنْسابِهِـــمْ وأصُولِهِمْ
111	ئمـــي يْتّيـــــنين «اطّـــان !»، يينـــي «تـوجْـيـــا !».	فَلْيَقُلْ فَمُكَ «بُرءًا !» بَدَلاً مِنْ «سُقْمًـا»	الكلمةُ الطَّيبةُ تُكْسِبُ المودَّة ـــ «ادْفَعْ بالَّتي هـي أحْسَـنُ ...».
112	أمّ ونّـــا يْكّاتـــن كْـ وامـــان، أراس تّافراونْ سـ ودم !	كَطَاعِـــنِ المَـــاءِ، يَتَرشَّشُ عَلَى وَجْهِهِ.	يُتمثَّلُ به اسْتِنْكارًا لِعَمَلٍ لافائِدَةَ مِنْ ورَائِهِ.
113	يوكّر تيدّي يـــ يْميكر كْـ ونموكّار !	إنّـهُ لأَطْوَلُ قَامـةً من السَّارِق في السُّوقِ.	يُتمثَّلُ بِهِ تهكُّما بِمنْ لهُ قَدٌّ وهو خَامِلٌ ؛ لأَنَّ

			سارق السُّوق يخيَّل إليهِ إذا ما افتضح أمرهُ أنه عظيم الجثَّة؛ وهو الرَّاغِبُ في التصاغر والتضاؤل.
114	تاسوسمي ترنا تاموسني !	غَلَبَ السكوتُ الْمَعْرِفَةَ	إنَّ العَارفَ العالِمَ حقًّا لأكثَرُ سُكوتًا مِنْ غَيْرِهِ؛ والسُّكوتُ خَيْرٌ حتّى للْعَالِمِ العارِفِ.
115	تاموسني د اغليف !	العِلْمُ مَهَمَّةٌ.	«ما في الهمّ إلا لّي كيْفْهَمْ»«ذو العقْلِ يشْقى في النَّعيمِ بِعقْلِهِ».
116	أسْي اربا، سرس تاربات ! ⊙	احْمِلِ الصَّبِيَّ، واتْرُكِ الصَّبِيَّةَ.	«وَخَرجوُا عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وذَلُولٍ» (عنْدَ ما يُغارُ عَليهم).
117	ئزّوار اكشّوض ف واژوض !	قدّمَ الحطبَ على السَّفَطِ.	يُتمثَّلُ بِهِ للتَّعجُّبِ مِنْ كَوْن الإنْسانِ يَعْكِسُ الأوْلَوِيَّاتِ.
118	بدر يزم تاروت يد ! (بدر يزم، اد يندر فّيراك).	أُذْكُرِ اسْمَ الأَسدِ يَحْضُرْ ! (أُذكرِ الأسَدَ يَزْأَرْ وَرَاءَكَ).	يُتمثَّلُ به عِنْدَ حُضورِ الوَلِيّ أوِ الصَّديقِ ذُكِرَ اسمُه عَرَضًا قُبَيْلَ مجيئِهِ.
119	بدر ايدي تاسيت تاغُريت نّش !	أُذكُرِ اسْمَ الكَلْبِ وارْفَعْ عَصاكَ !	يُتمثَّلُ بِهِ (في السِّرِّ) عِنْدَ حُضُورِ خَصْمٍ ذُكِرَ اسْمُهُ عَرَضًا قُبَيْلَ مجيئِهِ.
120	أبريد ن تيتّ (= تيدت) يكُزل !	طَرِيقُ الصِّدْقِ قاصِدٌ قَرِيبٌ.	الصَّديقُ يُغْنِي عَنِ التَّحايُلِ والرَّوغَانِ

الرقم	المثل	الترجمة	الدلالة
			ويَكْفي مَؤونةَ الدَّسِّ وَالخِداعِ .
121	تضاصا وْغْيول د اديدا!	ضَحِكُ الحِمارِ عضٌّ	البَليدُ لاَ يُحْسِنُ التَّمازُحَ وَلاَ المُدَاعَبَةَ.
122	يوضن وزكَّر، قدن يـ وْغْيـول ! ⊙	مَرِضَ الثَّوْرُ، فَكُوِيَ الحِمَارُ.	«الصومعة طاحت، علّقوا الحجّام.
123	كور زكّونت غمّونت آدّا يِيزم ! ⊙	قُنووُهُمَا فِي يُوسَتِهِمَا، عَمِّي الأَسَدَ !	«الأمورُ بِعَواقِبِها !» — العاقِبةُ تُمْهِلُ ولا تُهمِلُ
124	ؤول يوران يكتار ت وزْوو !	القَلْبُ الفَارِغُ يَمْتَلِىءُ هَواءً !	لَابُدَّ للإِنْسانِ أن يَكونَ ذا هِمَّةٍ وطُموحٍ لِكَيْ يَنْشغِلَ عَنِ الرَّذائِلِ.
125	أمزْ گْ وبرضوض وغيول، ألّ تنضوت اسيف تبسّيرتّ افوس ! (تسيّرتّ = تسيردت)	تَمسَّكْ بذَنَبِ الحِمَارِ إلى أنْ تعْبُرَ النَّهْرَ، ثُمَّ اغْسِلْ يَدَكَ.	حالِفْ مَنْ هو دُونَكَ واسْتَعِنْ بِهِ وقْتَ الشِّدَّةِ والحَرَجِ، ثُمَّ تخلَّصْ مِنْ عَواقِبِ حِلْفِهِ.
126	أينّا ران ايت علي گنت يـ علي نّسن !	فَلْيفْعَلْ آلُ عَلِيٍّ بِعَلِيِّهِمْ ما يشَاؤون.	قوْمُ الرَّجُلِ أَوْلَى بِجَزائِهِ وعِقابِهِ لأنهم أدْرى بخفاياهُ.
127	أيْلّي يْزرين يمّوت !	مافَاتَ قدْ مَاتَ.	«لّي فات مات».
128	أمزْ تاووري نـ باباك، أور ك رنـون ! *	تَمسَّكْ بِمِهْنَةِ أبيكَ	«صنعة بوك لا يغلبوك !»
129	وْنّا يوكرن تيسگْنيت راد ياكر تاموگايت !	من يسْرِقْ إبْرَةً قَمِينٌ بأنْ يَسْرِقَ بَقَرةً.	السَّرِقَةُ سَرِقَة.
130	ألاّغ غْ وامان، تينزار غـ يگْنـوان !	المَقْعَدَةُ في الماءِ والأنْفُ في السَّماءِ !	«رأسٌ في السَّماءِ واسْتٌ الماءِ !».

140	ونّا مي د يوشكا واسّ نّس يژّل يضارن نّس ! *	مِنْ يَحِنْ أَجَلُهُ فلْيَمْدُدْ رِجلَـيْـهِ.	«ولنْ يؤخِّرَ الله نَفْسًا إذا جَاءَ أَجَلُها»
141	تارزّيفت تڭا يزيكر، تارورا نّس تڭا يـ ارام !	أُهدِيَ إليْـهِ شريـطٌ فجَـــزَى بِبَعِيـــرٍ.	يُتمثَّلُ بِهِ للتَّنبيهِ إلى أنّ الجزَاءَ ينبَغِي أنْ يَكونَ بِقَدرِ الْعَطاءِ.
142	أزيوال ينڭر يبوكاضن اڭليد اي يْڭــا !	الأَحْوَلُ مَلِكٌ وسْطَ العُمْـيَــانِ.	«الأعوَر ملك في أرض العُـمـيـــان».
143	أمژّيان ڭ يغرضاين يكا اڭليد ڭ وخبو نّس !	أصْغـــرُ الفِئَـــرَةِ مـلِكٌ في جُحْـــرِهِ.	للإنسانِ السِّيادَةُ الكَامِلةُ فِي بَيْتِهِ.
144	تاغاوسا نّا وْر تريت سّغلف يدس اركاز نـ يمّاك !	مَا لا يَهُمُّكَ مِـنْ الشُّؤون كِلْه إِلَى زوْجِ أُمِّكَ.	(الرَّبيبُ لاَ يُعامَلُ كما يُعَامل الِابنُ). إنّما يُعْنَى بأمُورك وَلِيُّكَ الّذي مِنْ دَمِكَ.
145	تاموغت يْضان ڭ ومشّو، وّر تسوڭير ڭ يڭّينّا امدلو !	نُباحُ الكِلابِ مِنْ وَرَاءِ السِّيـاجِ لاَ يُزعِــجُ الغُيُومَ فِي السَّماءِ.	«ولقَدْ أمرُّ علي اللَّئِيم يَسبُّنِي .. فَمَضَيْتُ، ثمَّ قُلتُ : لا يَعْنِينِي».
146	أقّـا نـــ ورطّـــال ار يغـــزّد انطّـــار !	الحَبَّـــةُ المُسْتعـــارةُ تُفْسِدُ الكُدْسَ.	لاَ خيْرَ فِي الاسْتِدانةِ.
147	أڭرن نّك ورت انّيغ، أڭو نّك يكّس ي الّـــن !	طِحْـــنُكَ لاَ أَرَاهُ، بَيْنمَـــا دُخـــانُكَ يُبْكِينِي.	شرُّكَ أسْرعُ إلـــيَّ مِنْ خَيْرِكَ.
148	تايْري سـ وانفورن، دْ وول يـــرورن !	يُحِبُّكَ مَحبَّةَ اللِّسانِ والقَــلْبُ هـــارِب.	«... يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلاوَةً ! ...»
149	ؤنژيژ سـْ ووغـون، أنجوف سـْ ووكّيم ! *	النَّبيهُ تُفْهِمُهُ الغَمْـزةُ والبَليدُ تُفْهِمُهُ اللَّكْمةُ.	«الحرّ بالغَمزَة، والْعَبْدُ بالدّبزة».

150	ئلمد تاكرّاطّ ثـ يخفاون يـ ووجيلن ! *	تَعلَّمَ حِرْفةَ الحِلاقةِ في رؤوسِ اليَتَامَى.	«تعلّموا بالْحجّامة في روس ليتاما !».
151	تدّا ات تّسغ اماسّ، تكّ نّ يمالاسّ !	ذهبت لشراء أُدَيَّة، فأقامَتْ أسْبوعًا.	«لاديدي لا حبّ «الملوك»».
152	سا ووسّان يگا اگلّيد؛ سا ووسّان يگا أماساي ؛ ئغزور يگا انكروف !	يَكُونُ مَلِكًا سَبْعَةَ أيّام؛ ويَكُونُ وزيراً سبْعَة أيّامٍ، ثمَّ يكُونُ أسِيراً سائِرَ أيّامِه.	يُكْنَى بِهِ عَنْ العَريسِ أوِ الحَديثِ العَهْدِ بالزَّوَاجِ.
153	مون د وعطّار ات تاويت توجّوت؛ مون د ومزيل ات تاويت يكُفسان؛ مون دوگلّيد ات تاويت ينزْوومن !	رَافِقِ العطَّارَ تُصِبْ عِطْرًا؛ ورافِقِ القَيْنَ يُصِبْكَ سُخَامٌ؛ ورافِقِ المَلِكَ تُسَاوِرْكَ همومٌ.	لِكُلِّ رُفْقَةٍ مَزاياهَا وَفوائِدُها، أو مَساوِئُها وَمحَاذيرُهَا.
154	سّغبو يـ اگوضي، أت تجّاونت تازارت !	عَمِّقِ الحُفْرَةَ تشْبَعْ تينًا.	إنّما يجني الإنسانُ ثِمار عَمَلِهِ عَلى قدْرِ اجتهادِهِ وإتقَانِهِ لِعَمَلِهِ.
155	وينّا مي غا سغوّيخ اك ينغان، آ عمْر آ ممّي !	قتَلَكَ الّذين أسْتَغِيثُ بِهِمْ، ياعمرو يابُنَيّ !	يُتمثَّلُ بِهِ للتَّشهيرِ بالمُفْسِدِ وهو أولى بالإصْلاحِ بِحُكمِ منْصبهِ وَمكانَتِهِ.
156	ئلس يفولكين ار يسفولكاي باب نّس !	اللِّسانُ الطَّيبُ يُطَيِّبُ صاحِبَهُ.	لابدّ أنَّ في حَلاوةِ اللّسان مَا مِنْ شأنِهِ أنْ يُحَبِّبَ الإنسانَ.
157	أموسّو يْگا اهوزّو !	الحَركَةُ رُقِيٌّ.	«الحَركَة بَركة».
158	وُردا يْگمّ وودم ار د يكشف وودم !	لاَ يَتفَتَّحُ وَجهُ إنسانٍ حتّى يذبُلَ وجْهُ إنسانٍ.	في تَنْشِئَة الأولادِ مشقّةٌ، يشيخُ بسَبَبِها الآباء.

159	وْنّا تريت وْش اس ودم، ونّا وْر تريت وشْ اس تاسكّا ! *	وَاجِهْ مَنْ تُحِبُّ، وَاجْتَنِبْ من لا تُحِبُّ.	لاَداعي إلى المُداراةِ والمُصَانعةِ عِنْدَ التَباغُضِ.
160	أدور تّيلي تـ تّازارت، اك ك تشّن؛ أدو تّيلي د يلّيلي اك ك سّوفسن !	لاتكنْ تِينًا فيَأْكُلوكَ؛ ولاَتكنْ دِفْلَى فيَمُجُّوكَ !	«لا تكنْ لَيِّنا فتُعْصَرَ؛ ولاَتكنْ يابِسًا فتُكْسَرَ !».
161	أمّي نّا تسنّو عْويشا، أتّ يتّش محند وعيسا ! ⊙	كَيفَمَا كَان طبْخُ «عويْشة» يأكلُهُ محمد بن عيسى !	إنّما يتحمَّلُ عَواقِبَ تصرُّفاتِ المَرءِ ذووه وبنُو جِلْدَتِهِ.
162	ماني تفرا، أن نّزدم !	سَنُهَاجِمُ إذا مَا اتَّضحَ الأَمْرُ، أيْ عِنْدمَا يَظهَرُ الجانِبُ الغالبُ	يُتمثَّلُ بِهِ للتّنديدِ بِسُلُوكِ المُتَلَكِّىءِ الَّذي لا يُنَاصِرُ القومَ حتَّى يكونُوا غالبينَ.
163	وْت وزّال يون واسّ، ات تّيديرت اسكّاس !	اِضرِبِ الحديدَ يوْمًا وَاحِدًا، تحْيَ حوْلاً كَامِلاً !	إنْ تَكنْ حازماً في مُعالجةِ أُمُورِكَ تَكْفِ نَفْسَكَ مؤونَةَ التّكْرَارِ وَالمُعَاوَدَةِ.
164	وْنّ يسّغلن، أمّزون يوْت !	مَنْ همَّ بِالضَّرْبِ فَكأَنْ قدْ ضَربَ !	«إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّياتِ !».
165	وْنّا يْسّوفسن سـ يكّنّا، تّاغولن اس يسوفسان خف وودم نّس !	منْ يَبْصُقْ وِجهَةَ السَّماءِ يَتَلَقَّ بُصاقَهُ عَلى وَجْهِهِ.	مَنْ يعْتَدُّ بنفْسِهِ ويُبالِغْ لابُدّ أنْ يَلْقى الخِزْي والهَوَانَ.
166	أينّ يلاّن دي تشّويْت اي د يسّالاي وغنجا !	لاَيَنْتَشَلُ مِنْ القِدْرِ إلاّ ما في القِدْرِ.	«كلُّ إناءٍ بمَا فِيهِ يَرْشحُ !».

167	وْشيخ ابغرير ؛ ياغول ي د اخمير !	أعطـيْتُ رغيفًـا فعَادَ إلَيَّ مِلاَطًا.	«ماتدير خير ماثْرا باس».
168	أي يزم نـ تكمّي، أي اوتـول ومـردول !	أسَدٌ فِي البَيْتِ، أرْنَبٌ فِـي المَيـدانِ.	يُتمثَّلُ بِهِ للتَّنديدِ بِمَنْ يَصُولُ عَلى أهْلِهِ وذويه وَيجْبُن أمامَ غيرِهِمْآ.
169	ئردن سـ ورطّـال، تامغرا سـ تغروطّ !	القَمْـحُ مسْتَعَـارٌ؛ والعُـرْسُ بالزَّغـارِد .	يُقَـال فِيمـنْ يتبَاهَـى ويَتبجَّحُ وَهُوَ خَـاوي الوِفـاضِ،أو يتَظاهــرُ باليُسْرِ والغِنَى.
170	ئنّا يـاس «آ بابـا وْتن اغ !». ئنّا يـ اس : «آ ممّي سنّ اغ !» ⊙	قال «أبي، هَا قَـدْ ضَرَبُونـا !» فقَـالَ : «يَا بُنَّي، قَدْ عَرفُونا»	لايُهاجَمُ الإنسانُ ويُزْرَى به إلاّ إذا كانَ ظَاهِرَ الضَّعْفِ والهَوانِ.
171	أمنّوغ نْ ييزم وي واسّ؛ أمنّوغ ويْدي وي وْسكّـاس !	قِتَالُ الأَسَدِ قِتَالُ يوْمٍ؛ وَعِرَاكُ الكَلْبِ عِراكُ سَنَةٍ	مُخَاصمةُ الكِرامِ أهْوَنُ منْ مُخَاصَمةِ اللِّئامِ.
172	ميدّن سّكمان مومّو، نكّ سّكماخ اتمّوا !	بَيْنَما يَكنُـفُ غَيْـري صَبِيًا، أكْنُفُ أنا كُدْسَ تِبْنٍ.	يُعَيَّرُ بِهِ الشَّابُ الَّذي لايَزالُ عَالةً عَلى أبوَيْهِ.
173	أتيك نّش د مـاي تليت !	قِيمَتُكَ فِيمَا مَلَكْتَ.	إنَّما يُقَدِّرُ النَّاسُ ذوِي المَالِ.
174	مون يدسن، أت تّاغت ازار زّكسن !	رَافِقْهُـمْ يُصِبْكَ عِـرْقٌ منْهـمْ.	«مْـعَ مَـنْ شفْـتك شبّهتك».
175	كويْ تكّسغ يسلّوفن يـ وْيـدي يْهبّـزْ	أنَا أفْلِي الكَلْبَ مِنْ قِرْدانِهِ وهُوَ يَنْهَشُني.	الغَبِيُّ اللَّئِيمُ لا يُميِّزُ بيْن منْ يُريدُ بِهِ خيراً

	ديكّي !		ومن يريد به شرّا؛ ولِذَا يُعادِي مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهِ.
176	أدّاي طّوكّوكــن يزكّاون، ماي تدّون يغُيالن !	إِذَا ما نَدَّ البَقَرُ فَمَا بَالُ الحَمِيرِ تَنِدُّ !	مَا شَأْنُ الضِّعَافِ المَغْمُورِينَ يُجَارُونَ الأَقْوِياءَ ويُبَارُونَهُمْ ؟ !
177	يون وسغر يروْي تيرّشت !	عودٌ واحِدٌ قدْ يجْعَلُ كُدْسَ الحَطَبِ سافِلَةً عَلَى عَالِيَةٍ.	«حوتة واحدة تخنّز الشّواري».
178	أزكّر يتّواطّاف زگ ومــزّوغ ؛ أرگاز يتّواطّاف زگ يلس !	يُمسَكُ الثَّورُ مِنْ أُذُنِهِ؛ وَيُمسَكُ المَرْءُ مِنْ لِسَانِهِ.	المِهْذارُ مِنَ النَّاسِ يَبوحُ بِأَسْرَارِهِ فَيَنْكَشِفُ أَمْرُهُ وَيَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ خُصُومُهُ.
179	مردا يْسّمغور ييضص لا گانت تماشّيوين تيزماوين !	لَوْ كَانَ النَّوْمُ يُكَبِّرُ ويُنَمّي لَكانت القِطَاطُ لَبُؤَاتٍ.	الكَسَلُ والرُّكُونُ إِلى الرَّاحَةِ يترتَّبُ عليْهِمَا الخُمُولُ.
180	تولّوغت دْ ووژّوض د اوْماتن !	الخَيْرُ والشَّرُّ صِنْوَانِ.	«الحَسَنَةُ بيْن السَّيِّئَتَيْنِ».
181	ألغُم وردا يْتّانّاي تاعرووت نّس؛ تّانّاي غاس تي نـ وماس !	لاَيَرَى الجَمَلُ «حَدَبَتَهُ» وإِنَّما يَرَى «حَدَبَةَ» أَخِيهِ.	«يُبْصِرُ أحدُكمْ القَذَى في عَيْنِ أَخِيهِ ولاَ يُبْصِرُ الجِذْلَ فِي عَيْنِهِ».
182	آ تاشْويحت نـ تدمرت تكّس ي كم تزمرت !	يا لحْمَةَ الصَّدْرِ، لَيْسَ لِي بِكِ قُدْرَة !	يُتَأَسَّفُ بِهَذا المثَلِ عَلى ما يَتَمنَّاه المَرءُ وَهوَ فِي غَيْرِ مُتناوَلِهِ. «العين بصيرة واليد قصيرة»
183	أزكّر يووْضن تالا، ئمش يسوا يْسوا، ئمش ور يسوي يْسوا !	إِنْ تُورِدِ الثَّورَ ماءَ العَيْنِ فَقَدْ شَرِبَ وإِنْ لَمْ يَشْرَبْ.	قُمْ بِواجِبِكَ وَلاَ تَلُمْ نَفْسَكَ بعْدَ ذَلِكَ.

184	تنّا اسن تيازيطّي واراو نّس «شّووم اغنبو ؛ ئمّا تون ور تلي بوبّو !»	تَقولُ الدَّجَاجَةُ لِفِرَاخِهَا : «أَحِدُّوا مَنَاقِيرَكُمْ ؛ لَيْسَ لِأُمِّكُمْ مِنْ ثَدْيٍ !»	يَتَمَثَّلُ بِهِ الفَقِيرُ مِنَ النَّاس مُخَاطِباً أَبْنَاءَهُ دَاعِيًا إِيَّاهُمْ إلى الجِدِّ والاِجْتِهَادِ.
185	أوال امّ يفيغر ؛ أدّا يفّغ وردا يتّاغول !	الكَلَامُ ثُعْبَانٌ ؛ لاَ رُجُوعَ لَهُ بَعْدَ الخُرُوجِ.	لاَ يَلِيقُ بِالإِنْسَانِ أَنْ يُرْسِلَ الكَلاَمَ عَلَى عَوَاهِنِهِ.
186	تينّيت وريدّ غاس سـ تيميت !	لَيْسَ الخِطَابُ هُوَ خِطابَ الفَمِ (اللسانِ) وَحْدَهُ.	لِلإِنسَانِ مِنَ الوَسَائِلِ التَّعْبِيرِيَّة ما قد يفوق الفَصَاحَةَ، كَالصَّمْتِ وَ الإِعْرَاض وَالنَّظَرِ...
187	ترا ات تّك تيكلين تسكّورت، تتّو تيكلي تْيازيطّ !	رَغِبَتْ فِي تَقْلِيدِ مِشْيَةِ الحَجَلَةِ، فَنَسِيَتْ مِشْيَةَ الدَّجَاجَةِ.	يُسْخَرُ بِهِ مِمَّن يُقَلِّدُ مَا هُوَ فِي غَيرِ مُتَنَاوَلِهِ فُرَصَ التَّمَلُّكِ لِمَا هُوَ فِي مُتَنَاوَلِهِ
188	أمّي فسرّخ تاوّوت كّ واضو !	وَكَأَنِّي أَنْشُرُ فِي الهَوَاءِ ضَبَاباً.	يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَئِسَ مِنْ تَحْقِيقِ مُرَادِهِ فِي إقناع غَيْرِهِ أو إنجاز عَمَلٍ صالح. «بحال لّي كَيْكبّ الما في الرّمل».
189	ئسغي د املاّل، نتّا يْتشار سـ يمورضاص !	الشَّاهِينُ أَبْيَضْ، وهو مَلآنٌ بِلُحُومِ الجِيَفِ.	**«لاَ تَجْعَلَنَّ دَلِيلَ المَرْءِ صُورَتَهُ .:. كَمْ مَخْبَرٍ سَمِجٍ مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ»**
190	أموغد، كّس اس، نغ رنو يـ اس !	اِحْرِمِ العَطْشَانَ كُلِّياً، أَوِ ارْوِهِ كُلِّياً. (اِحرِمْهُ أو زِدْه).	«أموغد» هو في الواقع مَنْ لاَ يَشْبَعُ. والمفهوم مِنَ المَثَلِ هو أَنْ لاَ

			فَائِدَةَ فِي مُحاوَلَةِ إرضاءِ مَنْ لاَ يَشْبَعُ.
191	بدّ، ات تّاكّت ؛ أزّل، اد تّاويت ؛ قّيم، وُر تليت ور تّيليت !	إن تَقِفْ تُشْرِفْ ؛ وإن تَسْعَ تَكسِبْ ؛ وَإِنْ تَقعُدْ تَعْدَمْ وَتنْعَدِمْ.	كَسْبُ المرءِ على قَدْرِ سَعْيِهِ، وَقِيمَتُهُ فِيمَا امتلكَ واكْتَسَبَ.
192	أدور تيژيض اك كّ تشن ! أدور تّمسوس اك كّ أجّن !	لاَ تَكُنْ حُلْواً فَيَأْكُلُوك ولاَتَكُنْ تَافِهاً فَيُهمِلُوكَ !	التعامُل مع الناس يقتضي الطِّيبوبَةَ والحَمَازَةَ فِي آنٍ واحِدٍ.
193	أكوجيل د أكوجيل، مقّار يلا يـ امار !	اليَتِيمُ يَتِيمٌ، وَلَوْ كَانَ مُلتَحِياً.	عَوَاقِبُ الحِرْمَانِ فِي الصِّبَا تُلاَحِقُ الإِنسَانَ طَوَالَ حَيَاتِهِ.
194	يوف لاژ كّار يمنسي !	المَبِيتُ عَلَى الطَّوَى خَيْرٌ مِنْ عَشَاءِ السَّوْءِ.	أن يَزْهَدَ الإِنْسَانُ في الشَّيْءِ خَيْرٌ مِن امتِلاكِهِ مَا لاَقِيمَةَ لَهُ أو مَا هُوَ رَدِيءٌ.
195	نكّ اس يملان تاژاليت ؛ ئزوار ي غر تمزكيدا !	أرْشَدْتُه إِلَى الصَّلاَةِ ؛ وَهَا قَدْ سَبَقَنِي إِلَى المَسْجِدِ	يُتَمثَّلُ بِهِ لِلإِسْتِهْزَاءِ بِمَنْ يَتَحَمَّسُ لِلأَمْرِ، وهُوَ حَدِيثُ العَهْدِ بِهِ، أَوْ يُرَائِي بَعْدَ تأخُّرٍ.
196	وُنّا يتكّسن تامنت، ئقّن ت اد يلّغ اضاض !	لاَبُدَّ لِمَنْ يَشْتَارُ العَسَلَ أن يَلْعَقَ مِنْ أُصْبُعِهِ.	مَنْ يُمارِسُ حُكْماً لاَبُدَّ أنَّه يَمْنَحُ نَفْسَهُ امتيازاتٍ، بطَرِيقَةٍ ما.
197	وُنّا يران اد ياول تامطّوطّ، يانّاي مايْس !	عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ فتَاةً أن يَنْظُرَ أُمَّهَا.	الأُمّ هي أوّل من تَقْتَدي بِهِ الفَتَاةُ فِي أخْلاَقِهَا وسُلُوكِهَا.

198	يوكر ژريغ ت ؛ ئگّورّ فلسغ ت !	رَأيتُهُ يَسْرِقُ، ثُمَّ صَدَّقْتُهُ إذْ أقْسَمَ إنَّهُ لَمْ يَسْرِقْ.	يُتَعَجَّبُ بِهِ مِنْ تَحَايُلِ الرَّجُلِ المَاكِرِ الحُوَّلِ القُلَّبِ الَّذي يَكَادُ الإِنْسَانُ يُصَدِّقُهُ.
199	ؤر يسّينّ ماي يْوتن غاس ونّا يْوتن د ونّا يتّوتن !	لا يَعْلَمُ مَنْ ضَرَبَ إلاَّ الضَّارِبُ والمَضْرُوبُ.	لا يَعْلَمُ حَقِيقَةَ أمرٍ إلاَّ مَنْ اسْتَغَلَّهُ أو تَضَرَّرَ مِنْهُ.
200	ئمنسي نـ تفغولت، تـ تّاردا نـ تقسّولت !	عَشِّ الشَّوْهَاءَ، وَاغْسِلْ صَحْنَهَا.	يُتَمَثَّلُ بِهِ للتشكّي مِمَّنْ يَسْأَلُ الشَّيْءَ وَيَتَغَافَلُ عَمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَى سُؤَالِهِ مِنْ خَدَمَاتٍ.
201	ژّوغر اركاسن، أر تافت يبوزاكّن !	جَرْجِرْ خُفَّكَ مَالَمْ تَجِدْ جَزْمَتَيْكَ.	تَعَامَلْ مَعَ مَا فِي مُتَنَاوَلِكَ رَيْثَمَا يَتَوَفَّرُ لَكَ مَا تَتَمَنَّاهُ.
202	آ تيگمّا مقّورنين، أي ولاون مژّيْنين !	وَا لِلدُّورِ الكَبِيرَةِ وَالقُلُوبِ الصَّغِيرة !	يُتَمَثَّلُ بِهِ لِتَعْيِيرِ الرَّجُلِ الغَنِيِّ بُخْلَهُ وَجَشَعَهُ.
203	ؤنّا ؤر يگّين ور يلّي !	مَنْ لَمْ يَفْعَلْ لَمْ يَكُنْ.	قِيمَةُ وُجُودِ الإِنْسَانِ فِي عَمَلِهِ.
204	غاس ونّا ؤرا يْكّاتن اوردا يْتزگّالن !	مَنْ لاَ يَرْمِي هُوَ المَعْصُومُ مِنَ الخَطإِ وَحْدَهُ.	لَابُدَّ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ أنْ يُصِيبَ وَأنْ يُخْطِيءَ. أمَّا المُتَقَاعِسُ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ فَفِي مَأمَنٍ مِنَ الخَطَإِ.
205	أمّ ونّا يفكان تيفاف يـ ؤغيول !	كَمَنْ يُعْطِي الحِمَارَ «التِّفَافَ» !	يُسْخَرُ بِهِ مِمَّنْ لا يُقَدِّرُ الأَشْيَاءَ النَّفِيسَةَ حَقَّ قَدْرِهَا.
206	مريدّ يـ تالا ؤگادير تالي ؤر ندّير !	لَوْلاَ نَبْعُ التَّلْعَةِ لَمَا حَيِينَا !	كُنِيَ بالنَّبْعِ عَنِ الثَّدْيِ وبِالتَّلْعَةِ عَن صَدْرِ الأُمِّ.

			والمقصُودُ هُوَ تَنْبِيهُ الأَبْنَاءِ إلى مَا للأُمَّهَاتِ مِنْ فَضْلٍ.
207	أغيول يلاّ دّو ييلم نّس !	يُوجَدُ الحِمَارُ تَحْتَ جِلْدِهِ !	الجِلْف مِنَ النَّاسِ لاَ لاَيُدْرِكُ الحَقَائِقَ وَلاَ يَعْرِف الصَّوَابَ إلاَّ إذَا عُنِّفَ.
208	آمـاي تزيـلت اي ايْجّيكْ يليلي ؛ آ ماي ترزّاكْت اي يليلي !	ما أجْمَلَ زَهْرَةَ الدِّفْلَى، وَمَا أشَدَّ مَرَارَةَ الدِّفْلَى !	**«لاَ تَجْعَلَنَّ دَلِيلَ المَرْءِ صُورَتَهُ .·. كَمْ مَخْبَرٍ سَمِجٍ مِنْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ»** !
209	وْنّا يْلسان ولوغن، ئكّا يـ احزّوض !	مَنْ يَلْبَسِ المَلَقَ كَانَ عُرْيَانَ.	مِنَ الضَّعْفِ أنْ يَغْتَرَّ الإنْسَانُ بِتَمَلُّقِ المُتَمَلِّقِينَ.
210	وْردا يْتلّغن انزارن نّس غاس ايدي !	لاَ يَلْحَسُ أنْفَهُ إلاَّ الكَلْبُ !	لاَ يَتَمَدَّحُ إلاَّ الدُّونُ مِنَ النَّاسِ ؛ التَبَجُّحُ مِنْ خِصَالِ الدُّنَاءِ.
211	كّر اوال ڭـ يخف وحْيوض تاجّت تّ !	أَلْقِ القَوْلَ فِي ذِهْنِ البَلِيدِ واتْرُكْهُ !	البَلِيدُ لاَ يَتَرَاجَعُ عَنِ الآرَاءِ المتجَاوَزَةِ التي أُوحِيَتْ إلَيْهِ.
212	لاّ يْتّيني يْمان يـ وارصض : فّغ نغ اد فّغخ !	يَقُولُ الرُّوحِ للصَّدِيدِ : اِزْهَقْ وَإلاَّ زَهَقْتُ !	لاَيَتَسَاكَنُ الخُبْثُ والطَّيُّوبَةُ، كَمَا أنَّ الحَيَاةَ لاَ تَتَحَمَّلُ وُجودَ الصَّدِيدِ في الجِسْمِ.

213	وْت اروكّو، أد ياكْي وغْيول ! ⊛	اِضْرِبِ البَرْدَعَـــــةَ يَسْتَيْقِـظِ الحِمَــارُ !	لَمِّحْ عَسَى البَلِيدُ يَتَراجَعُ عَنْ هَفَوَاتِهِ.
214	قّيماتاخ اكّـُد دّاد!	فَلْنَجْلِسْ هُنَا جَمِيعاً !	ذلك أنَّ رَجُلاً كَانَ وَسْط القَوْمِ وَهُمْ في طريقهم إلى النّادي، فَزَلّت قَدَمُهُ وَوَقَعَ في مَكَانٍ وَحِلٍ ؛ فأراد أن يُوهِم صَحْبَه بأنّه قَصَد الجُلُوسَ. يقال فيمن يُوَرِّي عن كَبْوَتِهِ.
215	غز اي امغوز، أدور سّغبو ؛ وانّا يْغزان شرا وْهرتاك يطّار ديْس ! *	اِحفِرْ يَاحَفَّارُ، وَلاَ تُعَمِّقْ ؛ كُلُّ مَنْ حَفَرَ حُفْرَةً فَفِيها يَقَعُ !	لَقَدْ عَبَّرَ القُرآن الكريمُ أَحْسَنَ تَعْبِيرٍ عَنْ مَدْلُولِ هَذَا المَثَلِ، وذلكَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ : ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاّ بِأَهْلِهِ﴾ فَاطِر، 43.
216	زّرْي سـ توديت تـ تّامنت، ار تـافت ازرّويْ ! *	اِئْتَدِمْ بالزُّبْدِ وَالعَسَلِ، رَيْثَمَا تَجِدُ إِدَاماً !	يُسْخَرُ بِهِ مِمَّن يَشْكُو حَالَهُ وَهُوَ رَغِيدُ العَيْشِ ؛ «دْوّز بالسّمن والعْسل، غْلاما يْجيبْ الله دّواز !»
217	أينّا يْكرز ولغْم يدّز ت ! *	«ذَكَّ الجَمَلُ مَا حَرَثَ !	«لّي حْرث الجَمل دْكّو !» يُسْتَنْكَرُ بِهِ عَمَلُ مَنْ أَفْسَدَ شَيْئاً بَعْدَ إصْلاَحِهِ.

218	سّوسم آ يْزّا، تلاّ غورم تودا نّم ! ⊙	أسْكُتِي «يْزّا» إنَّ لَكِ «تودا» كِ !	يُدعَى بِهِ المَرْءُ إلَى الكَفِّ عَنْ ذِكْرِ مَعَايِبِ النَّاس، مَعَ التَّلْمِيحِ إلَى نَقَائِصِهِ هُوَ.
219	ؤنّا وْر يلّيزن س توغريفت، أد يلّز س وزگن نّس !	مَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِخُبْزَةٍ، فَسَيَقْنَعُ بِنِصْفِهَا.	«لّي ما رضا بْخُبزة، يرضا بنصّها». «مَنْ يَمْشِ يَرْضَ بِمَا رَكِبَ».

فقه القضاء بالمغرب : خواصه ومميزاته(*)

عبد العزيز بنعبد الله

يرجع اهتمامي بالقضاء وتاريخ القضاء بالمغرب لعقد كامل قبل الاستقلال حيث انكببت بعد انهاء دراستي القانونية في كلية الحقوق بالجزائر عام 1941 على درس فقه القضاء على قضاة جهابذة امثال السيد عبد الرحمن الشفشاوني ومولاي احمد بن اليزيد البدراوي عضوي مجلس الاستيناف الشرعي الأعلى ورئيسه السيد محمد المدني بن الحسني ووزير العدلية السيد محمد الرندة، وقد انصبّت دراستي على كتب الفقه عامة وخاصة ما يتصل منها بالقضاء مثل (تحفة ابن عاصم) و(الزقاقية)، وكنت قد حفظت عن ظهر قلب في الكُتَّاب — منذ أواخر الثلاثينات على نسق النظام القديم — معظم المتون المتعلقة بالعلوم الاسلامية ولغة القرآن، وقد لاحظت أن البون كان شاسعا بين القضاء كما عرفته من خلال هذه الدروس والقضاء كما عايشته في المغرب تحت الحماية حيث تقلصت أبعاد اختصاصات القضاء الشرعي وخضع لتوجيهات ومراقبات استعمارية، وما كاد المغرب يستقل بعد عام 1956 حتى هبّ صاحب الجلالة المرحوم محمد الخامس وسمو ولي عهده آنذاك جلالة الحسن الثاني لإصلاح أول جهاز حضاري اجتماعي اقتصادي هو جهاز القضاء لوضع البنية الأساسية والتفريعات العملية في نطاق معرب يستمد مسطرته من أصالة المغرب العربية الاسلامية مع تطعيمات اقتضاها تطور الفكر القانوني ضمن الأنساق الدولية. وكانت تجربة جريئة رائدة حققت هدفين اثنين أولهما : اقتباس الأصلح مما عرفته (العدوتان) (المغرب والأندلس) منذ عهد الموحدين، وثانيهما توحيد القضاء بالنسبة لشعب موحد حاول الاستعمار تمزيقه هو الشعب المغربي في صحرائه وجباله وسهوله.

وقد جرؤ الاستعمار على هذا التمزيق منذ أوائل الثلاثينات عندما اضطرت المقاومة المغربية إلى وضع السلاح بعد عام 1933 ممهدا لذلك بالظهير البربري عام 1930

(*) قدم هذا العرض ضمن سلسلة «محاضرات الأكاديمية» وذلك يوم الأربعاء 17 جمادى الأولى عام 1411/ 5 دجنبر 1990، بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط.

بدعوى غلبة (العرف) أو (ازرف). مما حداه إلى اقامة (محاكم عرفية) بقصد القضاء على الأحكام الشرعية.

وكان القضاء يشمل منذ العصور الأولى شتى مرافق الحياة بالاضافة إلى ما يسهر على رعايته اليوم من قضايا تتصل خاصة بالأحوال الشخصية وضبط المواريث والملكيات وأموال اليتامى والأوقاف ومراقبة العدول ورجال التوثيق والعقود.

وفي نطاق فقه القضاء المترامي الأطراف كان القاضي يشرف على سير التعليم في منطقة نفوذه، فكان قاضي فاس مثلا هو الذي يتولى ترشيح أساتذة جامع القرويين الذين يقوم المخزن بتعيينهم لا سيما وأنه كان يسهر من الوجهة العلمية على نشاطهم وحتى تعويضاتهم بحكم اشرافه على أموال الوقف بفاس. وقد نبه على هذه الظاهرة مؤرخون أجانب مثل (بيريتيي)[1] الذي لاحظ أن تعيين العلماء كان يتم على ثلاثة أشكال حيث كان القاضي هو الذي يعينهم بعد ذلك بأمر من المخزن، ولكن ابتداء من عام 1906 هـ/1324 م أصبح المخزن يعين أساتذة الجامع بظهير شريف.

وكان اشراف القاضي الشرعي على قطاع الاقتصاد المحلي، يتجلى في مظهرين :

المظهر الأول : الحسبة وهي اقتصاد السوق فكان المحتسب هو المسؤول عنها وهو المعروف بـ (prévôt du marché) في أوروبا، وقد اصبح ما يسمى اليوم باقتصاد السوق (économie du marché) الأسيسة الكبرى للنظام الرأسمالي الذي اضطر العالم الاشتراكي اليوم إلى العودة إليه بعدما تنكر له طوال عدة عقود من السنين كما تنكرت له دول عربية واسلامية اختارت اشتراكية غربية، فكان هذا التحول أبرز ميزة لهذا العقد الأخير من القرن العشرين.

المظهر الثاني هو اشراف القاضي على توزيع الزكوات واذكر أن جدّي الشيخ احمد بناني قاضي رباط الفتح في العهد اليوسفي إبان الأزمة الاقتصادية العالمية خلال الثلاثينات كان يوزع توصيات لتحويل الزكوات إلى مستحقيها يتقدم بها حاملها إلى من اكتملت انصبته فيدفع له قيمتها، وكان ذلك يخفف من وطأة التسول. وأذكر أيضا أن صاحب الجلالة الحسن الثاني أمر في أوائل الثمانينات بتشكيل لجنة كنت احد أعضائها أنا والأخ الزميل الأستاذ العميد الدكتور عبد العزيز بن جلون، كانت الغاية منها التركيز على الزكوات للتخفيف من الضرائب والجبايات.

---

(1) Péretié, «Les médersa de Fès», in Archives Marocaines, XVIII, 1912, p. 315.

وهذه السعة في الاختصاصات راجعة لامتداد حكم الشريعة آنذاك على مجموع المرافق الحضارية وإلى ما عرف في العصور الوسطى في أنحاء كثيرة من العالم غير الاسلامي من تقلص أبعاد السلطة وعدم التمييز بينهما طبقا لما عرفناه في العصور الحديثة بأوروبا في اطار الفصل بين السلط (Séparation des pouvoirs).

فأول ما قام به المرابطون البرابرة رد أحكام البلاد إلى القضاة واسقاط مادون الأحكام الشرعية[2]، بل «عدم القطع في أي أمر دون مشاورة القضاة» الذين هم ممثلوا الشريعة[3]، وقد لاحظ (طيراس) Terrasse في تاريخ المغرب «أن المرابطين والموحدين قضوا على بقايا رواسب الوثنية في الأطلس والريف والسهول البربرية وقطعوا أشواطا كبرى في بث الروح الاسلامية في النفوس والتمسك بالشريعة».

ومنذ عهد الموحدين (أي القرن السادس الهجري) اصبح لكل حاضرة كبرى قاض للجماعة يتولى اختيار نوابه في المراكز المحلية وكان الخليفة أي السلطان هو الذي يعين قضاة الجماعة، وذلك في المغرب والأندلس دون ادنى تدخل من الولاة دعما لاستقلال القضاء مع رعاية نوع من فصل السلط.

ولم يكن عدد قضاة المغرب يتجاوز (الخمسة عشر) وان كانت فاس ومراكش تتوفر كل منهما على ثلاثة قضاة مع نواب عنهم في القبائل، وكذلك رباط الفتح في عهد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله، فكان للقاضي بذلك دور سياسي هام، إذ كان تعيين القضاة يحاط بعناية خاصة، ولم يكن حكم القاضي خاضعا لمراجعة محكمة استئنافية عدا رفع التظلم إلى السلطان بواسطة وزير الشكايات لجمع العلماء والنظر في قيمة التظلم فقط دون اصدار حكم جديد. وكان القاضي يتسم غالب الأحيان بالنزاهة والعدل يحرزه ايمانه كما يكبحه الرأي العام.

على أن المغرب عرف أيضا قضاة غير نزهاء وصفهم الشاعر بقوله (ولعله من خصوم القضاة) :

قضاة زماننا اضحوا لصوصا عموما في البرية لا خصوصا
ويكفي انهم لو صافحونا لسلوا من خواتمنا الفصوصا

وقضاء الجماعة بالمغرب يوازي منصب (قاضي القضاة) بالمشرق، ولم يطلق المغرب وصف القضاة على غير الحكام الشرعيين، ومنذ عصر المرابطين كانت زعامة

(2) «ابن أبي زرع» 2 ص 37.
(3) «المعجب» للمراكشي ص 102.

القضاء راجعة لقاضي الحضرة أي مراكش الذي اصبحت له سلطة كبرى على قضاة المغرب والأندلس. وكانت هذه المشيخة تعطى احيانا لقاضي سبتة وطنجة أو قرطبة، وكان القضاة إبان وحدة المغرب الكبير في عهد الموحدين يأتون لتونس من مراكش، في حين كان قضاة المغرب يختارون من سوس أيام السعديين[4] على أن قضاة المغرب كانوا إلى عهد قريب يجلبون من المغرب إلى العواصم العربية لما امتازوا به من عمق وضلاعة. فهذا (عيسى بن مخلوف المغيلي)(746 هـ) يتولى القضاء بمصر، وهذا ابراهيم بن محمد التادلي (803 هـ) يتولاه بدمشق، وكذلك أبو بكر بن مسعود المراكشي (1032 هـ) مفتي عاصمة الشام، ومحمد بن محمد البناني الفاسي مفتي مكة (1245 هـ)، ومحمد بن عمران الكركي الفاسي شيخ المالكية والشافعية بمصر، ويحيى بن محمد النايلي الشاوي شيخ الأزهر (1096 هـ).

وكان للقضاة منذ القرن الخامس الهجري مستشارون ـــ كما يجري به الأمر في عصرنا ـــ لا يصدر القاضي حكما الاّ بموافقتهم تحريا للحق والعدالة، ومن مظاهر التحري في عهد الموحدين أنهم كانوا لا يولّون القضاة في منطقة مّا (من تونس إلى مراكش) أكثر من عامين عملا بوصية الخليفة عمر بن الخطاب[5]. وقد عرف المغرب منذ ذاك مظاهر للعدل والانصاف بين الناس مما كان يعطل القضاء، فتظل (مقصورات القضاء) فارغة لاحتكام الناس إلى انفسهم ولأن القاضي كان يقضي غالبا بأحد أمرين، إما الصلح وإما انزال شرّ عقاب بالظالم، وكان للقاضي نفوذ واسع يستخدم لتنفيذ أحكامه كل القوى المتوفرة، فأصبح قضاة الرباط مثلا يخضعون لأوامرهم جهود الطّبجية أي المدفعية.

وإذا كان للقاضي هذه السلطة الواسعة فماذا كان دور العامل أي والي السلطان على الاقليم ؟ لَعلَّ الأمر لم يتبلور إلا في القرون الأخيرة حيث اصبح عامل فاس مثلا يمثل المخزن ويمارس سلطته تحت مراقبة السلطان أو خليفته بفاس، وربما تجاوز نفوذه المدني إلى بعض القبائل كأولاد جامع في (سهل السايس). ويبقى للعامل في العهد العلوي سلطتان ادارية وقضائية، فكان في نفس الوقت رئيسا للشرطة وقاضيا في كلّ من المجالين التأديبي والجنائي.

على ان (فقه الشرطة) كان يشغل حيزا متميزا في عهد (عبد الله الغالب السعدي

(4) «تاريخ الدولة السعدية» ص 25.

(5) «تاريخ الدولتين» ص 44.

حيث تولى ولاية الشرطة موسى بن مخلوف الكنسوسي السوسي) الفقيه المشارك[6]، وربما التبست بعض اختصاصاته باختصاصات ما عرف منذ عهد الموحدين (بصاحب المدينة) الذي يقوم بتنفيذ شتى الأوامر الشرعية بإشراف، كل من القاضي والعامل مع تدخل (المحتسب)، وهو قاض شرعي لا إداري نظرا لما كان يشترط في تعيينه من تضلع في الفقه وخاصة فقه المعاملات، ونظرا لخضوعه هو وصاحب الشرطة لسلطة القاضي كما كان الأمر بالنسبة لمفضل العذري قاضي الجماعة بفاس حيث ولاه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني واسند إليه النظر عليهما وهذا القاضي هو أول من اتخذ بادرة بناء المدارس بفاس[7].

وإذا كانت تلك هي سمات القضاء في الحواضر، فبم كان يمتاز في البوادي (سهولا وجبالا) لاسيما وان سكانها كانوا يمثلون أربعة أخماس سكان المغرب ؟ لقد كان العرف (ازرف) هو السائد. فما هو هذا العرف ؟ إن كل ما لدينا من نصوص في هذا المجال يتصل بالقرون الخمسة الأخيرة أي منذ أوائل عهد السعديين. فقد حدثنا (الحسن بن محمد الوزان) المعروف بليون الافريقي (القرن العاشر الهجري) عن تجواله خلال القبائل البربرية حيث لمس رغبة الناس في طبع مظاهر حياتهم بالطابع الاسلامي واستعداد البربر لإيواء حملة الشريعة الاسلامية الذين تنقلهم الصدف إلى قراهم وتمنيتهم بالمال، وقد حكّموه هو شخصيا (وهو من علماء فاس) في نزاعاتهم. وفي (الأطلس الكبير) لاحظ (الوزان) أن القبائل تصرف أموالا طائلة على قضاة دائمين كما هو الحال في (مرئيسة) و(بني زروال) و(شيشاوة) و(تينمل) وكذلك (الريف) غير أن كثيرا من القبائل اضطرت إزاء عدم وجود قضاة شرعيين ذوي كفاءة إلى تحكيم جماعة الأعيان الذين كانوا يصدرون ـــ نظرا لجهلهم بالشريعة ـــ أحكاما حسب رأيهم. فكان في ذلك ركون إلى أعراف تجمعت مع الأجيال كتنحية المرأة من الإرث بسبب ما يخشاه الناس من تسرب زوج أجنبي وتدخله في الملك العائلي أو ملك القبيلة. وقد لاحظ (سوردون) أن «تجريد المرأة من الميراث لا يستمد من روح معارضة الاسلام». وفي قلب (أيت باعمران) كان (الحسين بن سعيد الباعمراني) (1351 هـ) يزاول في بحبوحة الاستعمار الاسباني الأحكام بين الناس بالتحكيم حسب الشريعة، وقد أمضى حياته في الافتاء والفصل بين المتخاصمين[8].

---

(6) «الاستقصا» ج 3 ص 26.

(7) «الجذوة» ص 220.

(8) «المعسول» ج 12 ص 173.

فالعرف إذن قانون قبلي يختلف من ناحية لأخرى ويندرج الكثير منه في العادات المحكّمة من طرف الشرع طبقا لقاعدة (تحكيم العرف) ومبدأ (المصالح المرسلة) عند الامام مالك. وقد استغلت (فرنسا) هذا الوضع فأدرجت هذه الأعراف ضمن قوانين مفتعلة كونت محاكم عرفية تحكم بمقتضاها وتساوق عمل اسبانيا طبقا لاتفاقات سرية مع فرنسا فنشر الاسبان تجربة ما سموه بالعرف الصحراوي في كل من (الساقية الحمراء) و(وادي الذهب) قبل محاولة إعطائه الصبغة القانونية بتقديم مشروع في الموضوع لمجلس (الكورطيس)(عام 1960).

وقد عارض سكان المنطقة الصحراوية هذا العرف المفتعل فجنحوا إلى الشرع يطبقونه بواسطة قضاة أو مفتين من الطلبة الذين درسوا الشرع الاسلامي وحذفوا جزئياته فلم يقم أي تصادم بين الشريعة والعرف (كما يقول سوردون ص 342). ولا يخالف أحد في مشروعية العرف الصحيح لأنه كما قال (الونشريسي) في «المعيار» (ج 3 ص 36) كالشرط يقضى به لمن طلبه.

وفي خصوص الصحراء صنف الشيخ محمد يحيى بن محمد الشنقيطي الولاتي (المتوفى عام 1329 هـ/1911 م) كتابا اشترط فيه عدم معارضة الشرع سماه «حسام العدل والانصاف القاطع لكل مبتدع باتباع الأعراف» بين فيه حقيقة العرف وتقسيمه وكيفية استعماله عند الفقهاء في الأحكام الشرعية[11].

كما صنف في نفس السياق العلامة (احمد بن احمد بابا السوداني) المتوفى عام 1036 هـ/1627 م «اجوبته في شأن القوانين العرفية»[12].

وممن أيد الأعراف من الفقهاء في نطاقها الشرعي احمد الونشريسي والشيخ ابن غازي المتوفى عام 933 هـ، وعمر بن احمد بن زكرياء البعقيلي المعروف بعمر والمفتي تلميذ الونشريسي أيضا، وقد أصدر منشورا بخط يده (عام 964 هـ) يعد نموذجا لأعراف سوس[13]. ثم محمد بن ابراهيم بن عمر بن طلحة التمنارتي (971 هـ) وعبد الله بن مبارك اللقاوي (1015 هـ) وعبد الواحد بن احمد مفتي مراكش ومحمد البوعقيلي الهلالي صاحب (لوح حصن زاوية سيدي يعقوب) وصاحب كتاب الأعراف.

---

(9) المرجع السابق ص 342.

(10) في «المعيار» ج 3 ص 36.

(11) توجد نسخة من هذا الكتاب في مكتبة حس حسني عبد الوهاب بتونس رقم 17986.

(12) توجد نسخة في الخزانة الحسنية رقم 5813.

(13) راجع «ألواح جزولة» ص 106.

وهذا التأييد الجماعي راجع لعدم مخالفة الأعراف للشريعة على أن هنالك ما يخالفها في بعض المناطق كالأطلس الأوسط مما حذا ثلة من العلماء إلى التحفظ مثل الشيخ عبد الرحمٰن الجزولي ومحمد الهشتوكي وعبد الرحمٰن التمارتي.

ومهما يكن فقد لاحظ المؤرخون الأجانب وفي ضمنهم دعاة الاستعمار ومساعدوه مثل روبير مونطاني (Robert Montagné)[14] أن الشرع قام منذ أربعة قرون مقام العرف في الجنوب. كما حلل (سوردون) هذا الاتجاه في كتابه («المؤسسات البربرية»، ص 213) مؤكدا أن العادة تسمى عرفا أو شرعا لأن الشرع هو العادة العامة التي هي رصيد (ازرف). فالعرف الحقيقي — كما يقول سوردون — هو تلك المجموعة من الاجراءات الجنائية والاتفاقات المبرمة بين مختلف الجماعات لتحديد بعض نقط العرف أو تعديلها لا سيما في خصوص المخازن العامة (اجدير أو السواقي)[15]. وقد أوردت (مجلة هسبريس ج 4.. سنة 1924) نماذج للقانون العرفي بماسة قبل عام 1298 هـ/1880 م وهو يحتوي على 29 فصلا و190 بندا، وقد نص البند العاشر بعد المائة على أن في وسع شخصين أن يتفقا على احالة دعوى للشرع بعد تقديمها إلى مجلس القبيلة أو الجماعة وأن الواجب يقضي آنذاك بتطبيق الشريعة الاسلامية لا العرف المحلي، وبذلك فتح البرابرة الباب على مصراعيه للتخلص من العرف الوضعي بمحض ارادة المتخاصمين.

ولعل هذا الاجماع على تبني الشرع حتى في نطاق العرف راجع إلى وحدة المذهب وتحكيمه للقادة والتركيز على المصالح المرسلة المالكية، إلاّ أن المغرب لم يعرف دائما هذا الفكر الوحدوي، فقد شهد مؤلف «المعجب»[16] بفاس إحراق كتب المذهب بعد تجريدها من الحديث والقرآن كالمدونة وكتاب ابن يونس و«نوادر» ابن أبي زيد و«مختصره» و«تهذيب» البرادعي و«واضحة» ابن حبيب وما جانس هذه الكتب، فكان يوتي بالأحمال فتوضع ويطلق عليها النار.. وأمر يعقوب المنصور الموحدي من كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة نحو **الأحاديث** التي جمعها محمد بن تومرت، فجمعوها وكان يمليها بنفسه على الناس وياخذهم بحفظها، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخواص، وكان قصده في الحملة **محو مذهب مالك** وازالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر

(14) كتاب البربر والمخزن، ص 98.

(15) المؤسسات البربرية، ص 281.

(16) «المعجب في تلخيص اخبار المغرب»، طبعة سلا، 1357/1938، ص 171.

من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، إلاّ أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا[17]. وقد ذكر صاحب (القوانين الفقهية)[18] أن يعقوب المنصور الموحدي كان (عالما محدثا) ألف كتاب «الترغيب» في الصلاة وحمل الناس على مذهب الظاهرية واحرق كتب المالكية.

وفي هذا العصر (أي القرن السادس) ظهر الخلاف المذهبي فتجرأ ابن عسكر عبد الرحمٰن بن عمر الحضرمي الفاسي (580 هـ) على وضع تأليف نقدي في الخلاف بين المذاهب[19]. كما برزت دراسات نقدية أخرى مثل (شواذ المذهب المالكي) لعمر بن عبد الله بن عبد الرحمٰن القرشي المراكشي 598 هـ.

بالرغم من تمسك المغرب منذ القرن العاشر الهجري بالمذهب المالكي فقد ظهرت نقوص وثغرات في الجهاز القضائي حيث شعر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بسبب ظهور قضاة غير نزهاء — وأمام استعصاء تدخل المستعمرين الأجانب في الجيوب الساحلية — بنوع من الخلل والهلهلة في المسطرة القضائية فاصدر ظهيراً أمر فيه القضاة بكتابة الأحكام في كل قضية في رسمين «يأخذ المحكوم له رسما يبقى بيده حجة على خصمه والمحكوم عليه رسما، ومن حكم ولم يكتب حكمه ولم يشهد عليه العدول فهو معزول» كما في نص الظهير. وكان المخزن يرسل إلى كل قبيلة من يقوم باختبار قضاة البادية قبل تعيينهم حتى لا يتولى سياسة الرعية غير ذوي الكفاءة وتسجيل نتائج الامتحان في تقارير وبيانات ترفع إلى السلطان ليصدر أمره بالتعيين، من ذلك ظهير صدر عام 1877/1294 م اعتمد على تقييد لاختبار عمال (دكالة) وقضاتهم وأشياخهم[20].

وقبله لاحظ المولى إسماعيل جهل الكثير من رجال القضاء الذين تهافتوا على الخطة فأمر بحبس بعضهم ممن امتحنوا فتأكد جهلهم وسجنهم في مشور فاس الجديد حتى تعلموا ضروريات الأحكام، وقد كان للمولى محمد بن عبد الله بادرات قانونية ذات طابع دولي أشار إليها (كايي Caillé) في كتابه حول العقود والمعاهدات في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي قضى على الرق حتى خارج المغرب وحارب القرصنة في البحر الأبيض المتوسط وسبق الغربيين إلى وضع مبادىء في القانون الدولي

---

(17) نفس المرجع، ص 171.

(18) ص 402، طبعة تونس.

(19) «الجذوة»، ص 266.

(20) «العز والصولة» لابن زيدان، ج 2، ص 8.

العام الذي كان (كايي) أستاذي فيه عام 1944. وقد ارجع السلطان القضاء إلى مفهومه السلفي بتقليص مسطرته وضمان فعاليته، وحذا حذوه ولده السلطان المولى سليمان فأنشأ في البلاط ديوانا أسند رياسته إلى قاضي مراكش محمد بن ابراهيم الزداغي وكلفه بالاشراف على حل المشكلات المرفوعة إلى البلاط، وقد استحال هذا الديوان في عهد المولى محمد بن عبد الرحمٰن إلى وزارة للشكايات vizirat des requêtes تقلدها الفقيه علي المسفيوي، وهو المنصب الذي كان يطلق عليه في عهد الحماية المحكمة العليا الشريفة، وربما وزارة العدلية كلها[21]. على أن كل وزير كان يتلقى شكاوي الناس في دائرة اختصاصه، وكان ملزما بتسجيل هذه المطالب ورفعها للسلطان الذي كان يوقع عليها بما يراه بعد درسها وتمحيصها شخصيا، ونظرا لأهمية هذه الشكاوي خصص السلطان يومي الثلاثاء والأحد للبت فيها انطلاقا من جريدة تحرر بأسماء أصحاب الشكايات[22].

قد عرف القرن العاشر ما كان يسمى بيوم الديوان. وهو يوم الأربعاء اتخذه المنصور السعدي للمشورة، فيجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور وعظيم النوازل فيظهر شكايته من لم يجد سبيلا للوصول إلى السلطان[23]. وربما كان ينعقد يومي السبت والاثنين[24].

واهتمام السلطان شخصيا بشكاوي المواطنين من أبناء شعبه راجع لما طرأ على القضاء من فتور حدا ببعض العلماء إلى بيان أهمية القضاء وما اعتراه من نكوص وذلك في دراسات نقدية للوضع القضائي مثل «تحفة النبهاء في التفرقة بين الفقهاء والسفهاء» لأبي القاسم الزياني (1249 هـ)[25] و«اماطة اللثام عن لطافة الأحكام» لعبد السلام اشرقي (1348 هـ) و«رسالة في احكام البادية» لعبد الله رازقة (1144 هـ).

وقد شعر المسؤولون بأن العلم لم يكن كافيا في اختيار القضاة، بل ان النزاهة والخبرة والفطنة كانت من أهم الصفات في ميزان الاختيار، فعديم الفطنة هو المغفل. ويحكى عن قاض مغفّل قدم اليه رجل الثغ أجاب عن اتهامات القاضي بأنه بريء، فنطق بالراء غينا (بغي) فحكم عليه القاضي بحجة اعترافه والشهادة على نفسه، وقد أشار الجاحظ في «البيان والتبيين» إلى ذلك في بيتين :

---

(21) «العز والصولة» لابن زيدان، ج 1، ص 272.

(22) «العز والصولة» لابن زيدان، ج 1، ص 41 – 50.

(23) «الاستقصا»، ج 3، ص 95/ النزهة، ص 142.

(24) «مناهل الصفا» ص 205/ «المنتقى المقصور» — مخطوط.

(25) موجودة بالخزانة الحسنية 9752 – 6180 – 7521./..

وألثغ رأيته يفعل ما لا ينبغي
قلت أنت بري قال بلى أنا بغي

وعندما ترجم ابن القاضي في («درة الحجال» ج 1، ص 39) لأحمد بن محمد الطرون الفاسي، ذكر أنه كان قاضيا بفاس وأنه لم يكن من أهل العلم وإنما ولي لأنهم كانوا يولون القضاء من يكون عليا (أي ذا مال) وإن لم يكن ذا علم لينكف بماله عن أموال الناس وعن الرشوة لا سيما وأن القاضي كان محاطا بمستشارين من كبار العلماء والمفتين أحرار الفكر. ومن أمثال هؤلاء الأحرار الشيخ محمد بن ابراهيم السباعي رئيس قلم الافتاء بمراكش الذي كان يتصرف بحرية كاملة ويطبق الشريعة حسب مقتضيات العصر قائلا تعقيبا على سلفه «هم رجال ونحن رجال».

وكانت مجالات القضاء وأصنافه مختلفة منها قضاء الحواضر وقضاء العساكر وقضاء الحجيج وقضاء النساء وقضاء السوق وهو (الحسبة). فكان المحتسب مثلا يشرف بصفته قاضيا شرعيا على الشؤون الاقتصادية كما قلنا[26] والحرف التقليدية ومختلف الحناطي التجارية والصناعية. وقد لاحظ (باليز) في (النشرة الاقتصادية والاجتماعية عدد 49 و50) أن هذا النوع من النظام القضائي كان يتسم في جميع العصور بالحرية لأن المخزن كان يحترم مبدأ الحرية التجارية قبل صدور ظهير (1336 هـ/ 1917 م) وحرية هذا النظام لم يفسدها ــ كما يقول (باليز) ــ إلاّ الاحتكاك بالغربيين. وكان المحتسب يشرف على هيئة الصيادلة والأطباء وعضوا في اللجنة الصحية التي لم تخل منها أية مدينة ينوب عنها في السهر على النظام وتنقية الأزقة وتعهد المؤسسات العمومية[27]. ولكن ذلك تقلص أواخر القرن الماضي فاقتصرت الحسبة على مراقبة المكاييل والموازين دون كبير تأثير في جهاز الاقتصاد المحلي الذي أصبح يخضع للتطور الهام المحقق في الحقل الاقتصادي على الصعيد العالمي، ويتطلب فكرا خلاقا موجها يشعر بالمسؤولية لادراج الدولاب المحلي في البوتقة الوطنية العامة، على أن القضاء في مجموعه كان يحظى بثقة الشعب نظرا لنزاهة معظم رجاله وحسن أحدوثتهم في الغالب، وقد تحدث (جان موكي Mocquet) في رحلته (1601 – 1909 م) عن قضاة المغرب، فنوه بسرعة وعدالة المسطرة القضائية عندهم[28]. وقد استقر هذا الوضع غالبا إلى مابعد الحماية بقليل.

وذكر (لود فيك Ludovic de Campou) في كتاب «الغرب المعاصر امبراطورية

(26) «نفح الطيب»، ج 1، ص 203.

(27) رينو، «الطب القديم بالمغرب»، ص 36.

(28) الوثائق الغميسة ــ دوكاستري، السعديون ــ السلسلة الأولى، ج 2، ص 400.

تنهار» (ص : 114) أن كل فخذة من القبائل المغربية كانت تشتمل على بنيات ثلاث : (مسجد للصلاة وكتاب لتحفيظ القرآن ومقصورة قاض لاصدار الأحكام الشرعية).

وقد تعزز القضاء المغربي بمراجع تعد بالمآت تحلل المبادىء القضائية والماجريات المتجددة في نطاق الأصالة المالكية والطابع المغربي الذي تتسم به الصِّلاتُ الاجتماعية في معاملات الأفراد والجماعات، وقد برع علماؤها في ايجاد الحلول المواتية لهذه القضايا دون تنطع ولا تعصب علما بأن الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان تتطور حسب مقتضيات العصور متشبثة بروح التشريع مع الاحتفاظ بالأصالة الفكرية والروحية، ويكفي أن نشير إلى ثلاثة من هذه الكتب «حديقة القضاء» للعربي بن عبد الله المستاري رئيس البحر في عهد المولى محمد بن عبد الله[29]. و«قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود» لموسى بن عيسى العقيلي السوسي (791 هـ) و«رسالة اصلاح القضاء» أيام المولى محمد بن عبد الله[30].

وهذه الحرية في التصور والحكم التي امتاز بها القضاء المغربي في أبهى عصوره كانت هي الطابع الذي اتسم به العمل الفاسي والعمل السجلماسي والعمل الرباطي، إذ هي مجموعة (نوازل) شبه ما يعرف اليوم بـ : Jurisprudence (أي ما جرى به العمل). وقد كتبت فيها مآت المجلدات أسهم في إعدادها فقهاء من حواضر المغرب وبواديه فتبلورت فيها آراء جريئة لفض نزاعات ومشاكل طريفة أغنت الفكر الفقهي الاسلامي، وقد نشرنا نماذج لأصحاب هذه النوازل في كتابنا «معلمة الفقه المالكي» الذي نشرته (دار الغرب الاسلامي، بيروت، عام 1403 هـ/1983 م)، وقد أثارت هذه النوازل إعجاب فقهاء العالم الاسلامي بما اتسمت به من جرأة وحرية لا يحيدان عن الشرع الصحيح والعقل الصريح. وهو عنوان كتاب (للحافظ ابن تيمية) وقد حفلت (المكتبة العامة) بالرباط وكذلك (المكتبة الحسنية) بالرباط بالقيم النادر عن هذه النوازل التي هي عبارة عن فسيفساء من الماجريات المتجددة في جبال المغرب وسهوله وصحرائه من شنكيط وسجلماسة إلى درعة وورزازات واسموكة وشتوكة ودكالة وزرهون وطنجة وفاس ومراكش ومكناس ووزان حسب مسقط رأس أصحابها.

إلاّ أننا لم نستطع إلى الآن الاستفادة من كتب النوازل لإلقاء بعض الضوء على الجانب الغفل من حضاريات واجتماعيات تاريخ المغرب. إذ أن (النوازل) عبارة عن قضايا ووقائع عامة عاشها المغرب وكيفت اختياراته ومساراته، ولعل (النوازل) طبعت ثلاثة

(29) نسخة منه في الخزانة العامة 1862 د.

(30) الخزانة العامة 330 د.

مجالات من تاريخ المغرب، فهنالك نوازل ذات طابع اقتصادي مثل (نوازل المزارعة) في «معيار» الونشريسي، وقد ترجمها بيرك (Berque) إلى الفرنسية عام 1940 بالرباط. وكذلك «رفع الالتباس عن شركة الخماس» لابن رحال التادلي (1140 هـ) قاضي مكناس والدار البيضاء[31] و«كشف القناع عن بيان السبب الموجب لتضمين الصناع»، له أيضا نسخ كثيرة في الخزانة العامة والخزانة الحسنية وتطوان. وهنالك صنف ثان من النوازل إقليمي مثل رسالة «الدرة المكنونة في نوازل مازونة» ليحيى بن احمد المقيلي[32] أو نوازل عيسى بن عبد الرحمٰن السكتاني قاضي القضاة بمراكش وتارودانت (1062 هـ)[33] أو «مواهب الأجيال في نوازل البلاد السائبة والجبال» لمحمد بن عبد الله الكيكي (من جبل كيك باقليم مراكش 1185 هـ)[34]. أما النوع الثالث من النوازل فهو أوسع مجالا، إذ يشمل المغرب الكبير والأندلس مثل «الاعلام بنوازل الأحكام» مع ذكر الوقائع والأحداث الأندلسية لعيسى بن سهل الحياني قاضي طنجة ومكناس وغرناطة (486 هـ)[35].

وما قلناه في (النوازل) نقوله في كتب (الوثائق) وهي عقود يسجلها العدول، وقد عرف ابن الخطيب الوثيقة في كتابه (مثلى الطريقة في ذم الوثيقة) أي وثيقة العدول غير النزهاء الذين كان العلماء لهم بالمرصاد حتى قال بعضهم (كل العدول عدول إلاّ العدول) وهنالك كتب أخرى مثل «المقصود المحمود في تلخيص العقود» لعلي بن محمد الصنهاجي الريفي (585 هـ/1189 م)[36]. وكتب العقود والمواريث لأحمد بن محمد الحوفي القلعي قاضي اشبيلية في عهد يوسف الموحدي (580 هـ/1184 م).

وقد أبى الفكر الشمولي المغربي الاّ ان يستعرض (الوثائق) في المذاهب الأخرى كما فعله أحمد بوجيدة الفاسي (357 هـ) حامل لواء مذهبي مالك والشافعي في القرن الرابع الهجري، وكان الملوك يشجعون ذوي الكفاءة من الشباب على اعتلاء أرفع المناصب القضائية، حيث استقضي الفقيه عمر بن عبد الله بن محمد الأغماتي بفاس وهو ابن عشرين سنة، وكذلك الفقيه عمر بن محمد بن حم كردس الدمناتي الذي استقضي بقصبة مراكش وهو ابن عشرين سنة أيضا ومحمد السعيدي بن محمد بن عمر ابن العياش قاضي الجماعة بمراكش استقضاه المولى سليمان بسجلماسة وهو ابن خمس وعشرين سنة[37].

(31) الخزانة العامة، 1862 — الخزانة الحسنية 8671.
(32) الخزانة الحسنية، 3132.
(33) الخزانة العامة، 224.
(34) الخزانة الحسنية، 2292.
(35) جزآن في خزانة القروين ل، 299/80 — الخزانة العامة 1728.
(36) مكتبة الزيتونة (2833/390/ المكتبة الوطنية بتونس، 539 م).
(37) مكتبة الزيتونة «الاعلام» للمراكشي، ج 7، ص 5، طبعة 1975).

والواقع أن خطة الإفتاء كانت تعتبر سندا قويا لتعزيز القضاة ولحملهم على التحري خشية الاصطدام بآراء مخالفة تستند إلى نصوص فقهية أقوى وأعلق بالموضوع وقد ظهر الافتاء بالمغرب في عهد محمد الشيخ السعدي اقتباسا من الأتراك وإن كان المغرب قد توفر قبل ذلك على مفتين، ولكن دون صبغة رسمية، أمثال ابن العجوز عبد الرحيم السبتي الأصيلي شيخ الفتيا الذي تتلمذ لابن زيد القيرواني وتوفي عام 413 هـ/ 1022 م، وأصبح الافتاء من أسمى الوظائف لا يرخص فيه إلاّ لذوي المروءة والدين فضلا عن الضلاعة في العلم، وكان العزل والعقاب والتنكيل مآل من «طرأ عليه أو ظهر منه ما يخالف ذلك». وقد صدرت ظهائر شريفة في الموضوع أمر فيها المولى عبد الرحمٰن بن هشام برفع يد المفتين عن الفتوى بطنجة نظرا لفساد الأحكام والتلبيس على العوام وذلك في 25 رمضان 1274 هـ. ولعلنا نجد مفتين يفتون للمدعي والمدعى عليه انتجاعاً للمال.

وكان مجلس المفتين بالمغرب يعمل تارة كمحكمة عليا للنقض والابرام وأخرى كهيئة استينافية، وهذا المجلس يجمعه السلطان عند الحاجة للنظر في قضية فقهية قبل احالتها على محكمة جديدة. وكان السلطان يصدر الأحكام مرة في الشهر ويتلقى طلبات الاستيناف ويتقاضى أمامه الأجانب أكثر من رعاياه، وقد سقط آنذاك في أيدي بعض القناصلة الأجانب الذين كانوا يطالبون بحرية التقاضي ضمن امتيازات **capitulations** في خصوص الأجانب والمحميين من المغاربة.

وهكذا يمكن القول بأن أول قاض بعد السلطان هو المفتي الذي يتلقى طلبات الاستيناف، وكان هنالك ثلاثة مفتين بمراكش وفاس وتارودانت. وقد شملت عناية ملوكنا العلويين رجالات الافتاء في سائر أنحاء العالم الاسلامي وخاصة في الحرمين الشريفين حيث حبس السلطان سيدي محمد بن عبد الله أموالا طائلة على رجال الافتاء في المذاهب الأربعة.

والواقع أن فعالية وشمولية وعالمية خواص فقه القضاء الاسلامي لم تكن وليدة العصور المتأخرة، فقد وضع يعقوب الكوهن المعروف بالفاسي وهو يهودي، (توفي عام 404 هـ/1013 م وولد بقلعة ابن احمد قرب فاس) ـــ تعليقا جديدا على التلمود في عشرين مجلدا ـــ يعتبر إلى اليوم من أهم مراجع التشريع العبري ضمنه 320 فتوى بالعربية اقتبسها من الماجريات المالكية المغربية. والفاسي هذا هو الذي أسس في اليسانة ((Lucena)) معقل ابن رشد في الأندلس (معهدا للدروس العليا التلمودية)، وفي القرن الماضي جمع أحد أساتذة القانون في مدريد 1151 عقدا للنوازل التجارية محرّرا باللغة العربية، وقد نص على ذلك صاحب المدجنون في طليطلة في القرنين الثاني والثالث

الميلاديين. ولا يجهل أحد مدى تأثير فقه القضاء في بعض التشريعات الأوروبية كمدونة الفقه المدني المعروفة بمدونة (نابليون) حيث اقتبس خاصة في مادّة الأحكام والعقود والالتزامات.

وقد علل (روني مونطاني)[38]. هذه الفعالية للغة العربية بكونها تشكل للحضارة العالمية أداة للتعبير عن الفكر الديني والسياسي، وقد سانده (ماسينيون) ملاحظا أن استمرار حياة اللغة العربية دوليا — لمن يعرفها طبعا ويدرك عمقها — يعدّ عنصراً أساسياً لمستقبل السلام بين الأمم.

ولن نختم هذا البحث دون أن نشير إلى نموذجين من الدراسات حول علم يندرج في فقه القضاء المسؤول عن المواريث والأهلة لنتبين مدى شمولية الفقه بالإضافة إلى علم منفصل يعد من فروعه هو علم التوقيت والفلك وكذلك علم الفرائض، ويشكل كلاهما علما يدخل في الفقه والحساب، برع فيه كثير من علماء المغرب نظرا لصلته الوثيقة بجانب هام من الشريعة الاسلامية وقد تحدث عنه ابن خلدون[39]. ومن العلماء الذين برزوا في ذلك : ابن البناء احمد بن محمد الأزدي المراكشي الرياضي الحيسوبي صاحب «الفصول في الفرائض» الذي شرحه يعقوب بن أيوب بن عبد الواحد الموحدي[40]. وابن رشد الحفيد محمد بن أحمد الفيلسوف الطبيب صاحب «المقدمة في الفرائض» على عقيدة الامام، توجد نسخة في الجزائر 598 والفاتكان 1416 عليها عدة شروح منها شرح محمد بن ابراهيم التناني (المتحف البريطاني 627/ باريز 1057 – 1061).

تلك فذلكة مقتضبة تعطينا صورة عن مدى ثراء تراثنا الفقهي الذي عرف له قيمته الدولية كل من صاحب الجلالة محمد الخامس وصاحب الجلالة الحسن الثاني عندما تشكلت بعد الاستقلال لجنة مدونة الأحوال الشخصية التي انطلقت من هذا التراث وهو تراث يعطي للفقه الاسلامي بعدا دوليا أبرزه المؤتمر العالمي للقانون المقارن Droit Comparé الذي انعقد بباريس عام 1951 ملاحظا صلاحيته لكل مستجد من مفاهيم وتقنيات، واستجابته لمتطلبات الحياة المعاصرة.

---

(38) «البربر والمخزن»، ص 52.

(39) «المقدمة»، ج 1، ص 810.

(40) الخزانة العامة، رقم 539.

الخَيلُ والفروسية في مؤلفات الأندلسيين

محمد العربي الخطابي

تحفل الخزانة العربية بعددٍ من المؤلفاتِ تُعنَى بالخيلِ والفروسية، كما أن المعاجمَ العربيةَ تُفْسِح مجالاً واسعاً لألفاظِ اللغةِ المتّصلةِ بصفاتِ الخيلِ وخَلْقِها وأحوالِها وما يُستَحسَن منها وما يُسْتَقْبَح مع كلِّ ما له علاقةٌ بالفروسيةِ والسباقِ والأسلحةِ وما إلى ذلك[1].

ويحتوي التراثُ الأدبيُّ والعلميُّ الأندلسيّ على عددٍ من هذه المؤلفاتِ المَعْنِية بأمورِ الخيلِ والفروسيةِ نذكر منها جملةً مما حَفِظه الزمنُ أو وَصلتنا أخبارُه، وهي :

1 – «كتاب الاحتفال في استيفاء تصنيف ما للخيل من الأحوال» تأليف أبي عبد الله محمد بن رضوان ابن أرقم[2]، «من وجوه وادي آش وأعيانِها»، أَلَّفَ كتابَه هذا للسلطان النصري أبي عبد الله محمد الغالب بالله بن يوسف (635 – 671 هـ/ 1237 – 1272 م). وكانت وفاةُ ابنِ أرقم عام 657 هـ/ 1238 م.

2 – «مَطلَع اليُمْنِ والإقبال في انتقاءِ كتابِ الاحتفال» تأليف أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أحمد ابن جُزَيْ الكلبي الغرناطي[3] المتوفّى سنة

---

(1) من ذلك ما ورد في «المخَصَّص» لابن سيده، السفر السادس «كتاب السلاح» ص 107/16، و «كتاب الخَيل» ص 198/135

(2) ابن الخطيب السلماني، «الإحاطة في أخبار غرناطة» تحقيق محمد عبد الله عنان، (القاهرة 1397 هـ — 1977 م) 2 : 143/141 ؛ وأبو محمد ابن جزي الكلْبي، «مطلع اليمن والإقبال» تحقيق محمد العربي الخطابي، (بيروت 1406 هـ / 1986 م)، ص 7 — 8.

(3) «الإحاطة» 2 : 143/142 ؛ أحمد المقري «نفح الطيب»، تحقيق إحسان عباس (بيروت 1388 هـ / 1968 م) 5 : 546/539، وأحمد بابا التنبكتي، «نيل الابتهاج»، ص 229/228 (طرابلس 1989) ؛ وشمس الدين السخاوي، «الضوء اللامع» 5 : 42، وهو المصدر الوحيد الذي ذكر تاريخ وفاة ابن جُزَي، ووصفه المقرى بالشيخ المعَمَّر.

810 هـ / 1407 م ألَّفه صاحبُه نزولا عند رغبة السلطان النصري أبي عبد الله الغنّي بالله (755 — 793 هـ/ 1354 — 1391 م) وهو بمثابة اختصارٍ لكتابِ ابنِ أرقم المذكورِ آنفاً، اتَّبع فيه ابنُ جُزَي نَسقاً جديداً في ترتيب الأبواب وحَذفِ الألفاظِ الغريبة واللُّغاتِ الحوشية، وأسقط منه أبواباً عِدَّة وأضاف إليه فوائدَ علميةً ومحاسنَ أدبيةً، كما قال في خطبة كتابه(4).

وموضوع الكتابين المذكورين : صفاتُ الخيلِ وأحوالُها واعتناءُ العربِ بها وذِكْرُ فضلِها والحَضُّ على ارتباطِها وإكرامِها والنهيُ عن تعطيلها وإذالتِها مع إيرادِ أسماءِ الخيل الأعلامِ وأيامِ العرب في الجاهلية والإسلام، وما يَتعلّق بالسِّباق والرهان، ونُتَفٌ من علم الفراسة.

3 — «تحفة الأنفس وشِعار سكّان الأندلس»، تأليف أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هُذَيْل(5) المتوفى عام 763 هـ/ 1361 هـ، ويشتمل هذا الكتابُ على قسمين : القسم الأول في الجهاد والرباط والفروسية والتجَنُّد مع ذكر مشاهيرِ فرسانِ العرب في الجاهلية والإسلام، وهذا القسمُ مرتَّبٌ على عشرين باباً.

وأما القسمُ الثاني فيختصُّ بالخيلِ والسلاحِ والعُدَّةِ على الإطلاق، وهو أيضاً مُرتَّب على عشرين باباً، وقد جَمَع ابنُ هُذَيل تأليفَه هذا — كما قال في مقَدمته — من جملةِ تواليف ذكر منها :

- سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد.
- يقظة الناعس لتدريب المجاهد والفارس.
- تهذيب الإمعان في الشجاعةِ والشجعان.
- رواحة القلوب والأرواح في الخَيل والسلاح.
- سراج الملوك [لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي]
- العقد الفريد [لابن عبد ربه]
- كتاب ابن أخِي حِزام [أبو يوسف يعقوب، له كتاب الفروسية والشجاعة]
- كتاب [عبد المؤمن] الدمياطي في [فضل] الخيل.
- رسالة الفَرَس.

4 — كتاب في فنون الفروسية والرجلةِ والمعرفة بالدواب وأحوالها والعملِ بالأسلحةِ والتدرُّب عليها وما يحتاج إليه الفارس من آلته، وهذا الكتابُ لم نَجِد له

(4) «مطلع اليمن والإقبال»، ص 20 — 22.

(5) لم يُطْبع من كتاب «تحفة الأنفس» سوى الجزءِ الثاني منه، حققه محمد عبد الغني حسن وصدَر بعنوان «حِلْيةُ الفرسان وشعار الشجعان» دار المعارف (القاهرة 1951).

عنواناً في النسخة الخطية التي اطلعنا عليها، وهو مجهُول المؤلف، ويتجه اتجاهاً عملياً في تناول موضوعه، وفيه أبوابٌ مخصّصةٌ لما يكون في الخيل من عيوبٍ وعِلَلٍ وأمراضٍ وكيفية تشخيصها وعلاجها وغير ذلك مما يدخل في باب البيطرة، وهذا الكتابُ ظاهرُ الأهمية من حيث إن مُؤلفَه كان متمرساً بالفروسية عارفاً بآلاتها ومراكبها مَعنياً بأمور الرباط والجهاد كما يذكر في مقدمة الكتاب[6].

5 – «سيرة أجواد الأنجاد في مراتبِ الجهاد» وهو على أهميته مجهولُ المؤلِّف و لم يَرِدْ له ذكرٌ في المراجع الأندلسية التي تُعْنَى بتراجم الرجالِ، وحتى ابنُ هُذَيلٍ نفسه الذي جعله من جملةِ مراجعه اكتفى بذكر اسمِ الكتاب دون إشارةٍ إلى مُؤلِّفِه.

إن هذا التأليفَ يَستَحِقُّ منّا وقفةً أطولَ لبيانِ موضوعِه وأقسامِهِ قبل تقديمِ فصولٍ منه لمزيدِ الإفادة والبيان.

يَحتوِي الكتابُ على ثلاثةِ أجزاء ـــ كما جاء في مقدِّمته ـــ فالجزءُ الأول منه يَبحث في صفاتِ الخيلِ والسلاحِ وما يتّصلُ بذلك من تَعَلُّمِ الركوبِ والتدرُّبِ على حَمْلِ السيوفِ والرماحِ والتّروسِ واستعمالِها ؛ والجزء الثاني يَبحث في العنايةِ بصحةِ الدوابِّ وأدوائها ووسائلِ علاجِ مايعتريها من عِلَلٍ أو يُصيبها من آفات.

وأما الجُزء الثالث ـــ وهو مفقود ـــ فقد عَرَّفَه المؤلِّف تعريفاً قصيراً يَشوبه الغموض فقال إنه : «نتيجةُ المقدّمتين ومرتَقَى الدرجتين»، وهو كلامٌ لا يُفيدنا شيئاً يُمكِن أن يُعَرِّفنا بموضوعه وأبوابِه ومنحاه إلاّ أن يكون المقصودُ أنَّ المؤلفَ قد جَمَع في هذا الجزءِ أقوالاً له ولغيرِهِ تُوضِّح أو تُلَخِّص ما جاء في الجُزء الأول والثاني.

ويهمنا من هذا الكتابِ الجزءُ الأول، وهو مرتَّب على تسعة أبواب :

الباب الأول في تعلُّم الركوبِ على اختلافِ حالاته وما يَجب ويجوز ويُمنَع فيه من إشاراته :

الباب الثاني : في العملِ بالسلاح وما يَليق به ويَجْرى مجراه.

الباب الثالث : فيما يوصَى به الفارسُ من أمرِ سلاحِه وفرسِه وأداتِه، والوصيةُ بالخيل.

الباب الرابع : في تسميةِ أعضاء الفرسِ وخَلقِه وما يَتّصلُ بذلك من غُرَرِه وبُقَعِه وسائِر ألوانه.

(6) توجد من هذا الكتاب نسخة خطية بالخزانة الحسنية في القصر الملكي بالرباط، رقمها 6101 (انظر المجلد الثاني من فهارس الخزانة الحسنية، ص 234 – 235).

(7) انظر المجلد الثاني من فهارس الخزانة الحسنية، ص 233 – 234، والمجلد الرابع، ص 178.

الباب الخامس فيما يُختار من ألوانِه وصفاته ويُحْمَد، وما يُكْره منها ويُذَمّ وما يَليقُ بذلك من سائر أوصافه.

الباب السادس فيما يَدُلّ من أوصافِه على كَرَمِه وعِتْقِه ويَجري مجرى الفِراسةِ فيه على اختلاف حالاتِه وما يتَّصل بذلك من التعليل والتمثيل.

الباب السابع في أسماءِ السلاحِ وأوصافِه وما يَليق بذلك من أحواله وذكر أسماء الضربات والطعنات.

الباب الثامن في ذكر المسابقة والسوابق وما هو بطريق ذلك من التضمير وعوامله ولواحقه.

الباب التاسع في ذكر ألفاظٍ شَتَّى وتَسمياتِ أشياء تختصُّ الخيل بها في سائِر تقلبِها واختلاف أحوالِها، جماعاتُها ووِحْدَانُها.

وقد اخترتُ من هذا الجزء الأول أبواباً وفصولاً رأيت أنها تَخرج عن مألوف المصنَّفات التي تُعنى بالخيل وأحوالِها وصفاتها وألْوانِها وإكرامِ العرب لها وأشعارِهم فيها، ولذلك فإنّ الفصولَ التي انتقيتُها من هذا الكتاب إنما تختصُّ في جُملتِها بإبراز الجانب العمليّ من شؤون الفروسية كتعلُّم الركوب والعمل بالسلاحِ وسياسةِ الجياد وَتَهيِئَتها للسباق بالتَّضمير والتَّرويض، كما اخترتُ من هذا الجزء فصلاً طريفاً أورد فيه المؤلّف ما يُستَحَبُّ من صفاتِ كَلْبِ الصيد، لأنَّ ذلك عندهم من تمام الفروسية، ولأنّ أصحابَ الخيل يرون أن كلابَ الصيد «من أشدّ الحيوانِ شَبَهاً بالخيل ومناسبةً لها باعتبارِ ما يُحتاج فيها من الجَرْي، ولذلك حُكِيَ أنَّ مسلمَ بنَ عمرو أرسل ابنَ عَمٍّ له إلى الشام ومصر ليشتريَ له خَيْلاً فقال : لا عِلْمَ لي بالخيل ـــ وكان صاحبَ كلاب ـــ فقال له : أَلَسْتَ صاحبَ كلاب ؟ قال : نعم، قال : فانظر كلَّما تَستحسِنه في الكلب الصائد فاستعمله في الفرس، قال : فقَدِم بخيل لم يَكُنْ في العرب مثلُها»[8].

والفصول التي أقدمها فيما يلي من كتاب «سيرة أجواد الأنجاد» اعتمدت في إخراجِها وتَحقيقها على النسختين المحفوظتين بالخزانة الحسنية بالرباط.

وقد سلك المؤلف ـــ كما سنرى ـــ طريقَة الإيجاز والاقتضاب مع متانةٍ في الأسلوب وعناية بأمور اللغة وضبط لألفاظها المتَّصلة بمادّة الكتاب الذي صَدَّره المؤلف بمقدمة بَيَّن فيها ضرورة الاستعداد للدفاع عن الحوزة ومدافعةِ العَدُوّ، مُشيراً إلى بلاده

(8) «مطلع اليمن والإقبال»، ص 185 - 186.

الأندلسية التي قال عنها «والله أعلم لما هي عليه من كثرة العَدُوِّ وقِلَّة الهُدوء»، وأهدى المؤلف كتابه لسلطان زمانه، وقد وجدنا في المخطوطتين بياضاً في المكان الذي كان ينبغي أن يُكْتَب فيه اسمُ هذا السلطان الذي من المرجَّح أن يكون من بيتِ بني نصر، أصحابِ مملكة غرناطة.

وفيما يلي ما انتقيته من هذا الكتاب :

البـــاب الأول

في تعلّم الركوب على اختلاف حالاته وما يتعلّق بذلك وما يتّصل به

فصل، في ابتداءِ ركوب [الفرسِ] العربي.

اعلم ـــ سلّمك الله وحَفِظك ـــ أن أصلَ الفروسية ومبدأها إنما هو على العربيِّ من الخيل، ومن لم يتدرَّبْ على عربيٍّ لم يَصح في الأكثر ركوبُه ولا استحكم ثبوتُه، بل يكون أبداً قَلِقاً في سَرْجه لا سيما عند خبّه ورَكْضه فلا يُؤمن سقوطه إن اضطرب أو اعترته غفلةٌ أو أصابت فرسَه هنة.

فمن أراد التَّفرُّس على العربيّ فَلْيَلبس ثياباً مشمَّرة أخفَّ ما يُمكنه ويُلْجِمْ فرسه ويَشدَّ عليه حبلَ صوفٍ أو شعرٍ وثيقِ الحزامِ واللَّبَبِ فإن الراكبَ على الجَلِّ أثبتُ منه على المُجرّد، ويَقف عن يسارِ الفرسِ عند مَنْكِبِه ويُمسك عنانَ فرسه بيده اليُسرى، وإن أخذَ العُرْفَ مع العِنانِ فلا بأس به، ويَثِبُ بسرعة، فإذا استوى على ظهره جمع يَديه بالعنان عند كاهِلِ الفرس ونصب ظَهْرَه ولَزِم بفخذيه موضع دَفَّتَيْ السرج، ويتقدَّم قليلاً، والتقدُّمُ على العربيِّ أحسن من التأخُّر، ويَمدُّ ركبتيه وساقيه وقَدميه إلى كتفي الفرس حتى يُمكن أن ينظر إلى إبهامَيْ قدميه، ولْيَكُن اعتمادُه على اللزوم بفخذيه فيحوز الثباتَ إن شاء الله.

وتسويةُ العِنانِ أصلٌ في الإحسان والإتقان، ثم يُخرج فَرَسَه كما تقدّم ثم يَركب، ولْيَحْذَر منه على ذَقَنِه إن كان يَبلُغه، وأما إن قَصُر يسيراً فلْيَأخذه تحت إبطه فيركب على ما تقدّم.

فصل في الركوب بالرمح.

وأما الركوبُ بالرمح فهو أن يأخذَ الرجلُ رُمْحَه بيمينه وعنانَه بشماله مع قَرَبوسِه[9]، ويَعمل في الإمساكِ والوقوفِ والمحاولة كلِّها كما تَقدَّم، ويَضع زُجَّ[10] رُمْحِه في الأرض وليُبعده منه قليلاً، ويضع صدرَ رجلِه اليسرى في ركابه الأيسر ثم يَعتمد على الرُّمح ويَشيلُ نفسَه وينْهضُ وهو يُدير الرمحَ على كَفَلِ الفرسِ إلى الجانب الأيمن حتى يَستقلَّ بسرعةٍ ثم يضع الرمحَ في يساره مع العنان ويُسوّي ثيابَه وآلَتَه بيمينه ثم يَصرف الرمحَ إلى يمينه.

وإن كان في صحراء و لم يَقْرُب منه إنسانٌ يخاف أن ينالَه الرمحُ أو شجرةٌ يَنشَبُ فيها فَلْيَأْخُذْ إن أَحبّ وسطَ الرمح بيده اليسرى مع العِنان والعُرْف ـــ إن رأى ذلك ـــ أو القربوس إن كان أخذَ العُرف بيساره ويَركب.

ولا ينبغي أن يتعرَّضَ الرجل لأَخْذِ رُمحه من الأرض وهو راكب، فربما وَطِئه الفرسُ فكَسره أو ضربه فأَبعده عنه، بل ينزل ويأخذ ويَركب على ما وصفت.

فصل.

وأما النزول بالرمح فهو أن يأخذه بيساره ويَضعَ زُجَّه بالأرض عند يد فرسه اليسرى ويأخذ القَرَبوس بيده اليمنى ثم يَنزل، وحين يَصيرُ إلى الأرضِ يأخذُ رُمحَه بيمينه بسرعة لِئَلاَّ يدورَ عليه الفرسُ فَيُحطِّمه أو يُصيبَ الأرضَ بسِنانه أو يَعْقِرَ أحدا به، فلْيلتفت. هذا كلُّه فيه تعلُّمُ الفرسان.

البـــاب الثانـــي

في العمل بالسلاح

اتخاذ السلاح من فَرْض الجهاد لقول الله تعالى : ﴿وأَعِدّوا لهم ما استَطعتُم من قوة...﴾[11] واقتناؤها للواجد على قَدْر همَّته وعزَّة نفسه إلى ما في ذلك من الأجر.

---

(9) القربوس هو حِنْو السّرج، وهو الجزء المرتفع في مقدّمة السرج ومُؤخرته، وهما لذلك قَربوسان.

(10) الزُجُّ (بضم الزاي) : حديدة تكون في أسفل الرمح.

(11) سورة الأنفال، 60.

قال رسولُ الله ﷺ : «مَنْ أَعدّ عُدَّةً في سبيل الله جُعلَت في ميزانه كل غداة» وقال : «تعرض أعمال بني آدم كلَّ اثنين وَكُلَّ خَمِيس، فَمن زاد في سلاحِه زِيدَ في حَسناتِه، ومن نقَصَ من سلاحه نُقِصَ من حسناتِه».

وجودةُ العمل به من كمال الرجولية وحلْية الذكورية. وما يُذكَر من ذلك في هذا العمل إنما هو نُبذةٌ وإشارةٌ قريبة، ومع الدُّربة بهما وإتقان العمل بهما يتمكّن للحاذق الكَيِّسِ أن يتوسَّع فيما سِوَاهما ويَستنبط بحسب فِطرته ما عداهما.

فصل في العمل بالتُّرس.

يَجب أن يَتّرس بوسط تُرْسه من السيف والمِزراق[12] والحجارة، ويُديره يمنةً ويسرةً خارجاً عن محاذاته ولا يُلصِقه ببدنه متى خاف وَقْع شيء به،ويَدْرأُ به عن نفسه في إدارته وعن فَرسه، وأن يَلقى الحجرَ بصدر الترس أحسن، وَلْيُوَرِّ به[13] لِيَزِلّ ما يَقَعُ عليه، ويَتّرس من الرمح بجُملته ومُعظمه، فإن أحسَّ بوقع السِنان به وَرَّى وأَخَّره عن بدنه، ولْيَحذر الاعتمادَ عليه عند ذلك بجِسمه لِيَلاّ يَصدعَه، وَلْيَحْذَر أيضاً عند تَوْريتِه به أن يَزِلّ عنه السِّنانُ فيتعلّق بثوبه. فهذا المقدارُ هو الذي يَنبغي أن يُحافَظ عليه ويُكتفى به إن شاء الله.

فصل في العمل بالسيف.

ليس في السلاح ما يجب أن يحذر حين العمل به كالسيف، فقد وُجد كثيرٌ مِمَّن عَمِل به بغير حَذَرٍ ولا دُرْبَة أصاب أُذُنَ فرسه أو عضُدَه، وربما أصاب أُذن نفْسه أو رجله فقطعها أو أثر فيها.

فإذا أراد الفارسُ العمل به طرّف رجله في ركابه حتى لا يظهر من أصابعه خارجَ حديد الركاب شيء حَسَب إمكانه، ولْيضرب به، نَفْحاً وشَزْراً[14]، إلاّ ما كان قُبالةَ وَجْهه فَلْيكُن حينئذ أشدَّ حَذَراً على نفسه وفَرسه، ولْيَفْتِل يده عند ضربه ما أمكنه إلى خارج، فبذلك يكون آمنا، ولْيَطرَح مُقابله عن يمينه في كلِّ حالٍ ولاسيما الرامح.

ومن أراد التعلُّمَ به والتمرُّن في الضربِ فلْيَعْمد إلى قصبةٍ رطبةٍ أو قضيبٍ رطب ويُثبِت أصلَه في الأرضِ ويَتوثّق منه ثم يَتباعد عنه ويَجعلُه عن يمينه ويُجري فرسَه مِلْءَ فروجه فإذا دنا منه سَلَّ سيفَه بسرعةٍ وحَذرٍ وخفةٍ ونفحَ به ما يُحاذي رأسه من ذلك القضيب أو القصبة أو يَضرب ذلك شزراً بليانةٍ وخِفَّةٍ ويفعل ذلك مراراً، يَقصد في

(12) المزراق : الرمح القصير.

(13) **وَرّى** بالشيء : أراده وأظْهر غيره، ولعلّ المقصود هنا أن يراوغ بالترس ويُحَرّكه للاتقاء به على مقتضى الحال.

(14) **النّفح** : الضرب الخفيف بالسيف، **والشزر** : الطعن عن يمين وشمال.

كلّ طَلَقٍ من ذلك إلى أن يبقى منه قَدْر ذراعٍ في الأرض، يدمِن ذلك حتى يصيرَ له عادةً ويَخفَّ عليه العملُ به إن شاء الله.

فصل في العمل بالرمح.

الذي يجب أن يفعله من أراد التعلُّم به والدُّربة في العمل أن يضع دريّةً[15] ــ وهي عودٌ أو شبهه ــ يكون قائماً ويَتوثّق من أسفله بالأرض ويَشدّ في أعلاه حَلْقةً أو حَبْلاً مَلْوياً شبهَ الحَلْقةِ على ارتفاع قامةِ الفارس ثم يَتباعد منه ويُجْري فرسَه مِلْءَ فروجه فإذا قَرب من تلك الدريَّة تأبَّطَ رُمحَه وأخرج منه عن إبطه بقَدْر ما يَخِفُّ عليه وتحتملُه قوّتُه ثم أخذ بسِنانه تلك الحلْقة، يدمن ذلك ويداوم عليه حتى يخفَّ عليه ذلك العملُ فلا يُخطيء الاصابةَ إن شاء الله.

أما صفةُ إمساكِه عند اللقاء والطعن به والتخلُّصِ منه بعد ذلك، فذلك يحتاج إلى بَسْطٍ لاختلاف أحواله وكثرة وجوهه وطُرقه، وإن كانت هذه الطرقُ لابدَّ منها ولا غنى عن معرفتها مع معرفة العمل في الكرِّ والفرِّ والامتناعِ والدخول على المبارزين والخروج عنهم عند الحاجة إلى ذلك، وكيفية استشرافِ الأرض في المبارزة، واستدبارِ الشمس، والمراوغة، والعطف، ودقائق ذلك ولواحقِه، لكن الحاذقَ الطبعِ الجَيدَ القريحةِ يَنظر مع ما رَسَمْتُه في الحالِ الحاضرة بحَسَبِها ويَقيس الأمورَ الطارئةَ على أشكالها، ففي إمعانِ النظر في ذلك كلِّه يتفاضل الفرسانُ مع الاستثبات وجُرأة الجَنان وشِدّة الحذر عند منازعة الأقران ومنازلة الميدان من الخَتْلِ في تعطيل الرمح بالضرب عليه أو دفعه أو مَلْكِه على رَبِّه أو خلعِ عِذار الفرس أو قطع عِنانِه ليشتغلَ الفارسُ بأمرِ فرسِه فيتمكَّن منه، فمن أمكنتْه فرصةٌ في ذلك فلْيَبدأ بها قِرْنه مع دُربةٍ وسرعةٍ وتَوَقٍّ، فالحرب خُدْعَةٌ ومن لم يتجرب في ذلك ويأخذ منه بحظٍّ وافرٍ ويُحكم أصولَ ذلك وفروعَه فلا تَغرّه نفسُه بمبارزة الأقران ومحاضرة الميدان فَيقعَ باغْترارٍ في أمرٍ لا يُنافَى إن حضر ولا يوجد منه إن وُزر، والمعصوم من عَصَمَه الله والمخذول من خذله.

وأما العمل بالقوس فأنواعُ القِسِيّ مُختلفةٌ وأحوالُها مُتَفَنّنة والعملُ بها يحتاج إلى بَسْطٍ يطول لا يَحتمله هذا المختصر.

وللرماية كتُبٌ معروفةٌ وصناعةٌ مشهورة فلينظر كلاًّ منها بحسب ما يليق به ويَخفُّ عليه إن شاء الله، فهي القوةُ في قول الله تعالى : ﴿وأَعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾، قال النبي ﷺ : «ألا وهي الرمي، ألا وهي الرمي»[16].

(15) يقصد الدريئة : حلقة يُتعلّم الطعن والرَّمْي عليها.

(16) حديث رواه عقبة بن نافع، وهو في صحيح مسلم.

الباب الثالث

فيما يوصَى به الفارسُ من أمرِ سلاحه والوصية بالخيل

فصل.

يَنبغي أن يُخفف رُمحَه وسائر سلاحه ما استطاع فإنه على الخفيف أقوى وله أضْبطُ وبه أَحكمُ وعلى قدر قُوتِه واحتماله.

وكانت رماحِ الفرسان العربِ من عشرة أذرع، وأقلُّ من ذلك جائزٌ، وأطولها إحدى عشرة ذراعاً، ولْيكن بين الرقيق والغليظِ بحيث لا تَعجز عنه الكفُّ ولا تلتقي عليه الأناملُ مع الكفّ، فالتوسُّطُ بين ذلك هو المحمود.

فصل.

وأما السرْج فالأحسن أن يكون متَّسعا ليَتقلَّب فيه كيف شاء لاسيما لِمَن أراد التعلُّم، فالمتَّسع أوفقُ له من الضيق، وليكن وثيقَ الخَشَب واسعَ المجْلِس لاطيءَ القَرَبوس والمؤخرة، ويكون لَببه[17] وثيقاً من جلد حسنِ الدِّباغ يدور بالسرج وحزام كذلك معتدلِي الوَزنِ والتقدير، والحَلَق لا بالواسعة ولا بالضيقة وثِقَلُها خيرٌ من خِفَّتها.

ويتوثق من سَيْر الرِّكابين والأبازيم ويَتفقّد مقدار طولهما وقِصَرهما ليكونا سواء وبقَدْر الحاجة في الطول والقِصَر، وأن يكونا إلى الطول يسيراً أحسن من أن يكون إلى القِصَر فإنه إن قَصُرَ الركابان ربما انقلع الفارسُ من سَرْجه عند وَثْبِ الفرسِ وعند جَذْبه في الجَرْي فلا يَأْمنُ السقوطَ لاسيما إن راغ الفرسُ أو شبَّب[18]، ولكلِّ رَجُلٍ فيها حدٌّ ينتهي إليه ويَقِرّ عليه كأثوابِ اللباس والخفاف وغيرها، فمن تعدّى حَدَّه وفارق قدره ثَقُل عليه ملبوسُه وتعذّر قيامُه فيه وجلوسُه.

فالذي يَصْلُح من ذلك أن يعتَمِد على مقعده في سَرْجه مع انبساط ساقيه واعتماده على رِكابيْه حتى يكون كالقائم المالك لجميع جَسدِه المتصرّف باعتدال في كل عضوٍ من بدنه.

---

(17) اللَّبَب : جلدةٌ أو نحوها يُشَدّ بها صدر الدابة لتثبيت السرج.

(18) راغ، يروغ : حاذ وذهب يمنةً ويسرة، وشبّب وشبّ : نشط ورفع يديه.

وينبغي له أن يتَّخذ بِدادين[19] مُدَوَّرين أو مُربَّعين ولا سيما لمن أراد السفَر الطويلَ والجَرْيَ الكثير، فإنه وقايةٌ لِحارِك الفرس من القَربوس والمؤخِّرةِ إن انقطع شيءٌ من معاليقِ السرج ففيه البِداد، ويَحْرُس ظهرَ الفرسِ أو يتّخذ مَرْشَحةً من طاقتين وقايةً تحت البِدادين، والمَرْشَحةُ أيضاً تُجَفّف العَرَقَ من البدادين.

فصل.

وأما اللّجام فليكن **تاركياً** وهو المعروف الآن **باللزمة** وما أشبهه فإنه من لُجُم الفرسان ويكون ثِقَله وخِفّتُه بقدر احتمال الفرس، فلتُجرّب عليه اللجم فأيها كان أخفَّ عليه وأطيَب في فَمه وهو أحسن به حالاً فذلك لجامُه، وعند النظرِ إليه يَظهر ما يَصلح من ذلك، وأن يكونَ الفَرَسُ يَعلك لجامَه فيستطيبُه أحسن من أن يخافَه فيُشَبّبَ به أو يُطَأْطِيءَ رأسه، ولا يكون أيضاً من الخِفّة بحيث يَستهين به الفَرسُ ولا يَملك الفارسُ رأسَه، فالاعتدالُ بين ذلك هو المقصود.

ولْيَكن عِذارُه[20] إلى القِصَر فإن طولَه يَنقص من جَرْي الفرس لا سيما الضعيف اللِّحْيَيْن، وبالضرورة يعلم أنه إذا ضرب أسنانه آذاه وقطع به عن كثير من الجري وشَغَله، وإذا قَصُر عِذاره أخذَ اللجامَ بأنيابه واعتمد عليه وتَروّح إليه.

ولْيَكُن العِنانُ أيضاً إلى القِصَر بحيث لا يتجاوز القَربوسَ إلاّ باليسير فإن طولَه مَشْغَلةٌ للفارس مَحْيرةٌ للفَرس.

فصل.

وينبغي للفارس ألا يغفل عن تفقد فرسه وموضعه ومربطه ومَراغتِه وجميع أحواله في سياسته وعَلفه وسقْيه. ولْتَكن عنايتُه أكثَر بالنظر إلى قوائمه في كلّ الأحوال يَجُسُّها بيده، فإن رأى تَعوُّراً في عَصبِه أو أَمارةَ نَفْخٍ أو امتلاءٍ أو علامةَ دَمٍ أو أدنى علّة فليبادر بعلاجه وملاطفتها في بدءها ولا يُتْعِبُه معها ولا يجْبره يومئذ فقد تبدأ العِلَل يسيرةً لا تكاد تُبين فربما حمل عليها فعادت كباراً وكان منها سببٌ مُتْلِف، وعلاجُها في ابتدائها أقربُ وأَمرُها أَيْسر، وربما اكتفى بالطِّلاء بالزيت والملح في إثْر التعب في الشتاء والمشي في الطين والماءِ والحجارة، والتخويض في الماء في زمن الحَرِّ واستقبال جرية الماء به ومكابَرته إن وجد ذلك، وقد لا يحتاج إلى غير ذلك إن شاء الله.

---

(19) بِداد (بكسر الباء) : حَشِيةٌ تكون تحت السرج.

(20) العذار (بكسر العين المهملة) : ماسال من اللّجام على خَدِّ الفرس.

ولْيَحْذَر كل الحذَر من سقيه الماءَ وإعلافِه الشعيرَ إثرَ الإعياءِ والتعب، ولْيُمْهَل حتى يسكن ويَجف العرقُ ويهدأ هدوءاً تامًّا. وقد يُعَلَّل قبل العلف بشيءٍ من الحشيش أو التبن، وكذلك يَحذر علفَ الشعير الكثيرِ مع طولِ الراحة والجمام وقلّة العملِ والتصرُّف فإن ذلك كثيراً ما يُوَلِّدُ النفخَ والقراقِرَ في البطن والرَّبْوَ والتشبُّك ويُفسد الحوافرَ بخاصة معلومةٍ مجربة. وكذلك يحذر من إخلاط الرطب من الحشيش مع اليابس في علفه ما استطاع، ولْيعلم أن الرطب من النبات يَحلّ بدنَه ويسرِع نفوذَه وخروجَه، فإن كان كذلك فلْيَشُدَّه بالشعير أياماً قبل حركتِه، وكذلك النخالةُ تُسرع في تسمينه ولا يبقى لحمه على الحركة قدراً له خَطَر، فلْيشدّ لحمَهُ بالشعير قبل سفره، وللضرورة أحكامٌ يُلْحَظ فيها الأوفقُ ماقَدَرَ عليه، فافهم هذا كلَّه وقِسْ عليه تُصِبْ إن شاء الله.

البــاب الســابــع

في أسماء السلاح وأوصافها وما يليق بذلك من سائر أحوالها وأسماء الطّعان والضِّراب إذ هو من العمل بها.

فصل

نبدأُ فيه بذكر السيفِ إذ هو الصّاحبُ الوَليُّ والصديقُ الوفيُّ والرسولُ الوَعِيُّ، قال أبو تمام :

السيفُ أصدق أنباء من الكتبِ في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في متونهنَّ جلاءُ الشكّ والرِيَبِ

وهو يُغْني عن غيره ولا يُغني عنه غيرُه في الأكثر.

وسأل عمرُ بنُ الخطّاب ـــ رضي الله عنه ـــ عمرو بنَ معدي كَرِب عن السِّهام فقال : «منايا تُخطيءُ وتُصيب» قال : فالرمح ؟، قال : «أخوك وربما خانك»، قال : فالسيف ؟، قال : «هناك نازعتك أُمُّك عن ثُكْلِها»، وقال أبو الطيب :

حقرت الرُدَيْنياتِ[21] حتى تَركتها وحتّى كأنّ السيفَ للرمحِ شاتمُ

وقيل إن العربَ كانت تَطعن به كالرمح وتضرب به كالعمودِ وتقطع به كالسكين

(21) الرُّدَيْني : ضربٌ من الرماح تُنسب إلى امرأةٍ كانت تَبيعها اسمُها رُدَيْنة.

وتَجعله سوطاً ومقْرَعَةً وتَتّخذُه جَمَالاً في الملإ وسِراجاً في الظلمةِ وأُنساً في الوحدةِ وجليساً في الخَلاء وضجيعاً للنائِم ورفيقاً للساهر[22] وتُسَميه عِطافاً ووشاحاً وعصا ورِداءاً وثوباً، وهو قاضي القتال وفَيْصل الحُكْم بين الرجال، وبذلك وَردت الأشعارُ وسارت الأمثالُ والأخبار.

فمن أسماءِ صفاته إذا كان عريضاً فهو **صفيحة** وإن كان لطيفاً مهذّباً فهو **قضيب**، فإذا كان صقيلاً فهو **خَشِبٌ**، وقيل إنه الذي يُصْقَل فهو من الأضداد، وقيل أيضاً هو الذي لم يُحْكَم عملُه مع صلابةٍ فيه ومَضاء، فإن كان رقيقاً فهو **ميث**، فإن كان فيه حُزوزٌ مُطْمئنّةٌ عن مَتْنه فهو **مشطب** و**مُفَقَّر**، و**حُزوزهُ** : شطَبُهُ وفِقَرُه، وبذلك سَمِّيَ سيفُ النبي ـــ ﷺ ـــ **ذو الفَقار**، وقيل أيضا إن **ذا الفَقار** ما كان له حَدٌّ من جانبٍ وجانِبُه الآخَرُ عريضٌ جافٌّ لا يَقطع، وبذلك عُرِف سيفُ عَمْرو بنِ معدي كَرِب وهو **الصمصامة**، فإن كان شفرتاه حديداً ذكراً ومَتْنُه أنيثٌ فهو **مُذَكَّر**، وهذه صفة الأفرنجي، والعرب تزعم أنه من عَمَلِ الجنّ، قال ابن الرومي :

خير ما استعصَمَتْ بـه الكـفُّ   عَضْبٌ ذَكَرٌ حَدُّه أنيثُ المهـزّ

فإذا كان له بريقٌ فهو **إبريق**، فإن كان لصلابتِه وحُسنِ صِقاله لا يعلق به مع الضريبة فهو **إصْليت**، فإذا طال عليه الدّهرُ فتسكّر حَدُّه فهو **قضيم**، فإذا كان كليلاً عن القَطْع فهو **كهام**، فإذا كان في مَتْنه أثرٌ فهو **مأثور**، فإذا كان قصيراً يشتمِل عليه الرجلُ ويَستُره بثوبه فهو **مشتمل**، و**الأبترُ** : القصير، فإن كان في جوفِ سوطٍ فهو **مِغْوَل**، وإن كان قد طُبِع بالهند نُسِب إليها فقيل **مُهَنَّد** و**هِنْدِيٌّ** و**هِنْدُواني**، وكذلك يُنْسَب **اليماني** إلى اليمن و**القَلعيُّ** إلى القلعة، وقيل هو الأبيض، و**القسوسي** إلى قَسوس ـــ جبل فيه معدنُ حديد ـــ و**المَشْرَفيُّ** إلى المشارف، قُرى من أرضِ العرب تقرب من الريف، و**السُرَيْجِي** إلى سُرَيْج، قَيْنٌ كان يَعملها، فإن كان للامتهان في قطع الشجرِ ونحوِها فهو **مِعْضَدٌ**، وإن كان للّحم والعِظام فهو **معضاد**.

فصل في أوصاف حَدِّه.

إذا كان قطّاعاً فهو **مِقْصَل ومِخْصل ومِخْذَم وجُراز وباتر وعَضْب وحُسام وقاضب ومِهدام**.

فإذا كان [مَاضياً في العظام فهو **مصمم**، فإذا كان] ماضياً يغور في الضريبة فهو **رَسوب**، فإذا كان صارماً لا يثنيه شيءٌ فهو **صَمْصام**.

---

(22) وفي نسخة : السامر (بالميم).

فصل في أسماء أجزائه.

جَوْهره وأثره : فِرِنْدُه الذي يَظهر كالماءِ فيه يُخَيَّل للناظِر أنه يسيل به إذا هُزَّ، **وذُبابه** : طرفُ نَصْلِه، **وظَبَتاه** : فوق الذباب، **وعِذاره** : حَدّاه وهما شفرتاه، **وعمودُه** : وسطُه، **ومَتْنه** : جملةُ منصلِه، **ورياسه** ماعدا نَصْله، **ومأبِضُه** مَقْبِضُ كفّ الضاربِ به، وهو **قائمه** أيضاً، **والسنبلةُ** : ما دخل من النصلِ في الرياس وهو **السِّنْخ أيضاً**، **والسِيلان** يكتنفان السنْخَ، **والقبيعةُ** : رأس رياسه، والشعيرة : ما يَحبسها في أجزاءِ غِمْده، وهو **جَفنه وخِلَّتُه وخِلَله**، وقيل إن **الخِلَلَ** جلودٌ في باطِنِ الغِمد، **وحمائله** : ما يُعَلَّق به، (جمعٌ واحدتها حِمالة)، وهو **نجاده** (وجمعه نُجُد)، **وكَلْبُه** : حَلْقة تكون فيها سُيوره، قال بعضهم :

ربَّ سَيْرٍ رأيتَ في جوفِ كَلْبٍ جُعِلَ الكلْبُ للأمير جَمالا[23]

والسِبْيةُ : أطرافُ سُيور الحمائل، **وشاربه** : وقايةٌ لمدخل النصلِ في الغِمْد يكون من حديدٍ وفِضّةٍ أو غير ذلك، **ونعلته** : وقايةٌ لذُبابه وظَبَتَيْه، **والقِراب** غلافٌ كالغِمْد يُجْعلُ فيه السيفُ بغِمْده وهو **الجِرابُ والجُرْبان**، وقيل إن العرب كانت تُعَلِّقُ ذلك على الإبلِ خاصة.

فصل في ذكر الرماح.

هي العوالي والسُّمر الحوالي وقرونُ الجياد وأرشيةُ قلبِ الأكباد بها تستبَاحُ المُهَج وتُستباح الفروج والفُرَجُ ؛ قال بعضُهم :

وكم عاتــقٍ قــد أنكَحَتْنـــا رماحُنا ومن ثَيِّبٍ حلّت لنا لم تطلق

خُلقت كالأرقام لثغر الحَلاقم، فسليمها مَغرور، وكليمها مذعور. فمن أسمائها على الترتيب :

أولها **العَنَزَة**، وهي عصا فوقَ الهراوة فيها زُجٌّ هي من السلاح لامكان الدَّفْعِ بها، والزجُّ الذي فيها يُشبِه السِنان وإن لم يُكِنّه.

ثم **النيزك**، وهو أطول من العنزة، وفيه سِنانٌ دقيقٌ، (جمعه نيازك) ومثله **المِطْرَدِ، والمِزْراق** كذلك لكنه يُرْمَى به لِلطافَة عصاه، وقد يكون سِنانه مربّعاً لطيفاً وشبهَ ذلك لِخَرْق الدروع، فإذا زاد طولها وفيها سنان عريض فهو **حربة**.

(23) **السَيْر** (والجمع سُيور): شرائط من جلد، والمقصود **بالكَلْب** : الحلقة التي تكون فيه سيور السيف، ويُطلق أيضاً على مسمارٍ في قائم السيف، وهما كَلْبان.

والألُّ والخَرص من قِصار الرماح، وجمعه **خُرصان،** وقيل هو عالي الجُبّة من السنان، ويقال بالفتح والضم والكسر، فإن كان أصمَّ فهو **مِدْعَس يُدْعَس به (جمعه مداعس) وأطولها الرمحُ والقناة.**

فصل في أسماء صفاتها ونسبها.

إذا كانت العصا قد نبتت مُسْتَوِيةً ولم تَحْتَج إلى تثقيفٍ ـــ وهو التقويم ـــ فهي **عامِل،** فإن كان شديدَ الاضطراب فهو **عَسّال وعَرّاصٌ،** فإذا كان ليناً فهو **لَدْنٌ وذابل وقارن،** فإن كان صُلباً لا ينثني، فهو **صدر،** فإن كان منثلماً فهو **ثِلْب.**

والخطِّي من قصبِ فارس منسوبٌ إلى الخطِّ، من أرض فارس، تنبت بها، **واليَزَني** مَنسوبٌ إلى **ذي يَزَن** من ملوك اليمن، **والرُدَيْنيّ** منسوبٌ إلى **رُدَيْنة** امرأةٍ كانت تعملها، وقيل تُباع عندها.

والأسمر هو **الأَظمأ،** مأخوذٌ من الظمأ وهو العطش.

واللهزم، النافذ السنان، والعريض السنان : **مِنْجَل** من النّجل، وطعنة نَجلاء أي واسعة.

والوشيج منبتُ الرماح، وقيلَ هي الرماح أنفسها.

والمُرّان : الرماح (واحدتها مُرَّانة) وقيل المُرّان منبتها[24].

فصل في تفصيل أجزاء الرمح.

سِنانُه ونَصْلُه وقرونه : **شَفْرته،** وطرفها : **ظَبَتاه ؛ وشفرتاه** : حَدّاه وكذلك **غِراره ؛ وعَنَزُه** : الناتيء في وسطه، **والجُبَّة** : مدخل الثعلبِ في النصل، **والثعلب** : ما يَدخل من العصا في الجُبّة، **وزافرته** : أعلاه وصدره **وعامِلُه وعاليتُه،** وذلك إلى قدرِ الثلُث منه، ثم **غابره وعَموده** : وسطه، ثم **ساقُه وسافلتُه وعَقِبه وكَعْبه،** ثم **زُجُّهُ ومركزه،** وهو الحديدة التي في أسفله إن كانت حادّةً وإلاّ فهي حَلْقَته، **وأنابيبُ الرماح الهندية وكعوبها** : ما بين عُقَدِها وهي **حُزوزها وفصولها.**

وقِصَدُ الرماح : كسورها وقِطَعها، واحدتها قصدة.

فصل في ذكر الدُّروع.

رُوِيَ أن لقمانَ الحكيمَ كان يجالس داود عليهما السلام، وداود يصنع الدروع،

---

(24) المُرّان : شجرٌ كالعَوْسج تُصنع منه الرماح، ويُطلق على الرماح الصلبة اللدنة.

و لم يَدْر لقمان ما هي و لم يَسأله، فلما أكملها لَبِسها وقال إنها لَحِصْنٌ ليوم ٍ بأسٍ، فَعَلِم لقمانُ حينئذ أمرَها.

وقيل في قول الله تعالى : ﴿وسرابيل تَقيكم بأْسَكُم﴾[25] أنها **الدروع**، فهي قد عدَّها الله في النعمةِ التي أنعم بها على الناس وإنها لتدافع الوَجل ما تراخى الأجل.

فمن أسمائها ونعوتها : **الجُنَن**، وكل ما يُتَّقَى به فهو **جُنَّة**.

واللأْمة : الدِّرعُ التامة لها فضول، فإذا كانت واسعةً فهي **زَغْفة** (وجمعها زُغف) ثم **فضفاضة** إذا كانت مع سَعَتِها ضافية، فإن كانت ضيقةً فهي **السُّدُّ**، والسدّ (بالضم والفتح).

فإن كانت لَينة فهي **حَرباء ودِلاص**، فإذا كانت مُحْكَمةً صُلبةً فهي **قضّاء وحصداء**، فإذا كانت طويلةَ الذيلِ فهي **ذائل**، فإذا كانت بيضاءَ فهي **ماذية**، وقيل إن الماذية المعينة، وقيل السهلة اللينة، ومساميرها : **الحرابى** واحدتها حرباء، ورؤوس مساميرها **القُتَرُ** (واحدتها قُتْرَة) وهي المُشبَّهة بعيون الجَراد.

و**المتضاعفة** : المتداخلة حلقتين حلقتين، وحَلَقُها : **الزَّرَد**.

فإذا كانت من صفائح مثقوبةٍ فهي **مسرودة**، فإذا كانت منسوجةً مرمولة فهي **جدلاء** ومجدولة، فإذا كانت قصيرةً فهي **شَليل وبَدَن**.

فإن كانت صدراً بغير ظهْر فهي **جوشن**.

والسَّلوقية : منسوبة إلى سَلوق، قريةٍ باليمن.

والخطْمية : منسوبةٌ إلى خطم، رجل قيل إنه من عبد القيس.

والمِغْفَرُ : ما نُسِجَ نَسْجَ الدرع يُغَطِّي الرأسَ والوجه، وما صُنِع للرأس من حديد منقور فهي **بَيْضة**، وقَوْنَسُها : إشراق مقدمها، **ودابرتها** : مؤخَّرها، (جمعه دوابر).

ومن أسماء البيضة : **خُوذة ونزكة وربيعة وخضيعة**، (وفي الجمع خُوَذ في خوذة، ونزك في نزيكة، ونزائك في نزيكة، ولم يُسْمَع جمعاً لغير ذلك) وقيل إن ما عُمِل منها من جلودٍ فهي **اليَلَبُ** واحدتها **يَلَبَة**.

فصل في ذكر الترسة.

(25) سورة النحل، 81.

وهي من أسباب القَدَر وأعوان الظَّفَر، فما انفسحت المدّة نفعت العُدَّة.

قيل للنبيّ — ﷺ — «أرأيت دواء نتداوى به ورُقَى نسترقيها أتردُّ من قَدَرِ الله شيئاً ؟» فقال : «هي من قَدَر الله».

فمن أسمائها (جَمْعاً) : **التِّراس والجوب والفرض والجُنَن والمجانُّ والمجانب،** واحدتها ترس وجوب وفرض ومجنّ ومجنب، فإن كانت من جلود فهي **درق وحجفٌ ويَلَب**، واحدتها دَرقة وحجَفة ويَلَبة، وقيل إن اليَلَب مدارع من جلود، وقيل إنها كالبيضة للرأس خاصة، وقد ذُكِرت قبل، وقيل إن **الحجف** من خَشَب.

فصل يلتحق بما تقدم.

الشكَّة : السلاح التام، تقول : فارس شاكي السلاح (مخففاً)، قيل إنَّه من شوكة السلاح، فإذا كان كذلك فهو مقلوب من شائك، وفارس **مُؤدٍّ** : تامّ السلاح، من الأداة، وكذلك **مُدَجَّج، والسَنَوَّرُ** : السلاح مع الدِّرْع، فإن كان مع ذلك شجاعاً فهو **كَمِيٌّ**، وإن كان شجاعاً ولم يَكْمل سلاحُه فهو **بَطَل**، فإن انفرد بنوعٍ من السلاح نُعِتَ به، وبالرمح **رامِح**، وبالنَّبْل **نابل ونبَّال**، وعاملُها **نابل** فقط، وبالنُّشَّاب **ناشب**، وبالدِّرع **دارع**، وبالمِغْفَر **مِقْنَع**، وبالتُّرس **تَرّاس**، فإن جَمَع السيفَ والنَبْلَ فهو **قارن**، فإن جَمَع السلاح فهو **سالح**.

فصل في عكس ذلك.

البَزُّ والبِزَّة : السلاح بلا دِرْع، **أعزل** : لا سلاح معه، **أمْيَل** : لا سيف معه، **أجَمُّ** لا رمحَ معه، **حاسر** : لا درعَ معه، **أَكْشف** : لا تُرْسَ معه.

فصلٌ من أسماء الأفعال.

تقول : **اسْتَلاَمَ** : لَبِس اللاّْمة، **وسَنّ** عليه الدرعَ (بسين غير معجمة) صَبَّها عليه ولَبِسها ولا يقال نثرها أو تَقنَّعها للابس المِغْفَر، **واجْتَنَّ** : لبس الجُنَّة، وكذلك **تَرَّس**، وفي عمل السيف **حضض** عليه به، **وجَلَّل** إذا حمله **وجَلَّله** به : علاه، **وسافَه** : ضربه بسيفه، **وعَصَيْتُ بالسيف** : ضربتُ به كالعصا، ولا يقال في العصا إلاّ عَصَوْتُ (بالواو)، وفَرْقٌ بينهما بذلك.

والمُصاعُ والمُماصعة : المُجالدةُ بالسيوف ؛ والضرب به يَميناً وشمالاً : **شَزْرٌ** : **والبَتْرُ واليسر** : حِذاءَ الوجه مستقبِلاً، **والنفحُ** : إشارة إلى خارج اليمين، نَفَحتُه أنفحه، **والنقخُ** (بقاف وخاء معجمة) : الضربُ به على الرأس حتى يخرج الدماغ، وقيل القفخ (بقاف ثم فاء وخاء معجمة).

والهذُّ والهَذْمُ والبَضْعُ والهَبْر والجَذْمُ والحَذْم، كل ذلك الإسراع في قطع اللحم.

وطَبَّق : إذا أصابَ المَفْصِلَ، **وبرى** : إذا قطع العظمَ واللحْمَ وأبان العضوَ.

وفي عملِ الرُّمح : **المطاعنة** : المضاربة بها. وطعنتُ بالرمح ورَمَّحْتُ ودَعَمْت ونَدَستُ، وهو **الطعن والرَّمْحُ والدعْسُ والندْسُ**. وفارس **مِدْعَسٌ ونِدْسٌ** حاذق بها.

ونزكت بالنزيك : طعنتُ به، وهو **النَّزْك**، وبالنَّبل نَبَلْتُ ورَشَقت، **وأَنبَلْتُه** : أعطيته النَّبلَ، **واستنبلته** : طلبته منه، وبالنُّشَّابِ **نشبت** : رَميت به.

ومن الطعن **السُّلكي** : المستقيمة، **والمخلوجة** : الآخذة في جانبٍ بانحراف، **والشزر** : عن يمينٍ وشمال، **والبزّ** : حذاءَ الوجه مستقبلاً، **والمَشْقُ** خِفَّةُ الطعن، مَشَقْتُه إذا طعنتُه بخفَّةٍ وسرعة، فإن قَشَرتْ الجلدَ فهي **حالقة**، فإن خالطت الجوفَ و لم تَنْفُذ فهي **الوَخض والوَخط والشَّجُّ** ؛ **والصرد** : النافذة.

ووخضه ووخطه وصَرده : إذا فعل به ذلك.

فإذا خالطت الجوفَ فهي **الجائفة**، **والنَّجلاءُ** : الواسعةُ العظيمة، وكذلك **الغَموس والفرغاء والفاهقة** ؛ التي تفهقُ بالدم أي ترمي به.

والشعشعة : تحريكُ السِّنان في المطعون، **والشَّعاعُ** : الدم المتفرِّق.

ومما يليق بما تقدم أسماء الشِّجاج :

فأولها **الحارصة** وهي التي تَحرص الجلدَ أي تَقشره، فإذا أدمته فهي **الدامية**، فإذا أخذت في اللحْم شيئاً فهي **باضعة**، فإذا غارت في اللحم فهي مُتلاحمة، فإن بقي بينها وبين العَظْم سِتْرٌ رقيقٌ فهي **سِمْحاق**، فإن بدا العظمُ ووضح فهي **موضّحة**، فإن هَشَّمت العظم فهي **هاشمة**، فإن خرجت منها كُسورُ العِظامِ فهي **مُنَقِّلة**، وإن بلغت [سَحاءَ] الدماغ ــ وهو غِشاؤه وصِفاقه ــ فهي **المأمومة والدامغة**، فإذا أنفذته فهي **حائفة**.

الباب الثامن

في ذكر المسابقة والسوابق

فصل : نذكر فيه صفةَ الفرس الذي يُمكن أن يحضر الغايةَ ويُجاري الحَلبة على غير تضميرٍ ولا عملٍ ولا تشمير.

وهو أن يكون رَحْبَ المُتَنفَّسِ : جوفِه ومَنْخِرَيْه، رَحْبَ الإهاب، عريضَ المَتْن، عريضَ اللقَطاة، قد تجافت عن كُلْيَتَيْه، هريتَ الشدقيْن، غزيرَ الدقن رَحْب الصدرِ لاصقَ الصِّفاق ويكون مع ذلك هَشًّا يجيء عَرقُه قبلَ رُبُوِّ بَدَنه، فإذا كان على هذه الصفات فالأَحْسنُ له والأَحْوطُ عليه أَنْ لا يُرْسل في المِضْمارِ على إثر دَعَةٍ حتى يكونَ قد أُخِذَ منه أياماً فَلحق بطنَه ــ أي خَفّ ــ ويكون قد استوكع للركض ــ أي اشتدّ له ــ وأيضاً فإن بطنَه على إثر الدعةِ يكون مُمتلئاً وصفاتُه متمدِّداً فربما صَكَّهُ بثَفِناتِه فقطعه أو أَعْنَتَهُ وقصر به.

والمودع لا يَصبر أبداً كصَبْر غيره من الخيلِ التي أُخِذَ منها بالرياضةِ والعمل.

وقد نرى من الوحش والكلابِ، وهي مما لا تُضْمَر ولا تصنع، إذا كُلِّفت الجَرْيَ على دَعَةٍ رَبَتْ وبُهِرَتْ وانقطعت عما كانت تفعله في غير دعةٍ، وكلُّ حيوانٍ إذا ودَعَ استرخى، فلا خيرَ في اقتحامِ المِضْمارِ إلاّ بعد العملِ والإضمار وإن كان على الصفةِ المَشْكورة والخِلْقَةِ الموفورة.

فصل في عملِ التضمير.

المُسْتَحَبُّ فيه بل الذي لا يَجب غيرُه حُسْنُ الولايةِ في السياسة، وقِلّةُ السآمةِ في النظر والخدمة، وليس الإضمار بأَن يَهزلَ الفرس ويَذْبلَ ويُبْخَسَ من حقّه وعَلَفِه، وإنما يُفْعَل ليشتدَّ لَحْمُه ويُعتَصر شحمُه وتَذهب فضولُه ويبقى ما طُبِعَت عليه أصولُه.

والخيلُ تَخْتلِف أحوالُها وتتباين أشكالُها، وكلُّ واحدٍ منها يختصُّ بمضمارِه ويُحْمَلُ منه على حَدِّه ومقداره.

فمنها **السّمينُ والهزيلُ والمُسْتَلْحِمُ والمُستَحكِم والهَشّ والصَّلود** وما هو بين ذلك، فَلْيُؤْخذ كلُّ واحدٍ منها على حالِه ومَشاطه، وبقدر كَسَله ونَشاطه.

فصلٌ.

فأما **السمينُ** فعلاجُه في اعتصارِ شحمه بمُظاهرة الجِلالِ[26] والبراقع والتحنيذ (وهو التسخين) وأن يُبْدأ بإطعامه الرُّطَبَ أُسبوعَيْن ليبتلَّ بذلك شحمُه ويكثُر عَرَقُه ويَنْشَط فُؤاده، فإذا خرج من ترطيبه بَطَح بدنَه بالرملِ وجُعِل له به آري[27] ولا يُترك له فيه بولٌ ولا ريقٌ، كلما سَقَط شيءٌ من ذلك تحته أُزيلَ ووُضع على بَلَلِه رَمْلٌ يابس، وأُعْلِف من **القَتِّ**[28] اليابسِ وشبهِه ما يَقْدر عليه وأُقْضِم من الشعير ما يَحتمله ما لم يخف عليه الحَمَرُ فَيُخَفَّف عليه.

(26) الجِلال (جمع جَلّ) : ما تُغطّى به الدابةُ لتُصان.

(27) في النسختين أري، والآرى (بالمد) : مربط الدابة ومعلفها.

(28) القَتّ : يبيس الفصفصة وهو حشيش تعلفه الدواب.

وليست الخَيلُ سواء فمنها الرغيبُ والزهيدُ فيعطِي كلاً بقدره ويُسْقَى من الماء ما يَحتمله عند العَتَمة وُيُجَلَّل ويُبَرْقع ويقاد أياماً من سبعة إلى عشرة ثم يُعْنَق[29] به غيرَ بعيد، ثم يُزاد في ذلك يوماً فيوماً فإذا خفَّ بطنُه واشتدَّ أدنى شِدَّةٍ، وهو مع ذلك نشيطٌ أُخِذَ بأدنى تقريب[30] عليه وعليه جَلُّه، فإن كان صَلوداً فإلى أن تَندى أُذُناه من غير عُنْفٍ، وإن كان هَشاً أُخِذَ منه على قَدَر ثم ظوهر عليه بالجلال ثم نُزعت، كلما جفَّ الأعلى نُزِع وتُرِك الذي يَليه إلى أن يَجفَّ آخرُها، وإن كان نشيطاً أُخِذ منه بغير إتعابٍ ولا عُنْف، وإن كان كسلانا أُجمّ إلى نشاطه ثم أُجْرِي على عَمَله، فإذا مَضَت له على ذلك مثلُ الأيام المَذْكورة زيدَ عليه وحُنِّذُ وأما الهشّ فَيُحَنّذُ بَعْدَ رَدِّه لآرِية، والصَّلود لا يُحنّذُ ولا يغطّى وجهُه على حالٍ كان هَشاً أو صَلوداً، ويُزاد على ذلك يوماً فيوماً إلى أن يَخفَّ بطنه وينعصر شحمُه وتَظماً فصوصُه وتشتدَّ عروقُه ويجيء من جَرْيه لا يَخْفُقُ حشاه كلَّ الخَفْقِ ولا يُنْهِضه نَفَسُه فيُغطّى إذ ذاك وجهُه ليستتمَّ عَرَقه، فإن كان مع كلِّ نَفَسٍ عَرَقٌ فإذا سَكَن نَفَسُه وَجَفَّ عَرَقُه مُسِح العَرقُ عن بطنه وطُرِحت عنه الجلال واحداً بعد واحدٍ كما تقدّم، فإذا فرغ من جلاله وَبَرُدَ نُقّيَ عَلَفُه وإنْ دُقَّ له حَتّى يذهب قِشْرُه الأعلى كان أجْوَدَ له، ثم وُضِعَ له، فإذا فرغ من عَلفِهِ حُسَّ وَمُشَّ بمنديله وأعيدَ عليه جَلُّه وبُرقُعُه ورُدَّ إلى إصطبله، فإن أُعطيَ قصيلاً قُطِع له صغاراً ووُضِع بين يديه قليلاً قليلاً يتنفَّس فيه، وكذلك إن كان تِبْناً، ولا يُتْرَك له في شيء من ذلك ترابٌ ولا غيرُه من الزِّبْل، ولْيُعلَف ما بين العِشاء إلى العَتَمة، فإن كان عَلَفُه يابساً وكلَّ به ضِرْسُهُ دُقَّ له بعضَ الدقِّ ووُزِنَ ليُعلَم ما نَقَص من أكلِه وما زاد، فإن قصر عن عَلفه من الربيع وشبهه زيد في الشعير، فإن استوفى شعيرَه فلا بأس ثم يُرفع عنه، فإذا أَسْحَرَ حُسَّ ومُشّ وصُقِل حَسَناً ثم كُسِيَ جَلَّه وبُرقُعَهُ ثم أُخرِج فَصُفِّرَ له ليبول، ويكون قد عُوِّد على ذلك.

فإن كان يومُه ذلك حاراً أو كانت الريحُ جنوباً بُكِّر به وأُخِذ منه على قَدَرٍ ولم يُبْعَد به، وإن كان اليومُ بارداً انتُظر به الصبحُ ثم أُبعد به فإذا جاء ماؤهُ رُدَّ إلى آريه وصُنِع به كما تقدّم في اليوم قبلَه فلا يزال كذلك يُؤخذُ منه حتّى تَجفَّ بلّته ويَذهب فضل بَدَنِه ويتميزَ لحمُه وهو مع ذلك يَعتلي ويَزيدُ نشاطاً، ثم يُزاد على قدر حاله كلَّ يوم، وإذا جاء عَرَقُه فإن أبطأ عَرقُه زيدَ عليه، ويُزاد أيضاً إذا كان نشيطاً لجَرْي التقريب أو جَرْي المعراق، فإن ظهر منه أدنى فُتورٍ وكَسَلٍ أُجِمَّ، يكون دأبه ذلك حتى يتيسر للغاية التي يُراد إليها ويَجيئها لا يَخْفُق حشاه كلَّ الخَفْق وَلا تحشَرُ مِنْخَراه إلاّ بعضَ الحَشرِ وقد سَبَق عرقُه نَفَسه، وإن أفرط خَفْقُ حَشاه وانقلبت مَنْخِراه أُخِّرَ

(29) يعنق به : يسير به العَنق، وهو أول مشي الفرس.

(30) التقريب : أن يرفع الفرسُ يديه معاً ويضعَها معاً.

يومَه ذلك، ومن الغد ظوهر عليه الجلال وحُنِّذَ وأُخذ منه على قدره وإن فَتر أُجِمَّ حتّى يَجيء غايتَه حَسَنَ الحالِ نشيطاً متعلّياً، فهو القَصْد إن شاء الله.

فصل.

وأما **الهزيل** فلا يؤخذ منه بوجهٍ حتى يمتلىء لحماً وشحماً، وبعد ذلك يُؤخَذ بالعمل، وإذا كان نشيطاً سميناً اعتُصِر به بغير إتعابٍ ولا عُنْف، وإن كان عَبْلاً كسلانا قصر عن استكمال عَلَفه بعد الجري وقُيِّد قَوداً رفيقاً، فإن اعتلّ أُجِمّ ولم يُحْمَل عليه في اعتلاله وكَسَله فإن ذلك مَقْطَعَةٌ له ومَفْسَدةٌ لخُلُقه وخَلْقِه، فإذا طابت نفسُه واشتدَّ ضِرْسه ونَشِط قلبُه فلْيُؤخذ بمضماره ولْيُعْرَض على مشواره.

فصل.

وإن كان الفرس **مستلحماً** عولج بأكلِ الرطْبة[31] أربعين يوماً حَتَّى تُمَخَّ عظامُه ثم يُطْعَم الحشيشَ المختلِطَ أسبوعاً، فإذا امتلأ عمودُه وقَوِيت قوائمُه ضُمِّر على ما تَقَدّم، والأحسن أن لا يُكْثَر عليه ولا يُلَحّ عليه بل يُعْنق عليه يوماً ويُجَمَّ يوماً ويُقَرَّبُ عليه يوماً يَعْرق فيه، فإن بدا منه فتورٌ وكَسَلٌ أُجِمّ يوماً فإن بدا منه نشاطٌ أُخِذَ معه شيئاً فشيئاً عَنَقاً وتقريباً إلى أن يَتَيَّسر لغايته ويُصنَع به كما تقدّم إن شاء الله تعالى.

فصل.

وأما **الصَّلود** فإنه يُظاهر عليه الجِلالُ والبراقعُ ويُؤخذ بأدنى تقريبٍ من غير إبعادٍ ولا إتعابٍ حتى يَجيء عَرَقُه فإنه إن أُخِذ بأكثر من التقريب قبل أن يَجيء عرقُه كبا و ترادَّ نَفَسُه في جوفه حتى يَقْطَعَه ويَبْهَرُه، ولكن برفق، فإن ظهر منه فتورٌ وكسلٌ أُجِمَّ إلى نَشاطه، وكذلك على ما تقدَّم إلى أَنْ يَخِفّ وَهله[32]، ويَخْمُص بَدَنه وتلتحقُ أقرابُه[33] ويتميز لَحْمُه ويبدو غروره ــ وهي عصبُ يَدَيه وشقوقهما واحدتها غَرّ ــ ثم يُزاد على ما يبدو من حاله يوماً فيوماً ويُصنَع كالأولِ في كلّ حالاته.

فإن كان **صَلوداً** لا يَعرق البَتَّة خيف عليه أن يَكبو، فَلْيُسْقَ ماءً ديفَ فيه خميرٌ وأُعْلِف ضِغْثاً من هِنْدِباء كلَّ يومٍ إلى أن يجيء عَرَقُه ويَكثرَ فإنْ أبطأ أُدخِل الحَمّام غُدُواً حتى يَعرق فَيُمسح عنه العَرق ويُفعَل به ذلك حتى يلين إن شاء الله.

---

(31) الرطبة : هي الفِصفصة، فإذا يَبست فهي القَتُّ.

(32) في النسخة ب : رهله (بالراء)، والوهل (بالواو) الضعف والفزع.

(33) الأقراب (جمع قرب) : خاصرة الفرس.

فصل.

وأما **الهشُّ** السريعُ العَرَقِ جداً الذي يجيء عَرقُه لأولِ حركتِه فلا يجب أن يُبْعد عليه الغايةُ فربما جاء في الإبعاد به من عَرَقه ما يُضعِفُه ويُجْهِدُه، لكن بقصدٍ ورفقٍ وتدريجٍ، ويُحْمَى أَكْلَ الرطبِ ويُقْتَصرُ به على الشعير ويَبيس الحشيش أو التبْنِ، وإن خُلِط في عَلَفِه شيءٌ من زبيبٍ كان صالحاً موافقاً لتقويته، ثم يُصنَع به كما تقدّم إن شاء الله تعالى.

[صفات كلب الصيد]

فمما يُختار فيه ويُستَحَبّ طولُ ما بين يَدَيه ورِجْليْه مع قِصَر ظهرِه، وذلك من علاماتِ سُرعته، وأن يكون صغيرَ الرأسِ طويلَ العُنُقِ يُشبه بعضُ خَلْقِه بعضاً، وأن يكون هَرِيتَ الشّدْقَيْن، أغضفَ الأُذنين، شديدَ الغَضف ــ وهو لينُهما واسترخاؤهما ــ بعيد مابينهما ــ واسعِ العينين عظيمَ المُقلتين ناتِيءَ الحَدقتين طويلَ الخَطْم لطيفَه.

وأن يكونَ الشعر الذي تحت لِحْيَيْه غليظاً متراكباً وكذلك شعر خَدّيه.

وأن يكونَ قصيرَ اليدين طويلَ الرجلين فإنه كذلك يكون أسرعَ في الصعود بمنزلةِ الأرنب، ويقال إنه لا يكاد يَلْحق الأرنبَ في الصعود كلبٌ إلاّ على هذه الصفة.

وأن يكون عظيمَ الصدرِ غليظَه، عريضَ ما يلي الأرضَ منه، عَبْلَ العضُدين، مستقيمَ اليدين، مُنْضَمَّ الأصابع بعضها إلى بعض إذا مَشى أو عَدا، وذلك أجدرُ ألاّ يَدْخُلَ بينها ما يُفسدها من طينٍ ولا غيره.

وأن يكون عريضَ الظهرِ عريضَ المفاصل طويلَ الفخذين غليظَهما، شديدَ لَحْمِهما، دقيق الوسط، رزين المحمل، لينَ الجِلدة التي بين فخذيه إلى الصدر.

وأن يكون دقيقَ الساقين صُلْبَهما، وليس يُكره أن تكون الأنثى طويلةَ الذَّنَبِ، ويُكْرَه ذلك للذكر، ولينُ شعر بدنِه يَدلُّ على قوته، وقد يُرْغَب في ذلك من جميع الحيوان المَشّاء على أربع، ولينُ الريشِ للطائر مُستحسَنٌ مثل البُزاةِ وما يُصاد به من الجوارح.

ويُستَحسن في الكلب أن يكون ذكيَّ الفؤاد نشيطاً شديدَ المنازعة للمِقْوَد.

ومن علاماتِ قوته التي لا غايةَ بعدها أن يكون على رأس ذَنَبه أو ساقيه شبه مِخْلَبٍ أو على أحدِ ساقيه، ويَنبغي أن يُقْطَع ذلك منه ليزيد في عَدْوِه.

والسَّلوقية الطويلةُ الأُنوفِ أجودُ شَماً، وإناثُ السَّلوقية أسرعُ قَبولاً للتعليمِ والأدبِ من الذكور، وقد يُستَحَبُّ أن تكون عديمةَ اللحم جُملة.

وأما ألوانُها فالأبيضُ أَقْره إذا اسودَّت حَدَقَتُه، وكذلك الذي لونُه لون الأسد بين الصُّفرة والحُمْرة، وأجودُها بالجملة أبيضُها إذا وافق الصفةَ المُختارة، وقيل إن السودَ منها أقلُّ صبراً على الحَرِّ والبردِ، وهي شرُّها في الهِراش وأشدُّها في ذلك، وسودُ الكلابِ أكثرُها عقوراً.

ولا خير في الكلاب البُقْع البَتّة، والتبقيع هُجْنةٌ. وقيل إن الأَسْوَد أقوى بدناً ولا تكون معرفتُه محمودةً، والأبيضُ، وإن كان أضعفَ بِنْيةً، فهو أدرب عملاً وأحسنُ أدباً.

ومما يُعْرف به أجودُ الجِراء أن تؤخذَ قبلَ أن تَفتحَ أعيُنَها في حالِ صِغَرِها وتُجْعَلَ في مكانٍ نَدِيٍّ فأيها كان أكثرَ قياماً وأشدَّ نشاطاً وأقلَّ سُقوطاً فهو أجودُها.

الاجتهاد في الفقه والقانون
ــ تمهــيد ــ

الحاج أحمد ابن شقرون

جاء القرآن الكريم، ليكون أول أصل من أصول التشريع الاسلامي ﴿وماآتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

– وجاءت السنة النبوية الطاهرة، لتكون ثاني أصل، من أصول التشريع الاسلامي. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ﴾.

– وجاء الاجماع، وهو أقوى من الاجتهاد، ليكون ثالث أصل من أصول التشريع الاسلامي، الذي ورد فيه : سألت الله أن لا تجمع أمتي على ضلالة ولا على الخطأ فأعطانيها.

– وجاء القياس ليكون رابع أصل من أصول التشريع الاسلامي، بصفته الحاق أمر مجهول، بحكم أمر معلوم، لعلة مشتركة بينهما. أما الاجتهاد، فهو بذل الجهد للوصول الى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، وشرطه أن يقوم به ذوو العقول الراجحة، من رجال الاطلاع الواسع على العلوم المطلوبة في هذا المجال.

– ومن هنا قيل : لا ينبغي أن يخلو منه عصر من العصور.

– وحيث أن الفقه في الأصل اللغوي هو الفهم، فكذا ما بني عليه في الاصطلاح، لأنه أطلق أولا على فهم أصول الشريعة وفروعها، ثم أطلق بعد ذلك على فهم فروع الأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها التفصيلية.

– ومن أراد الله به خيرا يفقهه في الدين.

– اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل.

وحيث أن هذه الأحكام، تدور حول أفعال المكلفين وأحكامها، ودلائلها، فان جميع ذلك يستمد قوته ومشروعيته من الأصول الأربعة التي عليها مدار الشريعة الاسلامية.

– ومن هنا وجب أن تكون تلك الأحكام مبنية على الفهم الصحيح، والنظر الراجح، الذي يلهمه باستمرار عقلاء المسلمين على مر الدهور والاعصار شريطة أن لا يحيد ذلك الفهم عن الثوابت التي جاء بها الاسلام الصحيح، ومضى عليها عمل المسلمين. هذا، ولئن جد فقه يعرف باسم القانون، وهو عبارة عن مجموعة رصينة من الآراء، تعتمد على قواعد منطقية لتنظيم روابط اجتماعية، وضعت ليجرى العمل بها في قطر معين، أو وقت معين فإن ذلك يستمد قوته في الغالب من الفقه المالكي، المبني على المصالح المرسلة وسد الذرائع، وفتحها، والاستحسان والعرف وغير ذلك، وبما أن الناس تحدث لهم أقضية بقدر ما أحدثوه من تطورات لذلك كان الاجتهاد في موضوعي الفقه والقانون أمرا دعت إليه الحاجة، مع انعدام نص صريح، حيث لا اجتهاد مع وجود النص، وذلك وارد عن النبي ﷺ، فإنه حينما بعث معاذا قاضيا إلى اليمن :

قال له ـــ بِمَ تقضي ؟

قال : بما في كتاب الله.

قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟

قال : أقضي بما قضى به رسول الله،

قال : فإن لم تجد فيما قضى به رسول الله ؟

قال : أجتهد رأيي

قال : الحمد لله الذي وفق رسوله

وبالمناسبة أقول :

إن حدوث العمل الفاسي والعمل الرباطي في نوازل الفقه المالكي وفتاويه، والحكم بالشاذ، لعرف الإقليم، وغير ذلك، مما تواطأ عليه شيوخ القرويين وفقهاؤها الأجلاء منذ سالف العصور، يدل دلالة واضحة، على التفتح والفهم الصحيح للفقه الاسلامي الذي تبعه ما نشأ في أفقه الواسع من القواعد المقننة.

وعليه فالمتخصصون في الفقه والقانون، عارفون بما جدّ في وقتنا من القضايا التي تحل باجتهاد فيما لا نص فيه، لأن الاسلام دين البشرية جمعاء. لذلك فهو لا يتعارض مع العقل الذي ورد ذكره في القرآن نحوا من 50 مرة، ولأن النصوص الواردة، احكام لقضايا معينة وحياة هذا الانسان تفرض جزئياتها اللامتناهية اجتهادا يتجدّد بتجدد القضايا.

إنما المدار ـــ كما قلنا ـــ على الوقوف مع أصول الاسلام ومبادئه وأسسه.

واذا ضربنا مثلا لهذا الاجتهاد بعهد الصحابة رضوان الله عليهم، فإننا نجده قائما في فتاويهم الشرعية المتداولة خاصة والقاعدة الشرعية تقول :

من اجتهد فأصاب فله أجران.
ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

قال ابن القيم في كتابه : «اعلام الموقعين» بعد ما فسر الرأي المحمود : وهذا هو الفهم الذي يختص الله به من يشاء من عباده. ثم تابع قائلا وعليه فصحة الفهم وصحة القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده. لأن صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، فيميز به بين الحق، والباطل ذلك ان فهم الواقع والفقه فيه واستنباط ما وقع فيه بالقرائن، والامارات، من علامة الاحاطة به علما. ومن المعلوم أن من بذل جهده، واستفرغ وسعه، لم يعدم أجرين أو أجرا.

وفي المقارنة بين الشريعة والعقل قال ابن القيم :

ليس في الشريعة شيء يخالف القياس، لأن القياس الصحيح دائر مع اخبارها وجودا وعدما، فلم يخبر الله رسوله بما يناقض صريح العقل.

وجاء في كتاب سد الذريعة في الشريعة للبرهاني :

ان الله تعالى ميز الشريعة بالمرونة الفائقة على الاستجابة لمختلف البيئات والظروف مع أصالة لا تضيع معها معالمها، ولا تذوب بسببها شخصيتها.

— ومن هنا استجاز أيمة لأنفسهم النظر في الأحكام، على ضوء مقاصد الشريعة وروحها.

وقالوا : كما كان الاجتهاد كأصل من أصول الشريعة الاسلامية، كان العقل الساهر على نموها وازدهارها، لأنه يدفع عنها وصمة العقل، في قواعدها.

وبعد، فإن المتتبع لآيات التشريع، في كتاب الله تعالى يجدها معللة بجلب المصالح أودرء المفاسد.

لذلك كان على المجتهدين أن يعملوا وبكل دقة بمقتضى ماذكر، فيما لا نص فيه، لأنه توقيع عن الله.

— يتبع —

أزمة الهوية في نظم التعليم
في العالم الإسلامي

عبد الهادي بوطالب

تتضمن دراستنا لموضوع (أزمة الهوية في نظم التعليم في العالم الإسلامي) مدخلا وأربعة محاور، والمدخل يتمحور حول تعريف الهوية، وأما المحاور فهي :

المحور الأول : ما هي مظاهر أزمة الهوية في العالم الإسلامي ؟ وما سببها : أو كيف وجدت هذه الأزمة في تربية العالم الإسلامي ؟

والمحور الثاني : واقع التعليم في العالم الإسلامي يثبت وجود هذه الأزمة وحتى استفحالها.

والمحور الثالث : ما هي طرق العلاج ؟ وما هو المنهج التربوي الإسلامي الصحيح الذي يجب أن يطبق لاستعادة العالم الإسلامي هويته ؟

والمحور الرابع : ماهي الأسس التربوية الإسلامية القادرة على هذه العملية التحويلية ؟

وفي البداية نتوقف عند كلمة (الهوية). وأقول أولا إنها بضم الهاء خلافا للشائع في فتحها، فهي من (هو)، وهي الجواب على سؤال (من هو فلان) و(من هو هذا الشعب ؟) فيكون الجواب هويته كذا...، والهوية نسبة إلى هو، وهي كلمة مستحدثة في اللغة العربية على غرار الكلمات المستحدثة للحاجة إليها عبر القرون.

وقد كان أسلافنا عندما أصبحت لغتهم تواجه اللغات في تفاعل مع الحضارات وجدوا أنفسهم مضطرين كما نحن اليوم في عصرنا هذا إلى نحت مشتقات وعبارات ومصطلحات ربما ساروا فيها إلى تركيب كلمتين في كلمة واحدة أو إدخال أوزان جديدة على العربية ومن ذلك ما دخل في اللغة العربية على لسان علماء المنطق عن الماهية، وأصلها (ما هي)، وعن الماصدقية وأصلها (ما صدق عليه الشيء)، وعن ماجريات الأمور وأصلها (ما جرت عليه).

والهوية هي مجموعة الخصائص والمميزات التي ينفرد بها فرد أو شعب أو أمة

والتي تتوارث عن ماض ذي تاريخ وتراث، وبما في التراث من لغة ودين وما للأمة من انتصارات وانتكاسات وطموحات وانتماءات وخصائص تجعل من ينتمي إليها ذا ذاتية متميزة عن غيره، فيصبح ويبقى هو ذاته ونفسه، ويكون بهذا قد أعطى الجواب على سؤال (من هو ؟).

المحــــور الأول

فأما الأزمة أو مظاهرها فتتعدد في المجتمعات الإسلامية المعاصرة تبعا لتعدد آثار مرحلة الاستعمار المباشر التي عرفتها هذه المجتمعات الإسلامية من قبل. وهكذا تنوعت أيضا مظاهرها على حسب ما خلفه الاستعمار فيها على جميع المستويات، وخاصة المستوى الفكري والثقافي الذي يحدد درجة استقلالية النظم التربوية والمناهج التعليمية عن التبعية للقوى التي تتحكم في اتجاهات الفكر العالمي.

وتأخذ أزمة الهوية في أنظمة التعليم أشكالا تتباين من مجتمع إسلامي إلى آخر وإن كانت تمثل في مجموعها إحدى حالات الضعف في الكيان الإسلامي، مما ينعكس بصفة طردية على الأوضاع العامة في البلاد الإسلامية، ويتسبب في خلق المعوقات المستعصية أمام جهود التنمية ومشاريع النهضة الحضارية الشاملة التي يهفو العالم الإسلامي إلى تحقيقها منذ مطالع هذا القرن.

ويمكن أن نقول إن العالم الإسلامي لم يفقد كله هذه الهوية في تربيته، فهناك دول قامت بمجهود كبير في استدراك هذا الأمر بعد أن حققت أو استعادت استقلالها، وهناك دول لم يكن للاستعمار فيها تأثير فكري خطير، فاحتفظت بمجموعة تربيتها الإسلامية بما جعلها لا تفقد هويتها وشخصيتها.

وتنشأ أزمة الهوية بصفة عامة من تعارض الاتجاهات الثقافية والفكرية التي تحتضنها نظم التعليم مع مقومات الذاتية الإسلامية على النحو الذي يخلق تعارضا بين الهوية وما تأثرت به التربية، يخلق تعارضا، بل وحتى انفصاما في الشخصية، تبدو آثاره على الموقف الفكري العام للفرد والجماعة في المجتمعات الإسلامية أو على ما يترتب على هذا الموقف من توجه وسلوك واقتناع ومواقف لا تساير التوجه الإسلامي، سواء على المستوى الخاص أو على المستوى العام. وإذن فالهوية التي نشير إليها هي الهوية الإسلامية بخصوصيتها المميزة، ومن البداية أكرر التأكيد على أن هذه الهوية ليست على مستوى واحد في جميع مجتمعات العالم الإسلامي، كما أن أزمتها ليست على مستوى واحد في جميع المجتمعات الإسلامية.

وأزمة الهوية في نظم التعليم مظهر بالغ الوضوح للأزمة العامة التي تطبع الحياة الإسلامية في المرحلة الراهنة نتيجة تضافر عوامل عديدة وتراكم مخلفات متشعبة لم تفلح حتى الآن الجهود المبذولة في التخلص منها في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وهي فضلا عن ذلك أحد المعوقات أمام إنجاز المشروع الحضاري الإسلامي المتمثل أساسا في استكمال بناء الشخصية الإسلامية المستقلة القادرة على المواجهة المتكافئة مع أطراف العالم الأخرى بالحوار الواعي وعن طريق الإسهام المتميز في صنع حضارة إنسانية رشيدة يكون العطاء الإسلامي من مقوماتها التي لا تنكر.

ونلاحظ أن العالم الإسلامي يوجد فيه أو يتوفر فيه تعليمان، إذ نتجت أزمة الهوية في نظم التعليم في العالم الإسلامي من الانفصام والانفصال بين (التعليم الديني) وبين (التعليم المدني)، مما أدى بالضرورة إلى تمزيق وحدة الشخصية التعليمية للأمة الإسلامية في الأقطار التي تعاني من أزمة الهوية. إن هذا الازدواج الذي صاحبه توسع نطاق التعليم المدني وسيطرته الكاملة على جميع وجوه النشاط الاجتماعي وواكبه تجميد التعليم الديني وتهميشه وقصره على الجوانب الخاصة بالمسجد وعلى العبادات، يتعارض مع وحدة الفكرة الإسلامية ومفهوم الإسلام نفسه الجامع بين منهج العبادة ومنهج المعاملات الدنيوية. بل إن هذه الثنائية دخيلة على التصور الإسلامي من الأساس. ولذلك كان أخطر ما خلقه الاستعمار وما خلفه من ورائه في نظام التعليم في البلاد الإسلامية هو هذا الانفصام الواقع بين التعليم الديني والتعليم المدني الذي تولد عنه انحراف في النظرة إلى وظيفة التعليم، وكان من الأسباب الرئيسية لنشوء الأزمة ذات المظاهر المتعددة، وهو أقوى دلالة على أزمة الهوية في المقام الأول.

ومن آثار ذلك أن مادة الدين الإسلامي مازال ينظر إليها في بعض تخطيطات عالمنا الإسلامي على أنها مادة روحية أخلاقية فقط، ولاصلة لها بالحياة، بينما الدين الإسلامي شريعة كاملة تنتظم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا ما جعل التعليم المدني لا صلة له بالدين، وجعل التعليم الديني منقطع الصلة بالدنيا. فدرس الدين في هذه النظم التعليمية المبتلاة بأزمة الهوية هو في الحقيقة قطعة مرقعة محشوة في الثوب الدراسي، غير متجانسة معه، إن لم نقل متنافرة معه. إن التعليم يصبح بذلك، تنظيرا وتطبيقا، نسيجا علمانيا بحتا، لا علاقة له بالدين، وهذا نقل حرفي للطريقة الغربية اللادينية التي فصلت الدين عن العلم وعزلته عن الحياة. وينطبق هذا المنهج الاستعماري خاصة على مواد اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، هذا إن وجدت لها مجالا في تلك البرامج، أو عندما تجد مجالا ضيقا فيها، بحيث ينشأ المتلقي لهذه المواد

فاتر الحماس لدينه ولحضارة أمته، نتيجة ضعف حصيلته من هذه الدروس وفساد المنهج الذي تربى عليه.

وفي ظل هذا النظام التعليمي الأجنبي الغريب، لأنه يخلق بطبيعته مناخ الأزمة الفكرية والثقافية العاصفة، في ظل هذا التعليم الأجنبي نشأت أجيال من المسلمين في عهود الاستعمار والتبعية، ولا يزال بعضها ينشأ في المواقع التي لم تمتد إليها يد الاصلاح والتغيير داخل خريطة العالم الإسلامي الذي يفتقد في هذا النظام التربوي الرؤية الشمولية، ويبقى محصورا فيما أراد له الغرب أن يلقنه إياه من علوم ومعارف.

لقد كان أحد قادة العالم الإسلامي صريحا إلى أقصى الحدود حين كشف عن فساد النظام التعليمي الغربي الذي فرض على بلاده، وهي أحد الأقطار الإسلامية. يقول زعيم غينيا الرئيس أحمد سيكوتوري رحمه الله[2] في معرض نقد الواقع التعليمي في إفريقيا المسلمة : «لقد تعلمنا نحن المثقفين الافريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك، وبلغة فرنسا قرأنا أشعار لامرتين وروايات موليير المسرحية، وبهذه المدارس درسنا التنظيم الإداري الفرنسي، كما لو كانت بلاد إفريقيا بدون تاريخ، وحتى بدون موقع جغرافي، وحتى بدون قيم وبدون أخلاق. وقد قدم الاستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعجلة الاستعمار. هكذا تحددت طبيعة التعليم في ظل الاستعمار». وأضاف الرئيس الشيخ توري ــ رحمة الله ــ يقول : «ولقد أراد المستعمرون للمعلم الإفريقي أن يظل في حالة ثقافية منحطة حتى يتخرج المتعلمون على يديه وهم أكثر انحطاطا. لقد أراد الاستعمار للمثقفين الإفريقيين أن يفكروا بفكر ديكارت وعقلية برجسون، ولم يسمح لهم بالتفكير في مناخ قيمهم وثقافتهم وتراثهم الثقافي، لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الافريقيين أمثال المناضل الوطني الحاج عمر الغيني وأحمد ساموري توري. وإذا استمر الأمر بنا على هذا النحو فلن نستطيع أن ننمي شخصيتنا الإفريقية التي هي الطريق الوحيد للنهضة في إفريقيا».

لقد كان سيكوتوري ينتمي إلى غينيا المسلمة التي جعلها الاستعمار ناطقة بالفرنسية، وصنفها في حدود الناطقين بالفرنسية في إفريقيا، وما أكثرهم بالاضافة إلى

(2) ليس هذا الإسم اسمه الحقيقي، بل إنه الشيخ توري، وتحرف إلى سيكوتوري، وذلك من باب الإذابة في الغرب، التي لم تستثن حتى الأسماء، والأمر ليس بجديد فشبابنا يقرأ في هذا النوع من التعليم أسماء رجالنا وأعلامنا محرفة يدعى أحدهم أفي رويس وهو ليس إلا ابن رشد، ويدعى أحدهم أفي سين وهو ليس إلا ابن سينا، ويدعى الآخر الغازي وهو الرازي، وما نزال نجد حتى في بعض الأقطار الإسلامية في الشوارع مكتوبا اسم الغازي وقد وقفت على ذلك في عدة أقطار إسلامية.

الذين صنفهم الإنجليز في حدود الناطقين بالأنجليزية، وكأن لم تكن لهم أبدا لغة وتاريخ. ولو أننا أعطينا الكلمة لزعيم آخر أبتلي بالاستعمار الإسباني أو البرتغالي أو الإنجليزي أو الهولندي لذكر بدلا من أسماء ديكارت وبرجسون أسماء أعلام إنجليزية وفرنسية وبرتغالية وإيطالية ألمانية... إلخ ولظلت الفقرة التي نطق بها سيكوتوري صالحة لكل هؤلاء.

ولاشك أن هذه نماذج لما وقع ويقع في العالم الإسلامي، ويتسبب في خلق أزمة اسمها أزمة الهوية في نظم التعليم، وتتولد عنها أزمات فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية سنشير إلى بعضها. ومن ذلك أن الاستعمار أصر في هذه الأقطار على أن يجردها من هويتها وذاتيتها، فاستبدل بحرفها الوطني الحرف اللاتيني وكان بعضها يستعمل الحرف العربي فوضع بدله الحرف اللاتيني وذلك ما حصل في بعض لغات إفريقيا الوطنية التي كانت تستعمل الحرف العربي إلى وصول الاستعمار إليها. وأذكر أن جيلي من الذين كانوا يقرأون في المدارس الفرنسية، كانوا يقرأون في كتب تتحدث عن بلاد فرنسا ويحفظون في كتب المطالعة (نحن ننتمي إلى أجدادنا الغاليين)، ويقولون (إن فرنسا أمنا جميعا)، ويتحدثون عنها حتى بأمنا الحنون، هذه الكتب كانت موجودة إلى حد الأربعينيات في المغرب الذي لم يكن مستعمرة وإنما كان حماية يتبع فرنسا بمقتضى معاهدة دولية تبقي على شخصيته القانونية والدولية. وما بالك في دول أخرى.

المحور الثاني

إن واقع التعليم في بعض البلاد الإسلامية لا يعكس الهوية الإسلامية أو يعكسها بنوع من الضبابية والتشويش، لأنه مزيج من أنظمة تربوية أجنبية متنافرة ومتناقضة مع طبيعة المجتمع الإسلامي، ومرتبطة بدرجة أو بأخرى بالأنظمة السائدة في البلدان التي كان لها وجود نافذ في العالم الإسلامي، ومن هنا تتفجر الأزمة على أكثر من صعيد لتضع البلدان الإسلامية أمام واقع فكري لا مناص من تغييره بما يتلاءم وطبيعة المنظومة الفكرية الإسلامية المتكاملة الجامعة بين الدين والدنيا.

إننا نستطلع ملامح أزمة الهوية في نظم التعليم بالبلاد الإسلامية من خلال حصيلة أحد الاستبيانات التي أنجزتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ووجهتها إلى الدول الأعضاء فيها، وأسوق هذا الاستبيان على سبيل المثال والاستدلال. لقد تضمن هذا الاستبيان مجموعة من الأسئلة حول مستويات دراسة التربية والثقافة الإسلاميتين في المراحل التعليمية الأربع : الابتدائي، والثانوي بطوريه، والعالي الجامعي.

أما الأسئلة التي تضمنتها الاستمارة فكانت اثني عشر سؤالا :

1 – ما هي المواد الدينية التي تدرس في مدارسكم ومعاهدكم ؟

2 – أتدرس بالمدارس الحكومية أو غير الحكومية ؟

3 – ما هي لغة التلقين في التعليم عندكم ؟

4 – كم عدد الساعات المخصصة للمواد الدينية في حصة التعليم ؟

5 – هل تحتسب المواد الدينية في الامتحانات ؟

6 – هل تعتمد في امتحانات الانتقال والامتحانات النهائية ؟

7 – ما هي الكتب المدرسية الخاصة بالمواد الدينية ؟

8 – هل دراسة المواد الدينية إجبارية أم اختيارية ؟

9 – ما هو مدى حضور الثقافة الإسلامية في المواد الدراسية الأخرى ؟ (غير المواد الدينية)

10 – هل تتوفرون على كليات ومعاهد عليا ومراكز متخصصة في الدراسات الإسلامية ؟

11 – هل تدخل المواد الإسلامية ضمن مواد الإجازات في الكليات والمعاهد العليا ؟

12 – ماهو نصيب الثقافة الإسلامية في المواد التعليمية الأخرى (غير المواد الدينية) في الكليات والمعاهد ؟

وجاءت نتيجة هذا الاستبيان مكرسة لوضعية أزمة فقد الهوية في هذا المجال الحيوي، إذ كان عدد الدول التي أجابت على الأسئلة خمس عشرة (15) دولة، يقول الاستبيان إن أربع عشرة دولة تدرس فيها مادة التربية الإسلامية في المدارس الحكومية وغير الحكومية، ويدرس القرآن الكريم على مستوى المرحلتين الابتدائية والطور الأول من الثانوي في 14 دولة، وعلى مستوى المرحلة الابتدائية يدرس فقط في دولة واحدة، ويدرس الحديث في المرحلتين في 8 دول، ويدرس على مستوى المرحلة الابتدائية فقط في دولة واحدة، في حين يدرس على مستوى المرحلة الثانوية فقط في ثلاث دول. ويدرس التفسير على مستوى المرحلتين في 6 دول، وعلى المستوى الابتدائي فقط في دولة واحدة، بينما يدرس على المستوى الثانوي فقط في 5 دول، ويدرس التوحيد في المرحلتين في دولتين، ويدرس في دولة واحدة على المستوى الابتدائي، وفي ثلاث دول على المستوى الثانوي. وتدرس السيرة النبوية على المستويين الابتدائي والثانوي في 6 دول فقط. وتدرس على المستوى الابتدائي فقط في 6 دول. أما مادة الثقافة الإسلامية فتدرس في دولة واحدة فقط في المرحلة الثانوية، بينما تدرس الحضارة الإسلامية في 5

دول فقط. وتدرس الفلسفة الإسلامية في 6 دول لا غير. وتحتسب المواد الإسلامية في الامتحانات الدورية والنهائية بصفة إجبارية في 13 دولة، وبصفة اختيارية في دولة واحدة فقط.

وعلى ضوء هذه الأجوبة التي تشمل عينات فقط من الدول التي وجه إليها الاستبيان وعددها 15 دولة، نجد أنفسنا أمام ظاهرة تستحق التأمل لما لها من مساس بالواقع الفكري والثقافي في العالم الإسلامي تتمثل في أن حضور التوجه الإسلامي العام في مناهج التعليم في معظم البلدان الإسلامية لا يتناسب وحجم الغزو التعليمي الذي يتهدد الوجود الإسلامي على المستويات كافة. وليس فحسب على المستوى التربوي والتعليمي، مما يعطي للقضية المطروحة بعدا استراتيجيا حضاريا ذا خطر بالغ الأهمية أكثر منه مشكلة أزمة الهوية في التعليم، يتطلب معالجة وتخطيطا على أكثر من صعيد.

إن المعسكر التعليمي موزع بين فصيلتين، فصيلة الفكر الديني، وفصيلة الفكر اللاديني أو العلماني، أو ما يطلقون عليه المعسكر القديم، والمعسكر الجديد، وهذه الثنائية أو الازدواجية في التعليم هي السبب الأكبر في خلق الأزمة التي تعيشها الأجيال الجديدة، وإن الاعتقاد بأن من التعليم ما هو محايد وما هو بعيد كل البعد عن التأثر بالعقيدة إنما هو فرضية لم تثبت صحتها إطلاقا. فالخطوة الجذرية الأولى في نظرنا هي إحداث تنسيق في نظام التعليم، فلا قديم ولا جديد، فالكل علم ديني، لا بالمعنى اللاهوتي الكهنوتي المسيحي الأوروبي للكلمة، وإنما بمفهوم التعليم في الإسلام كوحدة لا تتجزأ، إذا كان يمكن أن تنفصل فعلى قدر الانفصال الذي يكون بين الغاية و وسائلها. إنهم يقولون مثلا إن التعليم الديني يجب أن يبقى منفصلا عن التعليم الآخر، بينما في نظر الإسلام، كل التعليم يخدم الدين وكل التعليم يخدم الدنيا، حتى ما يطلق عليه العلوم التجريبية التي تبدو لا صلة بينها وبين العقيدة، تدرج في المنهج الإسلامي الصحيح على أنها من مشمول العقيدة ومضامينها، إذ التعليم نفسه ليس غاية في ذاته لأن الدنيا نفسها ليست كذلك ﴿مَا خَلَقْتُ الإِنْسَ والجِنَّ إلاَّ لِيَعْبُدُون﴾[2].

ومن نافلة القول أن من الحقائق التي لا يمارى فيها أن نمو المجتمعات المعاصرة لا يتم بصورة عفوية أو بالمصادفة والتلقائية، وإنما يتطلب التخطيط، على المدى القريب والبعيد والمتوسط، ذلك أن النمو في معناه الشمولي هو التطور، وهو ليس غاية لذاته بقدر ما هو وسيلة إلى تحقيق التقدم في المجتمع عن طريق تكوين أفراده ليكونوا في مستوى أفضل ملاءمة وأقدر على المواجهة وأصلب عودا في معارك البناء الحضاري.

(2) الذاريات، 56

ولنتساءل : لماذا ننمي الإنسان ؟ هذا السؤال يفرض علينا أن نجيب عليه في كل تخطيط، فمعرفة الغاية تحدد الوسائل، هل الغاية من النماء أن ينمو الإنسان على غرار الحيوان ؟ وأين إذن الفارق بينهما ؟ إن الحضارة المادية في تطلعاتها غير المحدودة إلى اختزان الموارد، وإلى الوفرة، وإلى شراهة الكسب، وإلى نهم الاستهلاك، وإلى التقاتل على التكاثر الذي خصصت له سورة التكاثر ﴿أَلْهَاكُم التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ﴾[4] أصبحت في نظري حضارة الأنعام، حضارة البهائم، بينما الإسلام يريدها حضارة الإنسان، ﴿وإِنْ هُمُ إلاَّ كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمُ أَضَلّ﴾[5] ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا﴾[6].

إن الإسلام بالتخطيط الهادف يصل إلى تحقيق الغاية من الحياة : السعادة في هذه الدنيا والسعادة في الآخرة. وتلكم هي التنمية الشاملة في المنظور الإسلامي وليس غيرها، والتخطيط للتنمية هو عمل جميع المجدين في مختلف المؤسسات، إذ لو انطلق الإنسان في حياته دون هدف مرسوم واضح لتاه في بحر لجي متلاطم الأمواج، ولظل يصارع دون أن يبارح نقطة البداية في عناء ويأس وضياع، ولهذا فالتخطيط المحكم أساس كل عمل هادف، وكل عمل هادف لابد له من إعداد كامل مستوف لشروط البقاء والتطور، وهذا ما جعل البداية في كل تكوين اجتماعي هي التربية والتعليم، ولكن ليس لإعداد أي إنسان، ولو إنسان الروبوات الذي لا روح له والذي يقال عنه إنه سيخلف إنسان الجسم والروح.

إن التخطيط الإسلامي للتعليم يجب أن يستهدف إعداد الإنسان الصالح الواعي القادر على خوض غمار الحياة، المسلح بالايمان بما بعد الحياة. فالتعليم إعداد معرفي لابد أن يقوم على أصول، ولابد أن ينطلق من ثوابت لتكون المعارف صحيحة ملائمة للبيئة وللزمان، مرتكزة على أسس سليمة، والفرق بيننا وبين الغرب هو أنه لا يستحضر السعادة في الحياة الأخرى في مفهومه العلمي، وفي منظوره للتخطيط التربوي. ولذلك يجب أن يقوم التعليم في البلاد الإسلامية على أصول إسلامية ليحقق رسالته وفقا للقيم والمفاهيم المنبثقة عن تلك الأصول، وذلك ما يتيح للمسلم استرجاع هويته المفتقدة التي يتحصن بها من طائلة الشبهات والانحرافات وفتنة الأيديولوجيات، ومن زيغ الشك

---

(4) التكاثر، 1 – 2.

(5) الفرقان، 44.

(6) الأعراف، 198.

والإلحاد والتنكر للقيم، والخجل من الانتماء إلى الماضي الإسلامي المشرف والمشرق الذي يصوره التعليم الأجنبي في صورة قاتمة أو باهتة أو كمرحلة عابرة من الزمن عفى عليها الدهر، ويصور التطلع إلى الرجوع إليها في شكل رجعية مقيتة لا يقبلها منطق العصر.

إن طبيعة المعرفة في الإسلام مستمدة أساسا من القرآن والسنة، وهي لا تلبي مجرد الفضول العلمي أو التطلع إلى المجهول، أو رياضة الفكر، أو التأمل المثالي في الكون، بل هي تحقق رغبة الإنسان الفطرية في معرفة الأشياء على حقيقتها بوسائل لا يرقى إليها الشك، والوسائل عندنا في المنظور الإسلامي هي الوحي الإلهي أولا ثم التأمل العقلي والحس والتجربة، لأننا نهتم بعالم الشهادة وعالم الغيب معا، ونعيش في عالم الشهادة لنصير إلى عالم الغيب، ولذلك فنحن في تحرك دائم نحو ذلك المصير.

إن للمعرفة الإسلامية بهذا المعنى آثارا تترتب عليها ونتائج تقتضيها، فهي تلزم بحجتها سواء كانت شاهدة أو غائبة، إقرارا واعترافا بالحقائق الكبرى الغائبة والشمولية التي يعجز العقل البشري أن ينطلق منها إلى الجزئيات ويتوقف عند إحداها عندما لا يستطيع أن يلم بها مفوضا أمره إلى الله في فهمها. ﴿الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[7]. فالمعرفة الإسلامية تتحقق إذن، بالطرق الأربع : الوحي، والعقل، والحس، والتجربة، وكلها أدوات للوصول إلى الحقيقة التي هي أساس كل تعليم، ولهذا فالتعليم من المنظور الإسلامي يستمد أصوله من المعرفة الحق الشاملة للوصول إلى غايات سامية، ولذلك ينبغي أن يحدد علماء التربية والتعليم في العلم الإسلامي الهدف من التربية والتعليم بأنه ما يلي : الإعداد للحياة الكاملة في الدارين، وضمان التعليم للمحافظة على معرفة الحقائق العلمية بجميع مضامينها ومحتوياتها، وضمان أن يكون هذا التعليم ميسرا للعيش الكريم، حافظا للنوع والجنس، مهيئا للاضطلاع بالمهام التي تخدم المجتمع، ولكن أيضا ليظل الإنسان في هذا التعليم مرتبطا بذاته ونفسه ولا ينفصل عنهما. إنها عملية تسعد الفرد في حياته، وتهيىء له وسائل السعادة لمجتمعه ولذاته، وللمساهمة في بناء البشرية جمعاء. فالتربية والتعليم بهذه الرؤية يخضعان لا لأفكار الفلاسفة واجتهدات المفكرين، ولكن للمبادىء والقيم الثابتة التي يحتضنها المفهوم الإسلامي العام.

ولابد لنا أن نفرق ـــ حيث أن الإسلام يفرق ـــ بين مفهوم التربية والتعليم، لا أن نجمع بينهما، فالتعليم تلقين حصيلة من المعلومات، والتربية تهذيب تلك المعلومات وتنقيحها وتوظيفها في تحسين تعامل الإنسان مع خالقه ومجتمعه وبيئته، ليكون إنسانا

(7) البقرة 2

مؤمنا منفتحا متفاعلا حرا، ولكن لا طليقا من أي قيد، بل منصهرا في محيط القيم التي لا يمكن للانسان أن يلغيها، لأنها جزء متأصل من حياته، ولأنها تعده لسعادته.

المحور الثالث

وإذن، كيف يسهم التعليم في تطوير المسلم وانتشال المجتمع الإسلامي مما يعانيه من افتقاد أزمة الهوية، وما هي الأنظمة التعليمية التي يجب اعتمادها لتحقيق هذا الهدف وللخروج من دائرة الأزمة التي تحيط بنا ؟

إننا نردد دوما أن للإسلام قدرة على السمو بالإنسان المعاصر وانتشاله مما يعانيه من شرور حملتها إليه جوانب من الحضارة المادية، ونتحدث عن خلافة الإنسان للخالق في أرضه، فما هي قدرة الفرد المسلم والجماعة المسلمة على تحمل الأمانة وإنقاذ الانسانية ؟ فإذا كانت مظاهر من الحضارة الغربية المعاصرة حملت إلينا مفاسد العنصرية وتدمير العلاقات الإنسانية، وسعت إلى تقويض أركان الوجود الإنساني فأباحت الخمور والمخدرات، وقضت على روابط الأسرة، ونشرت الاستبداد والظلم، ووزعت المسؤوليات حتى ضاعت، وكدست الأسلحة وهددت البيئة، فما هي مسؤولية الأمة الإسلامية التي تتحمل أمانة عمارة الأرض لتقف في مواجهة هذه الحضارة المادية، وتقاوم عبث الإنسان بالإنسان وبالطبيعة وبالقيم الحارسة لهما ؟

ولنا أن نطرح هذه الأسئلة في صيغة أخرى فنتساءل عما هي البدائل التي يقدمها تعليمنا، انطلاقا من المفهوم الإسلامي الشامل، لانتشال واقع المسلمين، ومن هناك الخلوص إلى انتشال واقع الإنسانية من وهدة التخلف ؟ وماذا نعمل لإرساء نظم تعليمية على أسس المعايير الصحيحة التي تعتبر قاعدة هذا المنهج في التربية والتعليم لينشر الإسلام من جديد رسالته الخالدة، ويحقق العهد الإلهي في الأرض ؟

إن تربيتنا اليوم بكل أسف مهزوزة انطوائية، وإن تعليمنا في عمومه لا يمس العمق الإسلامي ولا الواقع الملتف بنا، وسنظل دوما هكذا دون قدرة على خلق تيار جديد لهذه الأمة ما لم نعمل على تحقيق التغيير الحضاري المطلوب منا إحداثه في عالمنا. لذلك سوف نظل نعاني التمزق وانفصام الشخصية، ونفقد المناعة ضد الاغتراب والاستلاب ما لم نغير مناهج التربية في بلادنا بما يجعلها تفرز البديل الإسلامي المفتقد. واليوم، والعالم نراه يركض لاهثا وراء التغيير، ينبغي للمسلمين أن يركضوا هم أنفسهم لتغيير أوضاعهم. والبديل موجود ويختزن العالم الإسلامي في نفسه طاقة يحملها ولا يحس بها. ويمكن أن نتمثل هنا قول الشاعر العربي :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

إن نظم التعليم المعاصر في أكثرية الأقطار الإسلامية ـــ ولحسن الحظ لا أقول عند جميع الأقطار الإسلامية ـــ على تباين أشكالها، توصف في جملتها بأنها نظم علمانية لا دينية، وبذلك قصرت دورها على نقل المعلومات أو التدريب على عدد من المهارات، ولكنها فقدت دورها التربوي. ولقد أصبحت في وقت من الأوقات الوزارات المهتمة بشؤون التربية تحمل في أوروبا وفرنسا اسم وزارة التعليم العمومي، ثم غيروها إلى وزارة التربية عندما أصبحوا يوهمون الأسر بأن التربية رجعت إلى المدرسة، وأن المدرسة هي التي ستهتم بها. لكنهم في المدارس يعلمون ولا يربون. والوزارات تشتغل بالتعليم ولا تشتغل بالتربية. ومن هنا أصبحت التربية بدون راع ولا مسؤول.

إن نظم التعليم في بلداننا قصرت دورها على نقل المعلومات، أي على التعليم أو التدريب على عدد من المهارات، وفقدت دورها التربوي، لأن نقل المعلومات أو التدريب على بعض المهارات إذا لم تواكبه تربية أخلاقية وروحية لا يمكن أن يسمى تعليما كاملا، بل ما هو إلا وسيلة لتبليغ قدر من المعارف إلى الأذهان ونقل بعض المهارات المكتسبة دون تربية حقيقية للإنسان. وهذا هو ما جعل من التربية والتعليم في الغرب أداة لإشاعة وسائل الاستعلاء والتجبر في الأرض، وتعنت الإنسان، ومبالغته في ظلم أخيه. هذا هو أصل الحروب والصراعات والتدنيات الخلقية التي انحدرت إليها البشرية في الحضارة الغربية، مما مهد للانحرافات، وخرج بالانسان من إنسانيته إلى حيوانيته، ورمى به في متاهات الحيرة والضياع.

وقبل أن أجيب على ما سبق من تساؤلات أطرح التصورات التالية التي من شأنها أن توفر قاعدة للعمل الإسلامي في مجال التربية.

ماهي المبادىء الأساسية للتعليم من منظور إسلامي ؟

أجيب على ذلك فأشير إلى ان الإسلام جاء بوحدة عقيدة الأمة الإسلامية، وكان من نتائجها أن ألف الله بين القلوب، فانسجمت العقليات الفردية والاجتماعية، وتوحدت المشاعر نتيجة وحدة العقيدة الموحدة لله الواحد، واتضحت مناهج المبادىء والقيم التي جاء بها الإسلام وحض عليها، فلم يعد هناك بعد مجيىء الإسلام لا تفكير عربي جاهلي، ولا فارسي، ولا روماني، ولا وثني، ولا مسيحي، ولا يهودي. وبذلك أنهى الإسلام وعفى على أثار الجاهلية الأولى، وعلى القيصرية والكسروية والفرعونية والوثنية. وجاء بمبدأ واحد : هو الإيمان بالله ووحدة العقيدة، فكان الإيمان إذن أساس

وحدة التعليم، وكان الكتاب المربي هو الكتاب الأول للمعرفة الإسلامية الذي نزلت منه أول آية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ مفسرا بالحديث ومطبقا بسيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وظهرت شخصية المسلم في انبثاق التربية الإسلامية الأولى، فنحن هنا نجد أنفسنا أمام نموذج مطبق عندما كان المجتمع الإسلامي متكاملا أو شاملا، مجتمعا مطبقا في تربيته وأخلاقه وتعليمه وسلوكه ومعاملاته، بحيث يمكن القول بأن النمط الإسلامي طبق في العالم الإسلامي في فترة معينة بدون نزاع ولا خلاف وبعد نزول الوحي تكونت خلية المجتمع الإسلامي الأولى التي سهر صاحب الخلق العظيم ــ الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ــ على تكوينها، فاستجابت للإسلام تحمل طاقة جديدة لا عهد للتاريخ بها من قبل، حققت نقلة نوعية قل نظيرها في عمر البشرية. فما هي هذه الطفرة التي عبر بها الصحابة الأولون المسالك الملتوية، وخرجوا منها إلى آفاق أوسع، وانقلبوا في ظرف قليل من الزمن من جماعة ضالة حائرة إلى جماعة واعية ملتزمة ؟ وكيف أصبح أبو بكر رجلا راجح العقل وعمر أعظم مشرع مدني في التاريخ ؟ كيف أصبحت لجماعة الصحابة من الهجرة إلى الفتح الإسلامي قيادة رشيدة عظمى ؟ إنها التربية القرآنية الجديدة التي جاء بها محمد ﷺ عن ربه، وإنه التعليم الإسلامي الذي صنع إنسانا من نوع جديد.

وقد استمر التعليم الإسلامي على هذا الأساس الصلب، استمر حيا متطورا متفتحا، يأخذه الخلف عن السلف، ويضيف إليه التابعون بعد التابعين من الأجيال الجديدة دون شعور بالنقص، وفي أمان من الانزلاق، محافظا على هويته الإسلامية، وفي إطاره نبغ في الإسلام جيل من العلماء والمفكرين والحكماء والقادة الذين حملوا لواء الإسلام قرونا، ومازال عطاؤهم مشعا وأثرهم مستمرا. وكانت هي فترة الازدهار بما كانت تشع به من هوية إسلامية صحيحة، ثم خلف من بعدهم خلف انحدروا في المتاهات، وفقدوا الهوية، وانتكست منهاجية التعليم، وكان الجمود والتأخر.

المنهج الإسلامي طبق إذن في فترة غير قصيرة من الزمن، وأعطى نتائجه، والعبرة بالنتائج. لكننا نجد أنفسنا بعد ذلك في بداية الضعف أو الضعف في مسيرة التعليم، إذ بدأ الضعف يدب إلى النهج الإسلامي التعليمي في تكوين الشخصية المسلمة بعد استفحال التمزق والانشطار اللذين مزقا الكيان الإسلامي نتيجة الغزو المغولي المدمر أولا، ثم الحروب الصليبية التي دكت معالم الشخصية الإسلامية ثانيا، ووجدت في الجمود الفكري وفي سد باب الاجتهاد والتقوقع على آراء السابقين ما أعان المبشرين

والمستشرقين والمستعمرين على استكمال إضعاف البنية الفكرية التربوية في البلدان الإسلامية، مما جعل العالم الإسلامي يسير نحو مزيد من الانحطاط والانهيار.

لقد انقضت قوى التخلف على العالم الإسلامي وأضعفته من داخله فدخل مرحلة الجمود والانحطاط، وتكالب عليه الاستعمار من الخارج فركدت الثقافة وتحنطت وتخلخلت المعرفة وتقوقعت، وضعف الاقتصاد، وانفكت عرى المجتمع، وغاب العقل الفاتح الحي، وساد التفكير الخرافي الميت، فأفقرت العقليات وانقطع حبل التاريخ الواصل بين الماضي والحاضر. وعندما يغيب العقل تسود الخرافة والوهم، وعندما يغيب التوحيد المطلق تعشش الوثنية، إن لم تكن في صورتها البدائية ففي شكل عبادة الفرد وتأليه الأشخاص، وتضافرت معالم هذه الصورة للتعجيل بتداعي الكيان الإسلامي، إذ اتصل المسلمون بالغرب وهم في انحطاط وهو في صعود، هو طاغ في علمه وهم مستضعفون في جهلهم وقلة إيمانهم. فحصل الاستلاب الثقافي إذ أفقدهم تعليمهم هويتهم، ووقعوا في الفوضى الفكرية والعقلية، وفقدوا الاستقلال في الرأي، والقدرة على الإنتاج، واتخاذ القرار. كما أصبح المجتمع تتجاذبه الفلسفات والإيديولوجيات وتيارات الدول المستعمرة. وبذلك انقطعت الصلة بالماضي الثقافي، وتعززت الولاءات الثقافية للأجانب، وضعف التماسك الاجتماعي، والتبست الحدود بين الحق والباطل.

في هذا الفراغ حمل الاستعمار الغربي إلى العالم الإسلامي فلسفته التعليمية لسد فراغه، ونقل إليه مدارسه ومناهجه، وهي كلها غريبة عن محيط العالم الإسلامي وبيئته سواء في محتوى موادها أو في بنياتها أو في فلسفتها أو في أهدافها.

إن نظم التعليم الغربي مبنية على فلسفات ذات صبغة ثنائية أو انشطارية، فلسفات تفصل الدين عن الدولة، تفصل الروح عن الجسد، تفصل الفرد عن الجماعة وتفصل الدين عن الدنيا في ظل دراسات علمانية تعشش فيها اتجاهات فكرية تقود الإنسان إلى الشك والإيمان بالمادة والإلحاد وحتى إلى العدمية، ومتى نشأ الشاب داخل عالم الإسلام على هذا النمط من التفكير نشأ غريبا عن مجتمعه، وعاش في فراغ روحي مدمر.

وهكذا أخذ المعلمون المسلمون ينقلون تعاليم المدارس الغربية إلى بلادهم، بل ناب عن المعلم الأصلي الوطني معلمون وأساتذة أجانب جاؤوا إلى مدارسنا ولقنونا بغير لغتنا فلسفاتهم ومذاهبهم ومناهجهم التربوية، بل إن ما زادنا ضياعا أننا أسلمنا أولادنا لتربية الأجنبيات والأجانب، وأصبح الولد يتلقى تعليما وتربية مغايرين لهويته داخل البيت وداخل المدرسة، ووقع التواكل وضعفت المسؤولية، ولم يبق أحد مسؤولا عن الأطفال. وطيلة العهد الاستعماري كان هناك صراع احتدم بين من بقي في قلوبهم

جذوة الإسلام رغم ضعف تعليمهم وتحرقهم أحيانا على أنهم لم يبلغوا هذا التعليم ولم يعرفوه لأنهم لم يصلوا إليه من مصادره ولا تعلموا لغته، وبين من فقدوا كل صلة لمقوماتهم الدينية والحضارية. وجذوة الأولين هي التي كانت وراء الحفاظ على شخصية بعضهم بهويتها وإن كانت هوية باهتة. ويجب أن نقول هنا إننا مدينون في العالم الإسلامي كله للتعليم الإسلامي العتيق الذي أيقظ في قلوب المسلمين جذوة الإيمان، وكافحت به شعوبنا ضد الاستعمار، وواجهت به أيدلوجياته ومعتقداته. وهنا أشير إلى فضل القرويين في المغرب، والزيتونة في تونس، والأزهر في مصر، وفضل جمعية العلماء في الجزائر، وحركة محمد بن عبد الوهاب في المملكة العربية السعودية، وما أشاعته على العالم الإسلامي من رسالة التوحيد الحق وما وفرته للأمة من مناعة من فيروسات الإلحاد والزيغ.

لقد زرع فينا الاستعمار مناهج تعليمه وكَيَّف مشاعرنا بلغته وتاريخه وثقافته، وأخضع أفهامنا ومداركنا لأنماط تفكيره، فتكون جيل تعلم بأسلوب غريب عنه عرفت صورته من خلال حديث المرحوم الشيخ توري سالف الذكر.

ولم يفطن المربون والمعلمون والمفكرون والمصلحون في العالم الإسلامي لمأساة تقليدهم للغرب إلا بعد لأي، وبعد أن طغى التغريب ونشأ جيل عقيم يجهل موقعه ورسالته. فأخذوا يبحثون عن البديل، وظهرت الدعوات لهذا البديل الذي تبلور في اتجاهين أساسيين متعارضين مبدئيا ومنهجيا، تفرعت عنهما اتجاهات مختلفة كذلك، أولهما مدرسة مستوحاة من نظام الغرب ارتمت في أحضان التعليم الغربي واستوحت مذاهبه وأصبحت تدعو إلى أنه التعليم المثالي الذي يجب أن يطبق على العالم الإسلامي، لأن العالم يشكل وحدة، أو ما يعبرون عنه بالقرية الصغيرة. والمدرسة الثانية تدعو إلى الرجوع الكامل إلى إسلامية المعرفة والتربية بمنأى عن المؤثرات الغربية، وإلى بعث الثقافة الإسلامية من منظور إسلامي مجرد. وتصارع هذان الاتجاهان مدة طويلة وما يزالان يتصارعان. فخسر العالم الإسلامي كثيرا بغياب تربيته الإسلامية وتعليمه الأصيل، وترتب عن ذلك تكوين فئتين من المتعلمين، فئة عاجزة عن التفاعل مع محيط ما حولها، مؤمنة بمبادئها، ولكن لا تستطيع أن تلج ساحة المسؤوليات لتطبيق تلك المبادىء وفئة ضالة عن قيم دينها وثقافتها، وهي أكثر من يزاول المسؤولية العليا في بعض الجهات.

وأمام غياب التعليم الإسلامي بأهدافه التربوية الذي كان يحيي نوازع الأخوة والمحبة، مارس المسلمون العنف بينهم وباتوا يخشون سطوة غيرهم. وإذا كان التعليم الإسلامي يقوم على النظام والمحافظة على العهد واحترام قيمة الوقت، فإن المسلمين في ظل تراجع هذا التعليم وانسلاخه من جلد التربية أصبحوا يمثلون بكل أسف الفوضى

والاخلال بالعهود والمواثيق، معطين عن أنفسهم صورة قاتمة تشيع فيها معالم التفرقة والتشرذم والصراعات، وحتى الحروب الداخلية. والمسؤول عن ذلك كله ضعف العقول بضعف التعليم وفقد التربية. فالصراعات والانحرافات تعشش في العقول الخلية أولا لتتفجر في التصرفات اللاأخلاقية.

ولقد قامت الحركات الاستقلالية في العالم الإسلامي بجهود ومساع لإصلاح التعليم، وتعكف بعض البلدان الإسلامية اليوم على إصلاح مؤسساتها العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكان من أوليات أعمالها إصلاح نظم التعليم ومناهج التربية. وقد وجدت الطريق عسيرا لعدم وضوح الرؤية في هذا الاتجاه، كما عانت من صراعات الثقافات فكان السير في ميدان إصلاح التعليم متعثرا. وظلت البلدان الإسلامية في معظمها تعتمد على المعلمين الأجانب في تربية أبنائها وعلى توجيهات المنظمات العالمية التي يحكم فيها ويسيرها خبراء أجانب وحتى صهاينة، وإن كانت هذه البلدان قد توفقت بعض الشيء في بناء المؤسسات وتعميم النظام الإداري، وتطوير الكتاب المدرسي، ونقل العلوم التجريبية فقد أخفقت في علاج مادة التربية الدينية وصبغ التعليم العام بالتوجيه الإسلامي. بل أستطيع أن أقول، إن بعض الدول الإسلامية، ضمن ما يعانيه العالم الثالث كله، عالم الجنوب، أصبحت الآن تخضع لتوجيهات مؤسسات النقد الدولية التي تعطي الاعتمادات اللازمة لبناء التعليم ولتجهيز المدارس، وتشترط فيما تشترط عليه مراجعة نظم التعليم بما يجعلها أقل كلفة، والحقيقة أنها تريد أن تجعلها أقل إحراجا لها مما هي عليه.

وبذلك أصبحت مادة التربية الإسلامية التي كان من المؤمل منها تكوين الفكر الإسلامي مادة غير متكاملة ولا مندرجة مع باقي المواد الأخرى، كما سبقت الإشارة إليه في نتيجة الاستبيانات السابقة وتراجع مفهوم الإسلام في أخلاقياته وفلسفته ونظرياته في الحفاظ على الشخصية الإسلامية.ودخل المسلم معركة الحياة دون جهاز المناعة وهي مناعة التربية، وزاد الطين بلة اعتماد الموجهين للتعليم على توجيهات خبراء المنظمات الدولية الذين استقدمتهم بعض البلدان الإسلامية لاصلاح مناهج التعليم وطلب منهم أن يضعوا لها منهاجية سارت عليها واعتبرتها منهاجية لا جدال فيها.

إن ما يعرف العالم الإسلامي المعاصر من مظاهر التطرف والغلو وما يشار إليه بالصحوة الإسلامية ــ ويختلف العالم الإسلامي على تقييمها ــ، وما يلاحظ من صراع بين المتأثرين بالفكر الغربي تأثيرا سطحيا، وهم بذلك يناهضون كل صحوة إسلامية مهما كانت رشيدة مترشدة، وبين المتعصبين المتزمتين، هو نتيجة حتمية لهذا التعليم الذي تجاهل التربية الإسلامية ولم يستفد من توجيهها السامي وتأثيرها على الأخلاق

والسلوك والتفكير. فنحن إذن أمام حلقة مفتقدة لابد أن يصنعها التعليم المصلح، يجب أن نحدد لهذا التعليم هدفه الذي هو الإنسان المتكامل، الإنسان الذي لا يفرط ولا يصل إلى طرفي النقيض.

وإذا كانت التربية الإسلامية هي التي تعمل على تكوين المسلم تكوينا حياتيا متكاملا، وعلى إعداده لمواجهة الحياة، فلابد لها من أن تبتدىء من المدرسة ولابد لها من أن تبتدىء من البداية. ومن هنا فإن محو الأمية كان موضوع تركيز من لدن مؤتمر عالمي انعقد بتايلاندا منذ مدة ثلاثة أشهر كانت منظمات عالمية، منها البنك الدولي، تريد أن يصدر عنه قرار ملزم بأن ينصرف العالم الثالث إلى محو الأمية وإلى التعليم الأساسي فقط، ذلك لأن المسؤولين عن هذه المنظمات ضاقوا ذرعا بالاعتمادات التي يقدمونها لهذا العالم، فأرادوا أن يصرفوه عن التعليم الثانوي والعالي، ويسجنوه في محو الأمية والتعليم الأساسي. وقد تنبهنا في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة لهذا الخطر. وشاركنا في هذا المؤتمر الذي كلفنا عبء النفقات لندرأ هذه المفسدة، وقدمنا برنامجا إسلاميا لمحو الأمية يعتمد على تبرعات المسلمين وعطاءاتهم حتى لا يطلب من هذه المنظمات تمويل التعليم الابتدائي، وحتى يبقى الهامش مفتوحا أمام الحكومات الإسلامية للتفاوض معها على حاجات التعليم الثانوي والعالي الذين لم نقبل أن يتوقفا لمدة عشر سنوات، ولو تحت شعار تأمين التربية للجميع قبل سنة ألفين.

ويبدو حرصنا على توجيه عمل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إلى توسيع الاهتمام بالجانب التربوي الإسلامي فيما يمثله البرنامج الذي يعد أعظم البرامج عندنا وهو «جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التربية والتعليم» ونحن نخطط له ونضع في كل حقبة من حقب تنفيذه برامج ميدانية تدخل بها الثقافة الإسلامية مناهج التعليم. وقد كان لهذا البرنامج منذ البداية إقبال في الدول الإسلامية غير العربية لأنها المعنية أكثر.

المحور الرابع

واختم بالتوقف عند المحور الرابع وهو : ما هي الوسائل التي يجب أن تعتمد لتقويم التعليم في البلاد الإسلامية بما يجعلها تخرج من أزمة الهوية ؟ ونتوقف هنا عند حقائق خمس :

1 – الحقيقة الأولى هي ضرورة الجمع في التعليم بين النظري والعملي فليس التعليم حشو الفكر بالمعلومات والنظريات، بل إن التعليم يتطلب الربط بين النظرية والتطبيق في جميع المواد، سواء الإنسانية أو التجريبية. ونلح على أن تدخل التربية الدينية

في نطاق التطبيق بحيث لا يمكن أن نكتفي بأن يحفظ الأطفال شعائر الدين ويعلموا أن هناك فرائض وسننا ومستحبات دون أداء الواجبات الدينية في المؤسسات التربوية واعتمادها في السلوك والتفكير. وهذا ليس موجودا في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فما أكثر ما نجد تلامذة يحفظون الكثير من شعائر الدين وهم يجهلون كيف يصلون وكيف يصومون وكيف يحجون، ونراهم لا يلتزمون في المجتمع الأخلاقي بسلامة التفكير والسلوك الخلقي المرتبط بهذه الشعائر.

2 – الحقيقة الثانية هي إدماج برامج التعليم في الحركة التنموية.

3 – الحقيقة الثالثة هي شحن البرامج بالمحتويات الايجابية، فالبرامج هزيلة ولا تحقق المراد منها، كما أنها لا تحقق التواصل بين عموم المتعلمين، بل إننا نجد انفصاما في حلقات التعليم بين التعليم الابتدائي وبين التعليم الثانوي والتعليم العالي.

4 – الحقيقة الرابعة، استمرارية التعليم، وهي مبدأ من مبادىء الإسلام. فالتعليم في الإسلام طلب مستمر، متجدد من المهد إلى اللحد، يطلب في كل مكان، في المدرسة، في البيت، في المسجد، في المكتب، في النادي، وبجميع الوسائل المتاحة من الكتاب ومن وسائل التلقين الأخرى، كالوسائل السمعية والبصرية والمعلوماتية. ولذلك عندما كان المسلمون يطبقون التعليم المستمر لم يكونوا يعرفون الأمية في حياتهم لأن الذين كانوا منهم لا يكتبون كانوا مع ذلك متعلمين، ولو أنهم جهلوا الكتابة وقد كانوا لا يجهلون المعرفة الإسلامية. وقد عرفت ظاهرة المتعلمين الأميين أولئك الذين كانوا يتلقون العلم من أفواه الرجال وأفواه الشيوخ دون أن يتوفروا على إمكانية كتابته أو تدوينه، وهنا ننشد مع الشاعر :

ليس بعلم ما وعى القمطر ما العلم إلا ما وعاه الصدر

5 – الحقيقة الخامسة هي تحديد الأسس التي ينبغي أن ينبني عليها التعليم الإسلامي وهي :

1) الأساس الفلسفي وهو أن ينبثق التخطيط للتعليم الحق من نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان والحياة، واعتبار قدرة الخالق بما يثير في نفس المسلم الخشية من الله وحده، ويبعث فيه الثقة في نفسه والصبر والصمود إزاء الأحداث والتقلبات والأزمات التي تعرض المجتمعات إليها، ويحس بأنه ينتمي إلى نظام أصيل وحضارة أصيلة.

2) الأساس الاجتماعي وهو أن يلبي التخطيط لمناهج التربية والتعليم الحاجات

الاجتماعية سواء منها المحلية أو البيئية العامة وحاجات المجتمع الإسلامي كله، بصورة تنسجم مع النظام الاجتماعي للأمة، ومع نظام القيم فيها.

3) الأساس النفسي وهو وجوب مراعاة عملية النمو في التعليم لدى المعلم والمتعلم مع ما يتضمن ذلك من مراعاة مراحل النمو التي يجب أن يكون لها في كل مرحلة تعليمها الذي يأخذ بعقلية من نلقنهم ذلك الطور من التعليم، طور الطفولة، والبلوغ، والشباب، والأخذ بعين الاعتبار المتطلبات النفسية والاجتماعية لهذه المراحل، حتى يشب المتعلم قوي الإرادة صلبا لا يتزعزع في المواقف ولا أمام الملمات.

4) الأساس المعرفي وهو أن تستمد التربية أصولها من طبيعة المعرفة الإسلامية ومن أنساقها الفكرية، وأن يوظف كل ذلك في خدمة الفكر والعقيدة والمجتمع الإنساني.

ولقد ذهب بعض الباحثين الاستراتيجيين الذين تقدموا بإصلاحات وعرضوها على العالم الثالث إلى حصر منهاج إصلاح التعليم في ثلاثة عوامل :

أولا : التخلص من الفيضان الطلابي بما يتبعه من اكتظاظ في العقول والفصول والمدرجات، وما يستلزمه من حجم الأساتذة الملائم لذلك النظام، ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يقلصوا دائرة التعليم ويشيعوا الجهل في العالم الإسلامي، بإثارة هذه الموضوعات : الاكتظاظ الطلابي والفيضان الطلابي.. إلخ.

ثانيا : يقولون إن هناك ندرة حادة في الموارد، وما دام العالم الثالث لا يستطيع أن يعطي لنفسه مواردها فالعالم الآخر لا يستطيع أن يعينه، وعليه أن يراجع فلسفته في هذا الموضوع.

ثالثا : العامل الثالث أن هناك زيادة مطردة في تكلفة التعليم، ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يحصروا التعليم في طور الابتدائي الذي لا يكلفهم وسائل إضافية متطورة، وأن يرجعونا إلى عهد التعليم البدائي. وهم يقولون يجب ألا تكون الآن الأسبقية في النهضة للتعليم بقدر ما يجب أن تكون في الاقتصاد. ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يخلقوا من العالم الثالث والعالم الإسلامي ضمنه، مجرد يد عاملة يمكن أن تتأهل للعمالة والاستخدام بتعليم بسيط لا يصل بها إلى درجة العلم الصحيح.

إننا نتفق مع أحد المفكرين العالميين الذي يقول : (لن تصان حضارتنا المعاصرة من الدمار الذي يتهددها إلا إذا تطورت قلوب الناس الذين يعيشون على الأرض،

فالقلوب المتحضرة هي التي تبقي على هذه الحضارة حية مستمرة، وهذا الهدف لا يتحقق في نظرنا إلا بحفاظ كل أمة على هويتها، وشخصيتها).

وتلك، في نظرنا الوسيلة العملية والأداة الحضارية لمعالجة أزمة الهوية في نظم التعليم لخلق دينامية فاعلة تدفع في اتجاه تطور العالم الإسلامي وتقدمه ورقيه.

فواتح الكتب في تراثنا

احمد صدقي الدجاني

يستطيع القارىء في كتب التراث العربي أن يلاحظ أن هذه الكتب تتميز بفواتحها. وهو يتوقع حين يمسك بكتاب منها أن يقرأ فاتحة ذات طابع مميز. فلو كان الكتاب هو «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» مثلاً فإنه سيجد مؤلفه عبد الرحمٰن الجبرتي قد افتتحه بقوله «بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله القديم الأول، الذي لا يزول ملكه ولا يتحول، خالق الخلائق وعالم الذرات بالحقائق، مُفْني الأمم ومحيي الرمم ومعيد النعم ومبيد النقم وكاشف الغمم وصاحب الجود والكرم، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون، وأشهد أن لا إله إلا الله تعالى عما يشركون، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله إلى الخلق أجمعين، المنزل عليه نبأ القرون الأولين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ما تعاقبت الليالي والأيام وتداولت السنين والأعوام».

منذ مدة وأنا راغب في تناول موضوع «افتتاح الكتب في تراثنا»، وهو موضوع لفتني إليه حين توثقت علاقتي بكتب التراث كهلاً، وكنت قبل ذلك أمر بفواتح الكتب أو خطبها مرور الكرام وأنا اكتشف لنفسي أحد «الكتب الصفراء» التي تمت طباعتها في القرن الماضي، فتراني اقفز بين سطورها قفزاً لأنتهي منها إلى «أما بعد» وأدخل حسب ظني في الموضوع. ولربما اقترن القفز بين السطور عند الشاب العَجِل الذي كُنته بتبرّمه من هذه الفواتح، وبمقارنة مع «التأليف الغربي» الذي لم ير فيه مثلها ينتهي إلى رجحان كفتّه !! والتمس العذر لذلك الشاب في أنه مثل أقرانه لم يجد من يأخذ بيده أثناء دراسته عبر جميع المراحل ليكتشف تراثه ويحسن التفاعل معه، لأن مناهج التعليم المتبعة لا تلتفت إلى ذلك. وإذا كان هذا شأن شبابنا الذين درسوا في وطنهم العربي فماذا يكون شأن اخوانهم الذين درسوا في الخارج مع تراثهم !!.

أذكر أن التفاتي إلى فواتح الكتب في تراثنا كان حين توثقت صلتي بمقدمة ابن

خلدون أولاً ثم بكتابه كله «العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». فقد تمعنت مرة، بعد أن أَلِفْت الكتاب، في فاتحة فوجدت أن سطورها المعدودة حافلة بالكثير. وعاودت قراءتها متأملا في مضمونها وسبكها مُردّداً ما قاله العلامة العظيم «الحمد لله الذي له العزة والجبروت، وبيده الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى والنعوت، العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت، القادر فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض ولا يفوت. أنشأنا من الأرض نسما، واستعمرنا فيها اجيالاً وأمماً، ويسّر لنا منها أرزاقاً وقيماً. تكنفنا الأرحام والبيوت. ويكفُلُنا الرزق والقوت. وتبلينا الأيام والوقوت، وتعتورنا الآجال التي خُطَّ علينا كتابها الموقوت، وله البقاء والثبوت، وهو الحي الذي لا يموت». ولم ألبث عند هذا الحد أن أَلِفْتُ السجع وكان في أول الأمر غريباً على أذني. ومع إلفي له انتقلت للنظر في «الحمدلة» فوقفت أمام اختيار النعوت لله المحمود التي أراد المؤلف ابرازها ووجدت أن كل نعت وثيق الصلة بموضوع الكتاب، وانها بمجموعها تذكر القارىء بحقيقة الألوهية. وتابعت النظر في الجزء الذي بدأ بتغيُّر قافية السجع، فإذا بي أجد نفسي أمام صور من الاجتماع الانساني تتتالى انطلاقاً من ارادة الله في الخلق.. انشاء «من الأرض نسماً..» استعمار فيها «اجيالاً وأمماً».. تيسير لنا منها «أرزاقاً وقسماً». ثم تتغير القافية مرة أخرى لتعرض صور «الأرحام والبيوت» و«الرزق والقوت» و«الأيام والوقوت» و«الآجال وكتابها الموقوت» وينتهي الحديث بذكر الله الذي نتوجه بالحمد لله «وهو الحي الذي لا يموت»، ليذكر الانسان بأن كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام. وتنتقل فاتحة الكتاب إلى جزئها الآخر الخاص «بالصلصلة» الذي يلي جزء «الحمدلة» ونصه «والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الأُمي العربي المكتوب في التوراة والانجيل المنعوت، الذي تمخّض لفصاله الكونُ قبل أن تتعاقب الآحاد والسبوت، ويتباين زُحَلُ واليهموت (النون والحوت)، وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت، وعلى آله وأصحابه الذين لهم في محبته واتباعه الاثر البعيد والصيت، والشمل الجميع في مظاهرته ولعدوهم الشملُ الشتيت، صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام جدّه المبْخُوت، وانقطع بالكفر حبله المبتوت، وسلم كثيراً». وللمرء أن يتأمل في هذا الجزء، ويقينا فإنه سيقف أمام دلالة كل كلمة جاءت فيه، وسيقدّر الجهد المبذول في صياغته، فيتمعن في معانيه وينتهي إلى التهيىء للدخول في تناول الموضوع بعد أن يقرأ كلمتي «أما بعد». وهنا تصل فاتحة الكتاب إلى جزئها الثالث والأخير الذي يسلط أضواء على موضوعه ومضمونه ويبين كيفية ترتيبه. وموضوع كتاب «العبر» هو التاريخ، واذكر أني «حفظت غيباً» ــ كما كنا نقول ــ ما قاله ابن

خلدون في أول هذا الجزء أثناء دراستي الجامعية بعد ان أثار اعجابي عمق مضمونه، وكان يطيب لي أن استشهد به في معرض الحديث عن «التاريخ» :

«أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتبارى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعد في علومها وخليق». وقد شاء ابن خلدون أن يفصّل الشرح لهذه الفكرة ويُوضح منهجه ثم يصل إلى الحديث عن ترتيبه لكتابه.

* * *

وجدت نفسي مقبلاً على قراءة فواتح الكتب، بعد أن تمَعَّنْتُ.. في فاتحة كتاب ابن خلدون. وصرت استطيب القراءة المتأنية لسطورها سطراً سطراً ولكلماتها كلمة كلمة، أتأمل معناها ومبناها، وأقارن بينها. وقد لفت انتباهي أنها جميعها تبدأ «بالبسملة» فـ«ـالحمدلة» فـ«ـالصلصلة» ثم تصل إلى «أما بعد». كما لاحظت أن هذه الفواتح تطورت في صياغتها مع الزمن فزادت العناية بهذه الصياغة وأضحت أكثر تفصيلاً. فنحن إذا عدنا إلى فاتحة كتاب «السيرة النبوية» لابن هشام وجدناها شديدة الايجاز : «بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين». بينما رأينا كيف أسهب ابن خلدون فيها. ومثله فعل ابن الأثير الذي توفي سنة 630 هـ. في كتابه «الكامل في التاريخ». فقد كتب «الحمد لله القديم. فلا أول لوجوده. الدائم الكريم فلا آخر لبقائه ولا نهاية لجوده. الملك حقاً فلا تدرك العقول حقيقة كنهه. القادر فكل ما في العالم من أثر قدرته. المقدس فلا تقرب الحوادث حماه. المنزه عن التغيير فلا ينجو منه سواه. مصرف الخلائق بين رفع وخفض وبسط وقبض وابرام ونقض وإماتة واحياء وايجاد وافناء واسعاد واضلال واعزاز واذلال. يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء. ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير. مبيد القرون السالفة، والأمم الخالفة. لم يمنعهم منه ماااتخذوه معقلاً وحرزاً. فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟ بتقديره النفع والضر وله الخلق والأمر تبارك الله رب

العالمين أحمده على ما أولى من نعمه. وأجزل للناس من قسمه. وأصلي على رسوله محمد سيد العرب والعجم. المبعوث إلى جميع الأمم. وعلى آله وأصحابه اعلام الهدى ومصابيح الظُلم. صلى الله عليه وعليهم وسلم».

ويمكننا أن نلاحظ حين نتأمل في فاتحة كتاب ابن الأثير ومثيلاتها من الفواتح التي تطورت في صياغتها، أن مضمون «الحمدلة» و«الصلصلة» يتوافق مع موضوع الكتاب. فتأتي هذه الفاتحة بما تتضمنه من اشارات وعصارات تتعلق بسنن الكون في معرض حمد الخالق والصلاة والسلام على نبيه لتهيىء القارىء للدخول إلى عالم الكتاب، ولتذكره وهذا هو الأهم بحقيقة الايمان وتربط ما يتلقاه من علم بهذه الحقيقة. وهذا ما رأيناه في فاتحة كتاب ابن خلدون الذي كان موضوعه العمران البشري، وفي فاتحة كتاب ابن الأثير الذي هو كتاب تاريخ يعرض «للحوادث» و«التغيير» و«صرائف الدهر» و«تداول الملك». وهذا ما نراه مثلاً في فاتحة كتاب «فصوص الحكم» لمحي الدين بن عربي الذي يدخل في دائرة الصوفية والكشف، فالحمد لله فيها تتحدث عن «الله مُنزل الحكم على قلوب الكلم بأحدّية الطريق الأمم من المقام الأقدم، وان اختلفت النحل والملل لاختلاف الأمم». والصلصلة تتحدث عن «مُمدّ الهمم، من خزائن الجود والكرم، بالقيل الأقوم، محمد وعلى آله وسلم». فالاشارات الواردة في هذه الفاتحة تنتهي إلى عالم الكشف وكذلك المصطلحات المستخدمة.

كم هو رائع هذا التنوع في الفواتح بحسب موضوعات الكتب. وقد مددت يدي على كتب ورسائل في مكتبتي لاسترجع امثلة عليه.. فوجدت السخاوي المؤرخ يقول في فاتحة كتابه «الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» «الحمد لله مصرف الأيام والليالي، ومعرف العباد كثيراً مما سلف في الأزمان الماضية والدهور الخوالي، ومشرف هذه الأمة في سائر الأشهر والأعوام بالضبط التام المتوالي، ومعلم من شاء من العلم العقلي والنقلي ما هو أنفس من الجواهر واللآلي، ومفهم الألباء في التعريف بالانسان والزمان، الطريق المسند المدرج في العوالي بالعبارة الرائقة والاشارة الفائقة المنعثة للرمم البوالي، والصلاة والسلام على أشرف الخلق المنزل عليه ﴿وَكُلاًّ نَقُصّ عَليكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يعني الخالص للمجانب والموالي. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم من السادات والموالي». ووجدت التهامي كنون الادريسي يقول في رسالته «قرة العيون بشرح نظم ابن يامون في النكاح الشرعي وآدابه» : «الحمد لله الذي سنّ لعباده النكاح، ونهاهم عن السفاح. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد العرب والعجم القائل : «تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم»، وعلى آله الطيبين وأزواجه أمهات المؤمنين والتابعين». ووجدت القاضي أبا بكر بن العربي يضمن فاتحة كتابه «العواصم من

القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ» القول ضمن الحمدلة «اللهم إنا نستمد بك المنحة، كما نستدفع بك المحنة. ونسألك العصمة. كما نستوهب منك الرحمة». ووجدت أبا العباس القلقشندي يقول في كتابه «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان» «الحمد لله الذي جعل العرب بالنسب المحمدي منتمى تنعقد على فصله ال خناصر، وأيد عزهم بأعم مليك، وأعز جانبهم بأعز ناصر، وخصهم من كثرة القبائل بما يقف دون عدّه العاد، ويعترف بالعجز عن حصره الحاصر، وأنالهم من الشرف الباذخ مالا تمتد إليه يد أحد من الأمم، فكل مدعم عن بلوغ درجته قاصر..» وأمثلة أخرى لكتب في مختلف العلوم.

يتداعى إلى خاطري عند هذا الحد من الحديث مثل بعينه اذكره، هو فاتحة ألفية ابن مالك الأندلسي في النحو والصرف. فالفاتحة هنا منظومة شأن الألفية كلها. وهي تتضمن مثلا للأمانة العلمية رائعاً، وتنبض بروح الايمان. ورحم الله ناظمها القائل «بسم الله الرحمٰن الرحيم/ قال محمد هو ابن مالك ــ أحمد ربي الله غير مالك/ مصلياً على النبي المصطفى ــ وآله المستكلمين الشرفا/ واستعين الله في ألفية ــ مقاصد النحو بها محوية/ تقرب الأقصى بلفظ موجز ــ وتبسط البذل بوعر منجز/ وتقضي رضا بغير سخط ــ فائقة ألفية ابن معطي/ وهو بسبق حائز تفضيلا ــ مستوجب ثنائي الجيلا/ والله يقضي بهبات وافرة ــ لي وله في درجات الآخرة» وتتجلى الأمانة العلمية في تسجيله فضل السبق لابن معطي وثنائه الجليل عليه. كما يأتي الرجاء بالجزاء في الآخرة مُشبعاً بروح الايمان. وكم كنت أسعد وأنا طفل بسماع والدي رحمه الله يستشهد بالألفية، وكم غبطته وأنا شاب على حفظه لها. وقد ادركت آنذاك أن جيلنا كان أول جيل يتعرض لآثار الصدع الذي حدث في ثقافة الأمة وفصل ابناءها عن تراثهم.

* * *

دعاني تعرفي على فواتح كتب التراث إلى النظر في أصل هذا التقليد. وما أسرع ما لاحظت التشابه بين بنيات الفاتحة وبنيات الخطبة وبنيات «الكتاب» أي الرسالة. وبدا لي وكأن «الكتاب الرسالة» هو خطبة مكتوبة، وفاتحة الكتاب المؤلَّف هي خطبة المؤلِّف المكتوبة يوجهها للقارىء. وقد جعل العرب المسلمون خطب رسول الله ﷺ نموذجا يحتذونه في خطبهم الشفهية والمكتوبة. وهذه الخطب كانت تبدأ بحمد الله سبحانه، ثم تأتي بالتشهد لتصل إلى ماذا بعد. ومن اشهرها خطبة حجة الوداع التي قال فيها «ان الحمد الله نحمده ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، واحثكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير. أما بعد..» كما جعل العرب المسلمون كتب رسول الله ﷺ نموذجا يحتذونه في ما يكتبونه. وكانت هذه الكتب تبدأ بالبسملة والحمدلة. وقد أدخل العرب المسلمون على الخطب والكتب «الصلاة والسلام على النبي» بعد حمد الله، فأصبحت «الصلصلة» رُكناً من اركان الخطبة والكتاب الرسالة. ويحدثنا ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد» في كتاب «التوقيعات والفصول والصدور» كيف كانت الكتب تتفتح «باسمك اللهم» حتى أنزلت سورة هود وفيها بسم الله مجراها ومرساها فكتب بسم الله ؛ ثم نزلت سورة بني اسرائيل ﴿قل ادعو الله أو ادعو الرحمٰن﴾ فكتب بسم الله الرحمٰن ؛ ثم نزلت سورة النمل ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ فاستفتح بها رسول الله ﷺ وصارت سنة، كما روى ابراهيم بن محمد الشيباني. وقد فصل القلقشندي في «صبح الأعشى في صناعة الانشا» الحديث عن الفواتح فخصص الباب الرابع من المقالة الثالثة من كتابه الثمين لها باحثاً «(في الفواتح والخواتم) وفيه فصلان، الفصل الأول في الفواتح، وفيه ستة اطراف..»

لقد جاء حديث القلقشندي الشامل عن فواتح الكتب الرسائل في وقت ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، حين أضحت كتابة فواتح الكتب المؤلفة فناً رفيعاً معبراً عن روح هذه الحضارة وقيمها. ومما يلفت النظر أن المؤلفين من غير المسلمين من أبناء هذه الحضارة حرصوا على افتتاح كتبهم بها شأن زملائهم المسلمين، فكانوا يبدأون بالحمدلة وإن لم يتبعوها بالصلصلة. ومثل على ذلك ما جاء في فاتحة مقالة ابن العبري «العلامة غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون الطبيب الملطي» في النفس البشرية «الحمد لله الذي ابدع الوجود بعد العدم. ونفى بذلك عما سواه الأزلية والقدم». ثم قوله «ونطلب في ذلك المعونة والتوفيق من المبدع الأول. الذي إليه الرّجعى وعليه المعوَّل. ونسأله الالهام والتأييد. وتسديد ابهام الظن والتقليد. بمنّه ولطفه آمين».

يلفت النظر أيضا أن مضمون فاتحة الكتاب تَحدّدَ مُستفيداً من تراكم المعرفة في كل الحضارات الانسانية. وقد أورد المقريزي النقاط التي يجري الحديث عنها في الفاتحة بعد الوصول إلى «أما بعد»، فقال في فاتحة كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» : «اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت على ان يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي انحاء التعاليم المستعملة فيه». وقد شرح المقريزي المقصود بالمرتبة فقال : «فإنه من جملة أحد قسمي العلم اللذين هما العقلي والنقلي». وأوضح أن كتابه من علم الأخبار، وأنه سلك فيه ثلاثة أنحاء وهي النقل

من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن ادركت من شيخة العلم وجلة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته». وكم تمنيت لو أني قرأت ما قاله المقريزي عن هذه الرؤوس الثمانية في شبابي وأنا منهمك في كتابة رسالة الماجستير ثم رسالة الدكتوراه، إذن لوفرت على نفسي ما تكبدته من مشقة وأنا أكتب مقدِّمة كل من الرسالتين.

* * *

طاب لي بعد أن اكتشفت عالم فواتح الكتب في تراثنا أن أجري مقارنة بينها وبين فواتح الكتب في تراث الحضارة الغربية. وقد مددت يدي إلى عدد من هذه الكتب الغربية وراجعت مقدمتها، فوجدت أن ما يجمع بين هذه المقدمات عدم تقيدها بنسق معين في كتابتها وافتقارها إلى البعد الروحي. كما وجدت أنها قد تتضمن حديثا عن بعض الرؤوس الثمانية، ولكنها نادراً ما تستكملها جميعها. فهذا ارنولد توينبي في كتابه «النوع الانساني وأمه الأرض» يكتب مقدمة تتناول النظرة التاريخية. وهذا كولن ولسن في كتابه «الانسان وقواه الخفية» يكتب مقدمة يتحدث فيها عن قضية الكتاب ويصفها بأنها ثورية ويعالج مجموعة نقاط في صلب موضوع الكتاب ثم يتحدث في نهايتها عن تقسيمه الكتاب إلى ثلاثة أجزاء. وهذا (فرد هاليداي) يصدر كتابه «السياسة السوفياتية في قوس الأزمة» بحديث عن «قوس الأزمة» وعن تاريخ البحث فيها ويضمنه شكره لمن عاونوه. وهذا برنارد لويس يخصص مقدمة كتابه «العرب في التاريخ» للاجابة عن سؤال من هو العربي ؟ وتبدو المقدمة وكأنها مجموعة ملاحظات تمهيدية. وبدا واضحاً لي أن المؤلف الغربي متأثر في كتابته مقدمة كتابه بمفهومه عن «العلم» المفصول عن «الايمان والمعتقد». وهو يفتقد من ثم مرجعية دينية تحكمه. وتداعى إلى خاطري ما ورد في تراثنا عن النظرة الدينية إلى العلم باعتباره عبارة في الأصل. وتذكرت بحثي عن العلم عند الغزالي الذي قدمته في اكاديمية المملكة المغربية ونشرته في كتابي نظرات في قضايات معاصرة ؛ الذي وقفت فيه فيما وقفت أمام دعوة الغزالي لتوظيف العلم فيما ينفع ليكون محموداً، واستشهدت بما عاناه عرفة رمز العلم في قصة نجيب محفوظ **«أولاد حارتنا» بسبب وقوعه تحت تسلط فتوات الحارة واستخدامهم له في التخريب** والتدمير وكيف قال لأولاد الحارة إنه لم يقتل الجبلاوي كما قيل لهم.

ينتقل تفكيري إلى فواتح الكتب العربية التي ظهرت خلال القرن الأخير. فأختار نماذج منها لأراجع فواتحها. وأجد بعد النظر فيها أن جلّها استبدل المقدمة بالفاتحة التراثية، وسار في كتابة المقدمة مسار الغربيين. فلم يحدث الاستهلال بالبسملة والحمدلة والصلصلة، لا في الصورة البسيطة التقليدية ولا في الصورة الابداعية. وجرى الاقتصار

على ما رغب المؤلف أن يقوله كمقدمة لكتابه، مما كان يدخل في الفاتحة التراثية تحت جزء «أما بعد»، ويتناول بعض الرؤوس الثمانية التي تحدث عنها المقريزي. ويشمل هذا الجلّ فيما يشمل الكثير من الكتب التي عالجت موضوعاتها بنظرة اسلامية وألفها كتاب اسلاميون بارزون. فهذا كتاب عن السيرة يبدأ بمقدمة يتحدث فيها مؤلفه عن الهدف منه ومنهجه فيه إلى آخر ذلك، ولا يبدأ بالبسملة والحمدلة والصلصلة. وهذا كتاب عن التصور الاسلامي يبدأ بالبسملة في صدر صفحته الأولى ثم يحدث الانتقال إلى «كلمة في المنهج». وهذا كتاب عن التراث يبدأه مؤلفه بتمهيد في الموضوع، بدون فاتحة تراثية.

أجد أيضاً أن بعض الكتب التي ظهرت خلال القرن الأخير حرصت على الفاتحة التراثية. وقد لفت نظري أن مؤلفي هذه الكتب استهلوا مؤلفاتهم بفواتح بسيطة، فعبد الرحمٰن الكواكبي مثلاً في «أمّ القرى» يقول بعد البسملة «الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد افضل المخلوقين، وعلى آله وأصحابه أنصار دينه الأولين، وعلى اتباعهم في مسالكهم إلى يوم الدين. أما بعد..». وهذا السيد سابق يستهل كتابه «فقه السنة» بفاتحة مختصرة في البسملة والحمدلة والصلصلة بصيغتها الشائعة. ومثله حسين مؤنس في كتابه «دراسات في السيرة النبوية» الذي يقول في فاتحته «بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة». وقد حرص محمود شاكر ان يستهل كتابه «أباطيل واسمار» بفاتحة تراثية يقول فيها بعد البسملة «الحمد لله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وصلى الله على عبده ورسوله محمد، وعلى ابويه ابراهيم واسماعيل وعلى سائر أنبيائه ورسله، وسلم تسليماً كثيراً».

ويبرز سؤال أمامي «لماذا خلت جل الكتب العربية الحديثة من وجود الفاتحة التراثية فيها !» ويقع نظري وأنا أفكر في الاجابة على رفٍّ في مكتبتي يضم مؤلفاتي التي تجاوزت الثلاثين، فيخطر على بالي أن استشهد بها مستذكراً تجربتي كمؤلف. واستحضر أنني حين نشرت العشرة الأولى منها بين عامي 67 و77 لم تكن الفاتحة التراثية قد استوقفتني بعد، فكتبت مقدمة كل كتاب على نسق ما هو شائع في كتبنا الحديثة. وإذا كان جلّ هذه العشرة قد خلا من الافتتاح بالبسملة كتابة فإنني أجد أن جيمع مقدماتها اختتمت بقولي «والله ولي التوفيق». وقد اعتمدت النسق نفسه في كتابة مقدمات الكتب التالية، ولكني بتّ حريصاً على كتابة البسملة في الافتتاح حرصي على النطق بها في أي عمل أقوم به شأن غيري من المسلمين. كما انعطفت إلى أن اختم المقدمة بحمد الله. وأجد أنني استشعرت الحاجة في السنوات الخمس الأخيرة إلى أن

أبدأ جلّ بحوثي بالفاتحة التراثية، وأن أبذل جهداً في صياغة سطورها المعدودة متأثرا بالفواتح الابداعية التي كان اجدادنا يحرصون على صياغتها. مثال ذلك استهلالي بحث «دور الشعب الفلسطيني في حماية مقدسات الأديان الثلاثة» الذي ألقيته في «مؤتمر حماية المقدسات الدينية والقيم الثقافية في فلسطين في نوفمبر 1988 بالقاهرة بقولي «الحمد لله الذي بارك حول المسجد الأقصى، فجعل فلسطين أرضاً حافلة بالمقدسات، وأعزّ قدسها بالمكانة التي احتلتها في قلوب المؤمنين، وشرف شعبها بحمل الرسالة الاخلاقية التي جاءت بها الأديان السماوية الثلاثة وبخدمة المؤمنين الذين يزورونها، وحمّله مسؤولية خاصة في حماية مقدساتها والذود عنها، فهو في رباط دائم إلى يوم القيامة والصلاة والسلام على انبياء الله ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وعلى خاتمهم محمد بن عبد الله وآله». وأجد اليوم أنني مستشعر الحاجة إلى أن استهل ما انشرهُ من كتب قادمة بإذن الله بالفاتحة التراثية بعد أن تعرفت عليها وادركت المعنى العميق الذي تتضمنه والدلالة المباركة التي تحملها.

أُجمل اجابتي عن هذا السؤال الذي برز بعد تقديم شهادتي الشخصية، بأن خلو الكتب العربية الحديثة من الفاتحة التراثية يعود إلى ظهور جيل جديد من المؤلفين تعرض لآثار الصدع الذي حدث في ثقافة الأمة وفصل ابناءها عن تراثهم. كما يعود إلى اتخاذ الكتاب الغربي نموذجاً من قبل الكثيرين. ولا يخلو الأمر من أن بعض أولئك الذين تعرفوا على الفاتحة التراثية ودرسوا ثقافتهم ضاقوا بالتقليد وأرادوا التجديد بهجرانها. كما أن المناخ الذي كان سائداً حتى منتصف السبعينات في كثير من اقطار الدائرة العربية الاسلامية لم يكون مشجعاً عليها.

أختم هذا الحديث عن افتتاح الكتب في تراثنا بالتأكيد على أن الفاتحة التراثية لها دلالتها على توجه المؤلف الكلي النابع من النظرة إلى العلم في عقيدة المسلم وإلى الكلمة بعامة. وهذه النظرة تستحق حديثاً تفصيلياً. فالبدء باسم الله وبحمده وبالصلاة والسلام على نبيه يحدد هذا التوجه ويحقق تواصل الانسان مع خالقه ومع من سبقوه. وإذا كان هذا يتحقق بالفاتحة التراثية في صيغتها البسيطة فإن الصيغة الابداعية تقدم أيضاً عصارة غنية لمضمون الكتاب وتمتع القارىء بروعة الأسلوب وعمق الأفكار الواردة. وكم يسعد العربي المعاصر حين يكتشف كنوز تراثه.

شمولية وليام شكسبير(*)

محمد عزيز الحبابي

تمنيت لو جاز تقديم شكسبير (1564 – 1616) بطريقة مسرحية لا بطريقة خطابية. فهو سيد المسرح العالمي وأكبر عبقريات الآداب الانسانية.

– **أولا : المغرب في آثار شكسبير**. تدعو إلى هذا القسم ضرورة تأطير تاريخي تستلزم وقفة عابرة ليظهر لماذا ان ابطالا مرموقين، في المسرحيات الشكسبيرية، من المغرب.

– **ثانيا : الشمولية في آثار شكسبير**، من خلال مواقف وسلوك بعض الأبطال الأساسيين في مسرحياته.

* * *

حضور المغرب

حاولت بريطانيا، قرونا قبل شيكسبير، تأسيس علاقات تجارية ودبلوماسية مع المغرب بواسطة تجارها ومغامريها والمكلفين بالمهمات والرحالة والملاحين والمحاربين. فتكونت لدى الانجليز نظرة مستملحة واستظرافية عن المغاربة أثارت فضول التعرف على المغرب الذي اشتهر بالشمس، والسكر، والشجاعة.

لم يكن المغرب مجهولا من الأوساط الرسمية والثقافية، أيام الازدهار بأنجلترا. أقامت الملكة (إليزابيط، الأولى) منذ سنة 1577 م، علاقات دبلوماسية مع المغرب، فعينت (ادموند هوكَان **Edmond Hogan**) سفيرا لدى السلطان عبد الملك. فحسب حولية قديمة، وصلت أول بعثة دبلوماسية انجليزية إلى المغرب بتاريخ 1211 م، وقد وفدت باسم الملك (جون **John**) تلتمس عون الامبراطور المغربي محمد الناصر. لقد

(*) قدم هذا العرض ضمن سلسلة «محاضرات الأكاديمية» بتاريخ 8 ربيع الأول 1411 الموافق 28 سبتمبر 1990، وذلك بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط.

لقد كانت انجلترا آنذاك تبحث عن وسائل دبلوماسية وحربية للمحافظة على ممتلكاتها بأرض «أكتين» (مقاطعة في الجنوب الغربي بفرنسا) التي كانت مهددة من قبل جيوش اسبانيا.

فلا يستغرب أن يهتم شيكسبير ببلاد المغرب، طبقا لما أكده بنفسه من أن الفن الدرامي يجب أن يعكس اهتمامات عصره. لقد أصبح عاديا أن تتردد كثيرا، في المجتمع الناهض ببريطانيا أسماء مثل «بربري Barbar» و«مغربي Maure»، كما تتردد أيضا، في مؤلفات شيكسبير. فإن مسرحه يحتوي على ثلاث شخصيات مستلهمة من المغاربة، اثنتين من النبلاء هما (عطيل) في المسرحية التي تحمل اسمه، و(مغربي البندقية) في مسرحية **«تاجر البندقية»**، أما الثالث فهو (هارون) المغربي في مسرحية **«تيتوس أندرونيكوس** Titus Andronicus هذا البطل الأخير مغربي، تاريخيا وجغرافيا، ويهودي دينيا.

كان للمغرب، إذن، ذكر نبيل لكونه بلدا مرموقا، بلد الذهب، بلد التغني بالمرأة والحب الرقيق، وغيرة العشاق.

شمولية شيكسبير

كثيرا ما نخلط بين «شمولي» و«عام».

العام يعني أغلبية الأشياء أو القضايا، أي مجموعا. فالعام يتصل بالاحصاء، بالعمليات التجريبية.

أما الشمولي فيتصل بالفلسفة كإجابة لضرورة. فعلى ذلك، ان الشمولي يعني ما هو مشترك وأكثر عمقا في مجموع الجنس البشري، ويمكن أن يختبر عند كل فرد، دون أي استثناء. فعندما نعرّف الانسان بـ«الحيوان العاقل/ الناطق/ المتكلم/...» نعبر عن شمولية الانسان. إن كل تعريف يحدد المعرف كنوع وجنس، فهو شمولي.

أما القواعد والقوانين فلا تُعَبِّر الا عن العام لكونها تتصل بصنف واحد من المعرفة، لا بمجموع الأصناف.

إن الشمول يطلق على الكليات. مثلا في الطبيعة، الجاذبية الكونية، وفي السياسة، التصويت العام/ الشامل. وبالنسبة إلى المفاهيم الفلسفية والأخلاقية الكينونة، العدل... فبلاشمولية لن تفهم. انها تتطور عندما تصل إلى الحد الأقصى من التجريد. فلا صنف من أصناف المعرفة يتكون إن لم يعتمد على مفاهيم مجردة شمولية.

– عطيل

مَلأتْ عروق عطيل الشمس فالتهب قلبه بالحب والغيرة. إنه مغامر في غيرته وشجاعته إلى أقصى حدود الشجاعة.

فلاغرابة أن يكون (عطيل) مغربيا، وبطلا مرموقا في خدمة جمهورية البندقية كقائد ممتاز، وبفضل استقامته وشجاعته استطاع حبه أن يحتل فؤاد (دسدمون Desdemone) الشابة النبيلة ابنة عضو من الأعضاء ذوي الاعتبار في مجلس الشيوخ، فانتهى ذلك الحب بالزواج.

كان (ياغو Iago) ملازما ثانويا في قيادة (عطيل). وحينما عين القائد المغربي (كاسيو Cassio) ملازما جاشت نفس (ياغو) الحسود بثورة عارمة للانتقام والدسيسة، فأوقع بعطيل في فخ اجرامي قوض به العش الذي بناه الشابان النبيلان (دسدمون) و(عطيل) في قلبيهما الكبيرين. لقد دفع الحسد (ياغو) إلى الحقد بلا حدود على سعادة الزوجين الذين جعلا من زواجهما التقاء تعانق فيه عرقان، ثقافتان وديانان، وقارتان. فأظهرا أن الحب الصادق يقضي على مجموع الخلافات ويسمو بالمحبين إلى التعالي، إلى نوع من الحلول. ان الحب الحق أقوى من كل حاجز. إنه تحد لا يقاوم. نفث (ياغو) الشك في نفس المغربي الطيبة، فجعله يعتقد أن (دسدمون) تخونه مع ملازمه (كاسيو).

وفي أزمة من الخيبة والغم واليأس، وفي بحر من الغضب، امتزج فيه الحب والكراهية، أصيب (عطيل) بنوبة جنونية أعمته فكسر ما لا سبيل إلى تجبيره : لقد قتل زوجته، وأعدم حبه، اذ ليس في الكون قوة تستطيع أن توقف سعار غيرة المحبين اذا خامرهم الشك !

وعندما اكتشف (عطيل)، والأسى يحطم كيانه، أن زوجته ظلت صادقة في حبها وعفيفة حتى الرمق الأخير، تراءى له ظلمه لها ولحبهما، فنما سخطه وفاضت حيرته، وجن جنونه إذاك ارتمى في عماء نفساني، مقتصا لنفسه من نفسه. حقا، لقد قتل زوجته، حبا فيها، وها هو ينتحر، انتقاما لهذا الحب ولها. فكما أن «جولييت» لم تطق موت (روميو)، كذلك لم يستطع (عطيل) تحمل الحياة بعد (دسدمون) :

«أرجوكم !، حينما تقصون قصتي، أن تذكروني بلا زيادة ولا نقصان. اياكم أن تدخلوا فيها شيئا من المكر السيء !

فان فعلتم ذلك، وصفتم حال رجل لم يعشق بتعقل، ولكنه كان خالص السريرة، متجاوزا الحد في حبّه، رجلا دافع بغيرة عن نفسه.

ولما تمكنت منه، تمادى فيها إلى النهاية الحاسمة».

* * *

الممثل المسرحي يشخص ردود فعل كائنات تعيش في وسط انساني حيث حياة النفس ونموها يخضعان لإلحاحات المجتمع، ولعلاقات تترابط وتنفك بين الناس. فلكل منا نصيبه في الرصيد المشترك من الاستعدادات الأساسية. ألسنا جميعا مكونين من تداخل وتضارب الظاهرات المتناقضة ؟ لذلك، نحيا صراعات نوعية مستديمة بين عدة أنماط ممكنة من الأجوبة.

يتطور وجداننا حسب تقلبات متعاقبة : ينزل (عطيل) إلى المعارك، مواجها الموت دون أي انفعال. انه بطل يسيطر على النزوات والأعصاب، يتصف بمحاسن الفتوة العربية الاسلامية، أي بما كان الغرب يسميه بـ«الفروسية» في العصور الوسطى. عطيل «الفتى»، «الفارس»، يحب الخير ويخاطر بنفسه من أجله. أحبَّ، فأحبَّ بمجموع كينونته، وعندما يرى حيفا يجند كل جهوده ليوقفه، وحين يشعر أنه ارتكب خطأً يضعف ضعفا أعمى أمام العاطفة والغيرة. العاطفة، الحب، الايمان بقضية قوى تحرك الأفراد وتَخُضُّهم، مهما كانت قدراتهم وعزائمهم.

فـ (أنطونيو) الذي بيده مصير أضخم امبراطورية في العالم، هو أيضا يجثو أمام (كيليوباطرا)، متخليا عن حريته وإرادته ومسؤولياته، بل يخاطر بحياته. فليس هناك عامل مؤسس يعطى مرة واحدة وبصفة نهائية. يمكن في كل فترة من الحياة أن تتغير نسب العناصر المكونة للمزاج، إذ يستطيع الشخص الواحد أن يجد لموقف ما، لدى نفس المجتمع جوابا متقلبا، أو أجوبة متناقضة، سواء من الوجهة الفكرية أو الانفعالية. إن الانسان لا يولد خيّرا أو شريرا بالفطرة، فكثيرا ما تتغير ردود الفعل، من كائن إلى آخر، ولكنها لا تخرج أبدا عن إطار مشترك بين جميع الناس.

إن مسرحيتي «عطيل» و«هاملت» رغم كونهما ينتهيان بالقتل والانتحار يتعديان الميلودراما ليعطيا نماذج من تعرية متاهات النفس البشرية والتحليلات التي بلغت حدا بعيدا من براعة الدقة والعمق.

فليس هناك على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي حالات قارة تجمد الشخص فتتحدد عندها امكاناته. لهذا نجد كل واحد منا في انفعالات (عطيل) انعكاسات له. إنها مسرحية من خلالها تجاوز شكسبير ما هو فردي إلى ما هو شمولي. أليست مأساة هذا البطل هي قبل كل شيء، مأساة الغيرة في الطبيعة البشرية، الغيرة الأصيلة التي لا تبلى أبد الدهر ؟

* * *

ستبقى مسرحية (عطيل) تجسيدا حيّا وفريدا لعبقرية شكسبير الشمولية. وستجسد آلامنا الخالدة طالما سنجيش بعاطفة الحب، نعني مادمنا ننتمي إلى الانسانية.

– **الأمير المغربي**

يعلن (الأمير المغربي)، في لطف ودماثة إلى الشابة (بورسيا Portia) وهو يطلب يدها :

«لا تنفري من لون بشرتي !
انه رداء أسمر نسجته شمس بلادي الساطعة.
قد تغذيت من أشعتها منذ ولادتي.
ان دمي قان مثل مجموع مواطني.
ان الشمس مرآة تبعث الفزع في قلوب الشجعان.
ولكي أنعم بحبك.
سأجرأ على ذوي البأس.
وأقتحم عرين الليث وهو يزأر فرحا بغنيمته.

* * *

(عطيل) كذلك أسمر اللون، انه من السلالة «البيضاء» التي احمر بياض بشرتها من كثرة ما لامستها الشمس.

قبل عصر شيكسبير كان الانجليز يصفون المغاربة بـ«السود» وبـ«الزنوج»، في المعنى القدحي للفظين.

* * *

– **تاجر البندقية**

تدور مسرحية «تاجر البندقية»، هي كذلك حول فكرة الشمول، اذ تنبني على موقف كريم وعادل وتقدمي. يرفض شيكسبير تفضيل أي فرد على آخرين لاختلاف الألوان، أو اللهجات، أو المعتقدات. انه يشجب العنصرية.

يتجلى واضحا موقف شيكسبير ضد العنصرية، في مسرحية **تاجر البندقية** صدرت هذه الرواية سنة 1696 م، أي في الفترة التي غلت فيها موجة عنصرية عارمة من جراء اشاعات مغرضة عن (لوبيز)، الطبيب اليهودي للبلاط الملكي المتهم بتآمر على

حياة الملكة (عام 1694). إنها إذن مسرحية مناهضة للعنصرية، وتعمل على نشر الوعي بأن الناس كلهم متساوون. هذا الموقف يذكر بقضية (درفيس Dreyfus) (عام 1894) بفرنسا. تعبأ كثير من المثقفين لمناصرة الحق ومحاربة الظلم والتفرقة بين المواطنين حسب دياناتهم وأعراقهم.

أعار رجل الأعمال، أنطونيو (Antonio) مبالغ هامة من المال لصديق له نبيل مثله. ثم فوجيء بأن سفنه الحاملة للسلع أبطأت، فاضطر إلى التوسل إلى (شيلوخ) اليهودي مستعيرا ثلاثة آلاف من الدراهم لمدة ثلاثة أشهر.

فخلافا لما يمكن أن يتبادر إلى الذهن، في أول وهلة أن شيلوخ (البطل الأساسي في المسرحية) ليس مرابيا بطبيعته. فإذا كان الربا يستوجب العقوبة فهذا لا يمنعنا من أن نجد لموقف (شيلوخ) تبريرات نفسانية، انسانية :

* * *

إن الثروة بالنسبة إليه (وهو اليهودي دينيا وعرقا، أي المنتسب إلى أقلية) تمثل قوة تمكنه من مواجهة كل من يحقد على الأقليات الدينية أو العرقية. كما تمكنه، في بعض المناسبات، من تأكيد شخصيته، مع شيء من الافتخار بالنسبة لأولائك الذين يبصقون في طريقه، أو يركلونه بالأقدام. لنستمع إليه وهو يصف حزازاته. فمن خلال هذا الوصف، يعي (شيلوخ) ذاته، ويقيمها من جديد، بالنسبة له وبالنسبة (لأنطونيو) :

«لقد مس بكرامتي، وحرمني نصف مليون جنيه !
إنه يضحك من خسارتي، مستهزئا بأرباحي، محتقرا لجنسي.
إنه خصم لمضارباتي باعثا البرودة في أصدقائي، مثيرا حماس أعدائي.
لماذا هذه المواقف العدائية ؟
لأني يهودي !...
ولكن، أليس لليهودي أعين ؟
أليس له يدان ؟
أليست له أعضاء وحواس ؟
أليست له مشاعر، وانفعالات، وعواطف ؟
ألا يتغذى من نفس الغذاء ؟
ألا تجرحه نفس الأسلحة ؟
ألا يكون عرضة لنفس الأمراض ويداوى بنفس الوسائل ؟
ألا يحس ببرد الشتاء وبحرارة الصيف، شأن أي مسيحي ؟

ألا ينزف إذا جرحتموه ؟
ألا يضحك إذا دغدغتموه ؟
وإن سممتموه، ألا يموت ؟
وإن واجهتموه بالشر، ألا يريد أن ينتقم ؟
فإن كان مثلكم، في باقي الأمور فهو مثلكم في هذا أيضا.
لو أن يهوديا اقترف شراً في حق مسيحي،
ترى ما يكون جزاؤه ؟
الرحمة ؟
لا بل الانتقام !...
ولو أن مسيحيا اقترف شرا، في حق يهودي، يقينا يكون نصيبه العفو والمسامحة،
ويحرم في حقه الانتقام !
سأنفذ ما علمتموني من كره،
وسأكون تعيسا إذا لم أفقهكم فيما لقنتموني من تعاليم !».

قبل شيلوخ أن يعير أنطونيو الثلاثة آلاف درهما، وتعهد هذا الأخير بأن يؤدي الدين في الوقت المحدد، فإذا لم يف بالعهد، منح دائنهُ رطلا من لحمه (يؤخذ من قرب القلب، حسب شروط شيلوخ).

حلّ الأجل المحدد، فلم يؤد أنطونيو ما عليه من دين، فطالب شيلوخ بالرطل من اللحم، كما ينص عليه العقد.

ثورة (شيلوخ) ثورة رجل يعتبر «حقيرا»، ثورة رجل ينتسب إلى الأقلية السلالية والدينية. وهذه أول مرة يعي وضعه، ويشعر أنه يحاور أحد نبلاء البندقية، محاورة الند للند، ويخرج من حصار الاهانة والهوان.

لم يعد المال مجرد وسيلة مادية، أو شيئا من الأشياء العادية، بل صار قيمة أنطولوجية وأخلاقية، في آن واحد، وبالأحرى تواصلا نفسانيا. إن حب المال في وضع شيلوخ منطقي ومشروع، إنساني من أجل الجاه والقوى. فانتساب (شيلوخ) إلى أقلية العنصر والاعتقاد يجعله ضعيفا، أما انتسابه إلى طبقة الاغنياء فيكسوه مهابة المحظوظين، إذا تكلم كان لألفاظه وزنها من الفضة والذهب، وإذا وعد كان لوعده وقاره، فالملكية تنمي أبعاد شخصيته المجتمعية. ففي ثراء (شيلوخ) التعويض عن الاستلاب والحرمان. بالمال تكتمل إنسانيته في نظر مجتمع جعل من الملكية محور القيم والمقاييس والفعاليات. لا شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن حب المال أصيل في دم (شيلوخ) وفي عرقه. كان ممكنا

ألا يكون جشعا مطلقا لولا وجوده في وسط يتواجد فيه مع أمثال (بسانيو Bassanio) وأنطونيو. كان من الممكن كذلك أن نتصور (شيلوخ) في وسط كهذا مع ميل إلى جمع المال، ولكن بحرص أقل توترا، أو بأشكال أخرى غير الربا. فوضعه وضع خاص. إنه يرمي، من وراء ثروته، إلى تحقيق وجوده، وجودا مجتمعيا سويا.

في الفصل الثالث من مسرحية «تاجر البندقية» عندما سئل (شيلوخ) عما سيفعله بالرطل من لحم (أنطونيو)، أجاب بكل وضوح :

«سأصطاد به السمك».

فإذا لم يفد في أي شيء آخر، فعلى الأقل سيشفي غليل انتقامي».

الواقع أن الانتقام الذي يتحدث عنه (شيلوخ) لا يتغذى من خبث أو سوء طوية. فـ(شيلوخ) لا يشتاق إلى الانتقام بتعذيب جسدي، وانما بتوبيخ أدبي، لانه يتألم ويريد أن يعاد له الاعتبار. ألا يعاني مرارة الحرمان والازدراء ؟ بالانتقام المعنوي، سيستعيد شيلوخ امتلاك الهوية. ويفضل هذا الموقف، يحقق ذاته بوصفه انسانا يعترف به الآخرون كانسان، على قدم المساواة مع كل واحد منهم. فبالثأر يفجر المقهورون عواطفهم المكبوتة. فلننصت إلى شيلوخ وهو يخاطب (أنطونيو) عندما أتاه يستقرضه مالا :

«سيدي (أنطونيو) !
كم من مرة شتمتني.
انك تسبني من أجل مالي ومصالحي !...
كنت أتألم، دائما، مكتفيا بهز كتفي، متضرعا بالصبر.
انه مصير قومي.
كم نَعتَّني بالكافر، وبكلب قطاع الطريق !
كم بصقت على ثيابي لأنها اللباس الخاص باليهود !
كل ذلك لأني أتجر بما أملك وأستثمره !
والآن، حسب ما يظهر، إنك في حاجة إلى مساعدتي.
أليس في هذا ما يدهش ؟
ها أنت تأتيني قائلا :
(شيلوخ) ! نود لو تقدم لنا نقودا !
نعم. إنك تقول ذلك !
كم من مرة قذفت ببصاقك على لحيتي،

وتابعتني أقدامك بالضرب، كجرو غريب !
تطلب مني، الآن، أن أعيرك دراهما !
ماذا عساني أجيب !
أسألك :
هل للكلب نقود !
أيستطيع الجرو أن يقرض ثلاثة آلاف درهم ؟
أم يجب علي أن أجثو أمامك صاغرا وأصرح، بلهجة الخادم المطيع :
حضرة السيد النبيل !
لقد بصقت علي يوم الأربعاء الماضي، وناديتني بالكلب.
ومن أجل هذا السمو، سأقرضك مقدارا من النقود».

إن تحليلا نفسيا لموقف شيلوخ لن يكون الا في صالحه وتأييدا له. يظهر (شيلوخ) كواحد من رجال المال الذين ينمون دراهمهم عن طريق القرض، أما (أنطونيو) فيمثل الرأسمال المستثمر في المضاربات التجارية. لذلك يمثلان شكلين مختلفين لذهنية واحدة تحركها نفس الاهتمامات. (شيلوخ) لا يرتكب بدعا، وانما يقوم بعمليات تجارية رأسمالية لها ماضيها العريق في القدم، وان القانون المدني يحميها، والجميع يحترمها.

أيجوز لرجل ينتسب إلى الأقلية المضطهدة أن يخاطر بثروته في مشاريع بحرية، مثل ما يفعل (أنطونيو) ؟ انها تجارة خاصة، من امتيازات الأسر النبيلة، وهذه لا تسمح لغيرها بالمزاحمة، ان الاقليات تعيش، من الناحية النفسانية في قلق دائم، مهدد بالمصادرات ومزاحمة الأكثرية. لهذا كان (شيلوخ) ملزما بأن يختار تنمية ثروته عن طريق القروض، لا عن طريق العمليات التجارية التي تلزمه بأن يفترق عن ماله، وينتظر وصول السلع، ثم يبيعها... فالمضاربات تقوم بها شركات لا أفراد منعزلون. وان أغنياءالبندقية لا يرضون بأن يشترك أي أحد منهم مع يهودي «كافر» ومن كلاب قطاع الطريق «يهودي من الجنس الوضيع» ومن الدين «المزيف»...

هكذا كان (شيلوخ) منقادا بالرغم عنه إلى المعاملات بالربا، وإلى الابتعاد عن المتاجرة على الشكل الذي يتبعه (أنطونيو) ومواطنوه البندقيون «النبلاء الأحرار» ان مسرحية «تاجر البندقية» تمتاز اذن بمعاداة العنصرية وتجعل من شكسبير رائدا من رواد التقدمية والشمول.

على أن موقف الموسوية من المال (أنظر العهد القديم التلمود) غير ربوي اطلاقا. **إن الاخلاقية اليهودية تقوم على «التزيدك» (من جذر لغوي سامي = تعاون مجتمعي،**

ومنه الزكاة). إن المعنى اليهودية لـ(التزيدَك) والمعنى الاسلامي لـ(زكاة) متصلان بالأخلاق وبالعقيدة : التعاون الاقتصادي الذي يستلزم السلف دون فائدة عداء صريح للربا واعتراف بحدود المال ووضعه في المجتمع كأداة لا غاية.

- ماكبيث

هذه المسرحية ومسرحية **هامليط،** هما الأكثر شهرة وانتشارا من بين أعمال شكسبير. **ماكبيث** ليس يهوديا، دمه دم أنجليزي صاف، ومع ذلك يجسد الطمع وغريزة الشر المطلق في هذه المسرحية تتدخل الساحرات، بتنبآتهن الشيطانية. يرى ماكبيث أن كل ما يقف في طريق السلطة يجب أن يزاح بالعنف والقوة.

ما كبيث وزوجه من أهل الشر.

ألا يجسدان الضمير وقد استحوذ عليه عدم الاطمئنان، وحاصرته آلام الطمع الغش والإغراء ؟ انه حصار وعاه ماكبيث : لا منفذ ولا منقذ، وانما المجرم وجها لوجه مع ماضيه المعذّب، في عزلة ثقيلة كثيفة. فلا مفر من حساب الضمير وعقابه، شعورا بالتوبيخ والقذف.

- المأساة والمهزلة وجهان من أوجه المصير

عبقرية شيكسبير متعددة الجوانب، تنعكس في آثار تشمل حلبات متعددة ومتنوعة، وتبعث على أن تماشي كل مراحل تطورها، على مختلف المستويات، سواء في الهزليات أو المآسي. فالمهزلات تكون عالما سحريا (مثلا : «**ثرثرات وندسون المرحات**»، و«**حلم ليلة صيف**»، و«**ليلة الملوك**». لكن، لتلك المهزلات ملاحة جذابة لا تتعارض مع معنى المصير الانساني الذي يحياه أبطال المآسي الشكسبيرية. فالمأساة والمهزلة تتكاملان.

قد اهتم شكسبير بأن يرسم الانسان بجميع أبعاده، الانسان الكل، في أطواره النفسانية المتغيرة :

إن العظمة الشخصية، في مسرحيات شيكسبير التاريخية، كـ«**هنري الرابع**» و«**ريشاردْ الثالث**»، لا تتناقض، أبدا، مع الطابع الغنائي أو مع وحدة [illegible] تأثيرها : **فهذيان الملك لير (Lear)**، وقد تخلت عنه ابنتاه، وعذاب روح (**هامليط**) [illegible] الجريحة، والغرور الجنوني المجرم عند (**لايدي مكبيث Lady Macbeth**)، والحب المعاكس عند (**روميو وجولييت**)، و(**يوليوس** قيصر) الذي حلت به لعنة السلطة وجنونها، كل ذلك ليس الا بعض ما يشكل هذا العالم الشكسبيري الحافل.

كم قوي تخونه القوى وينهار، فيظهر لذاته في القالب الصغير : انسانا عاديا، كبقية الناس. فلا أحد بمستطيع أن يحتكر العظمة، لا (مكبيث) ولا الملك (لير)، ولا (أنطونيو)، ولا (كيلوباطرا)... لا أحد يمتلك الحصانات والضمانات ازاء القلق والتعاسة، حتى ولو تعلق الأمر بالدكتاتور (يوليوس قيصر)، أو بالأمير (هامليط).

إن في عمق ولطف الحب عند (أوفيليا Ophélie) و(جولييت) قدرهما المأساوي. لكن (أوفيليا) سحرت (هامليط)، كما سحرت جولييت (روميو) دون أن تجعلهما سعيدين، ودون أن تكونا هُما ذاتهما سعيدتين.

تبدو السعادة دائما معاكسة للحب وللجمال، وللعاطفة المتأججة، وللسمو. ان العزلة والجنون يصيبان عظماء الناس، كما يصيبان ضعفائهم. فما من قوة تحول دون الهم والقلق عندما يجتاحان القصور، ويزعزعان العروش.

- الملك لير

بالرغم عما لهذا الملك من سلطة مطلقة على رقاب جماهير كثيرة من البشر، قد نال حظه من الزلل المنطقي، والعزلة القاتلة، ومن الجنون. جميع الناس، بقطع النظر عن حيثياتهم يطبخون من نفس الطين : اننا لا نكسب شيئا بكامل الاطمئنان، لاننا جميعا أدوات لعب بين يدي قدر لا يقهر ولا يرحم.

فلنتأمل حال الملك (لير)، الملك الأحمق، وهو يحاور ابنته (كورديليا الأميرة السابقة، فريسة الضياع :

«كورديليا :
«لسنا أول من عانى الأمرين، رغم نبل النوايا.
فمن أجلك، أيها الملك التعيس، قد تحطمت قواي.
ان في امكاني أن أتحدى تحديات الحظ الخداع».

يجيب لير :
«لا ! لا ! لا ! اذهبي، ولنسرع إلى السجن،
سنغني كطيور في أقفاص،
وأدعو لك بالخير، وأجثو طالبا منك العفو.
سنحيا بالصلوات والترتيل،
وسنضحك للفراشات المتألقة،
ونصغي إلى الأبالسة الأشقياء،

ونتكلم عن ضوضاء القصر،
ونتحدث عمّن أخفق أو عمن نجح،
عمن يواتيهم الحظ،
وعمن يتنكر لهم،
ونفسر أسرار الأشياء،
كما لو أن الإله كلَّفنا باستراق السمع،
ونحن بين جدران السجن،
غير آبهين بعصابات المتكبرين وأحزابهم».

يعمل شيكسبير، بفضل ماله من حسٍّ واقعي مرهف، على ألا يظهر عالمه المأساوي عالم نماذج مصطنعة. ان الكاريكاتورية غير مرادفة للشمولية. فليس هناك، مثلا، «الانوثة الخالدة»، المرأة النموذج، ولكن هناك «نساء» يختلفن بطبائعهن، كما هو الأمر في الواقع. لذلك نجد السمو عند (كورديليا)، بنت الملك (لير) والمرأة الطموحة الخبيثة (لا يدي ماكبيث)، كما نجد المرأة التي يتناقض فيها العقل والرزانة مع الاستسلام إلى العواطف (كيليوبطرا).

تلك أمزجة وطبائع نسجت في الحياة الواقعية، كما هي.
أما (شيلوخ) فيجسد النداء إلى المساواة والتسامح.

من خلال هذه الشخصيات وأمثالها، في المهزلات والمآسي، نرى أن شكسبير قد اتخذ منذ، أربعة قرون، موقف تأييد للتفاهم بين الناس، على اختلاف أجناسهم وألسنتهم، ومعتقداتهم، وألوانهم. انها نزعة قد يصفها بعضهم اليوم بـ«**ثورية**» أو هكذا يرتقي بنا شكسبير إلى مستوى وعي لمأساة الأقليات وضحايا التعصب الديني أو العنصري، مأساة جماعات جردت عما هو أصيل ونوعي في الكرامة الانسانية، أي عن الاعتراف بالمساواة الفيزيولوجية والمعنوية بين كل الناس. ألسنا جميعا : «من نفس الثوب الذي تصنع منه أحلامنا، وان حياتنا محاطة بالنوم» كما يقول الساحر (بروسبيرو Brospero) في مسرحية «**العاصفة**».

نفس الصدى لتلك العزلة المضنية، لذلك «الهجر» والخذلان الذين يتحدث عنهما الوجوديون اليوم، نجدهما يَتَردَّدان على لسان الغاصب القاتل (ماكبيث)، في المأساة التي تحمل اسمه :

«غدا، وغدا، وغدا،
كل غدير يزحف بهذه الخطى الحقيرة، يوما بعد يوم.

واذا كل أماسينا قد أنارت، للحمقى المساكين،
الطريق إلى الموت والتراب.
ألا انطفئي أيتها الشمعة !
فما الحياة الا ظل حائر،
ممثل مسكين يتبختر فوق خشبة المسرح،
ثم لا يسمعه أحد.
انها حكاية يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف،
ولا تعني أي شيء.

- كما يطيب لك

في مسرحية «**كما يطيب لك**»، جاك حزين، بل انعزالي ومتشائم هو أيضا فما العالم أجمع، بالنسبة إليه، سوى مسرح مملوء بالرجال والنساء، الجميع يمثل في الغدو والرواح نفس المسرحية بحسرة وأسى. ذلك هو واقع الحياة، مزيج دائم.

(جاك) منغلق على نفسه، لا يؤمن كثيرا بالتواصل بين الذوات.

لذلك يصرح بأن ما يكتبه ليس شبيها بما يكتبه الآخرون. كتابته ليست : «كتابة التلميذ، لأن التلميذ عاجز عن المنافسة، ولا كتابة حاجب البلاط، لانها كتابة كبرياء، ولا كتابة المحامي لانها سياسية، ولا كتابة السيدات لأنها كتابة التأنق، ولا كتابة العاشق لأنها كل هذه الصفات السابقة مجتمعة. كتابتي كتابة خاصة بي، وعناصرها كثيرة».

* * *

عبقرية وليام شكسبير

إن شكسبير فيلسوف كبير، دون نسق. وبما أنه واقعي، دون تخمينات وأوهام، يعترف بأن الحياة زائلة، ولكنا ملزمون، كامل الالزام، بأن نتمسك بها ونحطها على عاتقنا. إنها منبع للسأم ومصدر للشعر.

يمتاز شكسبير بقوة الملاحظة مع دقة في التعبير، وبذاكرة قوية، وبحاسة شعرية ودرامية. إنها عبقرية تتركز على عقدة السر والغموض، هنا ملتقى المأساة بالشعر. لا يحاول شكسبير أن يتملق عواطف الجمهور، أو اسداء النصح الأخلاقي، بل يجهد نفسه ليرجع إلى مشاعرنا وهي تنعكس انعكاسات «الظل التائه»، واضحة واعية فوق «المسرح الشاسع» أي الانسانية في حياتها.

لقد أبرز شكسبير ما في الحياة وما في الانسان من ألغاز، مما يساعدنا على أن نتقبل مصيرنا، خلال العصور، ويجعلنا أمام كفتي الميزان، أمام الاتهام والدفاع. فالشخصيات الرئيسية، في مسرحه تعاني عالم النضال بين الوفاء والحكمة والعقل والعاطفة، وبين فوضى الرغبات والأطماع والغرائز.

فما أعمق ثراء المفاهيم التي بلورتها عبقرية شيكسبير !

- هامليط

من أروع مسرحيات شيكسبير وأعمقها وأكثرها تدقيقا للانفعال والتعاطف مع الأبطال، إنها مسرحية هامليط. إنها تلخص الفلسفة الشكسبيرية عن الموت والحياة، وعن الانسان وهو يصارع المصير، وعن العدل والشقاء بالشهوات الجنسية.

رجع شاب طاهر النفس وبريىء إلى مسقط رأسه بعد أن أنهى دروسه في الخارج ليحضر في مأتم أبيه، وبعد شهر، تزوجت أمه بعمه. فغاضه ذلك الزواج، قبل أن يخبره شبح أبيه أن الزوجين قد سمما الفقيد ليبعداه ويحققا مشروعهما في الزواج.

تظاهر إذذاك الولد (هامليط) بالحمق عساه يكتشف حقيقة الأمر. ويطلب من فرقة مسرحية أن تمثل مناظر تتعلق بظروف موت أبيه عساه يرى كيف سيتفاعل المجان. لكن ألمه الموجع وتقززه قضيا تماما على رشده فاحتد جنونه، وقتل زوج أمه، وبارز صديقا له فنتج عن ذلك أن قتل.

أما «الباقي فصمت» بهذه الجملة تنتهي المسرحية.

الأعمال الشكسبيرية

شعر، ومسرحيات (تاريخية ومآسي وهزليات). اما المباحث فغزيرة متنوعة : مباحث عامة، انسانية وشمولية : المشاكل السياسية، والمشاكل الأخلاقية، والقلق والاطمئنان، اتساع المعرفة بما يجري في الطبيعة ودراية عميقة بأعماق الوجدان الانساني والسلوك، بالاضافة إلى الاطلاع على التاريخ والأفكار الرائجة في عصر اليزابيت الأولى. إن الابداع الشكسبيري خروج عن المنغلق بحثا عن نظام متعال. فإذا عثر عليه يوما حصل الدخول فيه. إنه شمولي. ففي المحبة يجد الانسان امكان تفتحه الكامل ويحقق إنسانيته. اما الصداقة فنصف الحياة.

فلا غرابة إن كانت الآثار الشكسبيرية مصب يمتزج فيه الفن بالحقيقة، والمأساة بالملهاة، ولا ذع السخرية بمتعة المسرح.

ومن هنا ستبقى أعمال وليام شكسبير من المصادر النادرة لمعرفة الانسان لذاته وفي ذاته، ووسيلة من وسائل التواصل والوئام بين الناس وبين الشعوب، على اختلاف الأزمنة والأمكنة.

إن المسرح هو الحياة، وهو العالم؛ فما ينطبق على الشمال ينطبق على الجنوب، وما يحيط بالطفل يحيط أيضا بالكهول والشيوخ، الإناث منهم والذكور، الأبيض والأصفر والأسود. الجميع يلعب نفس المهزلة، وفي المهزلة جوانب مأساوية، كما أن في كل مأساة هزلا.

قلب اللاعب كقلب المشاهد، إنه مليء بمرارة الحب اليائس تارة، وتارة مليء بحلاوة طعم الدم المحرق غليانا، في المعارك الطاحنة التي يخوضها الجميع ضد مصير غاشم.

يلخص هذا التصور للحب في المقطع الآتي :

«الحب سهام تائهة في منام.

الحب ابتسام عابر كالسحاب.

وعند اليقظة نكرر نفس المأساة المهزلة».

عالمية وليام شكسبير

لم يعرف الغرب شخصية تجاوزت شهرة (وليام شكسبير)، ولا كتابا انتشر انتشارا عالميا، مثل أعماله، باستثناء الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد. إنها أعمال استمرت، منذ القرن السادس عشر، موضوع دراسات كثيرة ومتنوعة ولا نظير لها. تفرض أعمال (وليام شكسبير) الاعجاب بعمق ورحابة الفكر، واشعاع العبر، ودقة العرض، ووضوح الاستنتاج، فنالت اجماع شعوب العالم. انها ترمي إلى شمولية الانسان، محبا، وكارها، وغيورا، وشهما، ومجنونا...

* * *

وبقدر ما حصل الاجماع العالمي حول قيمة تلك الأعمال وعظمة روعتها، بقدر ما أثارت حسد وحزازات بعض الكتاب والشعراء، أمثال (فولطير) الكاتب الفرنسي الكبير. لكل جيل قرائته لـ(وليام شكسبير)، وكل قراءة تعطي بعدا جديدا لأعماله، حتى بات (وليام شكسبير) أسطورة.

فمعرفته بالنفس البشرية وبالوجدان، وبالحياة عامة معرفة فائقة : حدة في التفكير، ودقة في التحليل، وذوق شعري متميز في التعبير، وحكم في القول. من **هامليط**

تبدأ ما يسمى بـ«الفترة السوداء» في الدرامتلوجية الشكسبيرية. والمقصود هو أن الأبطال لا يرفضون، كذي قبل، الواقع الأليم الذي كانوا يتكيفون معه، فإمّا ينفونه نفيا باتا، («فكم من حاجة قضيناها بتركها» والسكوت عنها)، واما يعانونها، رغم الآلام.

أما التمثيليات التاريخية الشكسبيرية فمليئة بالمعارك الدرامية من أجل السلطة (لان التاريخ السياسي، لدى كل الشعوب، تاريخ مآسي)، لكن، رغم ذلك كان الناس يطمحون في عودة الهدوء، فتنتهي الفوضى ويأتي حكام يحسنون الدفاع عن مصالح الشعوب فيسود معها العدل. اذن، هناك أمل وتفاؤل (أنظر، مثلا، هانري الخامس). أما الفترة السوداء فلا تعبأ بالقوات السياسية وبصراعاتها. الاطار ليس هو التاريخ، بل هو هيمنة الشر المقدر على الشعور، من لدن قوة غيبية لا ترحم، ولا تترك مجالا للانقاذ. فالصراع ليس بين معسكرين، ولكنه داخل الذات. يستولي الشر على القلوب، ويفسد العقول، ويجعل من الموت الحل الوحيد للتحرر من الجرائم والأهوال. وكلما ازداد وعي المرء بواقع الشر وبعث محاولات التغلب عليه، اقتنع بمجانية محاولة الانقاذ. إن أوضاع الأبطال تختلف من مأساة إلى أخرى، فـ(قيصر) رغم كونه قتل من أجل قضية عادلة، كان ذلك الموت سبب العذاب الروحي الذي عاناه (بوتوس). كذلك (هامليط) لم يعرف راحة بال، لأنه كان عاجزا عن أن يقوم بأي فعل لينقذ نفسه من عبث العالم وشروره. إنه منغمس فيها، ولا حل أمامه.

* * *

– المعقول يتكامل مع اللاّ ـــ معقول

إن موت (وليام شكسبير) نفسه لم يتم بطريقة عادية. لقد رفض الحب، والصداقة والتشريف، فالبراءة هي كذلك في نظره من سخريات المصير. فما فائدة الحب اذا كانت تلك هي نهايته ؟

إن الانتحار تحدّ للعقل. فـ(أوطيلو)، بعد أن قتل زوجه (ديسدمون) ارتكب فعلا أعمالا غير معقولة.

أما (أنطوان)، فينهزم أمام الحب، و(كيليوبطرا) تتخلى عن العرش من أجل تقلبات جنون حبها.

فهل الموت ضروري ليستعيد الحب قوته ؟

إن جبروته في لا ـــ معقوليته.

مع (الملك لير) يظهر اللا ـــ معقول في عنفوان عنفه : يتجلى الحمق في الأحكام

وفي اتخاذ القرارات. فوضى في الفكر وفي القلب، وفوضى الحيرة واليأس. وتبقى للحب طهارته المهزوزة وديناميته المؤلمة.

كل محب يتمنى أن يعيش جوا يتحقق فيه حبه باطمئنان ليعرف لحظات الغبطة بالتجلي، والسعادة بالوجد الصافي.

ولكن حتى التمني مرهق، لأن المحبين تعودوا على أن خيبات الآمال من صميمية الحب، فلا سعادة في الحب، إن حُلوه عذاب، وأخفه نكبات، وأغنياته آلام وأنين. ومع ذلك، إن الحب غذاء للروح، وثراء للحياة، ومنبع لدينامية الوجدان. فلنحب لنشقى !

إنه شقاء من سر الحياة، حزمة من الانفعالات وحوارات الوجدان مع نفسه. وهو يتمتم رموزا بلا رامز ولا مرموز. ذلك هو الحب، هو السر الذي لا ينتهي، والغموض الذي نغرق في أنواره. الحب مرآة تحجب ما أمامها، ولا تعكس ما خلفها، وعلى وجهها ألغاز نارية نتهجاها من بعيد، ونحترق بها من قريب.

مصير متشابه وملتبس، رغم وجوده في كل وقت، وفي كل مكان.

الحب غامض، رغم جلاله ورغم قدراته العجيبة.

ذلك كل ما نستطيع أن نقول عن المصير وعن الحب.

فهل نكتفي بوصف هو نفسه غامض، لنعرف المفهومين وندعي اننا نعرفهما ؟

إن ادعاء القدرة على تعريف ما لا يعرف، ومعرفة مالا يعرف هو منتهى الخُلف والعبث المطلق.

إننا نحب ونجهل الحب ومآله وكنهه.

انه المصير : معاناة/ عذاب/ آلام/ مأساة.

أهو نكهة طيبة فَيَّاح ؟

أهو مسك صيفي في ليلة مقمرة ينشر عبيره في مجموع الأرجاء ؟

أهو لبن ثدي مرضع ينصب قطرات في فم البراءة ليضمن الحياة لصبيان مازالوا في غفلة عن الكائن والتطور، وعن الحضور والغياب ؟

أهو طلوع شمس خجولة، تغمر من بعيد إلى الأزمان، وتلامس الفضاء ؟

أهو ماء في واحة العمر، بعد تعدد مشاهد السراب ؟

إنه الحب !...

إنه المصير !...

شكسبير موضوع مسرحية لم يكتبها

نريد أن نختم هذا العرض بالتلميح إلى مأساة شكسبيرية راجت كثيرا في التاريخ،

لم يكتبها شكسبير ولكنها من صميم الشكسبيرية : إن وليام شكسبير هو موضوعها ومحورها. فقولته الشهيرة : «ان تكون أو لا تكون، ذلك هو المشكل» عبارة تنطبق عليه تماما.

هل كانت للمؤلف العظيم كينونة ووجود، أو لم يكن الا لعبة، الا مسرحية دون مؤلف، أو على الأقل : إن المؤلفات المنسوبة إليه والمعروفة به لمؤلف آخر غير شكسبير ؟ يدعي (سيغموند فرويد S. Freud) أن المؤلف الحقيقي من أصل فرنسي يسمى (Jacques Pierre)، كما ادعى قبله آخرون أنه هو (مارلوو Marlow)، ونسب البعض الأعمال، كليا أو جزئيا، إلى (بيكون Bacon).

لقد كثرت روايات من هذا القبيل، منذ القرن السادس عشر إلى اليوم. افتراضات كثيرة...

يضاف افتراض آخر، وإن كان يبعث على السخرية، وهو ادعاء أن شكسبير وجد حقا، لكن أصله عربي : إنه «الشيخ الزبير» !... وتبقى القضية قائمة إلى ماشاء الله.

ملـحـق

نلخص هنا، لفائدة المؤرخين، كذيل وتكملة، نصاً يحتوي على معلومات عن علاقات أنجلترا مع المغرب، حرره الباحث الأستاذ الزميل السيد محمد بن عبد السلام بنتاويت ووافانا به. انه نص يتصل بالفترة التي عاش فيها وليام شكسبير وأثرت فيه :

«في أوائل سنة 1589، وصل إلى أنجلترا سفير من قبل المولى أحمد المنصور السعدي، رفقة سفير كانت اليزابيث بعثته إلى المغرب. واسم ذلك السفير (هنري روبيرت) الذي كان وكيلا للشركة الانجليزية المغربية «بربري كمبني». أما السفير المغربي فهو مرزوق الرايس.

وكان موضوع السفارة مسألة اعادة : (فون أنطونيو) البرتغالي، إلى ملكه الذي سلبه منه (فيليبي الثاني) ملك اسبانيا. كانت هذه القضية تشغل اهتمام فرنسا وملكها (هنري الثالث) وانجلترا وملكتها (اليزابيث)، والمغرب وملكه المنصور. والمهم أن سفيرنا وصل إلى انجلترا واستقبل في ضواحي لندن من قبل رجال الشركة المذكورة، وهم ممتطون صهوات جيادهم في نحو أربعين أو خمسين، على حين ركب السفير المغربي وزميله الانجليزي عربة، فدخلوا جميعا لندن على ضوء المشاعل، يوم الأحد ليلا، 12 يناير من السنة السالفة الذكر.

لقد اتصل بسفيرنا سكرتير الدولة الانجليزية (روبيرت سيسل)، وتداولا معا مشروع الهجوم على البرتغال، وكان المشروع آنذاك منحصرا بين انجلترا والمغرب، لان فرنسا تخلت بعد فشلها في مساعدة (فون أنطونيو) فيما مضى، وانهزم أسطولها في موقعتين، سنتي 1582 – 1583.

ثم استقبل السفير استقبالا بالغا من طرف الملكة التي احتفلت به احتفالا عظيما، وحشدت له جملة من الحاشية كان فيهم الشاعر الكبير (شكسبير) الذي استوحى من بعض رجال السفارة، واسمه عديل، قصة (أطيلو) المعروفة بين قراء العربية بقصة «عطيل».

والواقع أن تعيين هذا الشخص بالذات كان استظهارا منسيا وهو أقرب إلى الصواب، لان اسم عطيل غير معروف بين أسمائنا، على حين أن عديل، مصغرا معروف عندنا، وما زالت في فاس دار تعرف بدار عديل.

فكيف تحول عديل، بسكون العين وكسر الدال والياء المشددة إلى «اطيلو» ؟ الجواب، ان أهل السفارة في الدولة السعدية، كانوا في غالبهم من الموريسكوس[1] أو العلوج، الذين كان آخرهم جؤذر (بن عبد الله)، اذ كان هؤلاء على حظ من المعرفة باللغات، وكان جؤذر يحسن أربعا منها، كما أن الغالب منهم فيما وراء البحار، كانوا رؤساء البحار، اذ كان في هؤلاء قدرة على معرفة اللغات وفهم مدارك أصحابها.

وحتى هذا السفير الانجليزي، كان ربانا لاحدى السفن الانجليزية. ولهذا، لُقِّب مرزوق (الرايس)، وهو لقب مازال معروفا عندنا لربابنة السفن. والموريسكوس يصغرون نحو عدل، عديلو «(بسكون فكسر فضم للآخر)، كما يصنعون في حميدو، وجبيلو، ومجيدو، وما إليها. فلربما كان زملاء عديل ينادونه بهذا التصغير الموريسكي، فسمعه شيكسبير، أو قيل له، وقد لفتت هذه الشخصية نظره فحوله تحويلا طفيفا إلى «أطيلو» أو «أديلو».

(1) حتى السفارات التي كان يرأسها المغاربة، مثل سفارة عبد الواحد عنوري الفاسي كانت تضم رجال الموريسكوس في أعضائها.

تأملات في المظاهر التقنية والخلقية الناجمة عن تطور العلوم الطبية(*)

عبد اللطيف بربيش

شهدت العلوم الطبية في العقود المتأخرة تطورات سريعة لم يسبق لها مثيل.

ولئن كان الطب قديما، قدم الانسانية، فانه باستطاعتنا أن نميز، عبر تاريخه الطويل، بين فترتين رئيسيتين : إحداهما تمتد عبر آلاف من السنين، بينما تقتصر الفترة الثانية على قرنين من الزمان.

تمتد **الفترة الأولى** من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. وقد مرّ الطب خلال هذه الفترة، بمراحل متميزة، لها اتصال يكاد يكون مباشرا بالحضارات والثقافات المتوالية زمانا، ومكانا.

هكذا عرفت الانسانية الطب البابلي أو طب حضارة ما بين النهرين، ثم الطب الفرعوني أو طب الحضارة المصرية القديمة، ثم تبع ذلك الطب اليوناني أو طب الحضارة الاغريقية، ثم عرفنا الطب الروماني ـــ الاغريقي، ثم جاء الطب الفارسي أو طب الحضارة العربية الاسلامية، ثم طب عَصْر النهضة، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، الذي تبعه طب القرنين السابع عشر والثامن عشر.

في هذه الفترة، تأسست القواعد الكبرى لمهنة الطب كعهد إيبوقراط، كما عرفت فيها أسماء عباقرة الأطباء، وبعض الاكتشافات الباهرة في عالم الطب.

وتعطي العلوم الطبية خلال هذه الفترة، انطباعا بأن مسيرة تطورها قد اعتراها شيء من البطء أو عدم الفاعلية. ولعل مما يزيد في تعميق هذا الانطباع، أن كثيرا من القواعد الطبية الخاصة بهذه الفترة غالبا ما كان منشأها متأسسا على عادات قديمة، أو معتقدات أو اعتبارات دينية لم يبق العمل جاريا بها في أيامنا هذه.

ويرجع تاريخ **الفترة الثانية** إلى بداية القرن التاسع عشر التي تمّ خلالها تطور

(*) ألقي هذا العرض ضمن أحاديث الخميس يوم 26 ربيع II 1411 الموافق 15 يونيو 1990.

العلوم الطبية في الغرب، على ايقاع متسارع للغاية. وبلغت المعارف الطبية في هذه الفترة حدّها الأقصى حيث تمّت خلالها اقامة القواعد الكبرى لعلم الطب الحديث.

ولقد حدث هذا التطور بسرعة كبيرة، وشمل العديد من القضايا حتى انه ليبدو من الصعب تحديد المراحل التي مر بها هذا التطور العظيم.

ولعل من المفيد أن يشار في هذا الصدد الى ظهور أنواع جديدة من التخصصات الطبية التي عرفت ازدهارا متميزا، واشعاعا مرموقا، يذكر من ذلك، التطور الذي شهده علم الجراثيم وما يرتبط به من تلقيح ووقاية، وعلم التشريح المرضي والطب التجريبي، وعلم الفيزيولوجيا المرضية، وكذلك علم ميكانيزمات الأمراض، وعلم الوراثة، وعلم الصناعة، دون أن ننسى التطور الذي عرفته العلوم الصيدلية وعلوم صناعة الأدوية بصفة عامة.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، استفادت العلوم الطبية من التطور المحسوس الذي شهدته بقية العلوم الأخرى استفادة قصوى، ممّا نشأ عنه تقدم عظيم، هكذا، وبفضل ازدهار علوم الرياضيات، والاحصائيات، والمعلوميات وبعض العلوم البحتة الأخرى، كالبيوكيماء، والفيزياء النووية، شهدت العلوم الطبية تغيرات جمة، وتقدمت خلال هذه الفترة الزمنية تقدما لم تصل اليه طيلة الثلاثة آلاف سنة السابقة.

لقد تحقق هذا التقدم المدهش، بكيفية خاصة في ميداني البيولوجيا ومعرفة الانسان، وفي هذا الصدد يؤكد. ج. **هامبورجي**. «أن هذه الاكتشافات البيولوجية، هي بالنسبة للتعريف بعصرنا الحاضر، أكثر أهمية من غزو الفضاء».

وبحسب زميلنا السيد **جان بيرنارد** «فانها قد بلغت من الأهمية أن الانسان قد أصبح قادرا على تغيير الانسان».

لقد مكن تطور العلوم الطبية خلال النصف الثاني من القرن العشرين من بلوغ مطامح عالية كانت تعتبر سابقا، من قبيل الأحلام، أو من قبيل العلم الخيالي.

ويرجع الأصل في هذا التطور المدهش الى اكتشاف المجموعات النسيجية والى اكتشاف النظام المعروف بنظام «هـ.ل.أ/.H.L.A». وهو نظام تطابق الانسجة (ج. دوسي J. Dausset). يقوم هذا النظام على أن الأفراد ينقسمون، كما تنقسم الكريات الحمر، الى مجموعات، تمتلك خلاياها وانسجتها، خاصيات مناعة متماثلة، محمولة من قبل مضاداتها، وتتحدد هذه المضادات انطلاقا من الكريات البيض (Leucocytes).

ان جماع ذلك هو ما يشكل نظام «هـ.ل.أ/.H.L.A». وهي الأحرف الأولى

التي تتكون منها العبارة الانجليزية الدالة على هذا المعنى (مضادات الانسان الموجودة في الكريات البيض Humain Leucocyte Antigen).

ان التعرف بدقة على هذا النظام أمر أساسي لزرع الأعضاء في الشخص الآخذ والشخص المعطي، حتى يمكن للعضو المزروع أن ينسجم مع النسق النسيجي للمضادات، لتنجح عملية الزرع. ومنذ تمّ اكتشاف هذا النظام سنة 1954، فقد تمت بنجاح عدة عمليات لزرع الأعضاء.

ان الانجازات والاكتشافات التي تحققت في مجال تقدم العلوم الطبية لم تخل من مصاعب وأخطار أحاقت بالانسان والجنس البشري بصفة عامة.

ولعل بإمكان المرء أن يتنبأ بعمق المشاكل العلمية والخلقية التي يمكن أن تطرحها التغييرات الجذرية الحاصلة في هذه الميادين، وتترك آثارها على الأجيال، وعلى تطور الجنس البشري.

ولعله أيضا من حق كل أحد اليوم أن يتساءل بإلحاح وبكامل الجدية عن آفاق هذه التطورات وحدودها : ولقد سبق لـ «**هامبورجي**» منذ سنة 1972 أن وضع طائفة من هذه التساؤلات الملحة في مؤلف له يحمل عنوان : «**قوة وضعف**». وفي نفس الحقبة نشر **ج. برنارد** كتابين رائعين يحمل أولهما اسم : «**عظمة الطب، واغراءاته**»، والثاني اسم : «**الانسان قادر على تغيير الانسان**». وانعقدت سنة 1974 ندوة دولية في جامعة **السوربون بباريز** في موضوع : «**البيولوجيا ومستقبل الانسان**» كان من نتائجها تأسيس الحركة العالمية من أجل تحمل المسؤولية العلمية «M.U.R.S.» **يرأسها اليوم البروفسور ج. دوسي** مخترع نظام .H.L.A، والحاصل على جائزة نوبل للعلوم الطبية.

المظاهر التقنية لتطور العلوم الطبية

تهيمن على مسيرة العلوم الطبية التطورات الهائلة التي يعرفها التقدم الحاصل في المعارف والعلوم في عصرنا هذا. ذلك أن حجم المعطيات والمعلومات العلمية الضروري لعلاج الأمراض المختلفة في تصاعد مستمر، وتعجز المقدرة الانسانية والشخصية للأطباء على اكتسابها، وتمثلها، واستحضارها كاملة، في وقتنا الحاضر.

إن المعلومات النظرية التي يجب على طالب العلوم الطبية وعلى الأطباء أن يتقنوا معرفتها، من أجل ممارسة قويمة لمهنتهم، تتكاثر يوما عن يوم. كما أن برامج التكوين المعدة من أجلهم يتزايد حجمها بسرعة لا يتمكن القائمون عليها من ملاحظة ثقلها، وكبر حجمها.

إن ضرورة الاطلاع على هذه المعلومات لا يقتصر على الجانب النظري منها

وحسب، بل ان الجانب العملي يجعل الاحاطة علما بها أمرا أكثر أهمية وخطرا، اذ يتعلق الأمر بمرضى يمكن أن تسهم هذه المعطيات في علاج بعضهم، أو يمكن أن تكون سببا في وفاة آخرين منهم في حين كان بالامكان انقاذهم من الأخطار المحدقة بهم.

ويتعلق الامر، بناء على ذلك، بعدم كفاية المعلومات والمعارف الطبية، التي ينشأ عنها في كثير من الحالات القيام بتشخيص ناقص، أو خاطىء كلية، أو بوصف دواء غير ملائم لبعض الأعراض المرضية.

وغير خاف أن بعض الأمراض لا يمكن شفاؤها إلا بوصف طريقة للعلاج، بناء على تشخيص مصيب للمرض. وأكثر من هذا، فإن المريض قد ينجر إلى مرض آخر ناشيء عن الأدوية الموصوفة وصفا لم يكن ملائما لعلاج مرضه الأصلي Maladie Latrogène) الأمر الذي قد يسبب خطرا على حياة بعض المنهوكين من المرضى. والأمثلة على ذلك أكثر من أن يذكر بها في هذا المجال. فبعض الاحصائيات في الولايات المتحدة الأمريكية تشير إلى أنه يوجد مريض واحد من بين كل ثلاثة يدخلون المستشفيات مصابا بأمراض ثانوية ناشئة عن تعاطي بعض العقاقير والأدوية.

وهكذا، يمكن أن نجد بعض المرضى ممن لا يزالون يعانون المرض أو «يُقْضى عليْهم فيموتون»، من جراء نقص بعض المعارف أو المعلومات الطبية لدى الطبيب المعالج، وأحيانا يمكن أن تتجمع لدى الطبيب كافة المعطيات المتعلقة بالأعراض المرضية اللازمة للقيام بتشخيص سليم للمرض، الا أنه لا يتمكن من أن يستغل هذه المعطيات، ذلك لأن ذاكرته «البشرية» لا تسعفه في الاحاطة بكافة المعلومات المتعلقة بهذا المرض ولا بالأدوية النافعة في العلاج.

كيف يمكن حل هذه القضايا الطارئة ؟ هناك حلول، يذكر من بينها :

أولا :

التقليل من حجم المعلومات المتطلبة، تخفيفا على ذاكرة الطبيب، وتسهيلا لمهمته. وبالامكان الوصول إلى هذا الحل عن طريق «التخصص» فلا تعطي للطبيب المتخصص الممارس الا بضعة فصول من العلوم الطبية التي يحتاج إلى معرفتها في اختصاصه. لكن ذلك لا يحل في واقع الأمر جوهر القضية، اذ أن المعلومات الخاصة بفرع من فروع الطب، سرعان ما تتكاثر، مما يضطرنا الى البحث عن حلول تخصصية داخل اطار كل تخصص.

والأمثلة على ذلك عديدة في أمراض الهضم والعيون والاسنان وغيرها.

ثـانيـا :

اللجوء الى استشارة عدة أطباء اختصاصيين. في الحالة المثلى فإن الطبيب المعالج يكون عنده من الخلق والجرأة ما يجعله يعترف بعجزه عن النظر في المرض المطروح، مما يدفعه الى استشارة بعض زملائه من المختصين. هنا توضع أمام المريض القضية المادية. وهنالك امكانية أخرى تقوم على استشارة مجموعة من الأطباء متعددي الاختصاصات، يعملون في مكان واحد يعرض المريض فيه عليهم، آنيا أو بالتتابع.

ثـالثـا :

الاستشارة الطبية بالهاتف. والمثل على ذلك تعطيه المراكز الصحية ضد التسمم، المبثوثة اليوم، في كثير من البلدان وخاصة في المدن الكبرى منها، حيث توجد مداومة يومية لمدة 24 ساعة مستمرة، لارشاد الأطباء الذين يحتاجون الى استشارة مّا، لمواجهة بعض حالات التسمم الطارئة، وكذلك لارشاد بعض المرضى الذين يصابون بمعقبات أو تسممات ناجمة عن تناول بعض الأدوية.

رابـعـا :

الرجوع إلى المؤلفات والدوريات والمنشورات العلمية الطبية لصقل المعلومات والحصول على تحيينها، وما جد في عالم الطب منها. الا أن ذلك لا يحل المشكل تماما وذلك :

أ – لغلاء أثمان هذه الوثائق من جهة

ب – لعدم وجود الوقت الكافي لدى الطبيب للاطلاع على محتوياتها.

ج – لصعوبة الاهتداء بسهولة الى المعلومات التي يحتاج اليها الطبيب في حالات معينة.

د – لصعوبات أخرى تتعلّق إمّا بمنهج البحث البيبليوغرافي الذي ليس في متناول كافة الناس، أو بفهم اللغات الأجنبية التي حررت بها هذه الوثائق العلمية.

خـامسـا :

استعمال الحاسوب (الكامبيوتر) الذي يتميز بمرونة برامجه وأجوبته الشبه آنية وبأقصى سرعة، مما جعل ادخاله في الميدان الطبي احدى الضرورات في كل البلدان الغنية منها أو الفقيرة على حد سواء.

فهو جهاز مهم جدا، سواء بالنسبة لخزن المعلومات والمعارف الطبية الضرورية، أو بالنسبة لتذكير الطبيب الممارس بما ينبغي له أن يتذكره، اضافة الى استعماله في مجال تسيير المستشفيات والملفات الطبية، والمخابر، والصيدليات، والعيادات الخاصة.

وينبغي لفت النظر الى أن الحاسوب لا يمكن أن يقوم مقام الطبيب. ذلك أن دوره الرئيسي كامن في مساعدة الطبيب على التذكر والتفكير، تماما كالكتاب أو المجلة أو الدورية العلمية.

إن الحاسوب لا يمكن أن يعطي إلا أجوبة ذات صيغة عامة، وعلى الطبيب أن يتحمل مسؤوليته في اتخاذ القرار الذي تمليه عليه معرفته بخصوصيات حالة كل مريض يعالجه شخصيا.

القضايا الخلقية :

إن القضايا الخلقية الناجمة عن تطور العلوم الطبية عديدة جدا، ويصعب التعرض لها بأجمعها في هذا البحث، إلا أنه يمكن الاقتصار على ذكر بعض المظاهر المهمة من بينها :

1 – ويتوجه الحديث باديء ذي بدء، إلى ما وراء التحكم في قضايا الانجاب الانساني وما قد ينجم عنها من عواقب وخيمة.

فمنذ العهود القديمة، اهتم الطب والأطباء بعلاج مختلف الأمراض عند حدوثها.

أما اليوم، فقد وجهت العلوم الطبية اهتماماتها الى الوقاية من الامراض قبل الحاجة الى علاجها.

وصولا إلى تلك الغاية، ينبغي التعرف القبلي على مصدر هذه الأمراض. وقد كان هذا الأمر سببا في نشأة فرع جديد من فروع العلوم الطبية ألا وهو «**الطب التنبؤي**» كمرحلة ابتدائية لطب وقائي شامل يهتم بالانذار بكافة أنواع الأمراض قبل وقوعها، علاوة على الوقاية من الأمراض المعدية.

ويوجه الطب التنبؤي اهتماماته، عبر دراسة الذمة الوراثية للانسان، وخاصة منها نظام (هـ . ل . أ . — .H.L.A) إلى التعرف مبكرا، على العناصر المهددة بأخطار بعض الأعراض المرضية قصد الوقاية منها أو الشروع في علاجها.

ان بعض الأشخاص الميسورين الذين يرغبون في معرفة مدى قابليتهم لأن يصابوا بهذا المرض أو ذاك، بامكانهم التوصل إلى ذلك عن طريق اجراء تحليل شامل لنظام .H.L.A. وهو تحليل مرتفع الثمن.

وينبغي التنبيه في هذ المجال الى أن الحصول على دراسة الذمة الوراثية لشخص ما ومعرفة قابليته لأن يصاب بمرض ما يعني بالضرورة أنه سيصاب حتما بالمرض الذي قد يشير التحليل الى احتمال وقوعه، فقد يصاب به أو لا يصاب، لكنه يعيش حياته قلقا مضطربا من تهديد المرض المحتمل.

2 – أبلغ من هذا، فإن بعض الأطباء، يعملون جاهدين على التوصل الى تشخيص بعض الأمراض الوراثية الخطيرة التي قد تصيب بعض الأجنة في بطون الأمهات الحوامل، عن طريق استعمال تقنيات التشخيص قبل الولادة (diagnostic antènatal)

يقام بهذه التحليلات في السائل الأميني (Liquide amniotique) ويمكن لنتائجها أن تحمل الطبيب على أن ينصح المرأة الحامل بالاجهاض تجنبا لحملها الذي قد يكون محاطا بكثير من الأخطار كما في حالات الولادة المغولية (mongolisme ou trisomie 21). نفس هذه التقنية استعملت لاختيار جنس المولود، وخاصة في الصين.

وهناك تقنيات أخرى أكثر دقة تعتمد على البيولوجيا الجزيئية (biologie moléculaire) اذ بالامكان في الأسابيع المبكرة من الحمل أخذ قسم صغير جدا من المشيمة (placenta) عن طريق الفرج، والتعرف على «أمارات» القابلية للاصابة ببعض الأمراض الوراثية.

3 – وهناك تقنيات أخرى أكثر جرأة لعلها من قبيل التقنيات المستقبلية المهمة، كما في حالة الانسال (manipulation génétique) المحصل عليها بزرع نواة خلية مّا في بويضة أزيلت منها نواتها الأصلية.

ان هذه التقنية جار بها العمل في الباكتيريات، كما هو الشأن بالنسبة للكولى باسيل وصنع الانسولين. أما عند الرجل فالأمر شيء آخر، اللهم عندما يتعلق الأمر بمراقبة طريقة عمل الجينات التي قد يمكن استعمالها وسيلة لعلاج بعض الأمراض كما في بعض حالات فقر الدّم الخطير وبعض أمراض العضلات (Myopathies) وهناك مرحلة أخرى أكثر تقدما، وهي تتعلق باستعمال الحامض النووي الريبي (.A.D.N) (أي الوحدة الأساسية للمادة الحية)، في منظومة لمجموعة كروموزمية جديدة، الامر الذي قد يؤدي إلى أبحاث جريئة في ميدان تحسين النسل وتطويره (Eugénisme).

ان معظم هذه التقنيات حديثة الوجود، كما أن الأخطار الناشئة عن استعمالاتها لم يقع حسابها بالدقة الكافية أو الضرورية اذ أن اللجوء اليها قد يؤدي الى أحسن النتائج كما قد يوصل الى أقبح العواقب.

من أحسن هذه النتائج المتوقعة علاج بعض الامراض الخطيرة أو المميتة والوقاية من أخطارها على المدى القريب أو البعيد.

كما أن المبالغة في اجراء التجارب على الجينات الحاملة للتراث الوراثي الانساني قد تكون له أسوء العواقب على الانسان. أحسن العواقب، أم أقبحها ؟ الأمر هاهنا

يمكن أن يشبه بتفجير الذرة واستعمالاتها : يكون ذا عاقبة حسنة اذا ما تم استعمال الطاقة المتولدة عنها في انتاج الطاقة المفيدة للانسان، كما يكون ذا عاقبة وخيمة اد ما استعملت في انتاج القنبلة الذرية.

4 – ان التجربة في مجال علاج بعض الأمراض تثير كذلك قضايا من الخطورة بمكان.

فالقضاء على بعض الأمراض المستعصية يتوقف على التقدم الحاصل في البحوث العلمية الطبية، وتقدم العلوم الطبية لا يمكن التوصل اليه دون تجارب ومحاولات على الحيوان وأحيانا على الانسان نفسه.

ان بعض الأمراض خاصة بالانسان، والنماذج التجريبية المتوفرة لا توف بالغرض المطلوب، حتى ولو كانت معمولة على حيوانات من نوع خاص كبعض أنواع القردة، الأمر الذي يفرض علينا اجراء بعض التجارب مباشرة على الانسان، كما هو الشأن في بعض أمراض السرطان، وبعض الأمراض الفيروسية، بل حتى عندما تكون التجارب ممكنة على بعض أنواع الحيوانات فإن تعميم النتائج المحصل عليها على الانسان يكون من الصعب اللجوء اليه في بعض الأحيان، نظرا لاختلاف درجة التأثر ببعض الأدوية بين الانسان والحيوان.

وفي بعض الأحيان فإن التجربة لا يمكن القيام بها الا على الانسان نفسه : كما في التجارب المتعلقة ببعض الأدوية الخاصة بالمرضى النفسانيين.

كيف يمكن اذن اجراء التجربة الاستشفائية على الانسان ؟

– ان الحالة المثالية هي أن يقبل المرء أن تجرى عليه التجربة ويتطوع لذلك.

والواقع أن المتطوع الحق هو الطبيب المجرب نفسه، الذي يقوم متطوعا، بتجربة الدواء على نفسه، لكن يلاحظ أن هذه حالة استثنائية.

– هناك اذن طرق وحالات أخرى من بينها :

أ – التجارب المأجورة : وهذه تجرى في الولايات المتحدة الامريكية على بعض الطلبة أو العاطلين الذين يجدون في هذه الطريقة وسيلة لكسب لقمة العيش، دون أن يعبأوا بما يمكن أن يطرأ على صحتهم من جراء التجارب المجراة عليهم.

ب – التجارب على المسجونين بناء على وعد بتخفيف الأحكام الواقعة عليهم. انه في الحقيقة قبول مرفوض.

ج – تجارب مجراة على أشخاص ينتمون لبلدان متخلفة، برضا منهم أو بغير رضا، وفي غالبية الأحيان دون رضاهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة تاتي من بورتوريكو ومن بعض بلدان افريقية وآسية وأمريكا اللاتينية... بشكل مفجع ومحزن للغاية.

وبغض الطرف عن بعض الأدوية المضرة، فإنه ينبغي أن يشار في هذا الصدد الى أن التجربة العلاجية على الانسان ليست بأقل ضررا ولا خطرا على الصحة من المبالغة في استعمال بعض الأدوية.

والواقع أن كل استشارة طبية، اذا ما اتخذ الطبيب بشأنها أكبر قدر من الحذر، وراعى الأحوال الخاصة بكل مريض، فان هذه الاستشارة غالبا ما تنتهي بوصفة طبية ليست في الواقع سوى واحدة من التجارب العلاجية الخاصة.

ان التجربة مرحلة ضرورية لتحسين وسائل العلاج، ولتحسين ظروف حياة الانسان. المهم الا يتحول الانسان، جملة وتفصيلا، الى حيوان صالح لكل تجربة علمية :

5 – السر المهني في الميدان الطبي يعتبر من الموضوعات التي تنشأ عنه قضايا خلقية على درجة كبرى من الأهمية أيضا.

ذلك أن عهد **ايبوقراط** يلزم الطبيب بألا يفشي الأسرار الموكولة اليه والا يخونها (ينظر تصريح جنيف لسنة 1948).

لقد كانت الأمور تجري بين الطبيب وبين مريضه ويبقى السر الطبي محتفظا به لدى الطبيب بكامل الرعاية.

فماذا يمكن أن يقال عن السرّ الطبي في الظروف الحالية ؟ وماذا عسى أن تكون عليه الحالة غدا ؟

لقد حدث شيء جديد اليوم :

أ – فمع نشأة مؤسسات التعاون الاجتماعية والتأمينات الصحية، أضحى السرّ المهني الطبي أمرا نسبيا في الجملة. ذلك أن السرّ الطبي اذا كان محتفظا به تماما لدى الطبيب المعالج، فإن الأمر لا يكون بالضرورة كذلك، لدى العديد من الموظفين الذين يتولون مهام تكوين الملف الاجتماعي للمريض وأمر قبوله. ان التطور الذي يشهده عالم المعلومات واستعمال الحاسوب لخزن المعلومات الموجودة في الملفات الطبية للمرضى والسهر على ادارتها، من شأن ذلك كله، أن يعمل على اذاعة الأسرار الطبية ونشرها في آفاق أوسع من أفق الموظفين العاملين في مؤسسات التأمينات الاجتماعية والضمان الاجتماعي.

ب – ان مفهوم السرّ المهني الطبي يتبع في تطوره، المتطلبات المشروعة لمجتمع اليوم : حقا، ان دور الطبيب الأساسي هو أن يكون دائما الى جانب المريض يدافع عن أسراره كشخص له كامل الحق في ذلك، الا أن هذا الدور ينبغي ألا ينسيه واجبا عليه نحو مجموع الأشخاص الآخرين الذين يتكون منهم المجتمع : لذلك، يفرض القانون على الطبيب أن يخبر السلطات المعنية بظهور بعض الأمراض المعدية لدى اطلاعه على ذلك. ان الطبيب وهو يشعر السلطات بحالات بعض المرضى الذين يعالجهم من أمراض هم بها مصابون، كالزهري والحمى المعوية، وفقدان المناعة المكتسب، أو غيرها من الأمراض الخبيثة أو المعدية قصد اتخاذ التدابير الوقائية منها، ألا يكون بعمله هذا قد أفشى سرا مهنيا كان عليه الاحتفاظ به ؟ !.

6 – قضايا خلقية أخرى ناجمة عن تطور الطب

أود أن آخذ الأمثلة على ذلك من قضية زرع الكليتين، لتبقى بعد ذلك القضايا الخلقية المطروحة ذات طبيعة واحدة ومتشابهة في كل عملية من عمليات زرع الأعضاء الآخذة في الانتشار والاتساع يوما عن يوم، حتى انها لتكاد تشمل اليوم أعضاء الانسان كافة.

بدأت هذه القضايا في الظهور، في المراكز الصحية المكلفة بانقاذ حياة بعض المرضى المصابين بأمراض الكليتين في الوقت الذي يصل فيه تطور المرض عندهم الى حده الأقصى.

لقد تمّ اللجوء في البدء الى استعمال الكلية الصناعية التي تقوم بتنظيف دم المريض من التراكمات المجتمعة في خلاياه وفي شرايينه من جراء تعطل كليتي المريض الشخصية عن أداء وظيفتهما الطبيعية.

ولقد حاولت هذه المراكز القيام بزرع كلية طبيعية للمريض لتقوم مقام الكلية الاصطناعية لتحرير المريض من أمرين اثنين :

أ – من أداء الثمن الباهظ المترتب أداؤه عن استعمال الكلْية الاصطناعية.

ب – من العناء الجسدي والنفسي الذي يعتريه خلال ثلاث جلسات في الأسبوع ولمدة خمس ساعات في كل جلسة.

وهنا توضع القضية الخلقية بشكل بالغ الخطورة : ألا وهي مسألة اختيار المريض الذي ينبغي اعطاؤه الأولوية في الاستفادة من الأسبقية في برنامج استعمال الكلية الاصطناعية. ان هذا الاختيار ينبغي أن يخضع لعدة شروط من بينها : ألا يتعدى سن

المريض الخمسين أو الستين سنة، وأن يكون ذا مردودية في المجتمع أو معتبرا كذلك، غنيا غنى يجعله قادراً، بصفة مباشرة أو بوساطة الهيآت التعاضدية والمصالح الاجتماعية، على أداء تكاليف بقائه على قيد الحياة، قريبا سكنه من مركز العلاج، الى غير ذلك من الشروط الواجب توافرها، والتي يكاد التشدد في اشتراطها، يجعل من قبيل المستحيل قبول أغلبية المرضى في رحاب هذه المراكز الصحية.

أمام هذه الصعوبات أخذت المستشفيات والمراكز العلاجية تقوم بعمليات زرع الكلية البشرية، في البدء، كانت هذه المراكز تمارس عمليات الزرع بكلى يتبرع بها أشخاص أحياء ومتطوعون، ممن هم على علاقة عائلية بالمرضى.

أما اليوم، فلا تزال هذه الطريقة متبعة، الا أن التطور الحاصل في مواد التخدير والأدوية المستعملة لتأمين عدم رفض العضو المزروع، قد مكن قبول أية كلية من جثة أي شخص مطابق صنفه لصنف المريض حتى ولو كان ممن ليست له أية علاقة عائلية بالمريض.

وسواء في هذه الحالة أو تلك، توضع قضايا خلقية على قدر كبير من الأهمية والحرج.

أ – بالنسبة للكلى الصادرة عن متبرعين أحياء :

هل بالامكان قبول التبرع الطوعي بعضو من أعضاء الانسان ؟ في هذه الحال : هل تعلق الأمر، حقيقة بعمل تطوعي صادر برضى المتبرع، وبعفوية تامة ؟ وبناء على تفكير وتدبير ؟

أم يتعلق الأمر بدفقة عاطفية نحو شخص عزيز، أخا أو أختا أو أما، ربما يكون المحيط العائلي أوالطبيب المعالج نفسه قد أسهم بحظ وافر في ايجادها.

هل لأحد الحق في أن يتسبب لمتبرع سليم على قيد الحياة، في خطر مّا قد يصيب حياته، ولو كان خطرا طفيفا جدا.

ب – بالنسبة للكلى الصادرة عن جثث أصحابها في حكم الأموات :

يبدو أن الأمر أخذ طريقه نحو الهدوء شيئا فشيئا منذ نجاح عمليات زرع لبعض الأعضاء المأخوذة من جثث أحياء في حكم الأموات.

الواقع أن الأمر لا يتعلق بأخذ العضو المراد زرعه من أية جثة من الجثث.

ذلك أن جثة باردة برودة تامة اذا أخذ منها عضو ما فلا يمكن أن تنجح به

عملية الزرع : ان النموذج الأمثل الصالح لنجاح مثل هذه العمليات أن يؤخذ العضو المراد زرعه من مريض في حالة اغماء عميقة لا يرجى له معها استعادة الحياة، محتفظا به على قيد الحياة اصطناعيا وبوسائل انعاش راقية، تستطيع الحفاظ على سلامة دقات القلب والتنفس.

وينبغي أيضا أن يكون المريض الميئوس من حياته قد أجريت عليه التحليلات المختلفة الضرورية، ومن بينها ضبط الأصناف الدموية العادية والخاصة مثل أصناف (H.L.A.) نفس التحليلات يجب القيام بها فيما يخص المريض المتلقي للعضو المزروع. ولهذا الغرض، توجد مراكز متخصصة على الصعيد الوطني والدولي تقوم بفرز المتبرعين والمتلقين على حد سواء. وهنا يكون للحاسوب دوره المتحكم، وحكمه الفاصل.

ومن ذلك، فهناك أسئلة لا ترتاح النفس الانسانية لأية اجابة من أجوبتها وهذه نماذج منها :

هل يمكن أن يتأكد المرء تأكدا تامّا من أن المريض المغمى عليه ميئوس فعلا من شفائه ؟

أليست هنالك مجازفة خطيرة عندما يتعمد المرء القضاء على حياة شخص مّا لقاء أمل في انقاذ حياة شخص آخر ؟.

وحتى في حالة ما اذا كان بالامكان تجنب أي قدر ولو طفيف من الخطأ، وحتى في حالة ما اذا تأكد تشخيص الوفاة المتوقعة، بموت خلايا المخ، المعتبرة حاليا وسيلة قانونية للفصل فيما بين الحياة والموت، حتى في مثل هذه الحالة، هل للمرء الحق في أن يطلب من أسرة أصابتها مصيبة المرض والموت في عزيز عليها أن تأذن له في اقتطاع عضو من أعضاء هذا القريب العزيز وهو لايزال محتفظا بحرارة الحياة ؟ !.

هنالك قضية أخرى موضوعة وهي، في هذه المرة، ذات طبيعة مالية، لكنها تثير كذلك عواقب أخلاقية محزنة.

ان زرع الأعضاء غالبا ما يكون مقابل تكاليف مالية عالية جدا، ليس فقط بسبب المقادير المدفوعة بمناسبة القيام بالعملية، ولكن لما يتطلبه الاحتفاظ بالمريض على قيد الحياة من تكاليف قبل اجراء العملية وبعدها، نادرا ما يتمكن المريض من أدائها.

والسؤال المحيّر : هل للمرء الحق في ممارسة عمليات علاجية على هذا القدر من الغلاء والثمن المرتفع جدا ؟ لفائدة قلة قليلة، في حين أن الغالبية العظمى من الناس يوجدون في أمسّ الحاجة الى أشياء أساسية في العلاج وهم محرومون منها، كالأدوية

المضادة للتعفنات، مثلما هم في حاجة الى أدوية رخيصة جدا وليس بمستطاعهم الحصول عليها ؟

يصبح حجم السؤال أضخم اذا ما علمناأن من بين خمسمائة آلاف مريض بعجز مزمن في الكليتين سنويا لا يمكن إنقاد حياة أكثر من أربعة آلاف مصاب منهم ؟ !.

تلكم تأملات في المظاهر التقنية والقضايا الخلقية التي أثارتها، ولا تزال تثيرها التطورات الحثيثة، والتقدم الهائل الذي تعرفه العلوم الطبية في عصرنا الحاضر.

ان الباحث يجد نفسه أمام معادلة صعبة : كلما حاول التغلب على قضية من القضايا الخلقية العديدة التي تعترض طريقه ظهرت تطورات تقنية وعلمية جديدة تحمل معها قضايا خلقية في حاجة ماسة الى حلول انسانية ومنطقية سريعة.

لقد قيل قديما : ان لكل مشكلة حلا، ولكل داء دواء. فلعل الباحث العالم وهو يسترشد بهذه الحكمة القديمة، لا ييأس من أن يجدّ ويجتهد في البحث عن حلول أخلاقية جديدة لكل مظهر من مظاهر تطورات العلوم الطبية الحديثة. وما ذلك على همة العلماء والباحثين بعزيز !.

وثيقة صينية من بداية هذا القرن

للصين بالاسلام صلة قديمة وثيقة يعبّر عنها صاحب «أخبار الصين والهند» ــ التي جمعت في القرن الثالث الهجري ــ ومن نحا نحو هذا الكتاب من المؤلفين والكتاب في البلدان والأمصار، والمسالك والممالك، والرحلات، كابن الفقيه والمسعودي والقزويني وغيرهم كثير. إلاّ أن كتب البلدان لا تفيد ما تفيده آثار المجموعات الإسلامية التي استوطنت الامبراطورية الصينية وبلورت هويتها الإسلامية في مناخ ثقافي خاص، فوفّرت للثقافة الإسلامية أفقا وعطاء وتجارب وسّعت إشعاعها.

ومن باب الاهتمام بمسلمي الصين، ننشر الرسالة الحالية وهي لأحد زعماء المسلمين بالصين من بداية القرن العشرين، وكما يبدو من الخاتم الرسمي الموجود على آخر صفحة المخطوط. ونحن إذ ننشر هذه الرسالة كوثيقة تعبر عن الحالة الروحية والاجتماعية لمسلمي الصين في بداية هذا القرن، نعد القارىء ببحث في موضوعه سننشره في عدد من الأعداد المقبلة من مجلّتنا «أكاديمية» بحول الله. كتبت الرسالة على ورق حريري، والخاتم الظاهر آخر صفحة المخطوط علامة إدارية «طاوية» رسمية في أسرة «تسنغ» وهو مؤرخ في الشهر العاشر القمري الصيني لسنة 1905.

ونحن مدينون بجزيل الشكر لمالك هذا النص الأستاذ شفيق بندحّو المحامي في الديار الفرنسية الذي سمح لنا بأخذ صورة عن الأصل الذي يحتفظ به في خزانته الخاصة.

محمد علال سيناصر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

«الحمد لله الذي خلق الجنّ والانس ليعبدوه، وأرسل الرسول بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله اظهارا كاملا، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي بَلَّغ ما أُنزِل إليه من ربّه وهدانا إلى الرّشد صراطا مستقيما، وعلى آله وأصحابه الذين هاجروا لنصرة الدين والاسلام، ونصره في هجرته وينصرهم الله نصرا عزيزا. أما بعد فيقول العبد العاصي الضعيف العاجز يونس بن آدم، غفر الله له ولوالديه ورحمهم، أن أفضل البلاد مكّة المكرمة والمدينة المنوّرة، وأفضل اللغات عربيّة وعجمية، وأفضل الناس الأنبياء، وأفضل الأنبياء خاتم الأنبياء سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّد المصطفى، والرسول المجتبى، والوليّ المرتضى، عليه أفضل التحية والسلام أبدا. وهذه الفضائل لِحبيب رب العالمين وشفيع المذنبين، لولاه لما خُلِق الكون، فهو مقصود الكائنات وخلاصة الموجودات. فأمّا الأنبياء عليهم السلام فليسوا كذلك في الفضيلة، فانهم تَابِعوه فيها وهو متبوعهم، وانّ كتبهم وشرائعهم منسوخة، وكتابه خاتم، وشريعته ناسخة، فهو أفضلهم. من أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن أطاع الله فقد كان مصدّقا، ومن عصى الرسول فقد عصى الله، ومن عصى الله فقد كذّب به كِذّابا، ان المكذّبين في النار خالدون أبدا، وان المصدقين في الجنة دائما. فنفضّل نبيّنا، ﷺ، على سائر الأنبياء والمرسلين وبفضله تفضل أمته عليه السلام على سائر الأمم. فيجب أن نحصل المعرفة والعبادة، اي الاعتقاديات والعمليات ولا يحصل الاسلام بدونهما، فانهما مقصود الخلق والايجاد وغايته كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾، مع أن الله تعالى جعلنا خير أمة وأفضلهم، وجعلنا أمة وسطا كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا...﴾ الآية. ووسط الشيء أفضله ومختاره، فلمّا كانت الأمة وسطا مختارا كانت الشريعة والدين وسطا مختارا أيضا، ودليله أن التشديد في دين موسى عليه السلام غالبٌ جدّا، والتسهيلَ في دين عيسى عليه السلام غالب جدّا، والوسطَ شريعة محمّد ﷺ. وتفصيلُه أنه كان شرع موسى عليه السلام في قتل العمد استيفاء القصاص لا محالة، وفي شرع عيسى عليه السلام العفو، أما في شرعنا فان شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة،

وان شاء استوفى الديّة وان شاء عفا. والحاصل ان معنى الوسط تَباعدٌ عن طرفي الإفراط والتفريط في كل الأمور جميعا كما صرّح به التفسير، فحينئذ كانت شريعتنا أفضل وأشرف، لهذا أيضا عن جزاء الأعمال وثوابها في الخيرات ضمانا كثيرا، وان كانت قليلة في نفسها مع قِصر العمر مِمَّا دلّ عليه النصّ. ثم ان شفاعة نبيّنا مختصة بأهل الكبائر من أمته، وان فعلوا ألف سيئة غير الكفر والشّرك حتى اذا بلغ غاية الكبيرة غفر الله لهم ذنوبهم، تابوا أو لم يتوبوا، ذلك أنهم آمنوا بالله تصديقا، أولئك يسمّون مؤمنين في الدنيا وينجون من العذاب في الآخرة نجاة، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، وكان الله غفورا رحيما. واذا عرفنا هذه الفضائل اعتصمنا بنبيّنا ﷺ في جميع الأمور الدنيويّة والأخرويّة، كما اعتصمنا بالحبل المتين واتّبعنا ملّته كما اتّبع ملّة ابراهيم حنيفا، واتّباعها انما هو محبّة الله تعالى، انّ المحبّين هم المؤمنون، وكان بالمؤمنين رحيما. فأمّا المحبّة فهي امتثال للمأمورات واجتناب عن المنهيّات، وأما المأمورات فمنها الفرائض والواجبات والقريبة منها هي السُّنن المؤكّدة، والفرائض هي خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، والصلاة والصوم والزكوة والحجّ، وكل منها فرض عين لابدّ لكلّ مكلّف منها، ويكفر جاحده، وعلامة الانكار ادمان الترك مع عدم الخوف أبدا، وماسواها، فكثير طال ذكرها. ألا وان اقليم الصين أكبر، وأهل الايمان أكثر، لا يحصى عددهم. وأن دين الاسلام المحمّدي مَجيئه إلى الصين أكثر من ألف سنة وهو على السواء والصّراط المستقيم في ابتداء الأمر في الاعتقاد والعمل لا اختلاف فيه ببركةِ قربٍ من زمان النبيّ عليه السّلام وأصحابه والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، ولا اختلاف في المذهب، اذ كلّه مبنيّ على المذهب الحنفي، ثم بعد ذلك حدث مذهب الشافعي وهو على الأقلّ. والكتب الاسلامية المشهورة : شرح العقائد وشرح الوقاية والهداية والكفاية وكنز الدقايق وتفسير بيضاوي وتفسير حسين وغير ذلك، ثم لأجل كِبر إقليم الصين وكثرة أهل الايمان والاسلام، وبُعدٍ من زمان الأصحاب والتابعين اختلفت العلماء اختلافا شديدا، وانا قصصنا على بعض من بلاد الصين في الاختلاف كالبلد اليُنْلَنْيَّة، فان هذا البلد مما تدركه الحواس البصرية والسمعية، وانما اختلفوا في الأحكام الشرعية والمسائل الأصولية والفروعيّة والرسوم البدعيّة، وهم يختلفون على زعمهم لأنهم يُفرِّقون على قسمين في الدين : دين قديم ودين حادث. أما أهل القديم فمنهم من آمن وعمل صالحا وعلّم القرآن وبلّغ الأحكام وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأنفق ما رزقه الله تعالى من العلم والمال في سبيل الله أولئك هم العالمون والصالحون حقّا كما ورد بقوله : ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾، ومنهم من يقول انّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ويأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم من حيث يعملون ببعض من الصلاة والصّوم ويتركون بعضا من الزكوة والحج وغيرهما من الواجبات من صدقة

الفطر والأضحية، قادرين عليهما، هؤلاء العصاة هم الأكثرون في هذا الزمان جدّا، ومنهم من يقول إنّا أهل العلم وليسوا من أهله لأنهم يتّخذون علومهم مكسبا للمال والجاه ويقطعون طريق أهل الطلب، ولا يميزون الخبيث من الطيب، ولا يعتبرون الحلال والحرام كلبس الحرير وأكل الربا وأكل صدقة الفطر وسائر الصدقات، وهم أغنياء يحرّمون أكلها ويداهنون في أمور الدين ويلازمون على الرسوم ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله تعالى، ذلك بأنهم استحبوا الحيٰوة الدنيا على الآخرة وخاضوا في حبّ شهواتها وزهراتها خوضا شديدا كما قال تعالى في بعض الكتب المنزّلة. لا تُساءلَنَّ عن عالم قد أسكره حبّ الدنيا، فأولئك قطّاع الطريق على عبادي لعلّ الله يبدّل بعد ذلك خوفا، ومنهم من ادّعى أنّهم أهل العلم، وليسوا من أهله حقيقة فانهم اتبعوا ما فعله اسلافهم العلماء من عدم رؤية الهلال حيث دخول رمضان وخروجه وانّما صاموا من اليوم الثالث بالقمر الصيني وفطروا يوم كذا، ولهٰذا يسمون سوروز في العرف الصيني، وقد انكروا الحديث المشهور، أعني : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» انكارا دائما، ومنهم من يدّعي أنهم أهل الطريقة، وماهم بأهلها، فان ما عملوا فانّما هو طريقة يخادع بها آباؤهم الجهلاء لا ماذهبت إليه مشايخ الطريقة الحقيقية، فانه انّما هو مقام السلوك، فالاقتداء به واجب وتركه غير جائز، اذ هم أهل الاهتداء إلى عالم الحقيقة دون مُدَّعي الشُّيوخَة بطريق الإرث من الآباء ولاحظّ لهم من طريق الاهتداء، فانهم لا يصلحون للاقتداء، فيصحّ ادّعاء المشيخيّة. فاذا قيل لهم ما طريقتكم وعبادتكم قالوا قراءة القرآن في كلّ صباح وقراءة الخمس والمدائح في كل ليلة وجمع الجهلاء في يوم الاثنين ويوم الخميس ودعوتهم، وهذا ليس بعبادتهم وعملهم، بل شبكة لهم لأنهم مخلصون ظاهرا بأن يغضوا أبصارهم ويزينوا أصواتهم عند القراءة واضعين أيديهم على أفخاذهم محرّكين رؤوسهم، ولكن كانوا مرائين حقيقة، وما عملوا من إغماض الأبصار وتغيير هيئاتهم، فليس لوجه الله تعالى، بل لغرور الجهلاء واتّخاذ أموالهم ويدل عليه أن يكسلوا في صلاتهم ويعجّلوا في أركانها، وليس لهم قومة ولا جلسة مع الأفعال المكروهة، فانّهم اذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراعون الناس مذبذبين بين الايمان والكفر، فحينئذ لا يكونون مؤمنين ولا كافرين، وإنّما لم يكونوا مؤمنين، فانهم مراءون، والمراءون هم المشركون فما هم بمؤمنين وانّهم يعتقدون أن شيخهم صورة الله تعالى ويقرّون بها، يعني أن الشيخ جليّ والله تعالى خفيّ، وهما متّحدان ذاتا وصفة كما اتحد الضمير البارز بالضّمير المستكن في قوله تعالى : ﴿اسكن أنت وزوجك الجنّة﴾، فيجب أن يسجدوا له ويتوكلوا عليه في جميع الأمور من دون الله، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلاّ كذبا. مع أن شيخهم ادّعى الألوهية وادخل بعضهم الجنّة، وبعضهم النار باذنه وَأمَرَهُم يَزُورُونَه في كل سنة ويحجّوه بدون الحجّ لأن بيت الله

من مناسكه الأكبر وهو بيت خال لا شيء فيه، فلا فائدة لتزويره، والشيخ حيّ يملك نفعا وضرّا، فيجب تزويره، وأمرهم بأن يَصرِفوا إليه أموالهم بدون الزكوة تعظيما لشيخهم واداء لحقّهم، الاّ انّ هذا ليس بتعظيم، بل تحقير وليس بعزّة، بل خلّة، لأن وجوب الزكوة ثابت بالنص القطعيّ، ومصاريفها فقير ومسكين لا شيخ ولا مرشد. ان هذا لكذب محض، وكفر ظاهر لأنّ ادّعاء الألوهية إبطال التوحيد واثبات التشريك، وهو كفر وتكذيب ولأن انكار الزكوة والحجّ انكار النص، وهو تكذيب وكفر، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ومن افترى عليه فقد ضلّ ضلالا بعيدا، وانما لم يكونوا كافرين لأنهم جاؤوا بما جرى عليه أحكام الاسلام من الصلاة والصّوم وتلاوة القرآن ونحوها، فمن جاء بظاهر الشريعة بلا اظهار أثر الكفر لا يحكم بالكفر، فلا يكونون كافرين، واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ولو كان آباؤهم لا يعملون شيئا ولا يهتدون دينا، حكم الله تعالى بين شيخهم وبين قومهم يوم الجزاء حتما مقضيا. ومنهم من يزعم أنهم أهل الباطن. كلاّ بل أهل الباطل لأنهم يعرضون عن أمور الدين والاسلام التي أمرها الشارع كلّ الأعراض ولا يكون لهم أثر من الشريعة وانما طريقتهم وعبادتهم ملازمة القبّة والاعتكاف حولها، ولا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكوة ولا يصومون ولا يتوضأون ولا يغتسلون إلى أن تظهر لهم سمات الكفر والتكذيب فانه اذا عسرت عليه حاجة فليتوجّهوا إلى شيخهم ليقضي حاجتهم وما التوجه إلاّ سجودا عند القبة وما يعبدون من دون الله، حصيد جهنم هم لها واردون، ما أجهلهم، وما أظلم وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، أولئك على ضلال من شياطينهم، وأولئك هم المشركون حقّا، أو لم يعلموا أن مشايخ الطريقة كلهم مبنّيون على مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة.وطريقتهم على أربعة أنواع المشهورة : الشاذلية والنقشبنديّة الخفية والقادريّة والكبريّة وكلها على الهدى لا مازعم المنافقون والمشركون والمبطلون. وما زعموا من الجهويّة والقُبيّة فليس من الطريقة الاسلامية البتّة، بل الإرشاد الضلالّي الشيطاني الإبليسيّ انه كان ضلالاً مبيناً، وساء سبيلا ويسمّون حدوثية بالقربى وسياد بالفارسي، فأولئك هم المبطلون حقا. ولاختلاف العلماء في الدين والشريعة وفتورهم في الأحكام والمسائل حدثت الفتن والبدع في هذا الدهر، إلاّ أن بعض الجهلاء المؤمنين يخلطون بالأعمال الصالحات آثارَ الشرك والكفر ويوافقون لرسوم الكافرين والمشركين يوم النيروز والمهرجان، وينسبون الخير والشر والسعادة والشقاوة الى الزمان وهو مُفض إلى انكار قدم الله تعالى أي تقديره، ولهٰذا يسجدون للأصنام بالاختيار اذا كانوا أمراء يوم يسجد الكفار قلّب الله قلوبهم وأبصارهم وغفر لهم ذنوبهم ورحمهم ووفّقهم على الدين والاسلام، وكان الله غفورا رحيما. ياسيّد الكل نجم السماء والأرض ملجأ الآنام السلطان المعظّم دائم الدولة

دافاخوندى، ان الدين الاسلامي في الصين هو ضعيف جدّا وغيره من الأديان قوّى جدّا، ومن ثم يشاور العبد الضعيف العاجز مع أخيه الحاج الصالح ابن اللسام الكريم وارث وزير السلطان الصيني ان نكتب الرسالة التي يذكر فيها ضعف الدين الاسلامي واختلاف احوال المؤمنين والمسلمين وكثرة الخلافات في الاعتقاديّات والعمليات في هذا الزمان، ولهٰذا افترق بعض الفرق الاسلامية مع بعض، وابتداء الشأن انما هو لأجل الدين والاسلام وانتهاؤه هو لأجل المال والجاه، فهو مفضي إلى العداوة والبغضاء، بل الضلالة والاضلال، لأنّ ادّعاء الألوهية انما هو نظر إلى المال والجاه، وهذا الخَطْب العظيم لم يتم من سابق الزمان إلى هذا الحين، لا فرق بين السنّيين والمبتدعين وبين المؤمنين والكافرين في بعض البلاد. ونرفعها إلى السلطان المعظم لينظر فيها حاصل معناها، فلعله باسط جناحي كرمه في حق المؤمنين لأجل شفقتهم ونصرة الدين والاسلام، وليس لنا سفير وكيل، فَبيننا نحن عسير، فاذا هو يصير بعده يسرا، أو هوان الرئيس الكبير من الفرنسيين أمين كبير «غاداث» يدخل إلى الفسطاط الجندوصّوّى، بأمر السلطان اقامة دينهم ويرضى عن المؤمنين رضاء بلقاء الحاج الأمير لاجازة البيع حتى يقول أي مؤمن منكم اذا دعاني لأجل إقامة دينكم الاسلامي استجيب له، ولهذا نفوّض هذه الرسالة إليه ليعرضها على السلطان المعظم، فان المأمول منه أن يرسل رسولا عالما الينا ليحكم بين الناس بالحق، فمن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الظالمون، كما أرسلت السلاطين من فرنسيس وانكليز وجَرْمَن وغيرها، الرسل منهم إلى البلاد الصينية في هذا الحين ليدعوا الرعايا المشركين إلى دينهم وأطاعهم بعض المشركين، فلما رأوا دولة الصين ضعيفة أرادوا أن ينشروا دينهم في بلاد الصين ويعمروا صوامعهم، فصار دينهم غالبا وضَعُف الاسلام تدريجيا، وما قدر لتقليب هذا الخطب الاّ الله الواحد القهّار الجبّار، وما كان السبب القوّي إلاّ سلطا(نا) نصيراً. وبالجملة فقد ساءل الله سبحانه دعاءه بأنه يعصمه من الناس، فقال : ألا انّ حزب الله هم الغالبون، وقال ليظهره على الدين كلّه. ولما سأل الله النصرة بيّن الله له انه أجاب دعاءه، فقال : ﴿وقل جاء الحقّ وزهق الباطل﴾، ولمّا سأل عليه السلام النصرة على المخالفين والمعاندين مع تأييد المعجزات الكاملات والبينّات الباهرات، فَسَاءَلَ الله تعالى عليهم بطريق الاّ وجب(*) مع افراط الغفلة منّا والشبهة وتفريط الطاعات والعبادات. إن المؤمنين الذين في أرض الصين ينقسمون على عشرة أقسام واحد منها عالم والباقون جاهلون وثلثة من الجهلاء مطيعون والباقون عاصون، فإذا وعظهم العالم الصالح بالكتاب والسنة استمعوا غير مسمع، بل أكثرهم عنه معرضون اعراضا، وقد أصرّوا على ما كانوا يعملون من الصغائر والكبائر والشرك والكفر، فان العلماء في الصين لا يستقلون على اقامة الحدود والقصاص في

(*) هكذا في النص.

الأحكام الشرعية، ولاحظّ لهم من اذن السلطان وما لهم في الدين من ناصرين قطعا، وانما سائر العلماء في هذا الدهر غافلون نائمون والجهلاء ميتون. فكيف يوقظ النائمون أمواتا وقد نبذوا القرآن وراء ظهورهم لا يعملون به وهم يتلون الكتاب، أولئك يسمّون حملة القرآن ولكن لم يحملوه مثلهم كمثل الحمار كما قال تعالى في حقّ حملة التوراة ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار﴾ الآية. أجاب الله تعالى دعوتنا وقضى حاجاتنا ونصر ديننا، والذي يجيبنا اذا دعونا وينصرنا اذا ساء لنا وما النصر الاّ من عند الله العزيز الحكيم. واذا جاء نصر الله دخل الناس أفواجا، ولئن سئلنا متى نصر الله لنقولنّ ألا انّ نصر الله يكون قريبا. أشهد أن لا إلٰه الاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه، والنور والموعظة والحكمة على وفرة من الرسل وقلّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد عصا وفرط وضلّ ضلالا بعيدا، ومن يتّق الله يكفّر عنه سيّئاته ويعظم له أجرا، ومن يتّق الله فقد فاز فوزا عظيما، يا أرحم الراحمين أرحمنا. هذه الرسالة من فسطاط چندوصوّى إلى الملك الدافاوّي».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الجن والانس ليعبدوه وارسل الرسول بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله اظهار الكامل والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي

بلغ ما انزل اليه من ربه وهدانا الى الرشد صراط المستقيم وعلى آله واصحابه

الذين هاجروا لنصرة الدين والاسلام ونصروه في هجرته وينصرهم الله نصرا عزيزا

اما بعد فيقول العبد العاصي الضعيف العاجز يونس بن آدم غفر الله له ولوالديه

ورحمهم ان افضل البلاد مكة المكرمة والمدينة المنورة وافضل اللغات عربية وعجمية

وافضل الناس الانبياء وافضل الانبياء خاتم الانبياء سيدنا ونبينا ومولانا

محمد المصطفى والرسول المجتبى والولي المرتضى عليه افضل التحية والسلام ابدا

وهذه الفضائل لحبيب رب العالمين وشفيع المذنبين لولاه لما خلق الكون فهو مقصود

الكائنات وخلاصة الموجودات فاما الانبياء عليهم السلام فليسوا كذلك في الفضيلة

فانهم تابعوه فيها وهو متبوعهم وان كتبهم وشرائعهم منسوخة وكتابه خاتم

وشريعته ناسخة فهو افضلهم من اطاع الرسول فقد اطاع الله ومن اطاع

الله فقد كان سعيدا ومن عصى الرسول فقد عصى الله ومن عصى الله

فقد كذب به كفى انا ان المكذبين في النار خالدون ابدا وان المصدقين في الجنة

دائما فنفضل نبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء والمرسلين وينبغي له

يفضل امته عليه السلام على سائر الامم فيجب ان نحصل المعرفة والعبادة اي

الاعتقاديات والعمليات ولتحصل الاسلام بدونهما فانا تعلمت مقصود الخلق

الصفحة الأولى من الوثيقة



ختم الوثيقة

القسم الثاني

الملخصات

الأخلاقيات ومبحث الدم

جان بيرنار

مارس الطب تحاقن الدم لأول مرة خلال الحملات على الشرق التي واكبت الحرب العالمية الأولى وإبان شيوع الأفكار العنصرية المُسبَقة حيث كان يعتقد الناس أن لكل عرق بشري فصيلته الدموية الخاصة به. في أجواء تلك الحرب الكونية، وفي خضم الحملات كانت تتواجد الجيوش الفرنسية والانجليزية والألمانية والتركية والبلغارية، وبحكم معاصرة تلك الأحداث لبداية الظاهرة الاستعمارية كانت هناك أيضا قوات من الهند والجزائر والسينغال، فتبين خلال التحقين ان الفصيلة الدموية واحدة عند كل الأعراق. شكلت هذه الملاحظة أول دليل موضوعي ومقنع يقدمه مبحث الدم ضد النظريات العنصرية.

بعد خمسين سنة طرأت معطيات جديدة عززت أكثر ذلكم الدليل القطعي وأثبَتت ان تلاقح الأعراق أمر فيه إثراء للشخص وان ليس هناك ميز بين الناس، وانما اختلاف. هكذا فان دراسة (.H.L.A) المشتملة على ستمائة مليون من التوليفات بينت التشابه بين فصائل الكائنات البشرية جميعها.

أدت مباحث الدم هاته إلى طرح عديد من القضايا الأخلاقية بخصوص الأساليب العلاجية الجديدة وزرع الأنسجة الدموية وزرع الأعضاء مما يستوجب تحريات تُجنِّب الوقوع في المسّ بحياة الناس، كما طرحت قضية التحقين بين شخصين تربطهما قرابة عائلية من الدرجة الأولى كالأخ والأخت. بالإضافة إلى القضايا الأخلاقية هناك اشكالات أخرى تتعلق بالأشخاص من جهة وبالمجتمعات من جهة أخرى، تفرض اجراءات طبية وقانونية لضبط تدبير الدم البشري في الحالات المرضية أو الجراحية بهدف احترام شخص الانسان ومراقبة البحث العلمي حتى لا يقع تجاوز ما هو مقبول علميا واخلاقيا.

* * *

الأديان والحرب

محمد علال سيناصر

الحروب فكرة مبثوثة في عقول ونفوس البشر، ذلك ما برهنت عليه مختلف المباحث المتخصصة وعبر عنه الفنانون والشعراء. فماذا بمستطاع الأديان أن تفعله إزاء الحروب ؟ هذا السؤال يبقى مطروحا ولو توحدت الأديان، لأن إمكانية نشوب حرب داخل الدين الواحد قائمة. تنشب الحروب خارج الأديان أيضا ولأسباب متعددة. المشكل المطروح إذن ليس هو القضاء على الحروب ولكن كيف يمكن التحكم فيها ورصد الأسباب المؤدية إليها ؟.

إزاء عنف الحروب يمكن أن نصيغ ثقافة للسلم، عناصرها الأولى توجد في الأخلاقيات الدينية التي تؤسس القواعد والقوانين والضوابط الضامنة لاستتباب الأمن وتجنب الاصطدامات المسلحة.

الدين بهذه المواصفات اطار مرجعي ومُسوِّغات لصياغة المعايير الأساسية للتعايش بين البشر كحياة خاضعة للضبط والتقنين. هذا المطمح ليس بالأمر الهين، إذ تعترض سبيل السلم مشاكل أهمها امكانية انسجام الأديان وأسبقية الاهتمام المتعصب المتحمس للعقيدة قبل الرسالة. يبلغ الأمر منتهى خطورته عندما تتفاوت درجات تقدم المجتمعات، مما يجعل المجتمع المتقدم ينظر إلى الأقل تقدما منه كحالة من التوحش والتأخر، وبالتالي غياب المساواة بين الثقافات ودخولها في صراعات جادة مما يجعلنا نعتبر ثقافتنا هي ثقافات حروب أكثر منها ثقافات سلم.

يستطيع الباحث أن يتبين معالم الاستهداء بالأديان من حيث أنها تنظر إلى الحرب كانتهاك لحقوق الانسان، لأن إعلان حرب دينية باسم حقوق الانسان يلغي حقوق الانسان، وهذه مفارقة صارخة تدفعنا إلى النظر إلى الدين كدعوة هي بالأساس تقوم على السلم والأمن بين الشعوب.

لابدّ، إذن، من حوار بين الأديان في هذا الاطار سعيا من أجل نشر السلم في ربوع العالم وإبعاد شبح الحروب التي لا يمكن أن تجد لها في الأديان ما يبررها أو يشرعها.

* * *

الطبيعة المستهان بها

روني - جان ديبوي

إن العلاقة التي ينسجها الانسان مع الطبيعة تتطور آخذة اتجاه التناقض. فالقدماء كانوا يَشحنُونها بالمُقدَّسات، كل شيء في الطبيعة كان مقدسا ماعدا الانسان. مع مجيء الديانات السماوية انتقل التقديس من الطبيعة إلى الانسان وذلك لم يمنع أبدا من العناية بالطبيعة ورعايتها.

الا أن الطبيعة ليست فقط مصدر ثروات، ولكنها مجال تتحرك فيه كائنات وتحدث فيه أمور وكوارث تشكل أخطارا على حياة الانسان كفرد أو كجماعة. الجديد في علاقة الانسان مع الطبيعة أن تقدم العلوم والتقنيات والصناعات أدى إلى أمر يتعاظم خطره، ألا وهو تلويث الطبيعة وتقلُّص مواردها، مما كان له انعكاس واضح على حركة القانون الدولي الذي يضبط علاقات الشعوب. هكذا كان الناس يعتبرون أن لكل دولة كامل السيادة في تدبير طبيعتها وتصريف ثرواتها، إلا أن التلوثات التي حدثت وتجاوزت الحدود حولت مسؤولية المحافظة على الطبيعة (أي على البيئة) إلى مسؤولية دولية. منذ سنة 1960 تحركت الهمم لصياغة أوفاق ومعاهدات جهوية ولجان تنسيق لحماية البيئة ثم التأم مؤتمر دولي بستوكهولم سنة 1972 بدعوة من الجمعية العامة للأمم المتحدة سجَّل ظهورَ وعي عالمي بضرورة المحافظة على البيئة من جراء المخاطر المحدقة بها وبوجود الكائن البشري نفسه. ولقد أسفر المؤتمر عن نصّ بمثابة اطار قانوني دولي يستمد قوته من فلسفة تشريعية جديدة تقوم على اعتبار أن المسؤولية الدولية ملزمة لكل الدول التي تحتفظ بحقوقها في تدبير الطبيعة التي أصبح مستهانا بها. هكذا ظهر انتداب الأمم المتحدة لفرض احترام البيئة وضبط سلوكات الدول إزاء الكوارث والتلوثات الكبرى التي تتجاوز الحدود السياسية، أي اعتبار البيئة إرث جماعي للانسانية يُعطي المساس بها أو تعريضها للخطر حق التدخل إذا عجزت دولة مّا عن مواجهته أو وضع حدّ له.

* * *

الماء و المناخ والانسانية

روبير امبرودجي

خلال القرن الماضي أساءت الانسانية لدورة الماء ولأول مرة أضاعت ما نِسْبَتُه 10 في المائة من تدفُّقه العام ولوثت قدرا مماثلا منه. هكذا أتاحت التطورات التكنولوجية ادخال الطاقة الكهربائية في ضخ الماء وظهور نمط جديد في بناء السدود الكبرى والقنوات وآليات لنقل التربة ومضخات باطنية واستعمال المواد المعدنية والبلاستيكية لتصريف المياه وانتاج مواد كيماوية لتلويث ومعالجة المياه.

تُدمِج السياسة والاقتصاد مياه المدن ومياه الحقول، اما المجتمع فقد طرح قضية العدالة في التوزيع. هكذا تطور مفهوم تدبير الماء في اتجاه اتخاذ تدابير غير تقنية لتعويض البنيات الكبرى وتعويض المعيار الاقتصادي بالمعيار الاجتماعي.

في هذا الوقت بالذات حققت علوم المياه اكتمالها وبرزت مفاهيم الدورة البيو – كيماوية التي أتاحت معرفة أدق بالتدفق الحيوي لكوكبنا الأرضي.

ما هي التطورات المتوقعة في المستقبل ؟ يمكن الاجابة على هذا السؤال بأن هناك توقعين ممكنين ؛ من جهة اتجاه نحو الترشيد مع احتمال تدهور نوعية الماء، ومن جهة أخرى احتمال ان تؤثر تحولات المناخ الجوي وخاصة الأمطار على كم وكيف المياه. من هنا ضرورة اتخاذ عدد من التدابير أهمها : العناية بمياه الري وتقليص هدر الماء في المدن وتقليص ما تنفثه المصانع من مواد والوقاية من تلوث المياه إن لم يكن القضاء عليه، المنهج الممكن للقيام بهذه التدابير هو إقامة الانسجام في العملية التنموية والمحافظة على البيئة وانتهاج الطرق غير التقنية للتأثير على ذهنيات وسلوك الأفراد.

* * *

تأملات في الشعر والشعراء

محمد عزيز الحبابي

الشعر أثر فني موضوعه المحسوس والمعيش الوجودي، المعبر عنه بلغة خاصة تميزها الايقاعات والصواتة والصور والنغمة. يخضع هذا الأثر للقلب وينبع من الروح ولا يستمد مبرّر وجوده من العقل.

هكذا يتبدّى في الظاهر أن وضع الشعر موضع التأمل ينطوي على مفارقة. لكن أليس الكائن البشري الذي يفكر ويتأمل هو نفسه الذي يصيغ عواطفه وأحاسيسه شعريا ؟ إنه كائن يشكل وحدة يتكامل فيها العقل والقلب.

انطلاقا من هذه الاعتبارات يحاول النص أن يتأمل في توتُّر وحركة الشعر وجوهر «الشاعرية» كتَجَلٍّ للكائن عبر هواجسه وحنينه وخيبات آماله وافراحه وأتراحه. إلاّ أن هذا التجلي يطرح قضية أخرى هي العلاقة بين كينونة الكلمة / الكلمات وكينونة الانسان / الشاعر في إطار القصيدة كفضاء يلتقي فيه العشق والعمر والعبارة، وكأبعاد تعدّد المعنى وكنَظْمٍ يَحُولُ دون تحطيم الرمز وبذلك تتيح الموافقات التواصل الذي يضمن وصول خطاب الشاعر مخترقا الحدود والآفاق ومتجاوزا نسبية اللغات والأفكار.

القســـم الثـالـــث

أنشطة الأكاديمية

تقرير عن حالة أعمال الأكاديمية ونشاطها(*)

أُحَيِّي جمعكم الموقّر، مرحِّباً بكم في الدار البيضاء، العاصمة الاقتصادية للمملكة المغربية، التي اختارها راعي الأكاديمية الأمين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، لتكون محلا لانعقاد دورتها الأولى لسنة 1991.

ويطيب لي أن أعرض عليكم، كالمعتاد، النشاط العلمي للأكاديمية خلال السنة الماضية، في محاولة لاستخلاص العبرة من إيجابيات أعمالنا، تذكيراً بالمعاني السّامية للمهمة العلمية النبيلة لهذه المؤسسة التي نعتزّ بالانتماء إليها ونفاخر، وتوطيداً لصلاتِ ما بين أعضائها المقيمين وأعضائها المشاركين والمراسلين، الذين تتاح لهم، في هذه الأيام، فرصة دورية للتحاور، وتبادل الرأي، في موضوعات علمية، فكرية قانونية اقتصادية، اجتماعية وسياسية، من صميم الموضوعات التي تشغل أخلاقياتها وتطوراتُ أحداثها بال عالمنا المعاصر، على مختلف المستويات والأصعدة، في مختلف الدول والقارات، شعوبا وحكومات، أفرادا ومنظمات.

أود في البدء أن أمضي، على مقتضى عاداتنا في الوفاء لذكريات أعضاء مجمعنا، الذين توفاهم الله إليه في الفترة الفاصلة ما بين اجتماعنا الماضي واجتماعنا الحالي، مترحماً على أرواحهم الزّكية، ذاكراً لهم بالجميل والثناء الّذين هم أهل له، حاضرين معنا دائما، وفي سائر الأحوال، نستمد من نبل أخلاقهم، وجميل سلوكهم صدق العلماء وشجاعة الحكماء.

فقد انتقل إلى دار البقاء خلال شهر اكتوبر الماضي العضو المراسل الزميل السيد بوريس بيوتروفِسكي الذي دخل الأكاديمية ممثلا للاتحاد السوفياتي، في شهر مارس 1984، اختصاصيا في تاريخ التراث الثقافي العالمي وبخاصة منه الآثار المصرية. شغل في بِلاده منصب مدير المتحق الوطني «الارميتاج» بلننغراد، وعضوية الأكاديمية السوفياتية للعلوم.

أما العضو الزميل السيد محمد إبراهيم الكتّاني الذي تُوفِّي، في شهر نونبر الماضي

(*) قدم هذا التقرير أمين السر الدائم للأكاديمية السيد عبد اللطيف بربيش أمام الدورة الأولى لسنة 1991

فقد دخل الأكاديمية في دورتها التأسيسية سنة 1980، عالماً من خِيرة علماء المغرب، متخصصا في قضايا الفكر الاسلامي والتراث العربي، المطبوع منه والمخطوط.

بانتقال هذين العضوين الجليلين إلى دار البقاء تفقد أكاديميتنا علمهما وفضلهما، وتحتفظ لهما بخلود الفكر، وجميل الذكر.

* * *

أعرض فيما يلي، بإيجاز، لبعض أنشطة الأكاديمية خلال السنة الأكاديمية الماضية.

عقدت الأكاديمية في السنة الماضية دورة وحيدة بفاس عن :

«ضرورة الانسان الاقتصادي من أجل الاقلاع الاقتصادي لأوروبا الشرقية».

شارك في تحليل محاور الموضوع وإغناء بحوثه فريق من العلماء والخبراء الاقتصاديين المتخصصين في شؤونه، من بين المشاركين في الأحداث والتحولات التي شهدتها المنطقة في الاتحاد السوفياتي وهنغاريا وبولونيا وبلدان أوروبية أخرى بالإضافة إلى أعضاء الأكاديمية المشاركين والمقيمين والمراسلين.

وقد صادف انعقادَ هذه الدورة احتفاء الأكاديمية بالذكرى العاشرة للتأسيس، وتشرفت الأكاديمية، بهذه المناسبة، بالاستقبال الذي خصّه مؤسس الأكاديمية وراعيها الأمين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله لأعضاء الأكاديمية والخبراء المشاركين فيها، في القصر الملكي بالرباط مساء يوم الأربعاء 14 شوال عام 1410 الموافق 9 ماي 1990. و قُدّمت المطبوعات التي أنجزتها الأكاديمية منذ تأسيسها، وأعدادُ مجلتها، هدية علمية إلى الجناب العالي بالله في العقد العاشر للتأسيس، وتشرّف أمين السر الدائم، باسم أعضاء الأكاديمية، بإلقاء كلمة بين يدي جلالته هنّأه فيها حفظه الله بالذكرى العاشرة للتأسيس.

محاضرات الأكاديمية :

هذا، وقد استأنفت الأكاديمية نشاطها العلمي في ميدان المحاضرات العامة، بتعاون مع كل من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وكليتي العلوم بفاس والرباط، وكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط، بغية التفتح على مختلف الفعاليات العلمية والثقافية، في أماكن وجودها :

فألقى السيد جاك ريفيي أستاذ معهد فرنسا محاضرة، خلال شهر يونيه الماضي في فاس والرباط في موضوع :

«مسؤولية العلم في بناء إنسانية الغد»

وألقى العضو الزميل السيد محمد عزيز الحبابي، في شهر شتنبر محاضرة عن :

«شمولية شكسبير»

كما حاضرنا الزميل السيد عبد العزيز بنعبد الله، في شهر دجنبر الماضي عن :

«فقه القضاء : خواصه ومميزاته»

تابع هذه المحاضرات العمومية جمع من المثقفين والأساتذة وطلبة الكليات من المتخصصين في موضوعات كل منها. وتعتزم الأكاديمية مواصلة هذا الانفتاح العلمي والثقافي بتنويع موضوعات المحاضرات والندوات بين الحين والحين.

أحاديث الخميس :

أما «**أحاديث الخميس**» فقد تنوعت موضوعاتها في الجلسات العادية، وتعدّدت محاورها بتعدّد تخصّصات مُقدِّميها، من الأعضاء الزملاء المقيمين.

* الوثائق المغربية بمدينة «نانت» الفرنسية
* المجتمع الإسلامي في مواجهة التّحديات الحضارية الحديثة.
* منطق الابتكار في العلوم المعاصرة.
* تاريخ المغرب الدبلوماسي.
* استعمال الحرف العربي لكتابة لغات البلدان الإسلامية غير العربية.
* المؤتمر العالمي حول التربية للجميع.
* تقديم كتاب الفتنة الكبرى لمؤلفه هشام جعيط.
* تقديم المعجم العربي الأمازيغي.
* التغذية وأثرها في نمو الدّماغ البشري خلال حياة الجنين في الرّحم، وفي السّنوات الأولى من حياة الانسان.
* مراجعات، في التّاريخ الدّولي للإسلام على ذكر أزمة الخليج.
* بنو زُهر، نظرات في تاريخ أسرة أندلسية.
* خواصّ القضاء المغربي ومميزاته.
* تأملات في المظاهر التقنية والخلقية النّاجمة عن تطور العلوم الطبية.
* آثار التّجربة الحياتية في الإبداع الأدبي والعلوم الاجتماعية : ابن خلدون نموذجا.
* مشروع كتابة تاريخ المغرب.
* الكلمات القرآنية بين الرسم العثماني والرسم الإملائي الحديث.
* وحدة الأسماء وتعدد المسميات أو «المشترك وضعا والمفترق صقعا».

* حول مغربيّة الشاعر البوصيري.
* اليابان : المغامرة والنموذج.

واعتبارا لأهمية هذه الموضوعات، وتعميما للفائدة منها، وتلبية لاقتراح الأعضاء المقيمين الذين استمعوا إليها في جلسات الأكاديمية العادية فقد نشرت نصوص بعض هذه الأحاديث في العدد السّابع من مجلة الأكاديمية مع ملخصات عنها في العدد نفسه باللغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية.

مطبوعات الأكاديمية :

أصدرت الأكاديمية بِضعة عناوين جديدة في هذه الفترة هي التالية :

سلسلة الدورات :

* كتاب «الجامعة والبحث العلمي والتنمية»، وقائع دورة باريز (يونيه 1989)
* «أوجه التشابه الواجب توافرها بين الدول الساعية لتأسيس مجموعات إقليمية» وقائع دورة مدريد (دجنبر 1989)
* «ضرورة الإنسان الاقتصادي من أجل الإقلاع الاقتصادي لدول أوربا الشّرقية» وقائع دورة فاس (ماي 1990)

سلسلة مجلّة الأكاديمية :

* العددان السّادس والسّابع من «الأكاديمية» (دجنبر 1989 و1990).

سلسلة المحاضرات والنّدوات :

* كتاب «نظام الحقوق في الاسلام»، محتويا على وقائع الندوة الداخلية التي نظمتها الأكاديمية بإشراف لجنة القيم الروحية والفكرية (في شوال 1409) (ماي 1989).

سلسلة المعاجم :

* «المعجم العربي الأمازيغي» للعضو الزميل السيد محمد شفيق (1410 هـ/ 1990 م).

سلسلة التراث :

* «معلمة الملحون الجزء الثالث» : روائع الملحون للعضو الزميل السيد محمد الفاسي (1410 هـ/ 1990 م).

* «عمدة الطبيب في معرفة النبات» لأبي الخير الاشبيلي قدم له وحققه وأعاد ترتيبه العضو الزميل السيد محمد العربي الخطابي، بقسميه الأول والثاني (1990).

* «كتاب التّيسير في المداواة والتدبير» لأبي مروان عبد الملك بن زُهر من تحقيق وتعليق الفقيه السيد محمد بن عبد الله الروداني (1411/ 1991 م).

وتُوالي لجان الأكاديمية نشاطاتها في ميادين اختصاصاتها في جلسات تضم أعضاءها المنتسبين إليها، وفي جلسات مشتركة إذا ما اقتضى الأمر دراسة موضوع يهم لجنتين.

من جهة أخرى، مثّل العضو الزميل السيد محمد علال سيناصر الأكاديمية في الدّورة الرابعة والستين للاتحاد الدولي للأكاديميات المنعقدة في شهر يونيه 1990 ببروكسيل. وقد تابع الاتحادُ الدولي للأكاديميات دراسة الموضوعات التقليدية، كما فتح المجال أمام أعضائه للنظر في بعض القضايا الجديدة وبخاصة منها مصادر التاريخ الإفريقي. وقد تكلفت الأكاديمية البريطانية بمتابعة المشروع.

أشير بالمناسبة إلى أن المغرب قد عرف في السنوات القريبة الماضية تأسيس **معهد للدراسات الافريقية** بتوجيهات سامية من جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله.

وقد اقترحت الأكاديمية على المعهد المغربي للدراسات الإفريقية الدخول في صلات علمية مع مشروع الاتحاد الدولي للأكاديميات عن طريق المؤسسة المكلّفة به، ألاَ وهي الأكاديمية البريطانية. ويسعدني أن أحيطكم علما بأن هذه الاتصالات بدأت تأخذ طريقها الإيجابي إلى غاياتها العلمية.

بقي أن أشير إلى أنّ أكاديمية المملكة المغربية قد استضافت بمقرّها في الرباط في بداية شهر أبريل الحالي لجنة التحكيم لجائزة الإمام عبد الحميد بن باديس لخدمة الثقافة الإسلامية في المغرب العربي التّابعة لمركز دراسات المستقبل الإسلامي بلندن. وقد تلقّت الأكاديمية برقيتي شكر من المدير العام لمركز دراسات المستقبل الإسلامي ومن رئيس لجنة التحكيم على هذه الاستضافة العلمية.

* * *

منذ ثلاث سنوات، قمتم بانتخاب العضو الزّميل السيد عبد اللطيف بنعبد الجليل أمين السر المساعد للأكاديمية، ويقتضي الإنصاف أن أُثني على ما قام به من واجب المساعدة، كلّما وُجّه إليه النّداء، أو دعت الحاجة إلى ذلك، بطريقته الهادئة اللّبقة،

الجديرة بصفاته العلمية والخلقية رغم مهامّه الرسمية العديدة التي يقوم بها بكامل التفاني والإخلاص. فله الشّكر على كل ما قام به خلال الثلاث سنوات التي قضاها أمينا مساعدا للأكاديمية. وأستبق الحدَث لأتمنّى لخلفه الذي سينال شرف ثقتكم بعد قليل كامل النجاح والتوفيق في المهمة العلمية الجليلة التي ستسندونها إليه.

أمّا أعضاء لجنة الأعمال واللجنة الادارية فأستأذنكم، وفق ما جرى به العمل في السنة الماضية، أن نكِل أمر انتخابهما إلى جلسة عادية من جلسات الأكاديمية المقبلة.

تلكم، هي النقط التي رأيت عرضها على أنظاركم عن حالة أعمال الأكاديمية ونشاطها خلال السنة الماضية. آمل بذلك أن أكون قد أحسنت الإبانة عمّا وددت الإشارة إليه، وإلاّ، فلي من سَعة حلمكم ونبل اهتمامكم بتطور أعمال الأكاديمية ما يُغني عما قصرت في الإشارة إليه.

وقائع الجلسة العمومية الرسمية
بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد

الدورة الأولى لسنة 1991

الدار البيضاء

7-8-9 شوال عام 1411 هـ

22-23-24 أبريل سنة 1991م

خطاب الترحيب بالسادة الأعضاء الجدد

عبد اللطيف بربيش

في هذه اللحظات المتميزة من حياة أكاديمية المملكة المغربية، يسعدني كثيرا أن أقدم إليكم باقة مختارة من رجالات الفقه والقانون والعلوم الاقتصادية، والاجتماع والسياسة والدبلوماسية، تزدان بانتمائهم إلى الأكاديمية رحابها، وتعتزّ بعلمهم وأخلاقهم وفقههم وكفاءاتهم الشخصية مكانتها الثقافية بين مثيلاتها من المجامع والأكاديميات. كلما غاب عنا أفاضل من المفكرين والعلماء خلفنا فيهم أفاضل، أملا في أن يكونوا خير خلف لخير سلف، ورجاء أن يحمل المشعل الحضاري لهذه الأكاديمية، في كل وقت وحين، علماء عاملون، ورجال صادقون، مخلصون للرسالة الخالدة التي أناطها مؤسسها وراعيها الأمين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله بالصّفوة المختارة من أعضائها المقيمين والمشاركين والمراسلين، ليتكوّن من اجتماع نظرياتهم وآرائهم واجتهاداتهم اتجاه فكري يقرب الانسانية أكثر فأكثر إلى الأخلاقيات، ويقودها إلى مبادىء الإنصاف والعدل والحرية في ميدان التعامل الوطني، والعلاقات الدولية.

* * *

أحد هؤلاء الأفاضل الذين تسعَد رحاب أكاديمية المملكة المغربية باستقبالهم اليوم عالم جليل من علماء المغرب العربي في موريطانيا الشقيقة، يكتمل بالتحاقه بها عقد تمثيلها المغاربي. إنّه السيد محمد سالم ولد عدود المستشار في رئاسة الجمهورية الإسلامية الموريطانية.

الأوساط السياسية تعرف الرّجل وزيرا للثقافة والتوجيه الإسلامي في البلد الشّقيق، بعد أن عرفته الأوساط القضائية فيها رئيساً للمحكمة العليا لعدّة سنوات، كان قد تدرّج خلالها في السّلك القضائي قاضياً، فرئيساً للمحكمة الابتدائية، ثم نائباً لرئيس المحكمة العليا مكلّفا بالقضاء الشّرعي.

إنني إذ أحيّي السيد محمد سالم ولد عدود عضواً مشاركا في أكاديمية المملكة المغربية، أحيّي فيه الأديب الشّاعر، والفقيه رجل القانون، واللغوّي النحوي، الذي أهّلته كفاءته في هذه المجالات لعضوية المجامع والمؤسسات العلمية العربية والإسلامية المختلفة في كل من جمهورية مصر العربية والمملكة العربية السّعودية، والعراق.

فمرحباً بك أيها العضو الزّميل باسم زملائك الذين يتطلّعون إلى مشاركاتك الثّقافية والأدبية والفقهية شعراً رصينا، يرتادون في مغانيه معك، أغراضه المتنوعة، وأدبا إنسانيا يتمتعون بقراءات مفيدة من مختاراته، على صفحات مجلّة الأكاديمية، أو في محاضراتها وندواتها، وفقها تتّسع مدارك اجتهاداته لتشمل آفاقه فصولَ القانون الوضعي مقترنة بعطاءات فقه الشريعة الغراء. فأهلا بك وسهلا بين زملائك وأصدقائك.

* * *

أمّا العضو المشارك السيد بوشو شانغ، الذي يلتحق بالأكاديمية ممثلاً للصّين، خلفا للعضو الراحل السيد هوانغ كسيانغ فقد غنِيتْ حياته الفكرية والمهنية برصيد قوي من الإجازات والشهادات، منها ما حصل عليه من جامعات بلاده في الدراسات التي تابعها في جامعة (هوكيانغ)، ومنها ماناله من جامعتي ميشيغان وهارفارد في الولايات المتّحدة الأمريكية (الإجازة في الآداب والدكتوراه في العلوم الاقتصادية)

لا أستطيع في هذه اللّحظات القصيرة أن أستقصي المهامّ العلمية التي تقلّدها السيد بوشو شانغ، بكامل الجدارة والاستحقاق، والتي جعلت منه مرشح الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية ليتبوّأ مكانته العلمية في أكاديمية المملكة المغربية.

لذلك فإنني أكتفي بالإشارة إلى بعض الجوانب البارزة في حياته العلميّة والرسمية، أملاً في أن نستكمل تصورنا لمعلوماته الواسعة، وخبرته الكبيرة، من خلال دراساته وتدخلاته وعروضه في اجتماعاتنا المقبلة.

أذكر من بين مهامه العلمية والسياسية تولّيه منصب مستشار الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية، ومنصب نائب رئيس جمعية المترجمين الصينيين وهما المنصبان العلميان اللذان لا يزال يمارسهما إلى الآن، كما أذكر تحمله مسؤولية معهد اللغات الأجنبية في بكين، فأستاذا في مركز دراسات القضايا الدّولية بجامعة شانگاي، ثم نائبا للوزير في وزارة الشؤون الخارجية، ومستشارا في المؤتمر الأول والثاني للجمعية الصينية لدراسات شؤون الاقتصاد العالمي.

وقد أهلته كفاءاته العلمية وممارساته المهنية والسياسية للمشاركة في عدة مؤتمرات دولية يذكر من بينها على الخصوص :

* عضوية الجمعية العالمية للعلاقات الدولية التي انتخبته نائبا لرئيس لجنتها التنفيذية في جنيف.
* عضوية الفريق السياسي مترجما رسميا، لوفد الحكومة الصينية في مؤتمر باندونغ.
* عضوية وفد بلاده في قمة الجنوب والشّمال.
* رئاسة وفد بلاده في المؤتمر الاستشاري للدول السّائرة في طريق النّمو المنعقد في نيودلهي (1982).

أيها الزميل العزيز، بهذه الحياة الحافلة بالمشاركات العلمية والسياسية التي اتّسعت مشاركتها، وطنياً وعالمياً، تنخرط في سلك أكاديمية المملكة المغربية التي يحرص مؤسسها وراعيها الأمين على استقطاب مثل هذه الكفاءات الوطنية والخبرات الدّولية إلى رحابها، وهو انخراط أرجو أن يسمح لي زملائي في الأكاديمية، أن اغتبط به وأُسَرّ، لأتمنى لك السعادة والهناء، ومزيدا من الانتاج الفكري والإبداع الثقافي.

* * *

أما العضو الزميل المقيم السيد محمد ميكو فهو وجه منير من كبار وجوه القضاء في المغرب والعالم العربي، تحظى أكاديمية المملكة المغربية بالاستفادة من معرفته وعلمه وسلوكه عضوا مقيما، خلفا لزميل عزيز راحل، ألا وهو العضو الجليل السيد الحاج محمد باحنيني رحمه الله.

درج السيد محمد ميكو في أحضان الفقه والقضاء منذ حصوله على شهادة العالمية من جامعة القرويين، ممارساً هذه المهنة الشريفة الصّعبة، في أماكن متفرقةٍ من المملكة المغربية، بين وجدة، والدّار البيضاء، وطنجة، ومرّاكش، والرّباط، مطّلعاً فيها على قضايا العدل بالبلاد، على مختلف المستويات، في القضاء الواقف، وفي القضاء الجالس، متوّجاً هذه الرّحلة المتفردة بتحمله مسؤولية مدير الشؤون المدنية في الإدارة المركزية بوزارة العدل المغربية.

وانطبعت مسيرة السيد محمد ميكو القضائية بطابع سيرته الذّاتية، المتّصفة بالاخلاص المخلص، والجدّ المتّصل، والحرص على أداء حقوق الله، وحقوق الناس، عملاً بالحكمة القرآنية الخالدة ﴿إنّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ﴾.

جعل السيد محمد ميكو من ذلك له شعاراً تفانى في الوفاء له والقيام بمسؤولياته، ممّا جعله محطّ أنظار العلماء والمثقّفين، ومحلّ تقدير من الأوساط المهتمّة بشؤون انعدل والقضاء والقانون، داخل المغرب وخارجه.

يشغل السيد محمد ميكو في الوقت الحالي منصب رئيس غرفة بالمجلس الأعلى، أميناً عامّا للمجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، منذ قرّر صاحب الجلالة، إنشاءَ هذه المؤسسة الحسنية الجديدة من مؤسّسات عهده الوطني الزّاهر.

وهي المؤسسة التي أنشئت في السنة الماضية، وكان لأكاديمية المملكة المغربية شرف تهنئة الجناب العالي بالله على إنشائها في الخطاب الذي ألقاه أمين السر الدائم للأكاديمية أمام الجناب الشريف أسماه الله في الذكرى العاشرة للتأسيس.

أيها الزميل العزيز، لا أطيل في التّعريف بك وبخصائصك، وأرجو أن تسمح الظّروف بالاستماع إليك كاتبا، ومحلّلا، ومعقّبا، وناقدا. فتلك نافذة من نوافذ العمل تبقى مفتوحة أمام كلّ عضو زميل من أعضاء هذا المجمع الموقّر ليمتعنا ببديع فكره، وثاقب آرائه ونظرياته، وحكيم اجتهاده. فمرحباً بك بين أصدقائك وزملائك في الأكاديمية.

* * *

اسمحوا لي أن أسعد وإياكم بالتّرحيب بالعضو المقيم السّيد إدريس العلوي العبدلاوي الذي يلتحق بهذا المجمع الموقر خلفا للعضو الرّاحل المرحوم سيدي عبد الله گنون.

تعرّفت المحافل العلمية على الزّميل الكريم مؤلّفا غزير الانتاج في القانون وبخاصّة في مجالات القانون المدني والمسطرة المدنية، والتنظيم القضائي. كما تعرّفت عليه محاضرا بليغا يتحرّى تطويع الأفكار القانونية لمقتضيات البلاغة العربية، في إشراقة لفظ، وأناقة أسلوب، يقرّبك جمال المبنى، من أصالة المعنى، وتغريك فصاحة الأسلوب بمتابعة صلب الموضوع.

لم يُقدِم العضو الكريم على ميدان التأليف في موادّ القانون المدني إلاّ بعد أن اكتمل تكوينه في كلّية الحقوق المغربية الّتي حصل منها على شهادتي الدراسات العليا في كل من القانون المدني والعلوم الجنائية، ثم على دبلوم القانون الخاص فشهادة الدكتوراه.

مارس العضو الزميل خلال مسيرته العلمية، مهمّات تدريسية في الجامعة المغربية

وأسندت له فيها مسؤولية قيدوم كلية الحقوق في مراكش، كما شغل منصب رئيس لجامعة القرويين.

وقد أشرف، بهذه الصفات، على عدّة أطروحات لنيل دكتوراه الدّولة في الحقوق في الجامعات المغربية. ومثّل المغرب في لجنة توحيد التشريعات العربية. كما عين خبيرا قانونيا في الجامعة العربية، ويشغل الآن منصب أمين عام لرابطة الجامعات الاسلامية.

أيها الزميل العزيز، مرحبا بك في أكاديمية المملكة المغربية التي تسعد اليوم باستقبالك عضواً مقيما فيها، ومعك رصيد قانوني نعتز بانضمامه إلى رحابها، يثري نشاطك الشّخصي من عطائها، ويقوّي طموحك الشابّ من إنتاجها، وكم يسعد زملاءك أن يغزر إنتاجك ويزيد عطاؤك، في الندوات المتخصصة، وفي اجتماعات لجان الأكاديمية وفي محاضراتها. فأهلا بك ومرحبا.

* * *

بالتفاتة ملكية سامية يتعزّز الصفّ العلميّ للأعضاء المشاركين في أكاديمية المملكة المغربية، بانضمام عضو جديد إلى صفوفها. إنّه العضو الزّميل السيد ألفونسو دو لاسيرنا.

وكم يسعدني شخصياً أن أرحّب بانضمامه إلى مجمعنا الّذي تعرّف عليه، في نشاطه العلميّ الملحوظ، من خلال تدخّلاته ومناقشاته في دوراتنا الماضيات التي كان يحضرها بصفته عضواً مراسلا.

ويقضي العرف الأكاديمي تقديمه إلى محفلكم الموقّر، وهو في الحقيقة غير محتاج إلى تقديم، لما هو مرتبط به من صلاتٍ ودّية مع الأعضاء المحترمين كافّة، خلال اجتماعاتنا السالفة.

لهذا أكتفي بالإشارة العابرة في التّرحيب به إلى ثقافته القانونية الأدبية المزدوجة التي أهّلته، وهو سليل أسرة أدبية شهيرة في المملكة الاسبانية الصديقة، لنيل جائزة من أشهر جوائز الصحافة الاسبانية ألا وهي المعروفة بجائزة «ما ريانودي كافيا».

ولعلّني أيضا في غنى عن الإشارة إلى خبرته الواسعة، وتعدّد المهامّ الدّبلوماسية التي مرّ بها سفيرا لبلاده في كل من تونس، والسويد والمغرب، أو في جنيف كممثل دائم لبلاده لدى المنظمات الدولية، وأخيرا كرئيس للمجلس الاسباني الأعلى للشؤون الخارجية.

أيها الزميل العزيز، إنّ أكاديمية المملكة وهي تستقبلك اليوم عضواً مشاركا فيها لتعلّق الأمل على مشاركاتك القانونية والأدبية، وتطمع في إنتاج خاصٍّ من وحي عملك في رحابها على غرار كتابك «صور من تونس» الذي خلّدت في صفحاته ذكريات عملك سفيراً لبلادك في تونس الشقيقة. فأهلا بك وسهلاً أيها الزميل العزيز.

خطاب العضو المشارك الجديد
السيد محمد سالم ولد عدود

يشرفني وأنا أشارككم لأول مرة في دورة لهذه الأكاديمية الملكية الشريفة أن أعبر أولا لجلالة أمير المؤمنين في هذا البلد الأمين عن عظيم شكري وامتناني لما أضفى عليَّ من منة، وشملني به من عطف، وحلاني به من وصف، وسلم إليَّ من شهادة. ففي الرغبة السادسة من الرغبات الشريفة الواردة في ديباجة الظهير الشريف المنشىء لأكاديميتنا هذه شهادة للعضو المشارك بأنه أدى في مختلف أنحاء العالم ألمع الخدمات إلى الحضارة، واكتسب بذلك غاية المجد. فأية شهادة في الدنيا فوق هذه الشهادة، وأية جهة اختصاص تسامي الجهة التي أصدرتها ؟ أراني أقف مدهوشا مشدوها عاجزا عن التعبير عن مدى الشكر والتقدير، وأسأل الله تعالى أن أكون عند حسن ظن أمير المؤمنين.

كما يشرفني ثانيا أن أهنىء زملائي الذين حالفهم الحظ معي باللحاق في هذه الدورة من الأعضاء المقيمين والأعضاء المشاركين، كما يسرني أن تكون الدورة التي أشهدها لأول مرة مكرسة لقضية أمتي الكبرى، قضية فلسطين التي تستأثر باهتمام رئيس لجنة القدس راعي هذه الأكاديمية، وباهتمام بلدي وباهتمام شخصي فقد نشأت في خضم أحداثها وتأثرت بها وأثَّرتُ في موقف بلدي تجاهها. وكمشارك في العلوم القانونية والقانون المقارن ومؤلف في القانون الدولي أؤكد لحضراتكم أن الاعتراف بدولة يهودية على أرض فلسطين لا يمكن أن يستند إلى أي أساس من الشرعية الدولية، ذلك لأن قيام دولة يتطلب وجود ثلاثة عناصر مجمع على اعتبارها هي : المجموعة البشرية التي تستوفي مقوماتها كوحدة قائمة بذاتها، وهيئة سيادة تدير أمور تلك المجموعة وتدبر شؤونها، ورقعة أرضية تمارس نشاطها فيها وتبسط نفوذها عليها. وشرطها باجماع القانونيين أن تكون واضحة المعالم غير محل لنزاع قائم. ولئن سلمنا لإسرائيل بوجود العنصرين الأولين، لا نسلم ولا يمكن لغيرنا أن يسلم بوجود العنصر الثالث بشرطه

القانوني ؛ هذه أيها الأساتذة الكبار وجهة نظر أردت أن أساهم بها في الأفكار التي يتضمنها الملف المعروض.

ثبت الله خطانا ووفقنا لنصر الحق والعدل وأقر عين منشىء هذه المؤسسة وراعيها بمشاهدة ثمار جهوده فيها وفي غيرها.

خطاب العضو المقيم الجديد
السيد محمد ميكو

شرفني صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بالتفاتة سامية، وثقة غالية، فأنعم علي بالانتساب إلى أكاديمية المملكة المغربية، وليست هذه أول نعمة يغدقها على الخديم، ولا أول فضل يحبوه به.

وأكرم بها من مناسبة للتباهي بأن جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه شرفني بأداء يمين التنصيب في حضرته واحداً من قضاة ثلاثة.

وانه لطالع يمن أن يصدر الأمر المنيف بالانتساب إلى هذه المؤسسة الموقرة، والمغرب يحتفل بالذكرى الثلاثين لاعتلاء جلالة الملك عرش أسلافه المنعمين. بعزم لا يلين، خاض معركة النماء والوحدة والتوحيد، اهتم بالفكر ورجالاته، بالقضاء وأهله، فضمن للقاضي حصانته، وللقانون سيادته، فهو رائد فكر وقيم وحضارة، فالى مقامه العالي بالله آيات الولاء والاكبار، وأغلى عبارات التقديس والامتنان.

ولا اخالني الا صادقا اذا قلت بأنني أتهيب هذه المؤسسة : عقد لآلئه منتظمة رغم الاختلاف في الجنسية، والدين، والعقيدة، والتخصص، فأعضاء الأكاديمية صفوة تدرس في محيطها مواضيع شائكة، من الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر إلى القرصنة والقانون الأممي ضمن قواعد النقد التفسيري، فيدعو الجميع إلى المزيد من التفكير، لايمانهم بقولة أفلاطون :

«مجانين اذا لم نستطع أن نفكر

«متعصبون اذا لم نرد أن نفكر.

«عبيد إذا لم نجرأ أن نفكر».

أما اذا اتسعت رقعة الخلاف فالكل يلتزم حكمة ڤولتير : أنا لا أقر كلمة واحدة مما كتبت، ولكني سأقف حتى الموت، مدافعا عن حريتك، مؤيدا حقك في أن تقول ما تريد، يتدافع الحديث مرة، وينزل إلى درجة الهمس والمناجاة أخرى : ودائما تبلور

نقط التفاهم دون تنازل عن الذات، فلا أحد يخفي رايته، غير أنه لا أحد يسعى لسد أفواه الآخرين بها. فأكاديمية المملكة المغربية ــ كما ارادها مؤسسها وراعيها الأمين ــ ظاهرة فريدة تبرز فضيلة الحوار، والتعايش، والتسامح، يعترف فيها سلطان الدولة بسلطان الفكر، ويحيطه بما هو أهل له من اجلال واكرام.

ولا إخالني الا صادقاً إذا قلت بأنني أتهيب مقعد المرحوم الحاج محمد باحنيني، فقد زامل فحول النثر الفني مزاملة اتصال واستمرار، وارتمى في أحضان أبي حيان التوحيدي، فنهل من المقابسات، وتأثر «برسالة الصداقة والصديق»، وانتفع من «الامتاع والمؤانسة»، واندمج في الاشارات الالهية، حتى وقع الحلول، فقلما نجتمع الا ويحدثني عنه بأسرارٍ ما سافرت عن ضميري إلى شفتي، ولا ندّت عن صدري إلى لفظي. وذاك للصفاء الذي نتساهمه، والوفاء الذي نتقاسمه.

أخلص إلى الدولة اخلاصا لا يخضع لقيد، وتفانى في مؤسسة المؤسسات تفاني الصوفيين الأخيار، تشبث بالانتقائية في جميع الحالات، وتقزز من التلوث في سائر المجالات ؛ نتاجه لوحات فنية تعطرها المحسنات البديعية، حبذا لو سعت لجنة إلى جمع ما دبجه يراعه من لمحات من سحر البيان والبديع ؛ ولو أقبل طلاب الأطروحات على دراسته للتعرف على جزء من هذا اللغز، فالذين استمتعوا بحديثه الشائق الخلاب في فضاء ضيق عاينوا أنه بخيل بالأسرار، رافض للمزاجية، مومن بنكران الذات. انه نموذج لرسالة، ورمز لمدرسة.

سأل أبو حيان التوحيدي ابن مسكويه في كتابه «الهوامل والشوامل» عن سبب اختلاف الفقهاء في حكم المسألة الواحدة اختلافا موحشا رغم أنهم يزعمون أن الله تعالى قد بين الأحكام، ونَصَبَ الأعلام، وأفرد الخاص من العام، ولم يترك رطبا ولا يابسا إلا أودع كتابه، وضمّن خطابه.

ولعل هذا السؤال في صيغته التقريعية يرمز إلى أحد سببي أزمة القاعدة الفقهية إنهما جمودها، وسوء تطبيقها، فاذا كان الدين الاسلامي دين خلق وابداع وتفتح يمنح الفرد حرية التفكير، وحق الابتكار، والتعبير، وتوقع التحولات، لمجابهة الواقع بما فيه من تحديات، فإن شمولية الشريعة الزمانية والمكانية، وعمومها سائر البشر في سائر الأحوال، يقتضيان أن تكون أحكامها كليات ومعاني معقولة تتجنب التفريع والتحديد، يتطلبان استجابة أحكامها للتطور.

لقد عرفت القاعدة الفقهية طور النضج يوم كان الفقهاء يتعمقون دراسة الأصول، ويهتمون بمقاصد الشريعة مادام مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في

المعاش والمعاد، يتقيدون بالثوابت، ويستنبطون أحكام النوازل بما يتوافق والأعراف، وما يقتضيه الاستحسان والمصالح المرسلة بل ان نجم الدين الطوفي في شرحه للحديث الثاني والثلاثين من الأحاديث الأربعين للامام النووي وهو قوله عليه السلام : «لا ضرر ولا ضرار»، اعتبر المصلحة هي مقصود الشارع ومن ثم فهي أقوى أدلته وأخصها، فإن خالفها النص أو الاجماع وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما لا بطريق الافتئات عليهما والتعطيل لهما الا في العبادات والمقدرات.

لقد عرفت القاعدة الفقهية اشعاعها الحضاري يوم كان القضاة مندمجين في الرسالة، يفضلون العدل على الظلم، يعتبرون عند البت التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي طرأ منذ دخول القاعدة حيز التطبيق، مدركين للمقاصد ؛ فهل استطاعت القاعدة الفقهية أن تبقى قدوة نموذجية في حركيتها وحسن تطبيقها، تسد الثغرات التي تترى هنا وهناك نتيجة التعقيد الحضاري، والتقدم التكنلوجي أم دب إلى كيانها الهرم والشيخوخة فتخلفت عن الركب ؟

واعتبر عبد الرزاق أحمد السنهوري أن احياء الفقه الاسلامي يكمن في تقنين أحكامه في نصوص تشريعية، على نسق التقنينات الغربية، ووضع قانون مدني منبثق من الشريعة الاسلامية بعد مرحلتي النقل والتلاقي، فحيث يحتاج الفقه الاسلامي إلى التطور يتطور، وحيث يستطيع أن يجاري مدنية العصر يبقى على حاله دون تغيير، وهو في الحالتين فقه اسلامي خالص.

وذهبت طائفة من الباحثين المعاصرين إلى أن الضرورة تقتضي جعل الفقه الاسلامي مسايرا للعصر بالخلق والتأويل وفقا لما تقتضيه الحاجة، فالخلق لمواجهة الأوضاع الجديدة، والتأويل باستخلاص المبادىء الأساسية للاسلام وجعلها ملائمة للحقائق والمؤثرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحالية للشعوب الاسلامية معتبرين في تفسير القرآن الكريم طريقته التدريجية، وتقديم فلسفته وروحه على حرفية النص دون اغفال للظروف التي نزل فيها.

وكثر الحديث عن الاجتهاد وشروطه، والجهة المؤهلة للقيام به، كما كثر الحديث عن التقنين، والتوحيد، فظهرت محاولات هنا وهناك، ومع ذلك فنحن لا نجانب الصواب اذا أكدنا أن القاعدة الفقهية تعيش أزمة التقوقع والانحسار، وأخشى ما أخشاه أن تتسرب عوارضها إلى القضاء فيتحلل من رسالته، فهي اذن في حاجة ماسة إلى دراسة معمقة للتعرف على نشأة الفقه الاسلامي وأطواره، والكشف عن مصادره وأصوله، ومقارنته مع مختلف المدارس الفقهية المعاصرة لتحقيق المثاقفة والتأثير والتأثر،

وهي في حاجة ماسة إلى فقهاء يواجهون القضايا المستجدة ضمن الشرعية والشجاعة والواقعية، يتوفرون على ملكة فقهية تساعد الممارسين على التأويل السليم ؛ وبذلك تبقى الشريعة ــ كما اراد الله لها أن تكون ــ عدلا كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، فكل مسألة خرجت عن ذلك فليست من الشريعة وان دخلت فيها بالتأويل.

لقد كان بودنا أن نقارن القاعدة القانونية بالفقهية في هذا المجال، ولكن الوقت لا يتسع لذلك. بيد أننا نستطيع التأكيد بأن هناك تطابقا وتشابها كادا أن يكونا كاملين بين القاعدتين في هذه الاشكالية، اذ أزمة القاعدة القانونية تكمن في جمودها، أو كثرة نسخها، وسوء تطبيقها. وهذا ما يجعل مفهوم أزمة القانون مركز التراضي والتوافق بين أقطابه.

أتوجه في خاتمة المطاف بالشكر الخاص والخالص إلى صديقي المحترم السيد أمين السر الدائم على كلماته الطيبة، فهو حكيم أصيل، يخدم الفكر بوقار واتزان، يعمل في صمت، وبجدية متناهية، لصالح الرسالة، وأجدد تقديري لهده النخبة الخيرة، وشكري لها على حسن الظن وأطمح في أن تمتعني بكل ظروف التخفيف، اذ سأحاول المساهمة ضمن امكاناتي المتواضعة، وسأبقى دائما على الدرب تقديسا للفكر ونشرا وانتصارا للعدل والفقه والقانون.

خطـــاب العضو المقيم الجديد
السيد ادريس العلوي العبدلاوي

إن من جميل مأثرات الدولة العلوية الشريفة، وكريم مفاخرها، ما دأب عليه جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، ودأب عليه أجداده من بذل محمود العناية بالثقافة والعلم، وما سار عليه من نهج رشيد في اذكاء شعلة الفكر، واغناء رصيده. وما أولاه حفظه الله من موصول الحدب والرعاية لأهل العلم واعلام المعرفة، شحذا لهممهم على الاسهام في اغناء الثقافة بالجيد المفيد من الاعمال، واستندادا لمواهبهم وقرائحهم كي لا تني عن موصول العطاء في هذا المضمار. وقد توج حفظه الله كل ذلك بإنشاء أكاديمية المملكة المغربية، هذه المعلمة الحضارية من معلمات عصره الزاهر، التي تلتقي فيها ميادين المعرفة وأسرار العلوم، لتأصيل القيم المعنوية والخلقية للانسان، بتمجيد الفكر وتعزيز المعرفة.

إنه لشرف عظيم أن أنتظم في سلك هذه المعلمة الخالدة، وأن أتبوأ مقعداً من مقاعدها. وان هذه المبرة والتكريم، والمتبوأ الكريم ليستدعي مني الشكر الجزيل، والثناء الجميل، على الالتفاتة المولوية السامية من مولاي أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، ملك العلماء وعالم الملوك، ومنشىء معاقل العلم والعرفان، لما حباني به من تشريف وتكريم بهذا المقام، واضافتي الى هذه الصفوة المختارة من رجال الثقافة والفكر.

وانه لمن لطيف الموافقات، وجليل المصادفات، أن تكون هيبة المقعد المعين فيه، تضاف إلى شرف التعيين من أمير المؤمنين نصره الله وأيده. وما ذلك إلا أنه مقعد كريم، لعالم جليل، وهب نفسه للعلم والمعرفة، وناضل من أجلهما، انه العلامة المرحوم سيدي عبد الله كنون. الذي شب على حب العلم منذ نعومة أظفاره، وترعرع بين أحضانه، مترددا بين أفنانه وأزهاره، مقتطفا بعد ذلك يانع ثماره، فقد عرفته أندية العلم في كل مكان، وطار صيته عبر أقطار العروبة والاسلام. وعرفه بلده ودثاره، بدروسه ومحاضراته وكتاباته وتوجيهاته، ووطنيته وسلوكه وأخلاقه العطرة، وشمائله الطيبة، مما جعله يكون رمزا للعلم والعلماء. وما تركه فقيد المعلمة العرفانية من تراث خالد، يجعل

منه شخصا حاضرا في الأذهان، ماثلا أمام العيان، على مر الزمان. فقد ضرب في كل ميدان للمعرفة بنصيب، وهو بحق العالم المشارك الأديب، والشاعر الملهم الأريب، والفقيه واللغوي والمؤرخ والخطيب المفوه، والأستاذ الضليع، ومن شيم الأحرار، وخصال الكرام، الاعتراف بالجميل، بذكر هذا الجهبذ الجليل، بما هو أهله، والمقام لا يسمح بالإطالة والإطناب، وان كان الفقيد يستحقهما أيما استحقاق رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

لقد جاءت أغلب التقنيات الوضعية في البلاد العربية، مزاجا متآلفا يجمع بين قواعد نقلت عن الشريعة الاسلامية، وقواعد نقلت عن التقنيات الغربية، فاندمجت جميعا في ضرب من الوحدة، يكاد يخفي معه ازدواج المصادر وتباينها، وهي بتكوينها هذا تحكم التنسيق بين هذين المصدرين، فيتسع لمواجهة أوضاع الحضارة الحديثة ويستحث الجهود لدراسة الفقه الاسلامي دراسة مقارنة ترده إلى ربيع حياته، وتمكنه من مسايرة هذه الأوضاع. ومتى تم احياء الفقه الاسلامي على هذا النحو، عبد السبيل للتقنينات الوضعية العربية، ليكون خليقا بأن تؤسس عليه وحده تقنينات من أحدث طراز، تجاري مدنية العصر وتساير أحدث القوانين وأكثرها تقدما ورقيا.

إن الناظر للتّرات الفقهي الاسلامي، الناطق بالعظمة والخلود، ليقف مشدوهاً وهو يقدر قيمة ما تركه الأجداد للأحفاد. ويزداد عبء هذا التقدير في عصرنا الحاضر الذي أصبحنا نطل فيه على ذلك التراث الزاهر من جميع أطرافه، وقد اتسعت آثاره، وترامت نواحيه، وهو يزخر بعلوم شتى. وقد حاول البعض من الدارسين، والمهتمين بهذا التراث الخالد، أن تتعلق همته بمحاولة اخراجه إلى الوجود بوسائل التحقيق والتوثيق المختلفة، وهي ناحية لا ينكر فضلها، ولما لها من مراعاة الحفظ والصيانة، ولكن ذلك لا يكفي في خدمة هذا التراث واستغلاله وتقريبه من الأذهان والواقع المعاش، ليكون مرآة للبيئة الاجتماعية المطبق فيها، مالم يعزز بجانب الدراسة والتمحيص والتقويم والمقارنة بالأوضاع الحالية، وما شاع من الدراسات القانونية المتعددة الجوانب في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية. واننا حين نذكر هذا النوع من الدراسة المبنية على المقارنة والمقابلة، فلسنا نحط من قدر فقهنا الاسلامي الذي سادت أحكامه، وامتدت، شجرته الوارفة الظلال على جميع الأوطان الإسلامية، فالشريعة الاسلامية بحكم محاسن أحكامه، وتعدد مصادرها، هي ملائمة لكل عصر وأوان، مهما امتدت الدنيا وتجدد تقدمها ورقيها، وهي شريعة بعيدة عن التقصير والقصور ومحفوظة عن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها على مر الأزمان والعصور.

إن هناك ثروة قانونية لا تنكر قد عمت البلدان الاسلامية، وهذه الثروة تحتاج

إلى تأصيل وتحليل، ومقارنة، ومقارعة الدليل بالدليل، وليست كلها دون فائدة. وانما تنظر على ضوء فقهنا الاسلامي، ذلك الفقه الذي لا ينضب معينه، ولا تنفد حججه وبراهينه. والدراسات المقارنة ليست غريبة عن فقهنا الاسلامي، اذ برجوعنا اليه نجد أن الفقهاء المسلمين اهتموا بعلم خاص سموه «بالخلاف العالي» ومضمن هذا العلم، هو التعرف على الدلائل الأصلية للمسائل الفقهية، وما بني عليه كل قول فقهي منها، فتارة تربط الفروع بالأصول، وتارة أخرى تربط الأصول بالفروع في صعيد واحد، لتظهر بوادر الحجة والبرهان، وتتفتح العقول والأذهان. فوسط هذا الميدان من الدراسة المتعمقة يحاول الدارس أن يستجلي حقائق الفقه الاسلامي، مستفيدا من منهجية الدراسات القانونية الحديثة، وخاصة الناحية الشكلية تنسيقا وتبويبا. ثم عرض نصوص ومواد القانون الوضعي على حقائق وأحكام هذا الفقه أيضا، كمحاولة من أجل الاستنتاج، ومعرفة مدى التطابق والتوافق أو التخالف والتباين.

لقد راعت التقنينات الوضعية العربية الاحتفاظ بقدر كبير من القوانين المعمول بها في حينها، وذلك منعا للطفرة ومضارها، ورغبة في الافادة من استقرار تلك القوانين بها، بعد أن صقلها العمل وأوضح الاجتهاد غامضها وأكمل نقصها. وكل منها توخت بدرجات متفاوتة وَصْلَ حاضرها بماضيها، وتوثيق الصلة بينه وبين تراثها القانوني العظيم، متمثلا في الفقه الاسلامي الذي ظل هو القانون العام لهذه التقنينات قرونا طويلة في جميع تلك البلاد، حتى وَضْعِ التقنينات الحديثة بها، بل ما يزال هو القانون العام في بعضها. وكل منها استهدفت استيعاب تيارات التشريع العالمية والأخذ بأسباب تطويرها، تقريبا للشقة بين أحكامها، وأحكام تقنينات البلاد العصرية المتقدمة، وتيسيرا للتعامل والتبادل مع أهل تلك البلاد، بعد أن أصبح العالم كله يكاد أن يُكَوِّن وحدةً متكاملة لا يستغني بعضها عن بعض.

لقد فرض الرجوع إلى الفقه الاسلامي عند وضع التقنينات الحديثة في أكثر البلاد العربية، أولا وقبل كل شيء، أنه كان يمثل القانون القائم في تلك البلاد وقت اعداد تلك التقنينات، فوق أنه يعتبر في هذه البلاد من الحقائق التاريخية والحقائق المثالية التي برهن العلامة «جيني» على أنها تدخل ضمن الحقائق العلمية التي تتكون منها مادة القانون في كل مجتمع، والتي لا يمكن بالتالي اغفالها عند صياغة قانون بلدٍ أو تقنينه. ذلك أن الفقه الاسلامي ارتبط بتاريخ الحضارة العربية أومدها بالأسس القانونية التي ساعدت على ازدهارها وانتشارها بضعة قرون في ربوع أوروبا وحتى أقاصي آسيا، وظل هو القانون العام في البلاد العربية إلى وقت قريب جدا، بل لا يزال كذلك في بعضها حتى الآن، فضلا عن أنه ينبثق من مثل عليا تقوم على أساس الدين الاسلامي، يضاف

إلى ذلك أن هذا الفقه بلغ بفضل اجتهاد أعلامه المجتهدين شأوا عظيما من الأصالة والدقة ومن أحكام النظم، وحوى أعداداً لا تحصى من حلول المسائل، مما جعل فقهاء الغرب يعترفون له في مؤتمراتهم الدولية بمكانة سامية بين النظم القانونية في العالم، وبأنه يعد في طليعة المصادر الصالحة لسد حاجات التشريع الحديث.

وهكذا فقد سجل مؤتمر القانون المقارن المنعقد بمدينة لاهاي سنة 1937 قراره التاريخي الهام القاضي باعتبار الشريعة الاسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام، وانها حية قابلة للتطور، وانها شرع قائم بذاته، ليس مأخوذا من غيره. لقد كان مبعث الاهتمام بهذا النوع من الدراسات المقارنة، الدافع الباعث على انشغالي كمهتم بالدراسات الفقهية والقانونية بتعميق البحث في هذا الفقه الذي يزخر بروائع الكنوز القانونية مع المقارنة بالقانون الوضعي قصد ابراز ما يتميز به هذا الفقه من واقعية، وحلول صائبة، ومن جزئيات تستدعي الوقوف عندها والنظر اليها بعين الاعتبار، وجمع تلك الجواهر الثمينة التي ترد متناثرة الحلقات وسبكها وتقريبها الى أذهان المشتغلين بالقانون، واستخراج أحكامها وشرح مصطلحاتها بروح العصر وهذا ماحاولت تضمينه فيما نشرت من كتب وأبحاث، كما كان هذا الاهتمام هو الدافع إلى اصداري «المجلة المغربية للقانون المقارن» لما كنت عميدا «لكلية الحقوق»، ولمجلة «القرويين»، بمجرد تشرفي برئاسة جامعة القرويين العريقة الأصيلة، وادخال تعديل في الشكل والجوهر على مجلة «الجامعة الاسلامية» التي أديرها والتي تصدر عن رابطة الجامعات الاسلامية لتستجيب لهذا النوع من الدراسات، كما جاء تشريفي بتمثيل بلدي لدى لجنة توحيد التشريعات بجامعة الدول العربية محققا لرغبتي الملحة في الدراسة المقارنة.

إن أسس الفقه الاسلامي تامة بنفسها، محكمة بالتنظيم في نسجها، لا تحتاج إلى تكميل لأنها من الدين، والدين وحي من الله أوحاه الى رسوله، وما فارق الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الدنيا حتى ترك الشريعة، واضحة المناهج، عذبة الموارد، كاملة متيسرة المسائل، سهلة المقاصد، كفيلة بمصالح الدين والدنيا، مؤسسة أصولها على قواعد محكمة ومثل عليا.

وتقنين أحكام الفقه الاسلامي هو الوسيلة الحديثة الآن لتطبيقه حتى يتجدد شباب هذا الفقه، وتدِبّ فيه عوامل التطور المباشر، مسايرا لروح العصر، لينبت قانونا متطورا يجاري المدنية الحديثة ومتطلبات الحياة الجديدة، وينبثق هذا القانون الحديث من الشريعة الاسلامية كما انبثقت الشرائع اللاتينية والشرائع الجرمانية من الفقه الروماني.

إن تقنين أحكام الفقه الاسلامي يتطلب اتمام دراسته بمذاهبه المختلفة دراسة

مقارنة، تستخلص منها وجوه النظر المختلفة واتجاهاته العامة وطرق صياغته وأساليب منطقه، كما يتطلب صياغة هذه الاحكام في صورة قواعد عامة ومجردة وجمعها في ديوان جامع بعد التنقيح والترتيب، واختيار حسن التبويب، وأحدث الأساليب، وحذف مالا يحتاج إليه من الأقوال والخلافات والاقتصار على الراجح والمشهور أو ما به العمل.

وإذا كان للفقهاء السابقين مصنفات تتضمن قواعد أشبه بالقواعد القانونية منها المتون والمختصرات. فلا يوجد أي مانع يحول دون تقنين هذه الأحكام وجمعها، فهذا التقنين يقاس على اجماع الصحابة على جمع القرآن في مصحف بعد أن كان مجموعا في الصدور، كما يقاس على تدوين السنة الذي مكن من الوقوف على صحيحها وسقيمها، وتمييز قويها من ضعيفها. كما يقاس على تدوين الفقه، وليس التقنين الا صورة من صور تدوين الفقه، فهو كما يكون في صورة مختصرات أو شرح أو نظم، يمكن أن يتخذ شكل مواد متسلسلة في قواعد مرتبة حسب الأبواب والفصول مع المقارنة بما يقابلها من أحكام في القوانين الوضعية.

«لقد اكتشف الغرب المسيحي ــ يقول جلالة الملك في رسالته السامية لندوة **الإمام مالك في 25 أبريل 1980 ــ بعد ألف عام من وفاة الإمام مالك،** مالمذهبه الكامل من قوة وثراء، ودقة في تنظيم أحوال المجتمع البشري ابدع نظام، فاستعاروا منه الشيء الكثير، وخرجوا به على العالم، وكأنه من صنع أيديهم وعبقرية مفكريهم».

إن الشريعة الاسلامية تعتمد قبل كل شيء على وجدان الانسان لا على قوات السلطان، وغايتها هي مصلحة الانسان كخليقة في المجتمع الذي هو منه. وكمسؤول أمام الله الذي استخلفه على اقامة العدل والانصاف. واذا كان القانون الوضعي يهتم بالمساواة فإن الشريعة الاسلامية تهتم بتحقيق العدالة، فالمساواة تعني فقط تطبيق القانون القائم على الجميع، كيفما كان القانون، بينما الشريعة الاسلامية تقصد الى تحقيق العدالة ولا تعترف بأي قانون مناف لمقاصدها، كما أنها كلفت الانسان أن يكون هو نفسه الحارس على ضمان العدالة، ولأجل ذلك الزمته بأن ينصف غيره من نفسه ولو كان القانون أو القضاء بجانبه مفرقة في ذلك بين الحقيقة القضائية والحقيقة الواقعية.

لقد أتمت أكاديمية المملكة المغربية عقدها الأول من عمرها المديد بإذن الله، وقد قامت خلال هذه الفترة بإرساء الركائز الأولية لتحقيق المبادىء التي رسمها لها راعيها ومؤسسها الأمين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، كما قامت برسم المعالم الرئيسية لمسيرة حضارية تاريخية للاسهام في تألق الفكر وازدهار العرفان، ذلك أن رابطة المعارف وشيجة لا تنفصل، وصلة رحم لا تنقطع، وشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء لا تعرف الحدود ولا القيود.

لكم ينير لنا القانون الطريق في ركب الحياة، وكم يُرِينَا من أساليب الفكر والنظام، ومن صورة التلاقي بين الناس تناسقا وغير ذلك، ماقد يهدينا إلى التدبر في القانون الأكبر، وما عسى أن يكون قانون الوجود الأزلي الذي أبدعه الله.

شكرا لسيدي ومولاي صاحب الجلالة على ما أولاني من عطف ورعاية وتكريم وشرف لأنتظم في هذا العقد المليىء بالجواهر المضيئة بأنوار المعرفة.

وشكرا للسيد أمين السر الدائم الذي تفضل مشكورا بتقديمي إلى هذا المجمع الموقر.

أسأل الله تعالى أن يجعلني جديرا بالمشاركة في عضوية هذه الأكاديمية، وان يعينني على المساهمة في تحقيق بعض أهدافها النبيلة السامية.

انه سميع الدعاء محقق الرجاء.

تقارير أعمال ومشاريع لجان أكاديمية المملكة المغربية لسنة 1991

تقرير لجنة التراث

قدمه العضو السيد عباس الجراري رئيس اللجنة نائبا عن مقررها العضو السيد محمد بنشريفة

سوف لا يكون التقرير الذي أتشرف بتقديمه، كاملا ومستوفيا لمختلف النقط التي ينبغي إثارتها في نطاق أعمال لجنة التراث، لأني إنما أنوب فيه عن مقررها الزميل الكريم الأستاذ محمد بن شريفة الذي يشعر بتوعك أدعو الله له منه الشفاء العاجل.

وسوف لا يكون هذا التقرير فرصة للتوسع في عرض كل عمل قامت به اللجنة أو تنوي أن تقوم به، لما في ذلك من إطالة، وإن كنت أرى ضرورة إطلاع جميع أعضاء الأكاديمية على مايقدم في اللجان، لا سيما حين يتعلق الأمر بمقالات مكتوبة.

والقصد عندي من هذا العرض هو اطلاع غير أعضاء اللجنة على ما أنجزته وتنجزه هذه اللجنة، وكذا أخذ رأيهم في بعض المقترحات التي لم يبث فيها بعد.

أود في البدء أن أذكر بالأعمال التي تم طبعها ونشرها وكذا توزيعها عليكم، وهي :

1) «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي (السفر الثامن جزآن) وتحقيق عضو اللجنة الزميل الأستاذ محمد بن شريفة.

2) «الماء وما ورد في شربه من الآداب» لمحمد شكري الألوسي وتحقيق عضو الاكاديمية المشارك الأستاذ محمد بهجة الأثري.

3) «معلمة الملحون» في جزئيها الثالث والأول بقسميه لعضو اللجنة الأستاذ محمد الفاسي.

4) «ديوان ابن فركون» بتقديم الأستاذ بن شريفة وتعليقه

5) القسم الأول من «عمدة الطبيب في معرفة النبات» لابي الخير الإشبيلي وتحقيق الزميل الأستاذ محمد العربي الخطابي.

ثم إن هناك أعمالا أخرى توجد قيد الطبع، وهي :

1) «التيسير» لابن زهر وتحقيق الأستاذ محمد بن عبد الله الروداني وهو في الطريق إليكم إذ قطع آخر مراحل الإنجاز.

2) القسم الثاني من «عمدة الطبيب»

3) الجزء الثاني من «معلمة الملحون»

وفي نطاق نشر كتب التراث أشير إلى أعمال هي قيد الانجاز، وستدفع للطبع بمجرد انتهاء العمل فيها، وهي :

1) «ديوان البسطي» من تحقيق الاستاذ ابن شريفة.

2) «كناش الحايك»، وتذكرون أنه عهد به إلى أحد المعتنين بالموسيقى الأندلسية هو السيد عبد المالك بنونة، وقد أخبر الأكاديمية بأنه على وشك إتمامه.

3) رحلة ابن بطوطة، وسينهض بتحقيقها ــ كما أخبرتم بذلك ــ العضو الزميل الأستاذ عبد الهادي التازي.

هذا، وليس يخفى عليكم أن اللجنة بصدد إنجاز بعض المشروعات العلمية التي أذكر منها :

1) المعجم التاريخي الجغرافي للمدن المغربية :

وكانت قد تكونت له لجينة ينسق أعمالها العضو الزميل الاستاذ عبد الوهاب بن منصور. وكانت لجنة التراث قد ناقشت قضية المنهج الذي ينبغي اتباعه في هذا المعجم وكذا الصعوبات الحالية التي تعتري إنجازه، وقررت البدء بإخراج كشاف للاعلام يقوم به الأستاذ عبد الوهاب الذي قدم نماذج منه وافقت عليها اللجنة على أن يكون هذا الكشاف منطلقا للمعجم.

2) معلمة الخط المغربي : وتشكلت لها لجينة ينسق أعمالها العضو الزميل الأستاذ محمد بن شريفة، وهي معنية الآن :

أ – جمع الوثائق،

ب – تصوير نماذج من المخطوطات،

ج – الاتصال بالهيآت المهمة والباحثين المعتنين.

3) معلمة الأعراف والعادات :

وكلفت بها لجينة ينسق أعمالها العضو الزميل الأستاذ عبد الهادي التازي، وهي بصدد :

أ – تهيىء بيبليوغرافيا،

ب – تدوين بعض العادات،

إلى جانب هذه الأعمال، طرحت اللجنة مجموعة من المقترحات لم يحسم فيها بعد، يسعدني أن أعرض عليكم أهمها :

1) مشروع كتابة تاريخ المغرب : ستقدم عنه ورقة عمل.

2) إعادة طبع بعض الكتب التي صدرت في المطبعة الحجرية بفاس والتي يمكن عدها من قبيل المخطوطات، وإن لم يتم تحديدها بعد.

3) تحقيق كتاب «الانتصار» للباقلاني، وكان قد اقترح نشره زميلنا المرحوم محمد ابراهيم الكتاني

4) تحقيق كتاب «السماء والعالم» في اللغة لمحمد بن ابان بن سيد اللخمي الأندلسي.

5) تحقيق كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي.

6) «الفوائد الجمة» للتمنارتي وكان اقترح تحقيقه الفقيه السيد محمد بن عبد الله الروداني. ولعل اللجنة ستتخلى عنه، نظرا لنهوض جهة أخرى بنشره.

7) «منهاج الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ» لأبي العباس العزفي.

8) كتاب «القبس» في شرح موطأ مالك لأبي بكر ابن العربي المعافري.

9) «الانجاد في أبواب الجهاد» لأبي عبد الله بن رشد المناصف.

10) الثلث الثالث من كتاب «المقدمات» لابن رشد الجد.

11) كتاب «البيان والتحصيل» لابن رشد كذلك.

12) كتاب «الاحكام» لعبد الحق الإشبيلي

13) كتاب «بيان الوهم والايهام» وارد في كتاب «الاحكام» لابن القطان

14) فهرست السراج لأبي زكرياء يحيى بن أحمد النفزي الفاسي.

هذه نظرة عما قامت به لجنة التراث، وهي أعمال ــ سترون لاشك ــ كثيرة وكبيرة كذلك، إلا أني سأغتنم مناسبة إلقاء هذا التقرير للفت النظر إلى بعض الملاحظات التي تتعلق باللجان كافة، وكنت قد طرحت بعضها في السابق :

1) أن سير اللجان يتعثر ويتحرك ببطء شديد، والسبب في ذلك راجع إلى عدم التزام بعض الأعضاء بالحضور والمواظبة عليه.

ومما يجعل مثل هذا التغيب مؤثرا على السير كون عدد الأعضاء في كل لجنة قليلا.

2) أن هذه الظاهرة أفضت إلى عدم انعقاد لجنة التراث مرتين أو ثلاث مرات متتابعة، مما أدى إلى عدم إمكان انتخاب مكتبها في الوقت المناسب كما كان مقررا.

3) لهذا أود أن أقترح إدماج بعض اللجان، كالتراث والقيم أو اللغة والتربية. وإن لم يكن ممكنا ذلك يفكر في اغناء هذه اللجنة أو تلك بالتحاق أعضاء جدد بها.

4) وحتى يكون العمل في نطاق اللجان مقصورا على طرح المشروعات والافكار ومناقشتها مما يستغرق في بعض الاحيان عدة اجتماعات، أود أن أبدي رأيا يهدف إلى تحويل اللجان إلى لجان عمل تنكب على إنجاز عمل بعينه في وقت محدد، كانكباب أعضاء لجنة التراث أو بعضهم على تحقيق كتاب أو تأليف، أو القيام في نطاق لجنة اللغة بترجمة كتاب يتفق عليه، أو ما إلى ذلك، مما يحصر أعمال اللجان ويجعلها أكثر جدية وفاعلية.

مشروع كتابة تاريخ المغرب

عباس الجراري

يدور هذا العرض حول كتابة تاريخ المغرب. وهو موضوع قديم جديد. فما إخال المؤرخين المغاربة ــ على امتداد الحقب والازمان ــ إلا مهمومين بهذه الكتابة، واضعين الأسئلة حولها، أي حول ماينبغي أن يدون وما لاينبغي، وكذا حول الكيفية التي يمكن أن يتم بها هذا التدوين. ولست أشك في أن بعض الحقائق التي نفتقدها اليوم في التاريخ معزو عدم وجودها إلى تغييب مقصود، وإن كانت حقائق أخرى قد ضاعت نتيجة عوامل شتى جعلت مسجلي الوقائع والأحداث يغفلونها، لعل من بينها اعتبارهم لها غير ذات جدوى أو أهمية.

ونظرا لما للتاريخ من أثر في تكوين الوعي بالذات وإذكاء جذوة الشعور الوطني، فقد كانت العناية به تشغل المغاربة في عهد الحماية، مما نتج عنه في أوائل الاربعين إنشاء لجنة ملكية للتأليف برعاية المغفور له محمد الخامس، كان من بين أهدافها تهييء كتب في تاريخ المغرب يسهل تداولها في حلقات القرويين وما إليها من معاهد ومدارس يومئذ. وقد تسنى لبعض الجهود أن تثمر في هذا المجال، وإن كانت دون ما كان يتوقف الطموح إليه.

والموضوع مازال يطرح نفسه وبإلحاح وأذكر ــ وتذكرون كذلك ــ أن أجهزة التعليم والثقافة في بلادنا سعت منذ السنوات الأولى للاستقلال إلى تناوله وتكوين لجان بقصد تحقيقه، ولكن عبثا ذهبت كل هذه المحاولات. ولولا جهود فردية حميدة بذلها ويبذلها باحثون مخلصون لضاع التاريخ في انتظار ماستقدمه تلك اللجان، أو بالأحرى لضاعت، على الأجيال الحاضرة فرصة قول كلمتها في هذا التاريخ وإبداء رأيها فيه.

وسط هذا التعثر والاضطراب، كان لابد لمؤسسة علمية مسؤولة ــ كأكاديمية المملكة المغربية ــ أن تجدد النظر في هذا الموضوع وتعيد عرضه. وجاءت الدعوة إليه

من أمين سرها الدائم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف بربيش الذي أثار إمكان اعتناء الاكاديمية بكتابة تاريخ المغرب، وذلكم في جلسة حضرها للجنة الثرات يوم الاربعاء 28 صفر 1411 هـ الموافق 29 شتنبر 1990.

وبعد تداول اللجنة في هذا الأمر، كلف رئيسها بتحضير مشروع تشرفت بتحريره وتقديمه وتبادل الرأي فيه مع أعضائها. ولأهمية الموضوع، فقد تم الاتفاق على بسط هذا المشروع أمام حضراتكم في جلسة عادية تخصص لفحصه واتخاذ قرار بشأنه.

يتمحور هذا المشروع حول نقط مركزية ثلاثة هي :

1) لماذا كتابة تاريخ المغرب ؟

2) إشكالية هذه الكتابة.

3) كيفية إنجازها.

وبإيجاز شديد سأعرض هذه المحاور على نظركم الكريم من خلال أبرز القضايا التي تثار حولها أو يمكن أن تثار :

أولا : لماذا كتابة تاريخ المغرب ؟

من غير أن نكون متحيزين أو معجبين بالذات، يمكننا في شيء من الانصاف أن نقول إن للمغرب تاريخا حافلا تجليه مختلف حقبه وعصوره. ويمكننا القول كذلك بأن هذا التاريخ معروف في كثير من جوانبه وملامحه، وهي معرفة تظهر فيما كتبه المغاربة عن وقائع الدولة وتراجم الأعلام والرحلات والفهارس وما إليها، وكذا تظهر فيما دونه المؤرخون والكتاب العرب المشارقة، كما تظهر فيما ينجره الباحثون المعاصرون، وفيهم أساتذة يقدمون في رحاب الجامعة رسائل وأطروحات تنصب على دراسة جوانب مجهولة أو غامضة من تاريخنا. ثم إن تلك المعرفة تظهر فيما كتبه الأجانب لا سيما عن فترة ماقبل الاسلام، وعن المرحلة الحديثة وما كان للمغرب في علاقاته مع أوروبا، دون إهمال ما حرروه متصلا ببعض الدول المتعاقبة.

إلا أننا نلاحظ أن بهذا التاريخ ثغرات تستوقف المتتبع لمسيرته، قارئا كان أو دارسا، منها مايمس بعض الفترات كالتي سبقت ظهور المرابطين، أو كالتي تكون عند الانتقال من دولة إلى أخرى، ومنها ما يتصل بجوانبه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. والسبب أن في التاريخ حقائق لم يلتفت إليها، أو وقع الالتفات إليها إلا أنها بقيت مهمشة، كأحوال المجتمع عامة، وعوامل الفتن والاضطرابات، والظروف الفاعلة في التخلف،

والخلفيات الكامنة خلف دخول الاستعمار. والسبب كذلك أن التعامل مع أحداث التاريخ ظل خارجيا إن لم أقل إنه بقي سطحيا، مما أدى إلى عدم العناية بالبنيات الداخلية والعلاقات فيما بينها سواء ما كان منها قائما على الانسجام أو ماكان مثيرا للصراع. وأستطيع القول بأن هذه الظاهرة أخذتنا ومازالت تأخذنا، وأعني بها كبير الاهتمام بالعلاقة مع الآخر، أي مع الأجنبي. وهو اهتمام غالبا ما يتم على حساب النظرة للداخل والتعامل معه.

ويتصل بهذه الثغرات ما يعد شوائب تمس معالم من تاريخنا، نتيجة الجهل أو القصد إلى التحريف والتزوير والتشويه، وهو ما يبدو عند بعض الأجانب، والمتأثرين بهم وكذا المنقادين لاتجاهات مغرضة هدامة.

في هذا السياق الحافل حينا المتعثر حينا آخر، يبقى تاريخ المغرب ــ بحكم تلاحق الأحداث وتطور المجتمع ــ في حركة دائبة تحثه على التجدد والاستمرار.

لهذا كله، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت وتبذل في تدوين تاريخ المغرب، فإنه مازال بحاجة إلى كتابة جديدة يقوم بها أبناءه، بعد أن وجد منهم باحثون جامعيون متمرسون بعملية البحث العلمي دلت أعمالهم في التنقيب والدراسة على وجود فكر تاريخي ناضج في المغرب، وبعد أن توافرت وثائق ونصوص لم تكن معروفة من قبل، وأخذت تتضح كثير من المعالم في مسيرة الأحداث، سواء فيما يتعلق بالمغرب أو غيره.

ثانيا : إشكالية هذه الكتابة :

وتتحكم فيها قضيتان :

المصـــادر :

إن الباحث المعاصر في التاريخ ــ وحتى في غيره مما يتصل بالمغرب ــ يجد نفسه أمام أنواع من المواد، منها المادة المصدرية التي سبقت عهد الحماية، ويغلب عليها تتبع الأحداث والتعريف بالأعلام. وعلى الرغم من غزارة هذه المادة، فإنه لم يقع الاهتمام فيها ــ إلا نادرا ــ بالتقارير الاستعلامية الأجنبية وبالوثائق الدبلوماسية الحربية والمعاهدات التجارية، وما إليها من حوالات حبسية وغيرها من مستندات قد تعتبر هامشية أو ثانوية. وتدخل في هذا الباب كتابات تبدو لأول وهلة بعيدة عن التاريخ، ولكنها تلقي أضواء كاشفة على مكونات المجتمع ومشكلاته وقضاياه، وفي طليعتها كتب الفتاوي والنوازل الفقهية.

وحين يصل الباحث إلى المادة المصدرية التي جمعت في عهد الحماية يجدها موزعة بين تأثيرين اثنين : الروح الوطنية النضالية من جهة، والتوجهات الاستعمارية من جهة أخرى. وقد اعتمدت هذه الأخيرة على ما هو مضطرب وقلق ومشوه في المصادر العربية، إذ كان لها منظور خاص للتاريخ، وكذا للواقع ولآفاق المستقبل، زاد في حدته أنها اطلعت على خبايا لم يتح للوطنيين أن يتعرفوا إليها، واختارت منها ما ينسجم مع هذا المنظور.

ولعلنا أن نقر بأن هذه الخبايا أو الكثير منها مازال دفين تقارير الإدارة الاستعمارية، وخاصة تلك التي كان يحررها المراقبون المدنيون ورؤساء النواحي، والتي هي أكثر من غيرها كشفا للواقع، لاسيما فيما يتعلق بالبوادي والجبال، وهي مناطق غالبا ما وقع تهميشها في التأريخ للمغرب.

وإذا كان المتأمل في الاتجاهين : الوطني والاستعماري يجد أن كلا منهما يرفض الآخر أو على الأقل هو يشكك فيه وفي مصداقيته، فإن الانصاف للتاريخ يقتضي قراءة تكاملية تهتدي إلى كيفية التوفيق بينهما. والتوفيق لا يعني القبول، ولكن يعني الاستفادة حتى مما هو سلبي أو منكر.

وإذا كان مطلوبا من الكتابة الجديدة أن تستند إلى الجهود السابقة — على تضاربها — فإنها مدعوة بصفة خاصة إلى أن تستفيد من تحليلاتها واستنتاجاتها، وكذا من الأشياء التي طرحتها دون أو توضحها أو تجيب عن أسئلتها، ومدعوة كذلك إلى التعامل مع التاريخ بنظر جديد يساعد على كشف الحقائق، خصوصا تلك التي لم نلتفت إليها بدافع الحماس الوطني والديني الذي لا خلاف في أنه كان أحد العوامل الفاعلة في صنع هذا التاريخ، ولكن الأجانب نظروا إليها وأخذوا منها السلبيات، وهي سلبيات يمكن التعامل اليوم معها بإيجاب إذا ما أحسن إدماجها في التحليل، للوعي بها وتجنبها وحتى للاتعاظ بها والاعتبار.

المنهج :

إن الحديث عن نظر جديد يفضي إلى قضية المنهج، والبدء فيها يكون من تحديد الرؤيا والهدف. وإذا كان الهدف كامنا في تقديم التاريخ للأجيال بما يبرز حقائقه ويكشف الدور السياسي والحضاري والثقافي الذي نهض به المغرب ومازال، فإن الرؤيا ينبغي أن تكون وطنية موضوعية.

قد يبدو في الجمع بين الوطنية والموضوعية تناقض، ولكن الأمر على عكس ذلك، إذا نحن طرحنا الوطنية في سياق الواقع المغربي بجميع معطياته ومختلف مكوناته، بما فيها

من تنوع وتعدد، وعلى ما تشمل من ثوابت ومتغيرات، وفي نطاق العروبة والاسلام والتأثر بالشرق، مع مراعاة المحيط المتوسطي والافريقي، واعتبار علاقات المد والجزر مع الغرب. ثم إنه لا مجال لتصور التناقض إذا ما سيق للموضوعية مدلولها الحق الذي يربطها بالخضوع لمقاييس الفهم والتفسير ومعايير التحليل والاستنتاج وموازين النقد كذلك، والالتزام بجميع الضوابط التي لا مجال معها — على نسبيتها — للتحامل أو التشويه أو التحريف أو المس بالثوابت أو القصد إلى التميز باتخاذ بعض المواقف.

وإن مما يساعد على حفظ التوازن بين الوطنية والموضوعية ربط الكتابة التاريخية بالممارسة العلمية التي يعرفها البحث العلمي في بلادنا، والجامعي منه على الخصوص.

وإثارة الممارسة العلمية تؤدي إلى وضع المنهج في أطار يحدده مفهوم شمولي للتاريخ ومادة مصدرية له متسعة، ثم ربطه بمجال العلوم الانسانية عامة، ولا سيما الميادين الفكرية منها والاجتماعية.

إلا أن صعوبة كبرى تعترض هذه الكتابة الجديدة للتاريخ، بسبب طوال امتداده وغنى روافده. ويتعلق الأمر بمظهر العرض أي بالتبويب والتقسيم ويمكن التغلب عليها باختيار خطة معينة والتزامها، أو الجمع بين عناصر متكاملة من خطط مختلفة تكون خاضعة لأحد التقسيمات الآتية :

أ — حسب العصور الزمنية التي يراعى فيها اتباع القرون المتعاقبة من أول وثان وثالث وما بعدها، أو التي تخضع للتصور الغربي الذي يميز بين القديم والوسيط والحديث والمعاصر.

ب — على أساس الدول المتعاقبة من إدريسية ومرابطية وموحدية ومرينية وسعدية وعلوية.

ج — وفق التوجهات الكبرى كالتبعية بالنسبة للقرون الأولى، والوحدة في ظل المرابطين والموحدين، ثم استقلال الدول بعد.

د — انطلاقا من محاور التاريخ المختلفة : سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وأدبية وفنية.

هـ — بتتبع ظواهر في هذا التاريخ متميزة، كالتأثر بالدين، والعلاقة مع الآخر، والموقف من المعتدين، والعلاقة بين الفكر والسياسة، والأدب وواقع المجتمع، وما إلى ذلك.

ثالثا : كيفية انجازها :

إن تنفيذ مشروع لكتابة تاريخ المغرب يبدأ من تحديد حجم هذه الكتابة، ويمكن أن ننظر إليه في مستويين : أحدهما موسع — في أجزاء لا تتجاوز خمسة — يوجه للمثقفين والمتخصصين، ويكون مغنيا عن الرجوع إلى المصادر المطولة والمراجع الكبيرة، والثاني مبسط — في سفر واحد — يكون في متناول الناشئة المتعلقة وكافة المواطنين، ويعمم نشره ونقله إلى لغات أخرى لتقريب تاريخنا إلى الأجانب، مع الاستعانة في المستويين بالصور والرسوم والخرائط وجميع وسائل التوضيح اللازمة.

في نطاق هذا التحديد تسند الكتابة إلى لجنة من الباحثين المتخصصين المتمرسين بالبحث في مختلف المجالات التي سيشملها التاريخ، والمشهود لهم بالكفاية والغيرة الوطنية والموضوعية العلمية والنزاهة الفكرية.

وفي ضوء روح المشروع الذي سيكون منبثقا عن الأكاديمية، تلتئم هذه اللجنة ويتفق أعضاءها على المنهج وتقسيم العمل، ويلتزمون بتهييء ماهم مكلفون به، كل في الجانب الذي يدخل في مجال اهتماماته.

وانبثاق المشروع عن الاكاديمية لا يعني توجيهها العمل فيه أو إشرافها عليه، بقدر ما يعني تنسيقه وإتاحة امكاناته المادية خاصة.

وإذا ما تم ذلك، يوقت للانجاز بأجل سنتين للكتاب الموسع، وبسنة واحدة بعد ذلك للجزء المبسط الذي سيكون في الحقيقة مختصرا من الموسع وموجزا له. وعند اكتمال العمل في مرحلتيه، واتفاق اللجنة عليه، تتكفل الاكاديمية بطبعه ونشره، صادرا في جملته بأسماء أعضائها — أقصد أعضاء اللجنة —، أو منسوبا كل قسم منه إلى العضو الذي ألفه.

وحتى تتحقق الغاية المتوخاة من المشروع، يوسع نطاق التوزيع وييسر ثمن البيع، حتى يكون الكتابان في المتناول ولا سيما منهما المبسط.

هذه خطوط واسعة وعريضة أعرضها على أنظار أخوتكم لتكميلها وابداء الرأي فيها، أملا في الوصول إلى خطة نهائية لمشروع مهم كبير.

تقرير عن نشاط لجنة القيم الروحية والفكرية سنة 1990

قدمه العضو السيد عبد الكريم غلاب مقرر اللجنة

تلاحظ لجنة القيم الروحية ما لاحظته مختلف اللجان الأخرى، تناقص عدد العاملين فيها، وخاصة بعد وفاة المرحوم الأستاذ ابراهيم الكتاني وتغيب الأستاذ محمد الفاسي لمرضه.

وتعرض اللجنة على الجمع العام موضوع تعويض الأعضاء الذين انسحبوا من اللجنة والذين تغيبوا عنها لأسباب أخرى. تلح في ضرورة هذا التعويض نظرا لأهمية الموضوعات التي تدرسها وكلها من الموضوعات التي تتعلق بهدف مهم من أهداف الأكاديمية. وقد عرض على اللجنة الاقتراح الذي ارتأته بعض اللجان الأخرى، وهو جمع لجنتين مثلا في لجنة واحدة، فناقشت لجنة القيم الروحية هذا الاقتراح، واستبعدته نظرا لما رأته من أن اهتماماتها لا تتداخل — مثلا — مع اهتمامات لجنة اللغة العربية ولا مع لجنة التراث ولا مع لجنة التربية. واذا كان ادماج لجنتين يعني تخصيص وقت لكل منهما فقد يكون ذلك على حساب الموضوعات المعروضة على كل منهما.

وقد بدأت اللجنة أعمالها لسنة 1990 باختيار رئيسها ومقررها فوقع الاختيار على الأخ الزميل السيد أبو بكر القادري وتجدد انتداب المقرر العضو السيد عبد الكريم غلاب.

ومن أهم الموضوعات التي درستها اللجنة «صورة الاسلام في الغرب». وكنت قد اقترحت هذا الموضوع انطلاقا من الندوة الصحفية لجلالة الملك والتي استضافه فيها البرنامج التلفزي الفرنسي (ساعة الحقيقية)، والتي جاءت متزامنة مع الضجة التي أثيرت حول استعمال غطاء الرأس بين بعض التلميذات المسلمات في فرنسا.

وقد ناقشت اللجنة هذا الموضوع في عدة جلسات استعرضت فيها الصورة

السيئة التي ترسمها الصحافة وبعض الكتاب عن الاسلام والمسلمين. ويتجلى بصورة خاصة كلما أثير موضوع سياسي أو اجتماعي في بعض البلاد الاسلامية كالثورة الاسلامية في ايران، وكقصة الأميرة السعودية التي أعدمت لأنها اختارت زوجها.

وفي هذه المناقشة اتجه الرأي إلى عدم العودة إلى التاريخ أو الحضارة الاسلامية ورؤية الباحثين الغربيين إليها. فهذه الدراسة قام بها كثير من الباحثين، وتطور إلى دراسة الاستشراق والمستشرقين والصورة التي قدموها في أبحاثهم. ولذلك كان الرأي هو اقتصار البحث على الصورة الحالية التي تتكون من الاتصال والتعايش بين المسلمين وغير المسلمين في الغرب، سواء كان هؤلاء المسلمون عمالا أو تجارا أو طلبة، وكذلك من الدراسات والتحقيقات الصحفية التي تقوم بها الصحف والمجلات عن التغيرات والأحداث السياسية والاجتماعية التي تحدث في بلاد الاسلام.

واتجهت اللجنة إلى عقد ندوة موسعة في هذا الموضوع يدعى اليها باحثون مغاربة وأجانب لدراسة هذه الصورة من الذين عايشوها في أوروبا. والهدف في البحث عن السبل لتغيير الصورة السيئة التي رسمت عن الاسلام وعن المسلمين في الغرب.

وما من شك في أن مشروعا كهذا لا يمكن أن يتحقق بندوة، ولكن الأكاديمية يمكن أن تتخذ من الندوة منطلقا لمعالجته فكريا، عساها تؤثر في وسائل معالجته سياسيا واجتماعيا من الدول الاسلامية صاحبة القرار.

وتمهيدا لهذه الندوة طلبت اللجنة من بعض الزملاء أعضاء الأكاديمية بأن يخصصوا لها حديثا يثيرون فيه جوانب من المشكل معتمدين على مشاهداتهم وتجاربهم الشخصية ويقدمون فيها اقتراحات عملية لمعالجة الموضوع على نطاق أوسع.

وقد خاطبت الإدارة بعض الزملاء المحترمين في الموضوع ولكن هذه العروض لم تتم حتى الآن، إلا العرض الذي تقدم به الزميل السيد محمد شفيق.

وقد أعدت الادارة العلمية مذكرة موجزة أوجزت فيها هذا الاقتراح.

وتطور هذا الموضوع بعد أزمة الخليج التي أضافت صورة أخرى عن الاسلام في الغرب : وخاصة من زاوية شغلت بعض علماء المسلمين في كل من السعودية ومصر والمغرب وغيرها من البلاد الاسلامية انطلاقا من الاستعانة بالكافر في محاربة المسلم. هذا الموضوع الذي يعود بالمسلمين إلى أيام الحرب الصليبية من جهة وإلى البعد الاسلامي لكل خلاف سياسي أو صراع عسكري بين دول إسلامية.

وكان اقحام هذه الصورة عن الاسلام عند الغربيين داعيا للجنة إلى اقتراح تنظيم ندوة داخلية في الموضوع، ولكن بعد عرض الاقتراح على الجلسة العامة.

وها هو ذا الآن بين أيديكم موضوع آخر تدارسته اللجنة وهو موضوع الثقافة العربية والثقافة الغربية، وأثر احداهما على الآخرى.

هذا الموضوع تحدث عنه كثير من مؤرخي العلوم والثقافات. ولكن المحاور التي تناولتها اللجنة متعلقة بالتآثر بين الثقافتين انطلاقا من العوامل التي ميزت كل ثقافة في مفاهيمها وبيئتها والتأثيرات التي تسربت لكل منها حتى كونت ثقافة متميزة. ومحور الايجابيات والسلبيات لكل من الثقافتين. وأثر الدين في الثقافتين وخاصة الثقافة الاسلامية.

وكان عنوان الندوة المقترحة : الثقافة الاسلامية والثقافة الغربية أخذ وعطاء.

وطلبت اللجنة من الزميل الأستاذ محمد العربي الخطابي أن يقدم العرض الرئيسي في الموضوع كما اقترحت بعض الزملاء الأكاديميين وبعض أساتذة الجامعة للإسهام في هذه الندوة.

من الموضوعات التي درستها في بداية السنة موضوع كتابة القرآن بين الرسم العثماني المتوارث والذي اختصت به كتابة القرآن دون بقية نصوص التراث العربي. تقدم باقتراح دراسة هذا الموضوع الزميل السيد عبد الوهاب بن منصور في مذكرة أشار فيها إلى ما يعانيه قراء القرآن من الذين يتعلمون في المدارس العامة حيث يجدون صعوبة في قراءة الكلمات من الآيات القرآنية التي تكتب على خلاف ما تكتب في الخط العادي. وقد درست اللجنة هذا الموضوع. وانتهت إلى أن كتابة الآيات القرآنية في الكتب المدرسية وفي الاستشهادات في الدراسات والكتب والمقالات تكتب على نحو ما تكتب في الرسم العادي على أن يحتفظ بالرسم العثماني في المصاحف.

وتطور البحث إلى تجريد الكلمات التي تكتب في المصحف بالرسم العثماني بهدف اصدار جدول أو دليل يتضمن احصاءها ومواقعها من سور القرآن الكريم، والطريقة التي تكتب بها في الرسم الحديث.

وسيتقدم العضو الزميل عبد الله الكرسيفي بعرض عن هذا الموضوع في حديث من أحاديث الخميس.

هذا مجمل ما شغل اللجنة في سنة **1990**. وتلاحظون أن بعض هذه القضايا التي ناقشتها اللجنة في عدة جلسات ماتزال تنتظر عقد الندوات التي اقترحناها. وقد كان من رأي اللجنة أن مثل هذه الندوات تحتاج إلى بعض الوقت للإعداد، واللجنة إذ تعرض هذه القضايا على الجلسة العامة تستهدف اشراك الزملاء المحترمين في التفكير فيها تنظيرا وتنظيما.

تقرير عن نشاط لجنة اللغة العربية 1990

قدمه العضو السيد محمد العربي الخطابي مقرر اللجنة

سيكون هذا التقرير في منتهى الإيجاز فأقول إن لجنة اللغة العربية قد اهتمت في المدة الأخيرة من السنة الفارطة وفي شهر يناير المنصرم بتعميق النظر في مسألة الحفاظ على سلامة اللغة العربية، وكانت اللجنة قد ارتأت في باديء الأمر أن توجّه جهودها نحو المساهمة في إصلاح الألسنة والأقلام والأفكار عن طريق رصد الأخطاء الشائعة في وسائل الإعلام وغيرها وبيان وجه الصواب فيها : وهكذا حتى يتمّ جمع شبه معجم للأخطاء الشائعة.

وبعد مداولات عديدة في هذه المسألة توصلت اللجنة إلى الاقتناع بأن هذا النهج ــ بالرغم من فائدته ــ فإنه قد لايفي بالمراد لاسيما وأن في الأسواق معاجم جيدة متخصصة في تقويم اللسان وتصويب الأخطاء، ولذلك اتفق رأي اللجنة على أن الوسائل المؤدية إلى الحفاظ على سلامة اللغة العربية لا يمكن أن تقتصر على رصد الأخطاء الشائعة وتصويب مايمكن تصويبه منها فحسب بل ينبغي الانكباب على إعداد منهج شامل ومتكامل يمكن أن يؤدي إلى معالجة المشكلة من جذورها في مختلف مرافق النشاط الفكري والتربوي والاجتماعي والاقتصادي مما يوصلنا في نهاية المطاف إلى تنمية الاهتمام بالحفاظ على سلامة اللغة العربية بشكل عملي ومنهجي ولا سيما في ميداني التعليم والإعلام والتنشيط الثقافي (على غرار المذكرة التي أعدتها اللجنة ووجهتها للمسؤولين عن الإذاعة والتلفزة).

وبالنظر إلى ذلك فإن اللجنة سوف تنكب على إعداد هذا المنهج في مداولاتها المقبلة.

المسألة الثانية التي اهتمت بها اللجنة تتعلق بالبحث في الترجمة من اللغة العربية وإليها بطريقة سليمة، وذلك على ضوء المذكرة التمهيدية التي أعدها الزميل الأستاذ محمد شفيق بتكليف من اللجنة التي رأت ــ بعد مناقشة مااحتوت عليه المذكرة ــ أن هذا الموضوع الحيوي ربما يكون من الأفضل معالجته في ندوة أكاديمية يشارك فيها المتخصصون في هذا المجال.

وفضلا عما تقدم نظرت لجنة اللغة العربية في مشروع معجم مدرسي أعده الأستاذ أبو العزم وعرض قسما منه على اللجنة لتبدي رأيها فيه، وبعد تقليب النظر في هذا المشروع والاجتماع مرتين بالأستاذ أبي العزم، اتفق أعضاء اللجنة بخصوص المعجم المدرسي على طائفة من الملاحظات تتعلق بالشكل والجوهر، وقد تم تبليغها إلى صاحب المشروع.

«تقرير لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا» عن نشاطها سنة 1990

قدمه العضو السيد محمد شفيق مقرر اللجنة

ظروف عمل اللجنة :

لم تتغير تشكيلة اللجنة خلال السنة الماضية 1990 بالنسبة إلى ماكانت عليه سنة 1989، ولا بأس أن أذكر هذا الجمع العام بأسماء أعضائها : السيد عبد اللطيف بنعبد الجليل، السيد محمد ابن شريفة، السيد أحمد الاخفر غزال، السيد عبد اللطيف بربيش، السيد المهدي المنجرة، السيد محمد شفيق، السيد عز الدين العراقي، السيد عبد الهادي بوطالب، السيد ادريس خليل، السيد عباس الجراري، السيد عبد الله العروي.

ومما تجدر الاشارة إليه أن بعض أعضاء اللجنة تعذر عليهم حضور الجلسات طوال السنة، وأن بعضهم الآخر لم يتمكن من الاسهام في الأعمال إلا نادرا، وذلك بسبب عوامل مختلفة أهمها وجوب إيلاء الاسبقية للقيام بالمهام الرسمية، وضرورة أداء الوجبات المهنية، لكن النصاب كان مع ذلك يتوفر للجنة عند معظم اجتماعاتها. وقد كانت غنية طيلة السنة بفضل المواظبة على العمل وبفضل الحنكة التي كان الرئيس الزميل السيد إدريس خليل يدير بها المناقشات ويوجهها إلى حيث ينبغي أن تتجه.

أشغال اللجنة :

خصصت اللجنة جلستين للاستماع إلى عرض قام به الزميل المهدي المنجرة في موضوع «تصريح ڤانكوڤر» «Vancouver»، تصريح ڤانكوڤر هذا عبارة عن بيان أصدرته مجموعة من علماء التخصصات العصرية الكبرى في شكل إنذار موجّه للانسانية جمعاء واستصراخ للمسؤولين السّياسيين بكيفية خاصة وملحة، وذلك إثر الندوة العلمية التي انعقدت بڤانكوڤر في كانادا، من 10 إلى 15 شتنبر 1989، تحت إشراف اللجنة الوطنية الكانادية التابعة لليونسكو. كان من بين المنتدين علماء من جنسيات متعددة أوروبيين وغيرهم من فيزيائين ورياضيين ومتخصصين في علم البيئة وفي تاريخ الديانات والاقتصاد والفلسفة والطب وعلم الوراثة والدراسات المستقبلية... وكان من بينهم العضو الرئيس السيد المنجرة بصفته رئيسا لجمعية المستقبليات الدولية وبصفته مديرا مساعدا سابقا لليونسكو. وقد أبى المنتدون إلا أن يعينوه مقررا لأعمالهم. قصدي الآن

في هذا التقرير هو اطلاع جمعكم الموقر على مضمن البيان المشار إليه أعلاه. أما العرض العلمي القيم الذي أسهم به الأستاذ المهدي في الندوة والذي ترجم إلى خمس لغات ونشر في 17 مجلة وجريدة فقد وعدني صاحبه منذ أسبوعين أو ثلاثة بالاستعداد لاعادته على مسامعكم في إحدى جلساتنا العادية المقبلة.

فإليكم إذن أهم نقاط تصريح فانكوفر :

– الوضع الحالي للكرة الأرضية يستلزم إجراءات مستعجلة في المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية نظرا للمخاطر الجسيمة التي أصبحت البيئة معرضة لها من حيث التوازنات الطبيعية العامة، لأن كوكبنا الصغير السابح في الفلك عبارة عن محرك حراري يتغير نظام نشاطه باستمرار، وقد نشأت الحياة على سطحه في توازن مع البيئة. و البيئة نفسها غير قارة بل من نواميس صيرورتها أنها تتغير فجأة «وبدون سابق انذار» إن صح التعبير، ولكن على المدى الطويل. كان هذا هو وضعها — وضع البيئة — لمدة مليارات من السنين، أربعة مليارات حسب التقديرات العلمية. لكن خلال القرنين الأخيرين أي ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر الميلادي حتى أواخر القرن العشرين هذا الذي نكاد نودعه، حدث ما لم يكن إلا في حسبان الخالق عز وجل، ألا وهو اكتشاف الانسانية للمحروقات المتحجرة اليابسة منها والسائلة، فكان لهذا الحدث مفعولان، أحدهما إيجابي، هو الذي مكن البشرية من السيطرة شبه المطلقة على ظهر البسيطة، وهو وحده الذي كان يظهر للعيان حتى العقود الأخيرة، بينما كان المفعول الثاني يسري خفية في أعماق طبقات البيئة، الأرضية منها والبحرية والجوية، يفتك بالعناصر التي هي ضرورية للحياة من جهة، ويحدث اخلالات في مختلف التوازنات جد خطيرة على النبات والحيوان والانسان يظهر أثرها على الخصوص في :

– التلوث العالمي العام،

– التغير الطارىء على المناخ وعلى مستوى سطح المحيطات والبحار،

– الانقراض السريع غير القابل للتراجع للفصائل الحيوانية والناجم عن الدمار الذي يصيب باستمرار مساكنها الطبيعية ومكامنها، مع العلم أن وجود الفصائل الحيوانية واختلاف أنواعها هو العامل الأساسي في الحفاظ على المحيط الحيوي (biosphère) الذي هو قوام الاتزان في النسق البيئي الطبيعي.

– ما يسمى بالانفجار الديموغرافي، أي تزايد السكان الناتج من اختلال التوازن الطبيعي بين الولادات والوفيات، ذلك التوازن الذي كانت الأوبئة من العوامل الأولى في إقامته.

– تطور أساليب الحرب وإنفاق الأموال والطاقات، كمًّا وكيفا، في المواجهات المسلحة أو في الاستعداد لها.

كان الانسان إلى حد الآن يظن أن الموارد الطبيعية لاحد لها وأن استغلالها المكثف هو خير وسيلة للسير قدما في طريق ما يعتقده نموا وازدهارا وتقدما.

والغاية من تصريح «فانكوفر» هي إشعار المسؤولين بتفاقم الأوضاع وإيذانها بالدنو من النقطة التي لا تراجع بعدها، وهي في الوقت نفسه تبشير للانسانية بأن العلم الحديث والتكنولوجيا قادران على تدارك ما ارتكب من الأخطاء وعلى إعادة المياه إلى مجاريها في العلائق بين الانسان وبيئته شريطة أن تتوفر للمجتمعات والحكومات الارادة السياسية اللازمة.

والسبب الرئيسي في التردي المتسارع الذي آلت إليه أوضاع البيئة هو أن العلماء صاروا منذ قرنين على وجه التقريب يوقنون أن التصور الميكانيكي لماهية الكون هو الصحيح، وأن بإمكان الانسان أن يسيطر على الطبيعة سيطرة مطلقة وأن يستغلها استغلالا غير مشروط في تحقيق الرفاهية المادية التي مافتىء منذ وجوده يحلم بها. فانصرف من جراء ذلك اهتمام البشرية انصرافا جزئيا أو كليا عن القيم غير المادية، إلى درجة أن الانسان أخذ يتصور نفسه دولابا من الدواليب الآلية التي يتألف منها الكون، فلا يقيس الأمور إلا بأبعادها المادية. لكن هذا التصور المعتمد لبعد واحد بلغ مداه أثناء العقود الأخيرة، في أذهان كبار العلماء والمفكرين على الأقل، حتى إن العقلانية نفسها لم تعد تقر صلاحية التصور الاوالّي للكون ولا للانسان بالأحرى. ومما ترتب على هذا التطور الفكري أن العلم المعاصر، علم أواخر القرن العشرين، أخذ يبحث عن بديل للعقلنة الإوالية بعدما ظهرت له مخاطرها واتضح ما تنطوي عليه «نِعَمُها» من النقم التي لم يحسب لها حسابها. فاهتدى إلى خلق تصورات جديدة للكون على طرفي نقيض للتصور الإوالّي الصلب المتحجر، تصورات تجعل من العالم كينونة يحدث فيها خلق مستمر لا يحده أي ناموس إوالي، خلق مستمر يشمل الانسان وسائر الكائنات في تفاعل لا قبل للتصورات الإوالية بإدراكها... ومن هذه الزاوية يتكشف ما للثقافات الانسانية من أهمية، وتتجلى ضرورة البحث عن مخرج للحضارة المتأزمة في رؤى جديدة تتجه وجهة المستقبل مستلهمة الماضي وما أنتجه من الاديولوجيات المجردة عن المادة بحيث تشمل نظرة الانسان من خلالها :

أ – واقع ترابط الكائنات بعضها ببعض حية كانت أو جامدة، في نطاق الكون على سعته ورحابته.

ب – وجوب الاعتراف بأن الانسان أداة مسخرة من بين الأدوات التي يتكيف الخلق بواسطتها ويتطور.

ج – ضرورة الاستيقان من أن الأنانية هي السبب في فقدان الطمأنينة وفي انعدام التجاوب بين بني آدم، وكذا هي السبب في اختلال التناسق بين الحياة وبين المحيط الطبيعي الذي يكتنفها.

د – أحقية الاعتقاد بأن الروح والفكر والجسم وحدة لا تتجزأ، وبالمحافظة على التوازن بين عناصر تلك الوحدة يمكن للانسان أن يجعل من نفسه وضميره مرآة صادقة تنعكس على صفحاتها وحدة الكون المنبّئة بوحدة الخالق.

بهذه الرؤى الجديدة القديمة، أو القديمة المجددة سيدرك الانسان أن القضاء على الجهل والفقر والظلم هو أوجب الواجبات، وأن تحقيق هذا الهدف مرهون بتجديد النظم التربوية، وايجاد سبل ناجعة لإقامة العدالة الاجتماعية، وابتكار أنماط للعيش أضمن سلامة للأرواح والأبدان، لاتبذير فيها ولا إسراف، مرهون أيضا بقبول التنوع في مظاهر الحياة وفي النماذج الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبالتجرد عن الرغبة في السيطرة والهيمنة، لأن حب الهيمنة هو أبو المتاعب كلها، وهو الذي دفع الانسانية إلى التسابق الجنوني في ميدان التسلح.

هذه الأهداف المرسومة على طريق الرقي الحقيقي لا سبيل إلى بلوغها إلا بواسطة العلم والتكنولوجيا، لكن العلم والتكنولوجيا مشروط فيهما أن يندرجا في بنية ثقافية شمولية تضمن التواصل والتفاهم بين الحضارات. وعلى أي حال لا يرجى منهما أن يخدما الانسان ما لم يتجه العمل من أجل تطويرهما نحو البحث عن الوسائل الكفيلة بسد الحاجات الملحة التي يعانيها السواد الأعظم من الناس في العالم. إن التراث الحضاري مهدد بالاندثار، إن لم تسارع البشرية إلى توطيد أركان السلم بين الانسان ومحيطه الطبيعي، ثم بين الديانات والثقافات على اختلاف مذاهبها ومشاربها، وما لم يعمل على صيانة كرامة الانسان أي إنسان، وعلى ضمان تمتعه بحقوقه كاملة. هذه هي شروط خلق ضمير عالمي جديد يمكنه أن يتعالى عن الاعتبارات الضيقة ويتدارك ما وصلت إليه الأخلاق من إسفاف.

* * *

العرض المهم الثاني الذي ناقشته لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا بعد الاستماع إليه والى ماصحبه من التعاليق الشفوية عبارة عن تقرير في موضوع «علائق الفنون الحربية بالعلوم والتكنولوجيا»

فمما تجدر الاشارة إليه بادىء بدءٍ هو أن مضمن التقرير من الأهمية بمكان، نظرا لنوعية المعلومات التي يحتويها والتي لا تحصل بسهولة. ولذا يستحق صاحبه، زميلنا إدريس خليل كل تنويه بالجهود التي بذلها من أجل إنجاز عمل لم يكن من الممكن إنجازه لولا ما أعد له من صبر وأناة، وما رصد من فطنة لاستغلال العلاقات والصداقات الشخصية وللربط بين المعطيات على شتاتها، ما نشر وما لم ينشر، ما استخرج من وثائق رسمية وغير رسمية، وما استخلص من مجرد مذاكرات ودية.

نشر النص الفرنسي لهذا التقرير في العدد السابع من مجلة «الأكاديمية» مع ملخص

له بالعربية. لكن ارتأت اللجنة أن يشمله هذا العرض عن نشاطها خلال السنة الماضية، حرصا منها على تمكين الزملاء كافة من الاطلاع على بعض التفاصيل المهمة التي لم يتيسر إدراجها في الملخص فإليكم النقاط البارزة في التقرير :

1 – **فكرة تسخير العلم للاغراض العسكرية** فكرة قديمة، لكن لم يعبر عنها بوضوح إلا في القرن السابع عشر إذ لقيت قولة هوبز (Hobbes) المشهورة «العلم سلطان» رواجا كبيرا بين المفكرين والعلماء. ثم إن الترابط العضوي لم يتم بين الجهاز الحربي والجهاز العلمي في المجتمعات المصنعة إلا بعد الحرب العالمية الأولى، أي بعد ما أصبحت المواجهات المسلحة تتطلب من العدة والعتاد ما هو معقد الصنع، وتقتضي من الاستراتيجيات ما فوق طاقة الخبرات العسكرية التقليدية، من جهة، وبعدما أصبح البحث العلمي يكلف نفقات باهظة، وتفطن العلماء إلى أن توظيف الاموال المرصودة للمشاريع الحربية هو الحل لبعض أو جل مشاكلهم المادية، وأدركوا بالتجربة أن ضرورة الابتكار السريع، الذي يكون الباحثون مدعوين له أثناء الحروب أو عند الاستعداد لها، حافز قوي للفكر الخلاق، من جهة أخرى، هذا إن صرفنا النظر موقتا عن القضايا السيكولوجية والاديولوجية، لأن العلماء لم يكونوا من قبل يسهمون في صنع أدوات الحرب ولا في تطوير أساليبها، بل كانوا يشاركون بكيفية أو أخرى، ولكن بصورة غير مباشرة، أي على طريق تمكين الصناعات من استغلال اكتشافاتهم وتمكين الجيوش من إدراك نواميس الميكانيك مثلا أو الرماية والقذافة (نيوتن، ولا يبنيس، وديكارت، وكاليليو، وغيرهم) ولكن المقصود هو أن التلاحم الكامل بين البحث العلمي الطليعي وبين الاهتمامات الحربية المادية منها والمعنوية، النظرية والتطبيقية، لم يتم إلا بمفعول الحربين العالميتين وخاصة الثانية، وقد صار من غير المعقول اليوم أن يتذاكر في شؤون الحرب العصرية دون أن تذكر أسماء علماء كبار (أوينهايمر، بوهر، صاخاروف..الخ) وقد صار من البديهيات الآن أن قوة الضرب في الحرب لا تتوفر إلا للامم المتطورة علميا.

2) تأثير التعامل بين العلم والحرب على البحث العلمي :

كان هذا التأثير قويا جدا في الأربعينات وما بعد الأربعينات من هذا القرن، كان إيجابيا جدا من حيث الطفرة التي حققتها المعارف الانسانية كما ونوعا، وكان سلبيا جدا من حيث المخاطر التي أمست البشرية معرضة لها. لقد تضاعفت الاكتشافات والاختراعات تضاعفا لم يكن في حسبان أي آدمي. والسبب الرئيسي هو أن الأمم الغنية وفي طليعتها الولايات المتحدة الامركية أحدثت منشآت للبحث وألحقتها مباشرة بجيوشها إداريا وماليا وزودتها من الامكانات المادية بما لم يحلم به قط أي عالم ولا باحث. السببان الآخران اللذان ترتبا على الأول هما أن أفضل الخبرات استقطبتها مراكز البحث، نظرا لتوفر وسائل العمل فيها وللأجور المرتفعة التي ينالها الخبراء، من جهة، أن تنظيم البحث صار يخضع لترتيبات شبيهة بالترتيبات العسكرية المقتضية للانضباط

ولاحترام الرئيس وامتثال أوامره، وتعوُّد العمل الجماعي المبرمج الواضح الاهداف، من جهة أخرى. فكانت النتيجة أن الرغبة الملحة في إنجاز البرامج العسكرية دفع بالبحث العلمي إلى الامام بكيفية لم يسبق لها مثيل في مختلف الميادين، وخاصة فيما يتعلق بالذرة وبغزو الفضاء وتقنيات المواصلات. وقد كان لذلك كله تأثير كبير على الصناعات غير الحربية بفضل التراكم المعرفي الذي حصل في مجال العلوم الأساسية (في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والبيولوجيا، بوجه خاص) والذي صار يوحي للخبراء بتطبيقات مدنية لِمَا — أو لبعض ما — أسفرت عنه البحوث العسكرية.

فنتج من ذلك، على سبيل المثال، اختراع المواد الموصلة ذات الفعالية العليا والترانزيستور والمواد العازلة الكبيرة الفاعلية، والمواد غير القابلة للذوبان بمفعول الحرارة، والكمبيوتر، ونتجت منه اكتشافات بالغة الأهمية في الفيزياء النظرية الجُسَيْمات، أو الجُزيْئات الذّرية و «سلوكها» غير الخاضع لما هو معروف من نواميس الفيزياء حتى الآن وفي الكيمياء النشاطة (Polymérisation) وفي البيولوجيا دراسة الخلايا على المستوى النووي نشأة علم الوراثة، وفي السوسيولوجيا وعلم النفس (ميكانيزمات السلوك البشري ووظيفة الفكر)...الخ. أما الرياضيات فقد سُخِّرت على نطاق واسع لتطوير هذه العلوم كلها وصارت هي «العلم» بالمعنى الدقيق، والدليل على ذلك أن الحاسوب من ابتكار رياضي (John Von Neumann) وأنه اليوم لم يعد في إمكان أي باحث جاد أن يعمل دون الاعتماد عليه.

هذا بالاضافة إلى أن العسكريين لم يتركوا فرعا من فروع الرياضيات الا استغلوه في التقديرات الاستراتيجية، استغلوا التحليلات الاحصائية ونظرية الاحتمالات، والنظرية المسماة نظرية القمار، ونظرية القرار والبرمجة الخطية، وطريقة تحليل المعطيات... الخ. ومما نشّط البحوث أن المنافسة كانت قوية إلى أقصى حد ممكن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. ولا تزال القطاعات الحساسة من الصناعات التطبيقية محتكرة من قبل السلطات العسكرية، ذلك شأن ما يتعلق بالاستكشافات الفضائية مثلا : في سنة 1987 أرسل إلى الفضاء 84 كوكبا صناعيا، كان ثلاثة أرباعها للمراقبة الاستراتيجية والتجسس.

3) تمويل البحث العسكري وتطوره في العقود الاربعة الأخيرة من حيث الحجم ومن حيث النسب المائوية :

– انفقت الولايات المتحدة على البحوث العسكرية سنة 1940 : 0,8 % من ميزانيتها الفيديرالية العامة. ثم أخذت هذه النسبة المائوية في الارتفاع إلى أن بلغت 1,6 % سنة 1945 (أي تضاعفت في ظرف خمس سنوات)، ثم بلغت 10,1 % سنة 1960. (أي تضاعفت اثنتي عشرة مرة ونصف).

– في سنة 1940 مولت الحكومة الفيدرالية الامريكية البحث الحربي بنسبة 38% (أي أقل بقليل من خمسي النفقات).

وفي سنة 1961 كانت هذه النسبة قد ارتفعت إلى 90,3 % (أي إلى أكثر من تسعة أعشار من حجم النفقات)، هذا بينما انحدر اسهام الحكومة الفيدرالية من 38,6 % إلى 1,5 % في مجال الزراعة ولم يكن اسهامها قد ارتفع في مجال الصحة إلا إلى 4,1 % في حدود 1961 بعدما كان سنة 1940 يجاوز 0,5 %

– في عقد الثمانينات كانت الولايات المتحدة تنفق على البحوث العسكرية 70 % (سبعة أعشار) من المبالغ المصروفة على البحث العلمي بصفة عما، بينما كانت أنجلتيرا تنفق 50 %، وفرنسا 30 % وألمانيا الفيدرالية 15 %.

تطور حجم النفقات في مجال البحوث العلمية في الولايات المتحدة على الشكل التالي : سنة 1965، اثنان وعشرون (22) مليار دولار للبحوث العسكرية مقابل 21 مليار للبحوث المدنية.

سنة 1981، عشرون (20) مليار، مقابل 20,4.

سنة 1987، اثنان وثلاثون مليار فاصلة سبعة (32,7) مقابل 15,1 وبالمقارنة بين نفقات البحث العلمي والناتج القومي الاجمالي لسنة 1987 من جهة، والمقارنة بين مجالي البحث العسكري والمدني للسنة نفسها، من جهة أخرى، نستخلص ما يلي، فيما يخص الدول المصنعة الكبرى :

الولايات المتحدة : 2,6 % من الناتج القومي للبحث بصفة عامة 31 % من حجمها للبحث العسكري.

أنجلتيرا : 2,42 % من التاتج القومي 29 % من حجمها للبحث العسكري.

فرنسا : 2,31 % من الناتج القومي، 20 % من حجمها للبحث العسكري

اليابان : 2,77 % من الناتج القومي، 1 % من حجمها للبحث العسكري

ألمانيا الاتحادية : 2,67 % من الناتج القومي 5 % من حجمها للبحث العسكري.

4) مواقف العلماء الباحثين من نتائج البحوث الحربية :

في غمرة الحرب الكونية الثانية كان العلماء يبحثون من أجل الاسهام في المجهود الحربي، كل لفائدة وطنه (الأصلي أو المستوطن) غير مبالين في جملتهم بما قد ينتج من وبال على الانسانية بسبب اختراعاتهم. لكن بعد انفجار قنبلتي هيروشيما وناكازاكي تغيرت مواقف بعضهم، على الرغم من أن الحرب الباردة كان من شأنها أن تمتن العلائق

بين الاهتمامات العلمية والاهتمامات الحربية، وعلى الرغم من أن الأمريكيين عملوا على رفع معنوية العلماء المؤيدين للمشاريع الحربية ومضايقة الآخرين، وأن الباحثين السوفيات كانوا معبئين في نطاق العمل السياسي الحزبي. وقد عبر الفيزيائيُ أو بنهايمر (Oppenheimer) أصدق تعبير عن وخزات الضمير التي صارت تنتاب بعض العلماء إثر قنبلة هيروشيما، إذ قال : «ارتكب الخطيئة العلماء !». فكاد رد الفعل من السلطات السياسية والعسكرية أن رشحت للمناصب العليا في المنشآت العلمية التابعة للجيش من لم يكن في سلوكهم أدنى شبهة، وأخضعت سائر الباحثين لأداء قسم الولاء والوفاء، و «طهرت» صفوفهم من «الشيوعيين»، إثر حرب كوريا خاصة، وحاكمت أوبنهايمر نفسه بعد أن وصفه الرئيس ترومان بالبلادة وضعف النفس. أما في الاتحاد السوفياتي فلم يتردد كروتشوف في توبيخ ساكاروف إذ كان يدعو إلى وقف التجارب النووية.

لكن علماء آخرين كانوا بالعكس متحمسين للمشاركة في تطوير العتاد الحربي، نخص بالذكر منهم الفيزيائيَ تيلر (Teller) الذي حرض الرئيس ترومان على اتخاذ القرار الرامي إلى صنع القنبلة الهيدروجينية والذي ندد بسلوك الرئيس إيزنهاور (Eisenhower) إذ هم بالاتفاق مع الاتحاد السوفياتي على تحريم التجارب النووية، ومما سيلفت نظر المؤرخين أن أيزنهاور لم ينخدع للتواطىء المقنع الحاصل بين العسكريين والخبراء، ولذا خاطب الأمريكيين عند مغادرته البيت الأبيض في يناير 1961، بقوله : «وينبغي لنا أن نظل على يقظة تجاه الخطر الذي ستعرض له السياسة الحكومية اذا ما استأسرتها ثلة من التقنيين والعلماء الباحثين»

أما المحور الأخير الذي دارت حوله المناقشة بين أعضاء اللجنة، في الأشهر الثلاثة الأخيرة من 1990، فقد كانت مواضيعه كلها تتعلق بالأوضاع في الجامعة المغربية. تدورست بالتوالي النقاط الآتية :

أ – التعليم الجامعي من حيث أهدافه ومن حيث حجم البرامج، ومن حيث التأثير.

ب – تنظيم الامتحانات، التقييم المستمر، المباريات، المستوى العام للطلبة.

ج – التنسيق البيداغوجي على مستوى الكليات والمدارس العيا، وعلى مستوى الجامعات.

ولقد ضمنت هذه المواضيع كلها تقريرا مفصلا تفضل الزميل إدريس خليل بتقديمه للجنة لكي ينطلق منه تبادل الآراء. وبما أنه تقرير حرر أصلا باللغة العربية فلا داعي لإطالة حديثي هذا، لكل من أراد الاطلاع عليه أن يطلب نسخة منه للادارة العلمية.



ACADEMIA

Revue de l'Académie du Royaume du Maroc

N° 8/ Décembre 1991



ACADEMIA

Revue de l'Académie du Royaume du Maroc

N° 8 Décembre 1991

Dépôt légal : 29/1982

Académie du Royaume du Maroc
Avenue Al-Imam Malik B.P. 1380
Rabat (Royaume du Maroc)



767705 : الرباط، 21 زنقة ديكارت حي الليمون تلفون : 99-7660 فاكس

PUBLICATIONS DE L'ACADÉMIE

I. - Collection «Sessions»

- «Al Qods : Histoire et Civilisation», Mars, 1981.
- «Les crises spirituelles et intellectuelles dans le monde contemporain», Novembre, 1981.
- «Eau, Nutrition et Démographie», 1re partie, Avril, 1982.
- «Eau, Nutrition et Démographie», 2e partie, Novembre, 1982.
- «Potentialités économiques et souveraineté diplomatique». Avril, 1983.
- «De la déontologie de la conquête de l'espace», Mars, 1984.
- «Le droit des peuples à disposer d'eux-mêmes», Octobre, 1984.
- «De la conciliation entre le terme du mandat présidentiel et la continuité de la politique intérieure et étrangère dans les Etats démocratiques», Avril, 1985.
- «Trait d'union entre l'orient et l'occident : AL-GHAZZALI et IBN MAÏMOUN» Novembre, 1985.
- «La piraterie au regard du droit des gens», Avril, 1986.
- «Problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles maîtrises de la procréation humaine», Novembre, 1986.
- «Mesures à décider et à mettre en œuvre en cas d'accident nucléaire», Juin, 1987.
- «Pénurie au Sud, incertitude au Nord : constat et remèdes», Avril, 1988.
- «Catastrophes naturelles et péril acridien», Novembre, 1988.
- «Université, Recherche et Développement», Juin 1989.
- «Des similitudes indispensables entre pays voulant fonder des ensembles régionaux», Décembre, 1989.
- «De la nécessité de l'homo œconomicus pour le décollage économique de l'Europe de l'Est», Mai 1990.
- «L'invasion du Koweit par l'Irak et le nouveau rôle de l'O.N.U.», Avril 1991

II. - Collection «Patrimoine»

- «Al-Dhail wa Al-Takmilah», d'Ibn Abd Al-Malik AL-MARRAKUSHI, Vol. VIII, 2 tomes (biographies maroco-andalouses), édition critique par M. BENCHARIFA, 1984.
- «Al-Ma' wa ma warada fi chorbihi mine al-adab», (apologétique de l'eau), de M. Choukry AL ALOUSSI, édition critique de M. Bahjat AL-ATHARI, Rabat, Mars, 1985.
- «Maâlamat Al-Malhoune», 1re et 2ème parties du 1er volume, Mohamed FASI, Avril, 1986, Avril, 1987.
- «Diwane IBNOU FOURKOUNE». recueil de poèmes, présenté et commenté par Mohamed BENCHARIFA, Mai, 1987.

- «Aïn Al Hayat Fi Ilm Istinbât Al Miyah» : (Source de la vie en science hydrogéologique) de A. DAMNHOURI, Présentation et Edition critique de Mohamed Bahjat AL-ATHARI. 1989.
- «Maâlamat Al-Malhoune» 3ème volume (Chefs d'œuvre d'Al-Malhoune), Mohamed FASI, 1990.
- «Oumdat attabib fi Mârifati Annabat» (Référence du médecin en matière des plantes) d'Abou Al Khayr AL-ICHBILI, 1er et 2ème volumes édition critique par Mohamed Larbi AL-KHATTABI, 1990.
- «Kitab attayssir fi al-moudawat wa tadbir» (Le Tayssir d'AVENZOAR), d'Abou Marwan Abdelmalik IBN ZOHR, édition critique par Mohamed Ben Abdellah ROUDANI, 1991.
- «Mâalamat Al-Malhoune 1re partie du 2e volume, Mohamed FASI, 1991.

III. - Collection «Lexiques»

- «Lexique arabo-Berbère», Mohamed CHAFIK, 1990.

IV. – Collection «Séminaires»

- «Falsafat Attachriâ Al Islami» 1er séminaire de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles, 1987.
- «Actes des séances solennelles consacrées à la réception des nouveaux membres». (1980-1986), Décembre, 1987.
- «Conférences de l'Académie» (1983-1987), 1988.
- «Caractères arabes et technologie», Février, 1989.
- «Droit canonique, fiqh et législation», 1989.
- «Fondements des relations internationales en Islam», 1989.
- «Droits de l'homme en Islam», 1990.

IV. - Revue «Academia»

- «Académia», Revue de l'Académie, numéro inaugural relatant la cérémonie de l'inauguration de l'Académie par Sa Majesté le Roi HASSAN II, le 21 Avril, 1980, la réception des académiciens, ainsi que les discours prononcés à cette occasion et les textes constitutifs de l'Académie.
- «Académia», N° 1, Février, 1984.
- «Académia», N° 2, Février, 1985.
- «Académia», N° 3, Novembre, 1986.
- «Académia», N° 4, Novembre, 1987.
- «Académia», N° 5, Décembre, 1988;
- «Académia», N° 6, Décembre, 1989.
- «Académia», N° 7, Décembre, 1990.

SOMMAIRE

1ere Partie : Textes

2ème Partie : Abstracts

1ère Partie

TEXTES

ETHIQUE ET HEMATOLOGIE

Jean BERNARD

- I -

C'est pendant les campagnes d'Orient de la Première Guerre Mondiale, aux Dardanelles, à Salonique, que furent pratiquées pour la première fois sur une grande échelle les transfusions sanguines. C'était le temps des préjugés racistes très forts. On pensait alors, depuis la découverte de Landsteiner faite en 1900, qu'à chaque type humain correspondait un groupe sanguin particulier. Aux Dardanelles, à Salonique, se trouvaient assemblées non seulement des armées françaises, anglaises, allemandes, turques, bulgares, mais aussi (c'était l'époque des grands empires coloniaux) des cipayes venus des Indes, des tirailleurs algériens ou sénégalais. A de très petites différences près, la répartition des groupes sanguins était la même dans ces différentes populations. Ce fut le premier argument objectif très fort apposé *par l'hématologie aux théories racistes*.

Plus fortes encore sont les données apportées, près d'un demi-siècle plus tard, par l'histoire des hémoglobines. Là encore les premières descriptions opposaient les populations septentrionales d'Europe, d'Amérique, vigoureuses, indemnes, aux populations méditerranéennes, africaines, misérables, accablées par les maladies de l'hémoglobine. Les travaux d'Allision, analysant les relations entre l'hémoglobine S et le paludisme, ont montré : 1) que le métissage est avantageux, 2) qu'entre les hommes il n'y a pas inégalités mais différences. Tel caractère sanguin désavantageux ici, est avantageux là.

«j'ai deux amis, écrit à peu près le démographe Albert Jacquart, Martin et Mohamed. Martin, blanc, est mon voisin de palier. Mohamed, noir, habite Dakar. Martin parait tout proche de moi, Mohamed très lointain. Mais je suis malade. Une greffe de mœlle est nécessaire. L'étude des groupes HLA montre que Martin est très différent de moi et Mohamed quasi identique. C'est la mœlle de Mohamed qui me sauve la vie».

L'étude des groupes HLA avec les 600 millions de combinaisons connues a écarté les concepts grégaires de la médecine, a monté le caractère unique, irremplaçable de chaque être humain. Depuis qu'il y a des hommes et tant qu'il y en aura, il ne s'en est jamais trouvé, il ne s'en trouvera jamais deux pareils (réserve faite des jumeaux vrais).

Ainsi dans ces premiers domaines l'hématologie a pour la bio-éthique et même pour l'éthique en général valeur de modèle.

Cette valeur de modèle va être retrouvée dans de nombreux domaines.

- II -

Et d'abord du côté des *essais thérapeutiques*.

De très graves problèmes moraux sont posés par l'essai d'une *nouvelle thérapeutique*. Certes cet essai est fondé sur des hypothèses théoriques tenues pour solides, sur des résultats expérimentaux, sur des observations cliniques. Mais la première tentative est très émouvante.

Tel fut le cas en 1947 lors des premiers essais de traitement de la leucémie aiguë. La leucémie aiguë en 1947 était une maladie constamment fatale ; elle entrainait la mort le plus souvent en deux mois. Elle était tenue par tous les médecins comme une maladie à tout jamais irrémédiable. Des hypothèses de travail, des résultats d'études expérimentales et cliniques nous ont conduits, Marcel Bessis et nous-même, à envisager le traitement de ces malades par le grand échange de sang, l'exsanguino-transfusion. D'où de redoutables questions de responsabilité. L'exsanguino-transfusion n'avait été antérieurement pratiquée que sur des nouveaux-nés, jamais sur des enfants plus âgés ou des adultes. On ignorait les risques courus. L'hypothèse de travail paraissait raisonnable mais nous ne savions pas quels allaient être les résultats en thérapeutique humaine. Telles étaient les données qui s'inscrivaient contre la tentative. En faveur de la tentative, on devait tenir compte de la constante fatalité de la maladie, de sa cruauté, c'est à dire des douleurs intolérables qui accompagnent souvent son évolution. Certes, en commençant ce traitement, nous pensions à la fois à l'enfant que nous avions devant nous et qu'il fallait tenter de sauver ou au moins d'aider et à tous les enfants qui, dans l'avenir, pourraient bénéficier des progrès inspirés par cette première tentative. L'exsanguino-transfusion a été bien tolérée. Une remarquable amélioration est survenue, une rémission complète sanguine et médullaire a été obtenue. Malheureusement de courte durée. Mais ce premier succès, tout imparfait qu'il fut, a inspiré de nombreuses recherches et tentatives ultérieures avec les conséquences heureuses que l'on sait.

D'autres questions sont posées par l'éthique des *essais sur volontaires sains*. Cette éthique a été pour une bonne part orientée par les données recueillies lors des études de Jean Dausset. Jean Dausset, après la découverte du système HLA, postule l'existence d'une relation entre ce système HLA d'une part, et la greffe de tissus ou d'organes d'autre part.

La greffe la plus simple est la greffe de peau. Jean Dausset et les travailleurs de son laboratoire se prennent eux-mêmes comme sujets d'expérience et se greffent mutuellement leurs peaux de bras en bras. Les premiers résultats de ces expériences sont encourageants et paraissent confirmer l'hypothèse initiale. Mais bientôt les bras des uns et des autres sont couturés de cicatrices. Il semble raisonnable d'arrêter. D'arrêter avant d'avoir apporté les preuves formelles demandées.

A ce moment se présentent les donneurs de sang prêts à donner leur peau. Courageux mais ignorants. Jean Dausset va, en les réunissant le soir, leur apporter les informations nécessaires. L'expérience va ensuite se poursuivre dans des conditions très favorables. L'hypothèse est confirmée avec des conséquences très importantes pour les greffes de mœlle osseuse, de divers organes. Et la méthode employée est exemplaire. Les volontaires sains doivent être de vrais volontaires, des volontaires instruits, ne courant que des risques minimes, couverts par une assurance solide, enfin désintéressés, indemnisés certes s'il y a eu déplacement, perte de temps, mais non rétribués.

C'est aussi en hématologie et surtout pour le traitement des hémopathies malignes qu'a été largement développée la méthode *des essais comparés*. Méthode à la fois moralement nécessaire car on ne peut lancer un médicament sans être assuré de sa valeur, et nécessairement immorale puisqu'un malade est traité non seulement en fonction de sa maladie, mais aussi en fonction des malades du futur. On doit certes espérer pour l'avenir la mise au point d'autres méthodes. Mais en l'état actuel ce sont les essais comparés qui ont permis les remarquables progrès du traitement de la maladie de Hodgkin, des leucémies. C'est le recours insuffisant à cette méthode qui explique les incertitudes persistant dans le traitement des tumeurs solides comme les cancers du sein.

- III -

On sait l'importance, la gravité des questions éthiques posées par *les greffes, les transplantations d'organes*. Ici encore la greffe qui concerne les hématologues, la greffe de mœlle osseuse a valeur de modèle.

D'abord parce qu'elle concerne souvent un enfant. L'enfant est par définition un être en développement. Son corps change et la biologie, la médecine, tiennent compte de ces changements. Son esprit mûrit plus vite que ne le croient les adultes et la bio-éthique doit tenir compte de cette maturation.

Le donneur HLA compatible est en l'état actuel un frère, une sœur du malade, donc lui aussi, elle aussi, un enfant. Est-il permis, sans qu'il puisse vraiment donner son accord, de soumettre cet enfant au risque petit mais non nul de l'anesthésie générale ? Oui en droit, si les parents qui en ont le pouvoir donnent leur accord. Moins sûrement du côté de la morale. Les spécialistes français de greffe de mœlle osseuse, après les hésitations initiales, se sont contentés de l'autorisation des parents. dans divers Etats des Etats-Unis, un child advocate, juriste ou philosophe, est nommé, indépendant de l'équipe médicale. Il étudie les données du problème et donne ou non son autorisation.

Des questions plus préoccupantes encore sont posées lorsque n'existe pas de donneur compatible ni parmi les frères et sœurs ni sur les listes de volontaires. Certains parents dans leur détresse ont envisagé de concevoir un nouvel enfant en espérant qu'il sera compatible. D'un côté le bonheur peut être rendu à cette famille si l'enfant leucémique guérit grâce à la mœlle osseuse ou au sang de cordon de son frère. D'un autre côté les déviations, les abus, les grossesses suivies d'avortement si l'enfant n'est pas compatible et répétées jusqu'à compatibilité, les locations d'utérus mercenaire.

Mais même dans les cas favorables, quel sera le destin réel de cet enfant prothèse, de cet enfant médicament comme il a été nommé. De sérieuses études éthiques, psychologiques sont ici indispensables : «Trouve un bon docteur, dit un enfant cité par Nicole Alby. C'est un bon docteur qui n'a pas besoin de moi pour sauver mon frère». L'ordre cannibale doit être un ordre temporaire.

D'autres difficultés peuvent venir des receveurs. «Mon cœur fait donc couler dans mes vaisseaux le sang de mon frère» me disait l'an dernier une jeune fille souffrant d'une grave insuffisance de la mœlle osseuse, sauvée par la greffe de la mœlle de son frère. Et c'est vrai. La fonction majeure de la mœlle osseuse est la formation des globules du sang. Le sang qui coule dans les artères, les veines de cette jeune fille est bien le sang de son frère. Cette jeune fille est devenue une chimère. elle n'a certes pas un corps de lion et une tête de licorne. Mais voisinent dans son corps ses propres organes, son propre cœur d'une part, et d'autre part la mœlle, le sang de son frère.

Il n'y a pas que la mœlle osseuse. La greffe de foie hématopoïétique prélevé à un fœtus mort a été proposée comme traitement de graves déficits immunitaires du nouveau-né. Ces tentatives ont suscité de vives controverses et des demandes de poursuite, d'interdiction déposées devant un tribunal par des personnes craignant de voir augmenter, par ces perspectives nouvelles, la fréquence des interruptions volontaires de grossesse. Le Comité Consultatif National d'Ethique, après avoir rappelé que le fœtus doit être considéré comme une personne humaine potentielle, a distingué trois cas. 1) Autorisation lorsque la greffe de foie fœtal est la seule méthode pouvant sauver la vie d'un enfant condamné. 2) Refus lorsqu'il s'agit, à partir de tissus fœtaux, de la préparation de divers produits de beauté (cosmétiques, etc.). 3) Renvoi à un Comité d'Ethique au cas de problèmes nouveaux (pancréas et diabète par exemple).

Récemment les indications de la greffe de foie ont été réduites au profit de la greffe de mœlle. Une évolution scientifique a limité l'importance du problème moral.

- IV -

Sur les rivages de la Méditerranée, dans les grandes îles, Sardaigne, Chypre, *La thalassémie* est très fréquente et les dépenses liées au traitement des enfants thalassémiques majeurs sont devenues insupportables, grèvent lourdement le budget de ces îles, empêchent de soigner correctement les enfants atteints eux de maladies curables.

Pour limiter ces dépenses, il a été envisagé de recommander la pratique systématique au début de la grossesse du diagnostic de thalassémie majeure. Avec sa conséquence, l'interruption de grossesse si la maladie est reconnue. Décision remarquable dans ces îles très religieuses, l'une catholique, l'autre grecque orthodoxe. Décision doublement dramatique si l'on songe aux vies interrompues et si on rappelle que la greffe de mœlle osseuse, faite peu après la naissance, peut guérir une forte proportion de ces enfants. Mais elle coûte 400.000 à 500.000 francs. Ainsi s'entrelacent, en un écheveau assez infernal, données médicales, biologiques, éthiques, religieuses, financières.

Puisque le mariage de deux conjoints, chacun porteur de l'anomalie, entraîne des catastrophes pour la descendance, est-on en doit de l'interdire ? L'interdiction est une forte atteinte à la liberté individuelle. La tolérance entraînera la naissance d'enfants malheureux et condamnés. La méthode du Conseil est actuellement recommandée. On étudie le sang des jeunes en âge de se marier. On leur signale les risques. On conseille au Congolais d'aller épouser une Suédoise.

A côté des maladies héréditaires, obéissant rigoureusement aux lois de la génétique mendélienne (hémoglobinose, hémophilie), l'étude du système HLA permet dans certains cas au moins (diabète, polyarthrite) de reconnaître les prédispositions morbides. Il est à peine besoin de souligner l'importance des progrès liés à la naissance puis au développement de *la médecine de prédiction*. Pour la personne concernée, pour sa famille, la diminution du malheur. Pour les sociétés humaines, la diminution des dépenses de santé.

Mais ces progrès posent aussi des questions éthiques. De deux ordres. Les unes concernent la personne elle-même, parfois profondément troublée par la révélation de sa fragilité. Les autres concernent les sociétés humaines. Plusieurs firmes étrangères ont demandé au moment de l'embauche d'un nouveau membre de leur personnel à connaître son groupe HLA. Ceci pour refuser l'embauche s'il s'agit d'un groupe HLA comportant des risques. En France il est admis qu'en aucun cas un employeur public ou privé ne doit être autorisé à posséder des informations sur le groupe HLA de la personne qui souhaite être engagée.

Avec pourtant une réserve. L'intoxication professionnelle par le bensène (ou benzol) que connaissent bien les hématologues n'atteint pas également tous les ouvriers exposés. Si un jour les raisons de ces différences, de la fragilité de cetains étaient connues, il vaudrait mieux que, sous une forme ou sous une autre, l'employeur soit informé pour que la personne concernée soit placée dans un atelier où le benzène n'est pas employé.

En dehors même des maladies, *les progrès de la génétique* permettant d'identifier chaque être humain retiennent l'attention des moralistes, des juristes. Doublement. 1) Il est possible que l'étude des groupes sanguins et surtout du système HLA permette d'affirmer une paternité avec une certitude quasi absolue. Les généticiens, les démographes estiment qu'en Europe Occidentale 5 à 15 % des enfants sont adultérins. Il s'agit donc de nombres très élevés même si on se limite au taux le plus bas. Et aux données biologiques modernes ne cessent de s'allier des questions d'intérêts sordides ou non, les vanités blessées, les amours paternels, maternels, filials tragiquement contrariés.

2) Il est possible, par des méthodes utilisant des sondes moléculaires, des techniques d'amplification, d'obtenir, à partir de quantités très minimes d'ADN (quelques cellules, voire une cellule), une quantité très importante de la région d'ADN utile pour l'étude des polymorphes. L'ADN peut être ainsi extrait du sang, même de sang séché, de sperme, de racines de cheveux. Cette méthode a une grande importance pour l'identification d'une victime, d'un criminel. Sa valeur n'est pas encore totalement assurée.

D'où ces conséquences :

1) Seul un magistrat doit avoir pouvoir d'ordonner une enquête génétique relative à une question de filiation.

2) Demandée par le magistrat, la prescription des examens nécessaires sera rédigée par un médecin.

3) Seuls seront autorisés à pratiquer ces examens des laboratoires hautement compétents ayant reçu un agrément.

4) Devra être rigoureusement contrôlée l'intervention éventuelle de sociétés commerciales ayant pris des brevets concernant ces méthodes de diagnostic. Il paraît souhaitable d'orienter l'activité de ces sociétés dans d'autres directions (zootechnie, biologie animale).

Les hématologues songent aux graves maladies héréditaires du sang, suivent avec un grand intérêt les progrès *du génie génétique* et parfois contribuent eux-mêmes à ces progrès.

Les recherches tendant à transformer l'individu tout entier, la possibilité de changer le partrimoine génétique d'un être humain doivent être formellement condamnées.

Doivent au contraire être encouragées les recherches qui ont pour objet le transfert d'un gène dans les cellules d'un organe dans les cellules dites somatiques. On peut raisonnablement espérer corriger par ce gène introduit les graves désordres du fonctionnement de cet organe. Tels dès maintenant certains déficits immunitaires, bientôt très probablement les maladies de l'hémoglobine, à plus long terme l'hémophilie, des erreurs du métabolisme. Il ne semble pas pour cette classe exister de problème éthique important.

- V -

Le corps humain ne peut être vendu, ne peut être objet de commerce, ni en totalité, ni en partie.

En France, les hématologues français ont le mérite d'avoir, peu après la fin de la Deuxième Guerre Mondiale, refusé la vente du sang, organisé *le don du sang*. Avec le succès moral et technique que l'on sait. Cette éthique du sang donné et non vendu a ensuite été étendue aux *organes* donnés et non vendus. Cette organisation fondée sur la générosité, la solidarité, la gratuité fonctionne de façon satisfaisante en France et dans de nombreux pays.

Mais dans d'autres pays une dérive se produit. Vente du sang par des miséreux porteurs de plusieurs fausses cartes d'identité, se prêtant ainsi à des prélèvements trops fréquents d'un sang appauvri. Vente d'un organe proposée par les petites annonces de journaux de grande diffusion, enchères disputées entre les représentants de milliardaires cherchant à acquérir l'organe d'un homme juste mort.

Le développement des relations internationales, les évolutions prévues en Europe après 1993 vont très bientôt poser des questions importantes. Par exemple, quand

voisinent sans frontière des pays interdisant la vente du sang et des organes, des pays la tolérant et la recommandant. Une très grande vigilance est ici nécessaire.

Les *cellules* du sang et des organes hématopoïétiques ne doivent pas non plus être vendues. Une aventure américaine récente montre la nouveauté, la diversité des questions posées. John, atteint de leucémis à tricholeucocytes, est traité par splénectomie. Les cellules de la rate mises en culture produisent 1) l'interféron, 2) les facteurs de croissance. Lors d'échanges entre laboratoires universitaires, les tubes de cultures de John, quittant la filière universitaire, viennent en possession d'une firme privée de bio-technologie qui s'apprête à commercialiser les produits des cellules, les facteurs de croissance. John entre temps rétabli assigne devant les tribunaux la firme privée de bio-technologie et demande sa part de bénéfices. Trois réponses ont été faites :

Le Comité Consultatif Français d'Ethique officieusement saisi a rappelé que les cellules qui forment les organes ne peuvent être objet de commerce. John ne doit recevoir aucune rétribution.

Aux Etats-Unis le premier tribunal saisi a accordé à John le partage des bénéfices dûs à la vente des substances produites par ses cellules.

Mais la cour suprême en appel a cassé ce premier jugement et a considéré qu'il n'y avait pas lieu de rétribuer John.

- VI -

Cet examen des questions bio-éthiques liées aux progrès de l'hématologie a permis de définir les principes sur lesquels se fonde cette bio-éthique, le respect de la *personne* d'abord illustré par le caractère unique, irremplaçable de chaque être humain, tel que le reconnait l'étude du système HLA, le respect de la *connaissance* avec deux limitations toutefois, le moratoire indispensable dans certains cas, l'autorisation de recherches neuves accordée seulement à un petit nombre de laboratoires hautement qualifiés techniquement et moralement, en troisième lieu *le refus du lucre* qu'on vient d'évoquer, enfin *la responsabilité du chercheur*. C'est bien souvent un progrès de la connaissance qui vient régler le problème éthique posé par le progrès précédent. C'est ainsi, pour ne citer que cet exemple, que la découverte du déficit en G6PD a réglé les très difficiles problèmes moraux que posait en Californie la prévention du paludisme.

Tout ceci avec *modestie*. Au printemps de 1987 se tient au Japon un important Congrès International de Bio-Ethique. Je prononce la première conférence. L'orateur qui me succède est un éminent prêtre bouddhiste «J'ai écouté avec intérêt notre collègue français, dit-il mais je dois vous avouer que je ne connais pas les dates de sa première naissance, de ma deuxième naissance, de ma troisième naissance, ni les formes animales que j'ai revêtues au cours des métempsychoses successives. Les diverses questions posées par les procréations artificielles, le génie génétique me paraissent assez éloignées de mes préoccupations».

RELIGIONS ET GUERRE

Mohamed Allal SINACEUR

Les guerres sont dans l'esprit des hommes, et cet esprit est allergique aux défenses de la paix. Celles-ci sont mises en déroute par notre capacité à générer spontanément des «barbares». Des barbares que nous créons, dussent-ils ne pas exister. Pour l'établir, il n'est pas besoin de refaire l'histoire, ni de donner des statistiques. La fiction poétique a plus de force démonstrative dans ce domaine. Je vous invite donc à lire ce poème de Cavafy, d'après la traduction de Marguerite Yourcenar et Constantin Dimaras, publiée par Gallimard en 1958 (page 83), qui pose la question : sommes-nous capables de vivre sans barbares ? Voici le poème :

«EN ATTENDANT LES BARBARES»

Qu'attendons-nous, rassemblés ainsi sur la place ?

Les Barbares vont arriver aujourd'hui.

Pourquoi un tel marasme au Sénat ? Pourquoi les Sénateurs restent-ils sans légiférer ?

C'est que les Barbares arrivent aujourd'hui. Quelles lois voteraient les Sénateurs ? Quand ils viendront, les Barbares feront la loi.

Pourquoi notre Empereur, levé dès l'aurore, siège-t-il sous un dais aux portes de la ville, solennel, et la couronne en tête ?

C'est que les Barbares arrivent aujourd'hui. L'Empereur s'apprête à recevoir leur chef ; il a même fait préparer un parchemin qui lui octroie des appellations honorifiques et des titres.

Pourquoi nos deux consuls et nos prêteurs arborent-ils leur rouge toge brodée ? Pourquoi se parent-ils de bracelets d'améthyste et de bagues étincelantes d'émeraude ? Pourquoi portent-ils leurs cannes précieuses et finement ciselées ?

C'est que les Barbares arrivent aujourd'hui, et des coûteux objets éblouissent les Barbares.

Pourquoi nos habiles rhéteurs ne pérorent-ils pas avec leur coutumière éloquence ?

C'est que les Barbares arrivent aujourd'hui. Eux, ils n'apprécient ni les belles phrases ni les longs discours.

Et pourquoi, subitement, cette inquiétude et ce trouble ? Comme les visages sont devenus graves ! Pourquoi les rues et les places se désemplissent-elles si vite, et pourquoi rentrent-ils tous chez eux d'un air sombre ?

C'est que la nuit est tombée, et que les Barbares n'arrivent pas. Et des gens sont venus des frontières, et ils disent qu'il n'y a point de Barbares...

Et maintenant, que deviendrons-nous sans Barbares ? ces gens-la, c'etait quand même une solution».

Ou une raison de vivre.

1. Que peuvent les religions ?

Si toutes les religions du monde s'unissaient, des sous-religions issues d'elles engendreraient la guerre, après avoir suscité, de leur propre sein, des barbares appropriés. Les «guerres de religions» se produisent à l'intérieur d'une religion divisée. La réforme est un bon exemple. Mais bien avant, les sectes exprimaient des conflits, souvent d'origine non religieuse. Entre religions, on préfère parler de croisades, intervenues entre croyances très voisines, se réclamant d'un message moral identique. Les religions n'ont donc pas empêché la guerre.

Inversement on constate qu'avant ou à part les guerres de religion, des guerres furent menées pour d'autres motifs, à l'aide de formulations qui rendaient les mêmes services. Bref, étant donné «la force des choses et la nature des hommes», la religion ne supprime pas la guerre et n'est pas nécessaire à la guerre. Celle-ci semble indépendante du phénomène religieux, parce que celui-ci ne l'empêche pas, parce qu'elle lui préexiste quelquefois et parce qu'elle peut exister sans lui. C'est ce qui fait de la guerre un trait de la nature et de la paix une dimension de la culture. Ne nous étonnons donc pas si à propos de l'Irlande, du Liban et de la Palestine les violences ont pu être interprétées en corrélation avec la religion ou en contestant toute dépendance envers elle. Les liens entre ces phénomènes sont difficiles à décider.

Il en résulte que le problème n'est pas de supprimer la guerre mais de la maîtriser. De mobiliser contre elle les messages de paix inhérents aux religions. Et il est vital de maîtriser ce qui est à l'origine de la guerre, c'est-à-dire comme le rappelait Paul-Marc Henry, la violence, phénomène général qui s'empare de la jeunesse et menace, par le meurtre, l'incendie, et autres crimes et délits sociaux, l'avenir du monde comme monde humain.

Que peut-on opposer à la violence dont la guerre est la borne supérieure, et la bombe la limite absolue, apocalyptique ? Sans doute une culture de la paix. Ses premiers rudiments sont livrés par les morales des religions universelles. Morale : la Loi de l'Evangile n'est pas juridique. Mais l'ancienne Loi existe. Quant à l'Islam, il hérite des deux. Les religions monothéistes ont donc instauré un type de loi dont l'esprit réside dans le respect des engagements, donc des pactes de droit, dans le respect de la vie, etc. Si le christianisme entend dépasser la notion de droit, c'est

sans la dénier ; la loi d'amour n'est pas différente d'une loi positive.Elle est une loi en tant que commandement. Toute loi corrige, et par là, limite les pouvoirs, les abus sociaux, les exigences, toujours minimales, de l'ordre. La loi régule en réglant les actions. Le droit résout les rapports conflictuels et rentabilise l'idée de conflit, - ce qui revient à les formuler conformément à une idée «axiologique» de l'homme - à une technique de désengagement, de séparation entre les parties, puis d'arbitrage d'un tiers différent. Un tiers instruit sur une base qui suppose des partis égaux du point de vue de la loi et du droit. C'est pourquoi «jus» est quelquefois synonyme de «lex», comme l'avait bien vu Saint Thomas.

La religion est donc d'abord un ensemble de textes de référence, un pré-texte pour concevoir et revoir les normes fondamentales de la vie interhumaine comme vie soumise à des règles. Il est plus facile d'envisager ces règles édictées par une autorité surhumaine que par des hommes. La référence à la révélation rend à la société religieuse le service que l'universalité de la loi entend garantir à une société «civile». Cette idée de transcendance, inhérente à tout arbitrage, exprimée par la présence de Dieu ou par l'abstraction de la loi, traduit une vision supérieure à la vie naturelle. Une vision explicitement tendue vers l'idée de survie, de survie qualifiée, valorisée et motivante qui vise le bien de l'espèce.

L'un des problèmes est celui de la cohérence des messages entre eux. De leur compatibilité. Chaque religion vise cette cohérence pour son propre compte. Chaque religion, étant précisément porteuse d'un message immédiatement ou potentiellement légal, court naturellement le risque de vouloir légiférer pour tous. Toute idée de paix menace de se transformer en message d'exclusivisme, en paix des uns aux dépens et contre les autres, au nom de leur salut, de leur bien, ou de leur intérêt. Humaine tentation que n'inclut pas nécessairement le message originaire. C'est pour cela que je ne suis pas du tout d'accord avec la vision «science-humaniste» ou «social-humaniste» de la religion : elle réduit le message à ce qu'en font les croyants. Comme si on réduisait le football à ses supporters. Un message religieux est toujours incarné. Que serait l'Islam sans les musulmans, le christianisme sans Jésus et ceux dont il est un modèle de vie ? Mais il n'y a pas de message qui fût envisagé pour les hommes tels qu'ils sont, tels qu'ils sont déterminés par l'histoire et la géographie. Un message est destiné aux hommes en tant qu'il les invite à s'améliorer, servir d'autres hommes et échanger avec eux, créer les conditions d'une humanité future assurée au moins du meilleur de ce dont hérite l'humanité actuelle. Le message est plus fidèle aux aspirations qu'aux réalités. Il n'est pas de ces possibles qui ne font rien, mais de ceux qui, à l'instar du cerf-volant réel qui fait penser à l'aéroplane, pensent l'amélioration des hommes à partir de leurs situations et de leurs gestes les plus humbles. Cette observation induit l'idée que le droit lui-même s'enracine dans une disposition au droit, aussi robuste qu'une nature saine.

Par contre, la société est un opérateur redoutable. Elle transforme tout message en expression, potentiellement mais non nécessairement agressive, d'une particularité. C'est encore plus vrai des idéologies, des idéaux, de plus en plus confondus avec une sphère d'intérêts dont l'universalité devient particulière à partir du moment, non pas où une autre culture les conteste, mais où leur culture d'origine les conçoit, pour elle-même, avec trop de flexibilité, en faisant de leur émergence en elle un

événement nécessaire. Ainsi les droits de l'homme n'échappent-ils pas l'emprise des conflits. Ils subissent celle d'idéologies qui en restreignent la portée par le recours aux «utilités» conjoncturelles, administratives ou politiques. Eux aussi sont un message à restaurer dans sa portée authentique, une portée dégagée de l'emprise des vecteurs ou des utilisateurs qui sont, souvent, transmetteurs de résistances aux messages qu'ils transmettent. N'empêche ! On ne peut confondre un principe et ses applications. D'autant moins que les applications sont diverses et changent avec le temps. Elles sont modifiées ou modulées par les situations. Ils restent universels parce qu'ils constituent des normes, en vertu de leur applicabilité universelle, et non pas en vertu de la décision d'un utilisateur originel qui les aurait conçus à l'intention des autres. Personne ne peut légiférer, en principe pour personne, sans délibération implicite ou explicite entre plusieurs. Un réformateur musulman, Mohammed Abdou, disait à propos des anciens juristes de l'Islam : ce furent des hommes et nous sommes des hommes. C'est en ce sens que nul homme, en tant qu'homme, ne possède quelque compétence à mettre autrui sous sa tutelle. Le message que nous reprenons, nous le créons pour nous, puisque avant d'avoir été intérprété par nous, il n'«était» pas au sens propre du mot. Mais après avoir été appropié, il est universel parce qu'il fut conçu comme susceptible de servir les intérêts des autres, collectivement ou distributivement, comme intérêts non rivaux, mais capables de légitimer les intérêts des autres autant que les miens. Par suite, disons que celui qui délivre une message n'a pas d'identité, et celui qui s'identifie à un message ne peut plus le délivrer exclusivement. Si les religions aboutissent à des conflits, ce n'est pas parce que les conflits sont inhérents à la religion, mais parce qu'ils sont inhérents à l'homme, c'est-à-dire à la société humaine comme société diverse, sans régulateur naturel, sans homéostasie spontanée. Aussi les religions n'empêchent-elles pas les guerres. Et les guerres ne sont pas seulement des guerres de religion. Sans doute la plupart des hommes aiment-ils la paix. Mais haïssent-ils suffisamment la guerre ?

Les religions - comme d'autres systèmes d'idées - gagnent à se repenser dans le cadre de leurs messages plutôt que dans celui de leurs dogmes, de leurs enthousiasmes, des habitudes contractées au cours de l'histoire. L'enfant a besoin d'avenir, disait un éducateur perspicace, ce n'est pas le dernier mot de l'homme qu'il faut lui donner, mais plutôt le premier. Celui de la confiance. Le retour au message originel a d'ailleurs assuré le rôle positif de la religion dans la civilisation humaine dans son ensemble et à toute époque de son histoire précisément parce que les religions ont été institutrices d'ordres humains, instigatrices de nouveaux équilibres, de nouvelles harmonies à l'intérieur, sinon de toutes les sociétés, du moins de sociétés suffisamment vastes pour se concevoir comme modèles universels de vie spirituelle, morale, et par conséquent, sociale. S'il y a des situations où des conflits ont surgi, c'est parce que les religions ont parfois masqué des réalités économiques, des intérêts particuliers, des volontés contestables d'affirmation impériale. On l'a vu dans le cas du Liban, de l'Irlande, du conflit palestino-israélien. C'est pourquoi le rôle éducateur de la religion et sa responsabilité, dans le monde d'aujourd'hui, nous invite à ne pas confondre la religion, source de valeurs, et la société, théâtre de conflits. Un double effort est nécessaire dans ce sens : un effort de pensée de la religion sur elle-même ; et un effort de compréhension de l'autre - de l'autre religion, de l'autre culture, des autres hiérarchies de valeurs. On dit pour faire court, car il s'agit de

dialogue, forme rationnelle de la coexistence. Dans ce double effort, je vois deux moyens : cultiver la vertu de l'échange le plus exigeant et épurer l'héritage des traditions de violence qui l'ont parasité et qui peuvent être reléguées comme lectures particulières, incompatibles avec la compréhension que nous devons avoir de notre société aujourd'hui. Bref, il faut désarmer les consciences. Les consciences où naissent, par une tendance paranoïde, malfaisante, l'idée que les barbares sont toujours les autres, idée projective par excellence, dont seul viendrait à bout une conscience religieuse capable de penser la religion autrement que comme une forme de surenchère meurtrière.

Ce n'est pas chose aisée pour un monde qui se réfère encore aux croisades, qui dénonce plus facilement la barbarie d'autrui qu'il n'est lucide sur la sienne propre. Ne nous méprenons pas : notre culture réelle est une culture de guerre. L'homme développe la ruse de tourner les obstacles. Il perçoit la loi, le droit, l'exigence morale de la déclaration préalable de la paix comme des obstacles à tourner. Peut-on alors exorciser cette barbarie mutuelle entre les hommes ? Peut-on penser un monde sans barbares qui saurait quoi faire sans eux ? Si, comme disait le poète, «je est un autre», ne doit-on pas rappeler que «l'autre le barbare - est un je» ! Que le barbare est en chacun. Que c'est la raison d'être de la morale. Et de la religion. Et de toutes les grandes sagesses. La pensée morale contemporaine a dénoncé ceux qui valorisent d'autres modes de vie, d'autres formes de cultures, en rappelant, d'une part, qu'il n'y a pas de culture culturellement homogène et, d'autre part, paradoxalement, qu'il est impossible d'évacuer les conditions de la vie industrielle moderne et impossible qu'une autre culture constitue une option pour la culture industrielle. Dans ce cas, tout ce qui est réel est rationnel : le statut fait aux Indiens d'Amérique et leur sort, les traites négrières... Il y a des systèmes actuellement en essor qui barbarisent encore - sans le savoir ? - l'autre. On l'enferme dans sa culture comme dans un désespoir, on pose la forme de vie actuelle comme un absolu, mais on lui interdit l'accès propre à cet absolu. Ce faisant, l'on coupe à la racine toute idée d'obligation envers lui. Sa volonté de rejoindre la forme «supérieure» de vie que propose le monde industriel est contrariée, découragée, pour ne pas dire ouvertement combattue. Il en résulte une marginalisation qui génére le phénomène social appelé «sud». On le démystifie, aujourd'hui, comme on a démystifié le «tiers-monde» avant lui, c'est-à-dire qu'on l'évacue pour renforcer la bonne conscience hédoniste, égoïste que justifient les abus mis en question après les indépendances.

Plus profonde moralement, la pensée religieuse rejette la barbarisation raffinée. En effet, démystifier le scandale renforce le scandale. Et condamner c'est reproduire les traits structurels de ce que l'on condamne. C'est la série «paille/poutre» dont René Girard a rappelé le sens biblique : «Tu es donc inexcusable, toi, qui que tu sois, qui juges ; car en jugeant autrui, tu te condamnes toi-même, puisque tu en fais autant, toi qui juges» (Rom. 2.1.). C'est tout le problème : comment un homme peut-il condamner un autre ? Ce cycle, le christianisme a tenté de le résoudre par l'amour, l'Islam par le bel-agir, et nous, aujourd'hui, par la vertu du dialogue. Car c'est aujourd'hui que nous savons à quel point le problème de l'extinction de la race humaine est à l'ordre du jour - avec la toute première explosion atomique. C'est aujourd'hui que nous considérons que la terre est un tout, que la terre, la mer et

le ciel... constituent l'environnement de la vie dont l'homme n'est qu'une modalité, peut-être la plus faible de la nature, celle qui a le plus besoin de force artificielle, industrieuse, technique. Nous savons que l'homme est capable d'ébranler les bases qui garantissent la vie des générations futures. Nous apprenons, ainsi, que la barbarie est dans le préjugé que l'autre est barbare. Préjugé essentiel, instigateur de toute violence, comme le racisme et le sexisme. Nos préjugés, disait lucidement Alain, ne sont pas des pensées, ce sont des actions. C'est la triste force du préjugé, erreur tenance et structurée. Contre elle, nous avons les religions, les humanités, les sagesses, les cultures, dans leurs continuités historiques et leurs enchevêtrements spatiaux. Mais ont-elles tant de place dans «la civilisation» techno-scientifique où le savoir cherche l'influence, l'influence vise le pouvoir et le pouvoir courtise les intérêts ? C'est un fait : notre formule de culture moderne génère le désespoir faute d'assumer le pluralisme qu'elle prône... en le brûlant, sans accueillir les valeurs éthiques de ceux qu'elle rejette dans l'altérité.

2. La guerre comme suspension des droits de l'homme

Peut-on faire mieux sans référence aux religions ?

Sans doute. La guerre, par exemple, au nom des divers réalismes politiques. La guerre, au nom d'une nouvelle vérité. On reproche aux religions l'idée de guerre juste. Mais on a pu justifier la guerre au nom des droits de l'homme. Justifier en leur nom ce qui les suspend au nom d'autres règles, c'est une voie désormais ouverte. Que peut-on faire contre elle ?

On peut songer à une laïcité internationale. Elle n'est pas nécessairement agressive, ainsi que la pense, notamment, Michel Serres qui vient de proposer la Laïcité comme solution mondiale. Outre que l'idée peut être un défi bienfaisant à l'égard des religions exclusives et fermées, la solution préconisée oublie qu'il s'agit d'une expérience déjà essayée.

En effet, d'une part la société internationale, successivement sous l'égide de la Société des Nations puis sous celle des Nations Unies, a été conçue comme société laïque. D'autre part, l'écroulement du bloc socialiste, comme bloc militaire - et laïque -, dû en partie au rôle joué par des droits de l'homme revendiqués, promus et défendus par les religions, résulte de la primauté acquise au point de vue de l'homme dans la lutte contre le système bureaucratique et contre le système d'idées et d'organisation qui l'avait promu. Le Judaïsme a lutté au nom de la liberté de circuler pour les juifs soviétiques ; le Christianisme a combattu en faveur des libertés individuelles et syndicales, en Pologne et ailleurs ; l'Islam a servi de barrière à l'expansion des idéologies matérialistes dans les pays arabes et à l'extension du bloc soviétique vers les mers chaudes. A cet égard, l'Afghanistan a joué un rôle décisif. Auparavant, les religions d'Asie avaient milité dans la résistance du Vietnam. Elles jouent un rôle primordial dans l'évolution des mentalités en Chine. Elles militent partout pour la liberté. Bref, les religions ont enregistré un succès décisif dans le changement de la donne mondiale, dans la création de la situation mondiale que nous vivons, parce qu'elles incarnent, contre toute forme de bureaucratie, cette conviction intime décrite par l'image de la conscience.

Pour les religions, on est donc en présence de responsabilités nouvelles qui ne peuvent leur être retirées sinon en raison de nouveaux et dangereux préjugés. On ne peut les mobiliser un temps et les suspendre un autre. Elles expriment des convictions continues. Et les suspendre, c'est arrêter ce qui a renforcé de manière décisive la cause des droits de l'homme et ce qui constitue une force possible à mobiliser contre la légitimité de la guerre. C'est pourquoi, face aux nouveaux problèmes qui se posent, qui sont d'autant plus intéressants et présents qu'ils risquent de nous égarer au-delà des objectifs propres aux droits de l'homme dans le monde, nous avons à consolider les exigences du pluralisme et du dialogue entre les religions, entre religions et autres systèmes d'idées ou de valeurs. Toute lutte anti-religieuse est désormais vouées à l'échec en tant qu'elle vise à détruire les dispositions éthiques comme dispositions à réagir. Toute lutte aveugle contre les religions se heurte au besoin profond de l'individu, qui veut croire, qui vit de croire, mais qui doit aussi croire au respect de l'autre homme. C'est cela la modernité. On lui doit d'avoir pris conscience d'elle-même comme autro-compréhension religieuse de l'être humain. La Réforme s'est préparée au XIVème siècle, un siècle averroïste et probaliliste. C'est une interrogation sur le problème de l'homme comme individu singulier capable de vivre une expérience morale. L'auto-compréhension religieuse de l'être humain coïncide avec l'expérience de la scission entre foi et savoir, vécue comme nécessaire à la rationalisation éthique. C'est là la racine lointaine des droits subjectifs auxquels ont puisé nos droits de l'homme. C'est là la racine de la subjectivité qui a déterminé «la via moderna». L'idée fondamentale des droits de l'homme naît avec la liberté de conscience, pierre de touche historique de la modernité en tant que forme de vie différente de celle des sociétés féodales, matrice de notre individualisme et de notre humanisme, instigatrice aussi d'une dimension matérielle du développement social, acquise, historiquement, à la suite de la grande peste de 1348, de la grande transformation des mœurs qu'elle opéra, et du désir, désormais théologiquement habilité, de jouir des biens de la vie. «On se bat pour n'être pas affamé dit-on, pourra désormais écrire Bergson - en réalité pour se maintenir à un certain niveau de vie au-dessous duquel on croit qu'il ne vaudrait pas la peine de vivre». Il faut se garder de réduire cette tendance, comme le faisait feu M. Villey, à la demande de subvenir aux plaisirs des hommes par le droit.

Quoi qu'en disent les sceptiques, les religions sortent plutôt confortées de la période récente de notre histoire et de l'expérience intellectuelle et morale que nous venons de vivre. Elles peuvent, elles qui savent le prix moral de la vie, dire ce que signifie la guerre, comment en exorciser le démon. Confirmées dans leur principe, elles militent désormais pour une analyse plus concrète des intérêts d'autrui, ce qui n'est pas forcément moins spirituel, ce qui est, à coup sûr, une contribution à la lutte contre la guerre, puisqu'elle suppose la reconnaissance des besoins des autres, dont l'insatisfaction peut empêcher le respect des devoirs indispensables à l'exercice des droits. Elles le peuvent, car les sectes, les chapelles et les sous-chapelles, tous les ismes exclusifs ou totalitaires, quels qu'ils soient, se sont, pour le moment, affaiblis. Aurions-nous appris que la seule attitude à éviter serait d'énoncer quoi que ce soit avec une prétention immédiate à l'universalité, d'ériger une particularité en point de vue général ?

Sans doute pas encore : les religions ont elles-mêmes à donner l'exemple en se pacifiant, non seulement par le rappel des principes généraux et ouverts qui les fondent, mais par la solution des problèmes qui les opposent. Le prosélytisme en est un. Il y a une interpénétration des communautés en Europe qui mérite davantage d'attention. Si nous n'évoquons que les sujets anesthésiants, nous courons le risque d'évoquer ce qui rassure et d'être complice du pire que nous vivons, comme les pharisiens d'antan et de toujours. Or la guerre est parmi nous. Elle est dans nos silences comme dans les termes vifs ou embarrassés qui trahissent notre irritation. Il faudrait un débat continu pour que nous apprenions à dire la vérité sur la guerre, la violence et les ségrégations multiformes. C'est toute une pédagogie que bâtissent les années et qu'un seul instant met par terre. La dialogue que nous réclamons se fonde sur cette constatation et sur ses conséquences. Sur le danger de l'universalité homogène et impériale. Sur la tendance à donner et prédominer. Le dialogue n'est pas affaire de prédication religieuse : c'est une méthode de solution pour des problèmes pratiques concernant des humains condamnés désormais à s'entendre sur la village terre, des humains qui doivent, en tant que tels, croire au dialogue avant toute chose, parce qu'il est garant de survie, condition désormais d'existence et d'exercice de la coexistence. Il y a des problèmes qui ne peuvent être résolus en allant au fond des choses, par une connaissance qui exige une autre connaissance, et ainsi à l'infini. Il y a des problèmes qui ne peuvent pas recevoir de solution technique, mais seulement une décision délibérée. En matière politique et morale, les techniques sont des idées qui ne se renouvellent pas tous les dix ans, ou même tous les siècles. Les inventeurs d'idées sont rares en ce domaine. Depuis la démocratie d'Athènes, il a fallu attendre Montesquieu pour appliquer une technique de la séparation des pouvoirs, et Rousseau pour savoir que toute loi est juste. Les philosophes - tel Aristote - furent tout-à-fait conscients du régime lent de la pensée pratique. Mais c'est une spécificité de la philosophie moderne d'avoir explicitement souligné que, dans l'ordre pratique, il y a des urgences qui n'attendent pas. Qui n'attendent pas les connaissances. La connaissance, comme le rappelait le dernier grand moraliste français, Jean-Paul Sartre, est une modalité de l'avoir, et d'ajouter, citant Denis de Rougemont à propos de Don Juan, «Et il n'y a jamais assez pour avoir».

Le but de la morale est plutôt le moyen d'être -d'être homme parmi les hommes. C'était ce que voulait l'Ethique de Spinoza. La morale signifie qu'il y a toujours quelque chose à faire et qui urge d'être faite. Sartre rappelait encore que la morale kantienne fut la première qui substituât le faire à l'être comme valeur suprême de l'action. Mais s'il y a une raison pratique, c'est qu'elle gouverne un principe de bonne volonté, qui n'a pas besoin de tout savoir pour agir, ni, en attendant de tout savoir, ne peut se réclamer de principes régis uniquement par l'intérêt et par l'utilité. Quoi qu'il en soit, la situation morale signifie que rien ne peut être résolu par un acte immédiat, individuel, mais par une visée universelle. C'est là où nous nous distançons de Kant, de la solitude et de la rigueur de la conscience. La conscience ici est exigence de transparence partagée. Par suite de discussion. C'est vrai pour les individus, pour les nations et entre les nations, et pour toutes les formes de groupes, d'associations et d'entreprises. La délibération individuelle n'est plus que la forme moléculaire d'instances délibératives. L'universalité est comme la justice : elle n'est que distributivement ou commutativement.

3. La seule issue

Nous ne pouvons contourner la nécessité de discuter. Cela ne veut pas dire que la discussion est facile. Mais c'est un bon principe, difficile à appliquer et tout d'exécution. Nous aurons peut-être un jour une ingénierie du dialogue et de la discussion comme on a des experts en communication et en négociation. Mais le moyen de résoudre des problèmes doit être immédiatement recherché pour être mis en œuvre, à quelque échelle qu'il puisse se placer. Ce moyen n'est autre que ce commerce humain appelé dialogue et qui peut se diversifier à l'infini, s'exprimer à travers des situations dont on peut inventer autant de modèles qu'on voudra. Il ne peut, à mon avis, y avoir une autre façon de maîtriser les choses que l'éducation au dialogue, ne peut être développée que par une motivation continue, une sensibilisation ininterrompue et produire un jour des Etats désarmés comme les individus de la société civile. La vertu du dialogue n'est pas renoncement aux intérêts légitimes, mais compréhension et partage rationnel. Elle n'assure pas le salut ou le bonheur de l'individu, mais le bon partage. On peut cultiver le dialogue comme jeu aussi et à travers des jeux plus conflictuels comme executoire approprié pour connaître les conflits. S'il n'y a pas d'existence qui ne soit une coexistence, une interpellation, une réponse et une correspondance, alors le dialogue réel entre hommes qui acceptent l'autre comme principe et source de liberté, avec tous les droits qui lui reviennent - y compris celui de s'égarer, avec tout le respect dû, à condition qu'il discute - est incontournable.

Les progrès des droits de l'homme dans le monde doivent être les progrès de l'esprit du dialogue, non de l'«anathème» - ségrégation verbale qui prépare la séparation sanglante, ni de l'«instrumentation», à des fins politiques, des valeurs et du droit devenu absolu comme s'il était un savoir. En effet, en matière de droit, ce n'est pas le savoir qui règne, mais l'homme. En matière de savoir, l'obéissance de l'homme exige une redoutable police. L'homme qui veut la paix par le droit est un homme qui croit savoir le droit et qui donc rejette l'arbitrage. Les droits de l'homme doivent être autre chose qu'une nouvelle théologie. A l'heure où les théologies s'ouvrent les unes aux autres, les droits de l'homme gagnent en «positivité». C'est le cas lorsque les droits nationaux les intègrent, affirmant ainsi, implicitement ou explicitement, et indéfiniment, la primauté de l'universelle délibération par rapport à la souveraineté nationale. Cette intégration les conforte au niveau local, pourvu que la pratique suive, et au plan global, à condition qu'y soient respectées les instance de justice et que soient promues les institutions qui assurent la fonction de conciliation et d'arbitrage pour la prévention des conflits, c'est-à-dire des ruptures des pactes de droit. Mais au niveau international, il ne suffit pas de dire qu'il ne faut pas frapper, mais plaider ; il faut garantir qu'on peut plaider. Car on réalise ainsi que le droit n'est pas responsable des choses qui ne sont pas du droit, mais seulement envers d'autres droits qui, ent tant que droits, permettent de créer la similitude des cas que le droit prescrit de traiter de la même manière. Les organisations internationales devraient être davantage articulées sur cette exigence, celle du dialogue et du respect mutuel.

Un tel progrès existe. Objectivement. On le voit, par exemple, à travers cette décision de la Cour Internationale de Justice en 1970 qui avait estimé que «les principes et les règles concernant les droits fondamentaux créaient des obligations erga omnes et que tous les Etats devaient être considérés comme ayant un intérêt juridique à la protection de ces droits». Autrement dit, il y a quelque chose qui, jusqu'ici pouvait se heurter à une notion de souveraineté, et qui maintenant est élevé au statut d'une norme impérative du droit international «jus cogens». Ce n'est qu'un exemple parmi d'autres, celui dont nous venons de discuter, à l'UNESCO, dans le cadre d'un panel consacré au thème «Droits de l'homme et ordre public international» le 13 Décembre 1990, avec la participation de MM. Louis Henkin (Columbia University), Mohamed Bennouna (Rabat, Maroc), Maître Louis-Edmond Pettiti (Paris), M. Mohammed Bedjaoui (Cour Internationale de Justice de La Haye) et M. Alexandre Movchan (Académie des Sciences de L'URSS). Mais l'on peut analyser en profondeur les tendances actuelles par une analyse de l'évolution du droit des droits de l'homme.

L'aujourd'hui mentionné par la phrase de Vatican II que j'exprimais tout-à-l'heure, peut être l'aujourd'hui des droits de l'homme comme base technique qui nous éloigne de la violence intérieure et des guerres extérieures. Les droits de l'homme peuvent être épurés de toute idéologie et mis au sommet de toute «hiérarchie des valeurs». La paix ne s'opposerait plus aux droits de l'homme et les droits de l'homme ne seraient plus au-dessus de la paix. Leur seule limite actuelle est désormais la guerre qui les suspend ou les annule pour ne plus savoir, convaincre ou contraindre par des poyens appropriés mais non violents aux droits de l'homme. Nos valeurs les plus chères sont bafouées dès que les armes parlent. Les droits individuels ou collectifs sont aussitôt suspendus.

Plus que jamais doit s'engager la discussion, qui n'a pas eu lieu en Europe mais qui a été amorcée aux Etats-Unis, sur le droit à la guerre pour protéger la liberté des individus et des peuples. On s'acharne sur le concept de jihâd en Islam. Mais on justifie la guerre et on la déclare morale, dans la grande presse, en manipulant avec une dextérité assassine l'idée de guerre juste. Erreur au-delà... Vérité en deçà ! C'est pour cela que je reviens à cette phrase prémonitoire de Vatican II qui anticipe et résume la finalité suprême d'un débat comme le nôtre. Il porte sur le fait que la paix est aujourd'hui discutée dans un horizon tout à fait nouveau. C'est le fait que l'ordre du droit ne peut être inauguré par une déclaration de paix. Ce n'est pas une faiblesse, mais le défi suprême de la force. Force de la raison.

Je salue les progrès, réalisés dans la positivité du droit, des droits de l'homme auxquels la morale religieuse a longtemps préparé. Par rapport au XIXè siècle, l'opposition entre droits étatiques et droits humains n'a plus le caractère dramatique qu'elle avait même pour un Nietzsche. Nous la résolvons en renforçant les droits de l'homme. Reste à résoudre le problème de la paix, à développer une culture et une action de la paix. Je dis bien une culture. Car religion et culture c'est presque tout un. La culture permet de ne pas persécuter si l'on ne peut convertir. Elle donne à la religion de nouveaux moyens pour lutter contre le fanatisme, le vide de l'homme religieux, de même que la religion combat le scepticisme, qui affaiblit la vertu de l'homme de culture. La culture permet donc de renoncer à convertir, sans renoncer

à discourir, à discuter, à argumenter, à chercher. La recherche est peut-être plus belle que la vérité qui, elle, veut tout avoir, comme la beauté qui ravit tout. Les humanités - non seulement religieuses - sont indispensables à la culture de la paix qui peut mobiliser l'ironie. Les grandes époques de l'histoire ont été ferventes et humanistes. Cultures et religions peuvent contribuer à l'affermissement de l'esprit de paix qui n'est ni une culture de la platitude ni une catéchèse. C'est plutôt la ressource de consciences fermes, capables de dire non aux menaces qui risquent de mener l'humanité au pire, au moment où celle-ci peut presque tout maîtriser - même sa reproduction, son hérédité et son système nerveux. A moins de se résigner à penser d'autant moins que le savoir augmente, à avoir d'autant moins de caractère que nos techniques s'affinent ! Je gage que le dialogue a l'avenir devant lui. Nons pas un avenir sans conflits, mais un avenir de réflexion pour mieux maîtriser les conflits. La quête d'une nouvelle sagesse. L'ensemble des valeurs qui résistent à la guerre. Pour les hommes les plus humbles, seul vaut cette voie sublime. Car nul homme n'est humble.

Seules les religions peuvent le dire, avec confiance et ferme conviction, au moment où la guerre est devenue mise en question de l'humanité. Elles devraient le dire, toutes, pour prévenir les conflits actuels et ceux qui couvent, à l'intérieur des nations et entre elles. Des Etats généraux de toutes les religions du monde, avec des commissions sur les conflits en cours, doivent d'urgence discuter, pour concéder et pour persuader, afin qu'à leur exemple nous n'appelions point paix ce qui est guerre. Des conférences et des débats suivis, sur les religions et la culture de la Méditerranée, peuvent sensibiliser au caractère organique de la solidarité des rives de ce lac, et donner davantage de crédibilité aux propos sans effets et sans lendemain de ceux qui utilisent, à des fins de surenchère politique, ce thème précieux.

LA NATURE MEPRISEE

René-Jean DUPUY

Une étrange épidémie dans un port japonais. 5400 victimes dont plus de 500 disparaissent. On découvre que les poissons, base de leur alimentation, ont assimilé des rejets mercuriels. Cette tragédie de Minamata inaugure, en 1953, la litanie désespérante des désastres écologiques : Sévezo au Pièmont, Love Canal dans l'Etat de New York, Bhopal en Inde et d'autres lieux dégradés par rebuts d'industries meurtrières. Dans le même temps, des pétroliers génants à la barre indécise se brisent sur des roches et de leurs flancs crevés déversent leur souillure et livrent des rivages aux embruns de la mort. Images ineffaçables de poissons décimés rejetés par les vagues sur des plages engluées d'où les oiseaux de mer ne s'envoleront plus.

Le nuage d'Hiroshima n'en finit pas d'éclore dans l'arrière-fond des âmes. Son image suffit à tenir en otages les peuples de deux mondes. Leur mutuelle angoisse les sauve de la guerre, mais non de Tchernobyl qui essaime ses traces des rizières de Chine au thym de la Provence.

Mais, hors les catastrophes retentissantes, la lente mélopée des injures constantes faites à l'environnement ne trouble qu'en surface la molle indifférence de nos contemporains. Convaincus qu'un dommage localisé n'atteint jamais que l'autre. Sans réaliser que la multitude des points d'impacts bouleverse les équilibres écologiques qui conditionnent la vie sur la planète.

Les rapports que l'homme entretient avec la nature ont évolué dans la contradiction. L'Antiquité la peuplait de divinités : les bois, les vents, les roches et les eaux en étaient les refuges et se confondaient avec elles. Tout était sacré, sauf l'homme. Avec le judéo-christianisme, la sacralisation de l'homme s'accompagne du transfert de la nature au profane. Ce qui ne justifiait pas sa profanation. De fait, sa glorification n'a jamais cessé. Chez les religieux, Saint François en a chanté le magnificat et Theillard de Chardin a exalté la «sainte matière» que le Christ est venu revêtir. Jean-Jacques rêve de «s'enivrer à loisir des charmes de la nature» et pour le Romantisme, elle «est là, qui l'invite et qui l'aime». Mais le XIX^{e} siècle voit aussi surgir un Prométhée positiviste, avide de changer le visage de la création et disposant à cette fin d'industries tentaculaires et salissantes dont l'essor donnera une expansion illimitée à la dégradation du milieu humain. Et John Steinbeck s'écriera : «mes compatriotes traitent la nature comme une putain».

Le comportement des hommes les situe, selon une vision dualiste, à côté de l'univers. Les écologistes sont perçus par la masse comme les adeptes de sectes confuses traînant des relans pétainistes du retour à ma terre à la terre ou la nostalgie de quadragénaires soixante-huitards. Images caricaturales, signes d'une insouciance persistante qui ne veut pas voir que la pollution généralisée affecte non les écologistes mais l'écologie et, par elle, l'ensemble de l'humanité. L'homme consentira-t-il à réintégrer l'univers ? Son rapatriement au sein du Royaume de la Terre suppose une conversion. Celle de l'intelligence.

Réaliser que le ciel, la terre et la mer sont à tous, que nul ne peut s'en approprier une parcelle pour la corrompre, c'est prendre le contre-pied de la démarche usuelle. On peutr admettre que certaines ressources ne sont pas renouvables et doivent être protégées ; mais il est plus malaisé de concevoir que l'eau, la pluie elle-même, pourraient venir à manquer. La mer, longtemps tenue pour incorruptible et vouée à laver les souillures du monde, ne requiert que depuis trois décennies l'attention du droit. On commence à peine à découvrir la parenté des eaux douces, unies au-delà de la diversité des sources, dans les soubassements de la terre. Comme Claudel l'avait pressenti :

L'eau
Toujour s'en revient retrouver l'eau
Composant une goutte unique[1].

La réconciliation de l'homme et d'une nature mal connue, dans laquelle il vivait en exil, implique la promulgation par l'Etat de lois de sauvegarde. Mais celles-ci n'ont d'efficience que si elles se complètent de mesures issues du concert des Nations.

Dans un univers qui les condamne à vivre désormais dans une close intimité, la tradition du «chacun pour soi» doit s'éteindre. Or la licence qu'elle autorise procède de la propriété pour les individus, de la souveraineté pour les Etats. L'archéologie du droit de l'environnement le situe, par la force des choses, dans les rapports de voisinage. Déjà pour le droit romain, l'exploitant d'une fromagerie ne peut diriger ses fumées sur les terrains qui l'entourent. Au XVI^e siècle, le Parlement d'Aix-en-Provence juge qu'un avocat est empêché de travailler par les chansons d'un cardeur. La proclamation par la Déclaration de 1789 du «caractère sacré et inviolable du Droit de propriété» ira à l'encontre de cet assujettissement du propriétaire au respect de son entourage. Mais l'essor de l'industrie orientera l'exercice des facultés attachées à la propriété vers une fonction sociale. Evolution lente et difficile. Pendant longtemps, le titre le plus sûr à se plaindre en justice d'une pollution est celui du propriétaire, dès lors que la jouissance de son domaine est contrariée par l'intoxication de son air et de son eau ou par toute dégradation imputable à l'un de ses voisins. Privilège exclusif du maître du fonds dont ne peut se prévaloir de locataire. Ainsi la nature n'est-elle pas protégée pour elle-même. Le droit ne la prend en compte qu'autant qu'elle constitue l'élément d'un dominium. Aujourd'hui encore, des juridictions admettent que l'on puisse polluer l'eau qui nous appartient.

(17 Deuxième Grande Ode, cité par J. Onimus, Essais sur l'émerveillement, PUF, 1990, p. 97.

Cependant, cet égocentrisme juridique a toujours été doublé par la prise en considération de l'intérêt général dans l'organisation de la vie urbaine. De l'Antiquité à nos jours, la police de la salubrité et de la santé publiques réglemente un nombre croissant d'activités génératrices de nuisances. Mais il faudra attendre les années 70 pour que la recherche d'un environnement sain soit assortie d'un appareil législatif et institutionnel spécifique.

Dans les rapports des Nations le mouvement du droit a été comparable. La souveraineté a longtemps justifié l'entière liberté de l'Etat dans la gestion de son espace. Et c'est pour assurer la réparation des troubles de voisinage qu'il en est venu à sanctionner les atteintes à l'environnement. Un arbitrage célèbre, intervenu en 1940, entre les Etats et le Canada (Trail Smelter Case) consacre la règle essentielle : un Etat est responsable des dommages causés à l'étranger, à partir de son territoire. Comme il fallait s'y attendre, la lutte contre les pollutions s'est concentrée sur des zones et des secteurs bien déterminés. Le mouvement naturel des gouvernements les porte à ne se préoccuper que de ce qui affecte leur territoire ou la région internationale à laquelle ils se rattachent. Mais les dégradations causées à l'environnement se sont multipliées à un rythme tel qu'ils ont dû conclure toujours de nouveaux accords, au point qu'en 1989 on en dénombrait un millier. Le buissonnement normatif créé par ce réseau conventionnel démontre à l'évidence combien l'alerte de la conscience des Nations a été vive. Sans doute est-on parti d'abord sur l'idée de dommage à réparer. Mais la recherche d'un responsable, outre qu'elle n'est pas toujours aisée, n'aboutit pas, dans tous les cas, à la remise d'un milieu dans son état premier. La prévention se révèle donc l'objet majeur de tout traité de sauvegarde.

Les pollutions qui, à partir de la terre, du ciel, des navires, dégradent la mer, lui ont restitué sa valeur emblématique de ferment de vie. Nous savons maintenant que le milieu marin conditionne l'avenir du milieu humain, que la mort des mers et des océans chasserait vers les terres centrales des populations fuyant des rivages corrompus par la puanteur exhalée par la masse liquide. Les hommes avaient pourtant été enseignés : «Au commencement l'Esprit de Dieu soufflaient sur les eaux». L'esprit de l'homme, éperdu de l'orgueil faustien, l'a oublié et le voici aujourd'hui terrifié de cette perte de la fabuleuse innocence de la création.

Ici encore l'imagination s'est montrée créatrice. Depuis les années 60 sont intervenus des accords couvrant des zones déterminées : Mer du Nord, Baltique, Méditerranée, Golfe Persique, Afrique de l'Ouest et bien d'autres. Dispositions détaillées, de haute technicité et comportant des organes permanents (commissions, secrétariat) chargés d'en assurer le suivi. Ces réglementations localisées de la pratique des Etats revêtent une portée inégale. Si certaines, comme la Convention OCDE sur l'immersion des déchets radiologiques, institue un mécanisme de contrôle, si la Communauté européenne organise l'harmonisation des législations des Etats membres pour la sauvegarde des eaux alimentaires, d'autres n'on qu'une valeur incitative. Celles-ci tiennent cependant de la compétence technique des experts qui les ont préparées, une autorité réelle. Sont ainsi établies des règles de conduite requérant des Etats l'évaluation préalable de l'incidence sur l'environnement international de toute nouvelle activité critique (étude d'impact) et met à leur charge un devoir

d'information et de consultation préalable. Mise en œuvre latérale de la solidarité écologique ressentie dans certains secteurs à l'échelle régionale. A ce stade, l'intérêt de l'humanité n'est guère en vue. Tout au plus peut-on soutenir qu'ils sont indirectement servis, dès lors que la multiplication des conventions particulières finit par profiter à la communauté internationale.

Au-delà des pollutions transfrontalières, c'est l'ensemble de l'environnement humain qui doit être investi par des normes globales. C'est pourquoi, s'est tenue à Stockholm en Juin 1972 la Conférence qui marque l'avènement d'une conscience planétaire. Pour la première fois, l'avenir de l'espèce était pris en compte selon une vision globale. On découvrait que l'homme pouvait agir contre l'humanité. Les conduites à suivre pour sauver le milieu terrestre et circumterrestre appelaient désormais une mobilisation générale. L'environnement qui, jusque-là, ne semblait souffrir que des blessures localisées, du fait des servitudes de la proximité, était enfin perçu comme l'englobant qui fait de tous les peuples les voisins des antipodes. De Stockholm partait l'alerte commune : «Nous n'avons qu'une seule Terre». L'humanité forme une communauté biologique. N'en voir qu'une parcelle condamnerait le tout.

Cette conférence donnait corps à une entreprise culturelle. Les maximes qu'elle énonce pour définir les comportements attendus des Etats, des multinationales, des individus, pour prévenir ou combattre la dégradation de l'enceinte, procèdent d'une disposition intérieure, d'une écologie profonde qui fermente au sein des consciences pour se projeter dans des normes. Toute civilisation n'est-elle pas le résultat d'un certain travail de la culture sur la nature ?

La philosophie juridique de l'Acte de Stockholm contredit les traditions du droit des gens. Sans doute reconnaît-il que l'Etat reste maître de la gestion de ses ressources naturelles. Mais cet hommage rendu à sa sauveraineté ne concerne que ses organes, seuls qualifiés pour agir en son nom sur son territoire. Pour autant, l'exercice de ses compétences n'est plus livré à son bon plaisir. Comme disent les juristes dans un langage d'une rigueur parfaite, cette compétence n'est plus discrétionnaire, elle est liée. Mais alors qu'une telle obligation ne peut être mise à la charge d'un Etat que par un traité, acte dont la procédure complexe a pour objet de garantir le signataire contre tout engagement souscrit à la légère, les préceptes de Stockholm ne sont pas coulés dans un tel instrument. Ils semblent n'avoir d'autre valeur que celle de directives plus proches du vœu que de la loi. Mais une déclaration ne procède pas de la législation, elle la précède. Car elle tient de la révélation. Les vérités qu'elle proclame au plan métajuridique doivent inspirer la production de normes. Elles doivent aussi en guider l'interprétation.

Le primat de l'humanité peut s'imposer sur deux plans :
- Elle délègue aux Etats la gestion nationale ou régionale de l'environnement.
- Elle assume elle-même la question des ressources collectives d'environnement.

L'humanité délègue

La sauvegarde du bien commun universel assigne à l'exercice du pouvoir étatique

une finalité : prévenir les pollutions, respecter, voire rétablir des équilibres écologiques à l'intérieur de ses frontières. La souveraineté cède ainsi la place à des compétences fonctionnalisées. Telle est du moins la conclusion à tirer de la Déclaration de principes et du Programme d'action adoptés à Stockholm pour inciter les Etats à s'affranchir des réflexes archaïques de l'individualisme et à se situer dans une perspective communautaire. La souveraineté, notion forgée dans un temps où les Etats étaient maîtres de contracter ou de s'ignorer, n'est pas sensible à l'interdépendance écologique ni à la solidarité qu'elle prescrit entre les Nations. Ce régime ne correspond plus au système de cohabitation que l'exiguïté du monde impose désormais à toutes. Dès lors, si un gouvernement, en ne protégeant pas son environnement, menace celui des autres, il pert sa légitimité. Cette vision communautariste implique l'idée d'une gestion déléguée à chaque Etat sur son territoire par l'humanité, elle-même investie du domaine éminent sur l'environnement planétaire. On retrouve ici, chez les Etats, ce dédoublement fonctionnel que Georges Scelle avait analysé dans d'autres domaines, mais qu'il eût sans nul doute appliqué à celui de l'environnement. Car, par lui-même, il a une double nature : territoriale et transfrontalière.

Le conditionnement des conduites des Etats pour la préservation de l'environnement rejoint diverses tentatives de réduction de la souveraineté dans d'autres secteurs. Pour le maintien de la paix, en 1945, avec la Charte des Nations Unies qui prohibe le recours à la force pour favoriser le développement, dans les années 60, afin de limiter la libre expansion de la puissance économique, aux dépens des pays pauvres. Mais alors que dans ce dernier cas, on s'efforçait d'assujettir les pays industriels à des règles de comportement destinées à introduire plus de justice dans les échanges internationaux, la gestion d'un environnement sain appelle des normes s'imposant sans discrimination à tous les Etats. Démarche analogue à celle requise pour la sauvegarde de la paix. La colombe est leur emblème commun : celle de Noé, comme celle de Picasso, porte un rameau d'olivier.

Canaliser ces Etats dans la gestion de leurs ressources écologiques dans l'intérêt de l'ensemble de la Cité terrestre, n'est-ce point intégrer ces ressources dans le patrimoine commun de l'humanité ? La Déclaration de Stockholm n'utilise pas l'expression, mais son contexte la suppose. Dès le premier article, apparaît un élément essentiel de la notion : l'homme a le «devoir solennel de protéger et d'améliorer l'environnement pour les générations futures». Et selon l'article suivant : «Les ressources naturelles du globe, y compris l'air, l'eau, la terre, la flore, la faune et particulièrement les échantillons représentatifs des écosystèmes naturels, doivent être préservés dans l'intérêt des générations présentes et à venir». Référence à la double nature, interspatiale et intertemporelle, de l'humanité qui, on le sait, réduit les gestionnaires de ce jour à la condition d'intendants, responsables à l'égard de ceux qui viendront. Responsabilité terrible.

> *«Nous n'avons pas hérité la terre de nos ancêtres, dit un proverbe de l'Inde. Nous l'avons empruntée à nos enfants».*

Ce patrimoine de l'humanité postule au moins le devoir de conservation de la ressource. Principe qui se retrouve dans diverses conventions, comme celle qui, en 1979, déclare la faune sauvage, dans ses formes innombrables, un élément

irremplaçable des systèmes naturels, ou, aussi bien, comme la Charte mondiale de la nature, adoptée en 1982. Ainsi, s'instaure une philosophie qui acquiert l'égalité entre les générations, détruire à jamais un bien d'environnement, c'est peut-être assassiner nos petits-enfants. Le patrimoine de l'humanité est déjà le leur.

Pour autant, l'humanité ne disposant pas, dans ce régime le plus répandu, d'une structure de pouvoir : le contrôle de l'application des conventions est, comme la gestion des ressources écologiques, confié aux Etats signataires, sur un plan réciproque, selon les traditions du droit international classique. Dans les commissions établies par voie diplomatique, ils demandent des comptes aux co-contractants suspects de méconnaître les normes et avisent tous les autres de leurs conclusions. Ils mettent aussi en cause, si des dommages ont été causés, la responsabilité de leur auteur. Quoique ces procédés restent ceux de l'individualisme interétatique, une application d'inspiration communautaire devait en être faite dès lors que l'esprit de Stockholm assigne pour finalité le service de l'humanité à l'exercice des compétences étatiques, territoriales ou conventionnelles. Si cette finalité commande l'interprétation et l'exécution de l'ensemble du droit international de l'environnement, tel qu'il est issu des nombreux accords intervenus durant ces vingt-cinq dernières années sur le plan sectoriel, une approche globale reste nécessaire pour assurer la gestion des ressources collectives d'environnement. Elle exige une gestion non plus déléguée aux Etats par l'humanité, mais retenue par elle et mise en œuvre à travers une structure de pouvoirs.

L'humanité gère

De la conservation de la biosphère dépend non le bien-être, mais la survie de l'espèce humaine. Or sa sauvergarde ne peut être obtenue par des mesures nationales ou régionales. Seule une détermination planétaire peut répondre aux périls. La biosphère est désormais notre nouvelle frontière. Elle est pour l'homme la présence totale. On doit tirer deux conséquences de cette dépendance biologique.

Avant tout, elle donne son plein fondement au droit de l'homme à un environnement sain. Les conditions naturelles de la vie sur cette terre font, dans l'ordre biologique, de chaque homme le membre d'un seul peuple. Réalité objective que l'imaginaire ne percevait pas naguère encore mais qui est devenue une donnée de l'évidence. Le droit à la vie trouve son prolongement inévitable dans le droit à un environnement qui assure aux individus et aux peuples leurs chances d'accomplissement. C'est bien pourquoi les en priver constitue un crime contre l'avenir. Chacun a donc un droit égal à jouir de sa biosphère et le devoir corrélarif de la respecter.

Il en résulte, en second lieu, une solidarité écologique universelle. La sauvegarde de la biosphère ne peut se réduire à une série d'interdits. Elle postule, avec une alerte permanente, une mobilisation des gouvernements, des organisations internationales, gouvernementales ou non, des industriels, des experts et la mise en place de leur participation à des structures dotées de pouvoirs superétatiques.

On sait les menaces qui résultent pour l'atmosphère des gaz à effet de serre :

2.000 tonnes de Co s'échappant par an dans l'atmosphère empêchent la chaleur accumulée par la terre durant le jour, de s'échapper pendant la nuit. Si le phénomène se prolongeait, il serait susceptible d'entraîner un réchauffement de la planète. L'opinion publique a été informée des transformations spectaculaires que pouvait produire ce phénomène : élévation du niveau des océans, bouleversements climatiques (les Etats-Unis risqueraient de se déssécher, tandis que des cyclones sans précédent ravageraient les tropiques). A cette menace s'ajoute celle qui pèse sur la couche d'ozone qui, située à 25 km de la surface de la terre, assume un rôle vital pour l'humanité en filtrant les rayons du soleil, en particulier les ultraviolets. Or, à certaines époques de l'année, s'y produisent des trous, spécialement au-dessus des Pôles, et le rayonnement solaire tombant dru, risque d'entraîner le déséquilibre de la biosphère et divers dommages à la végétation et aux hommes, exposés alors à une généralisation des cancers de la peau. Encore que les scientifiques divergent sur l'évaluation de ces dangers, la dégradation de la couche d'ozone est imputée à un produit chimique, le chlorifluoro carbone (CFC) utilisé notamment dans les réfrigérateurs ou pour l'isolement thermique (polystyrène). On observe qu'il en fait un très large usage dans les pays industrialisés, mais aussi dans le Tiers-Monde. On ne peut négliger non plus la présence persistante dan la haute atmosphère d'éléments radioactifs, résidus des expériences nucléaires des années 50 et 60. Enfin, à la suite de Tchernobyl, on rappelle que la durée d'activité du strombium 90 est supérieure à 100 ans.

Cette série de menaces n'a pas laissé en repos l'imaginaire des Nations. Une résolution de l'ONU sur la protection des climats du globe, reconnaît leur évolution comme «une préoccupation pour l'humanité». Les conventions de Vienne, en 1985, et de Montréal, en 1987, se proposent, en fixant des quotas, de réduire les activités industrielles susceptibles de causer des dommages à l'atmosphère.

Mais l'événement le plus marquant reste la Conférence qui a rassemblé à La Haye 24 Etats et qui s'est achevée, le 3 Avril 1989, par une Déclaration, solennellement reproduite dans la presse des pays signataires.

«Notre pays c'est la planète»

En exergue de ce texte, cette formule situait l'étendue de son ambition : restaurer et protéger la qualité de l'atmosphère. Pour y parvenir, il est urgent de

«créer une autorité nouvelle, dotée de vrais pouvoirs de décision et d'exécution»

à laquelle les signataires se disent prêts à déléguer une part de leur souveraineté nationale pour le bien commun de l'humanité tout entière. Cette reconnaissance de la nécessité de l'instauration d'un pouvoir superétatique prend la valeur d'une conversion de la part d'Etats peu enclins à ce type de sacrifices. Sans doute, les Douze ont-il consenti à des transferts de souveraineté en faveur de la Communauté européenne. Mais ils se placent dans un cadre régional relativement étroit alors que les 24 gouvernements réunis à La Haye émanent des diverses parties du monde et entendent être les pionniers d'une mission qui appelle la participation de la communauté de l'ensemble du globe.

Admettre que la restauration et la préservation de l'atmosphère exigent lémergence d'un pouvoir, c'est rejeter le modèle traditionnel de l'organisation

internationale, cadre ouvert à la coopération entre les Etats, pour y substituer une structure de subordination leur imposant les mesures de gestion décidées par elle. La Déclaration renvoie à une Conférence ultérieure le soin de créer cette Autorité dont le projet est ainsi lancé comme un défi dans l'imaginaire des Nations. On peut concevoir un modèle idéal de pouvoir pour la protection de l'atmosphère. Son efficacité dépend de la mise à sa disposition de trois séries de moyens principaux.

- Des moyens scientifiques, car nulle politique ne peut être définie sans la connaissance des périls et des remèdes à leur appliquer. Ils se concentraient dans un organe, Haut Conseil ou Commission scientifique, composé de personnalités indépendantes, choisies à raison de leurs compétences dans les différents domaines du savoir, liés à l'étude de l'atmosphère, chargés d'organiser la veille de l'humanité. Leur mission est avant tout l'alerte, complétée par le pouvoir de dénoncer les comportements des Etats contrevenants aux normes édictées par l'Autorité.

- Des moyens normatifs. Ils comportent des dispositions générales prescrivant des orientations et des actions à long terme et des réglementations techniques, les unes et les autres définies par une Assemblée groupant tous les Etats. Proposées par l'organe scientifique, elles revêtent aux yeux de cet organe politique une valeur considérable. Cependant, pour les faire siennes, il sera conduit au préalable à en évaluer les incidences économiques et humaines. Compromis inévitable sauf pour les Etats, à se saborder au profit d'un pouvoir technocratique sans partage, hypothèse pour l'heure inimaginable. Un Conseil restreint permanent, représentatif des différentes catégories d'Etats et composé de délégués dotés de compétences techniques, assurera la liaison entre l'organe scientifique et l'échelon politique établi dans l'Assemblée.

- Des moyens financiers dépassant le seul fonctionnement administratif de l'Autorité. Il faudra, en effet, que les charges impliquées par la discipline imposée aux Etats pour le bien commun, soient équitablement réparties. Un fonds pourra ainsi verser des compensations aux pays en recherche de développement, contraints de supporter certains sacrifices au profit de l'atmosphère, Ce n'est qu'à ce prix qu'on obtiendra leur participation à ce système qui doit être non seulement global mais total. Rassembler les puissances industrialisées suréquipées (Les Etats-Unis et l'Union Soviétique n'étaient pas à La Haye) et les pays pauvres, mal équipés, les unes polluant l'atmosphère par l'abondance des sources d'énergie, les autres par la mauvaise qualité de celle-ci. Au surplus la représentativité de l'institution envisagée devrait gagner à faire une place à l'Assemblée, au moins à titre d'observateur avec droit de parole, à d'autres qu'aux seuls Etats, aux organisations non gouvernementales exprimant les points de vue de tous les milieux concernés : entreprises énergétiques ou industrielles, mouvements d'opinion interprètes de l'inquiétude de l'humanité.

Un tel schéma sortirait assez amendé des négociations internationales qui l'auraient pris pour base de travail. Il ne saurait cependant, sauf à trahir la Déclaration de La Haye, être réduit à l'image dérisoire d'une institution condamnée à ne compter que sur le seul bon vouloir des Etats.

Parviendra-t-on à briser à temps les mirages nés de la croyance que la maîtrise

de l'homme sur la nature fait de lui non un imitateur mais un rival du Créateur ? Il y eut un navire, riche de tous les outillages de la modernité. Sûre de son invulnérabilité, la publicité proclamait «*God himself could not sink this ship*». Parti pour son voyage inaugural avec l'ambition de conquérir le «ruban bleu» en arrivant à New York, il prit la voie plus courte. La plus périlleuse aussi. Dans la journée du 14 Avril 1912, sept messages radio l'avertirent : il courait droit vers un champ de glaces. Nul compte n'en fut tenu. Dans la nuit, la partie immergée d'un iceberg taillada sa coque sur plus de cent mètres rendant inefficaces les cloisons étanches, censées rendre le navire invulnérable. Lorsque l'ordre d'abandon fut donné, on s'aperçut que la confiance dans sa sécurité l'avait doté d'un nombre de canots insuffisant. Les passagers refusaient de quitter un «empereur des mers» qui leur semblait plus sûr. L'illusion de la puissance l'emportait, avant la panique finale. Alors, toutes lumières allumées, comme pour lancer jusqu'au bout le défi d'une technologie invincible, le Titanic sombra.

EAU, CLIMAT ET HUMANITE

Robert AMBROGGI

EAU : BIEN COMMUN DE L'HUMANITE

Dans le système solaire, **notre Terre est la planète de l'eau liquide**, essentiellement.

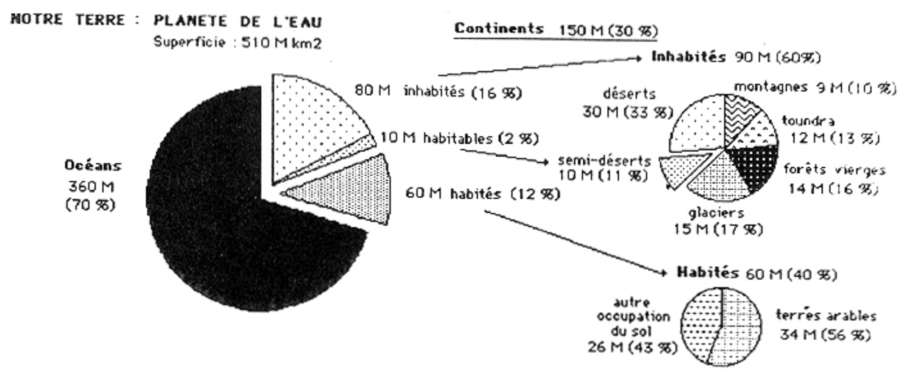


Fig.1 Répartition des océans et continents

L'eau contenue dans 4 réservoirs: océans, glaces, continents, nuages,

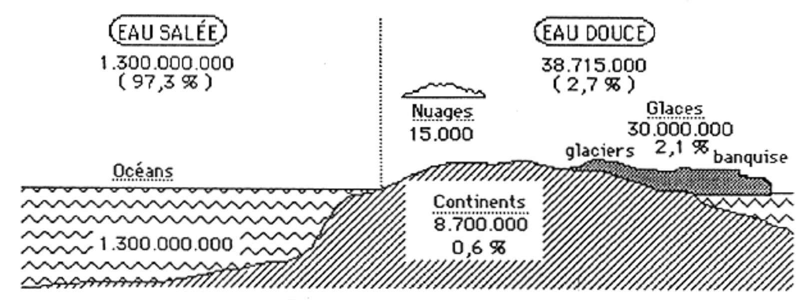


Fig.2 Les 4 réservoirs d'eau

constitue les **réserves**, surtout invisibles sur les continents.

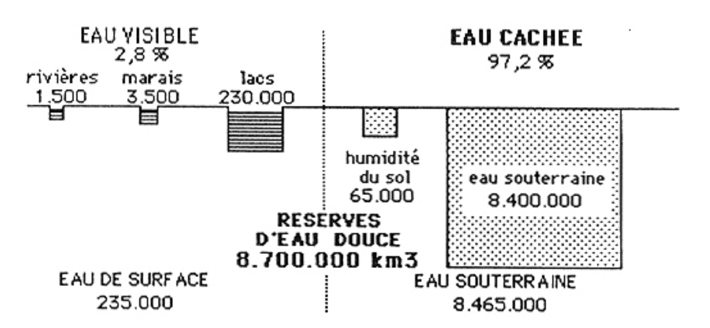


Fig.3 Perception humaine des réservoirs d'eau continentaux

Les deux ressources naturelles d'eau

Outre ces grandes réserves, l'énergie solaire engendre un cycle annuel bénéfique aux continents, sous forme de pluie et d'écoulement. Portion minime des réserves continentales (6%), ce cycle n'en constitue pas moins la ressource essentielle de l'humanité, sous la dépendance du climat.

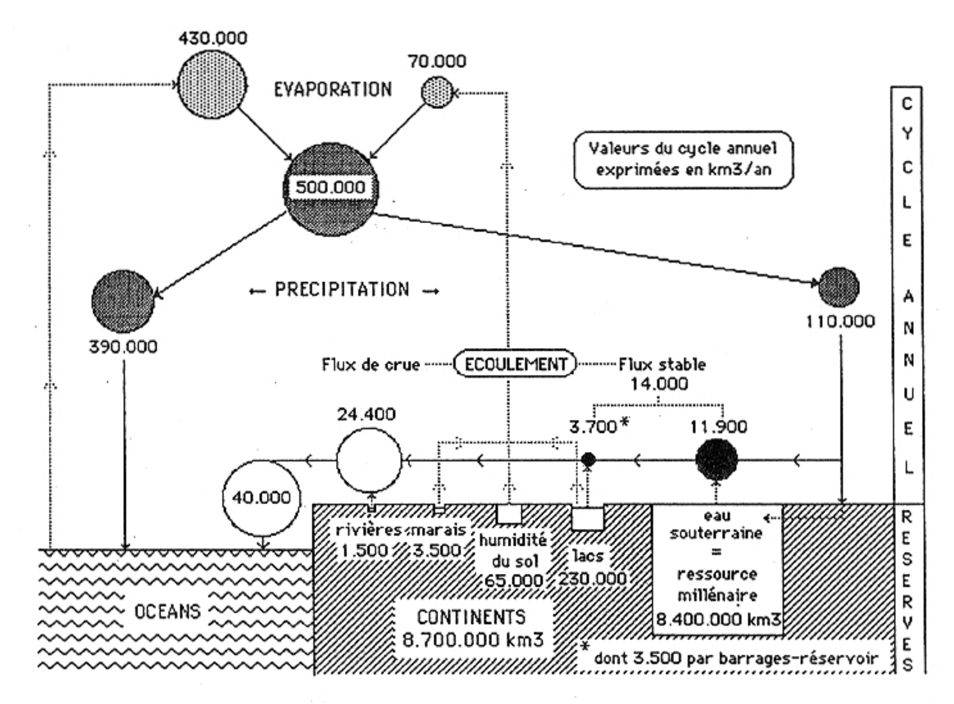


Fig.4 Ensemble des ressources d'eau douce

Ainsi, les ressources naturelles d'eau se dédoublent en **cycle hydrologique** à renouvellement annuel mais sans garantie de quantité, et **réserves** à renouvellement lent (pluri-annuel, centenaire ou millénaire), donc épuisables, mais garantissant la quantité à terme.

Ces ressources d'eau douce, reçues en héritage par l'homme, constituent un bien commun de l'humanité. A première vue, leur quantité (40.000 km3/an, sans compter les réserves) dépasse tous les besoins imaginables de la population humaine, présente et future (12.000 km3/an, au plus).

Et pourtant, au XXe siècle, un mal nouveau apparait : la pénurie chronique d'eau dont plus de 20 pays sont déjà atteints.

Comment l'expliquer ?

POURQUOI DES NATIONS MANQUERONT D'EAU ?

QUATRES CAUSES

1. Une partie de l'ecoulement annuel est inaccessible, sur la portion inhabitée de la planète.

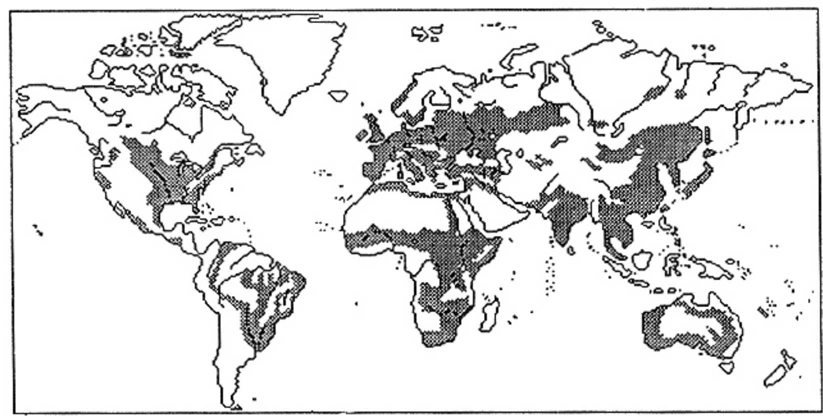


Fig.5 Portion habitée et écoulement principal de notre planète

2. Dans les zones habitées, le flux de crue demeure inutilisable, car l'homme ne peut assurer ses besoins que par le flux stable, régularisé soit par la nature, soit par l'homme (barrages-réservoirs).

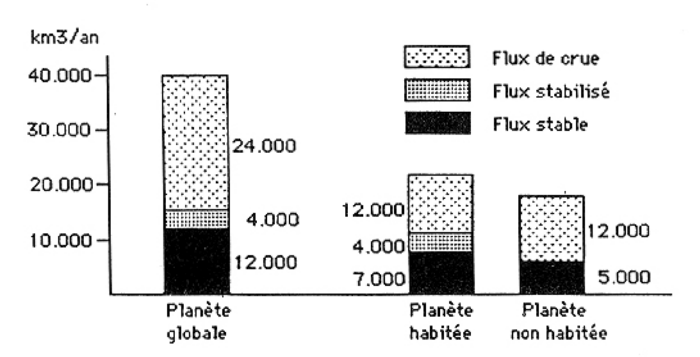


Fig. 6 Distribution des divers flux

3. Cette eau est inégalement répartie sur la planète, suivant les zones climatiques.

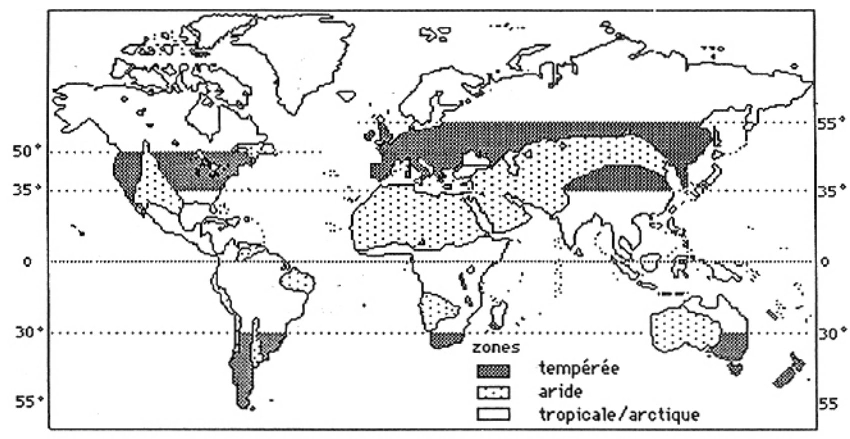


Fig.7 Principales zones climatiques

4. La dernière cause incombe à l'organisation de l'humanité en 170 Etats souverains et 27 territoires non-indépendants. Ce morcellement politique, trop souvent engendré dans la douleur, introduit une disparité flagrante dans l'allocation de l'écoulement d'eau par pays.

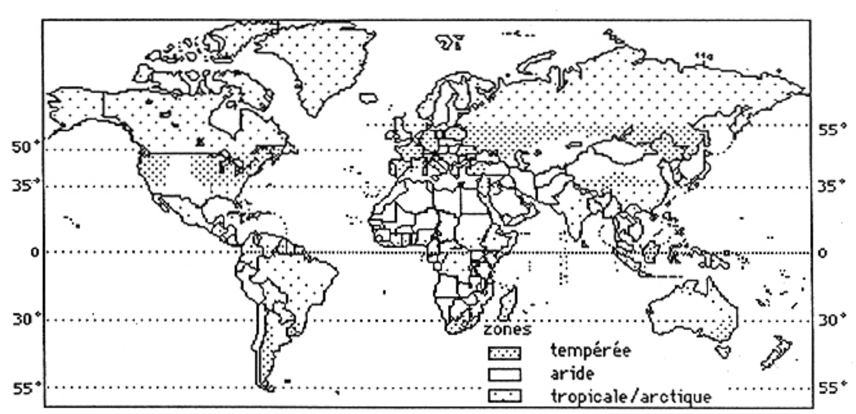


Fig.8 Morcellement politique de notre planète

Et plus que jamais, l'eau devient un problème:

- international, souvent,
- national, essentiellement,
- humain, par dessus tout.

PROBLEMES

Problèmes internationaux de l'eau

Ils sont de deux ordres:

1. *Ecoulement d'eau partagé entre pays riverains*
Ce problème affecte près de 70 nations et de 150 bassins fluviaux.

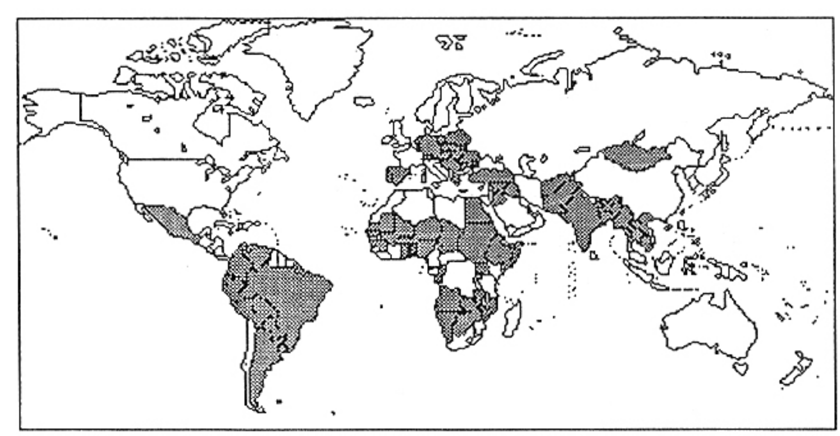


Fig.9 Pays concernés

2. *Cours d'eau- frontières*
Une **trentaine** de fleuves importants et lacs constituent une frontière partielle ou totale concernant plus de 60 nations.

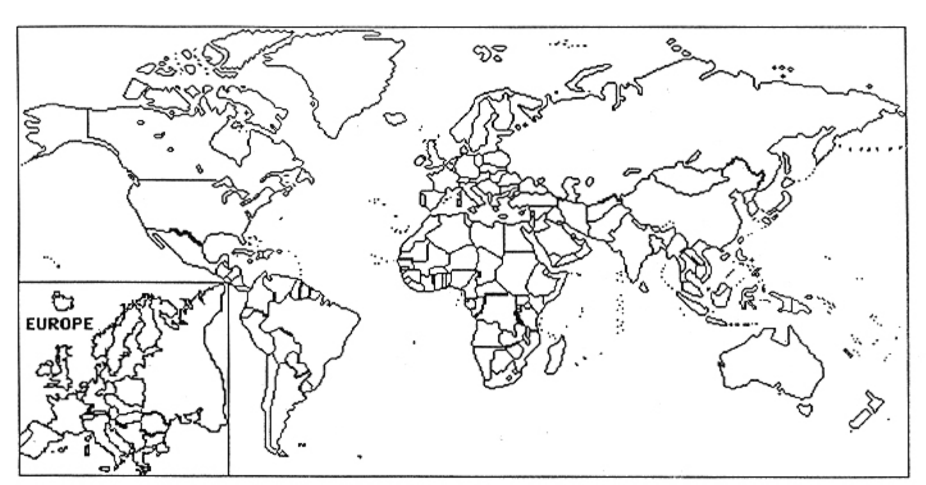


Fig. 10 Principaux cours d'eau-frontières

Cette situation constitue un important potentiel de conflits, d'autant qu'une législation internationale de l'eau n'existe pas encore.

Problème national de l'eau

Il découle du déséquilibre entre l'**offre** et la **demande**, quand celle-ci dépasse l'offre :

Offre = **Ressources d'eau** stable, régularisée:

- soit par la nature (étiage des rivières) = Valeur presque constante,
- soit par l'homme (barrages-réservoir) = Valeur croissant lentement.

Demande = **Besoins d'eau** : Valeur croissant rapidement.

Structure de la demande d'eau

Pour cette demande d'eau, la notion de **Structure** devient importante à 2 niveaux :

i. Au niveau de l'individu

Pour maintenir une qualité de vie acceptable, l'être humain requiert au minimum 400 m3/an.

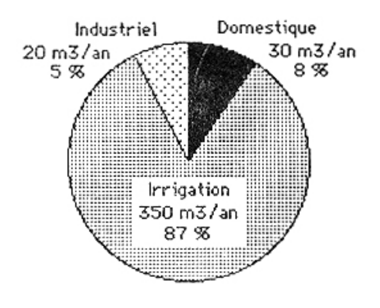


Fig. 11 Besoin d'eau individuel et annuel

ii. Au niveau de la nation

Elle est à l'image de l'économie de la nation, suivant que la prépondérance est à l'industrie (pays plus développés) ou à l'agriculture (pays moins développés).

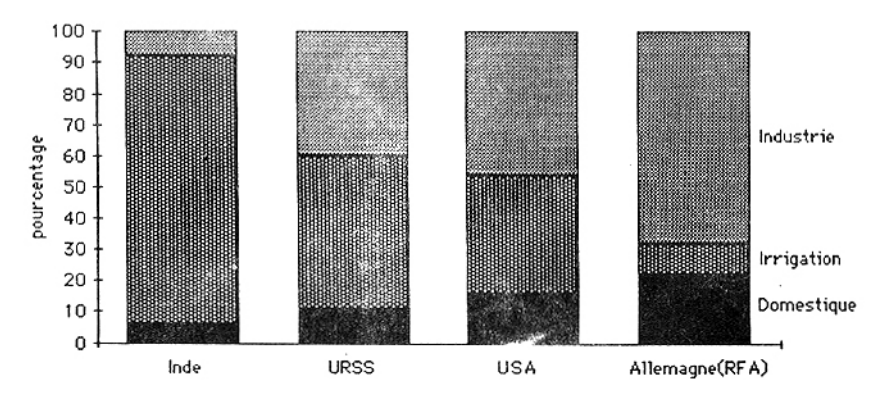


Fig. 12 Cas typiques de structure de la demande d'eau nationale

Effet de la pollution

Elle rend inutilisable la ressource d'eau nationale avec un pouvoir considérable puisqu'un mètre-cube d'eau polluée affecte 25 m3 d'eau saine. Elle agit rapidement dans le temps.

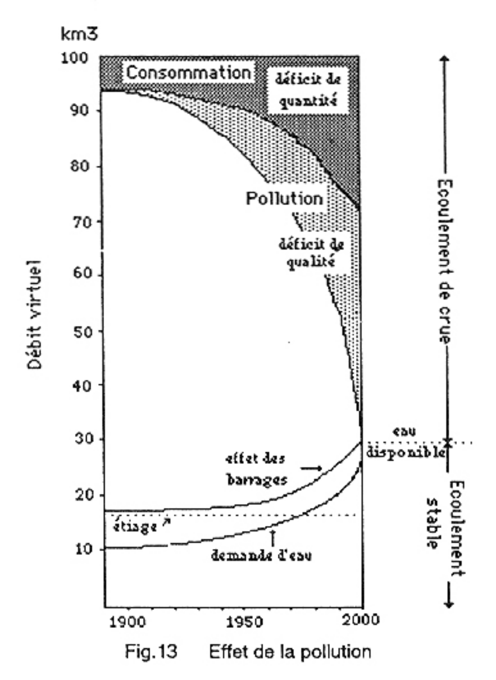


Fig.13 Effet de la pollution

Problème eau-nutrition

Mais le problème crucial de l'humanité demeurera l'**eau et la nutrition**, car l'homme aura un besoin croissant d'eau pour assurer sa production agricole, base de sa nutrition. C'est, de loin, la demande d'eau la plus importante sous forme pluviale et, surtout, par irrigation. En fait, la production agricole exige, à la fois, terres et eaux, deux ressources limitées.

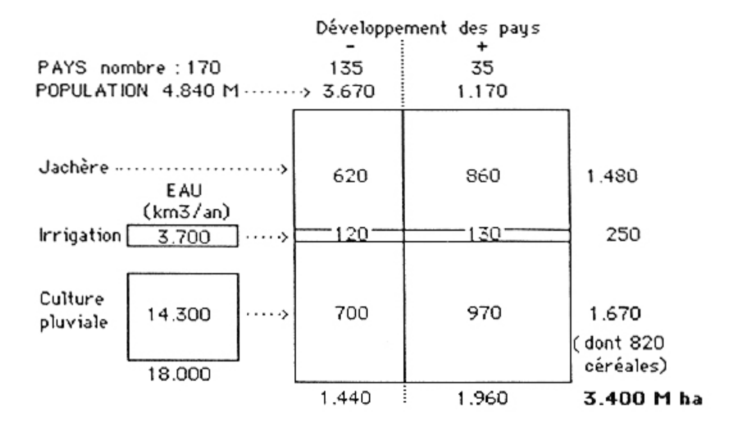


Fig. 14 Répartition mondiale des terres arables (1985)

1er constat:
... 35 nations disposent de 2 MM ha (58 %)
...135 nations - - 1,5 MM ha (42 %)
et ces dernières auront à nourrir 5 Milliards de bouches supplémentaires dans un siècle.

2e constat: la nutrition de l'humanité dépend à 85 % de la culture pluviale c'est-à-dire du climat. Cette nutrition demeure, donc, sans garantie d'avenir.

Prenons l'exemple du Maroc :

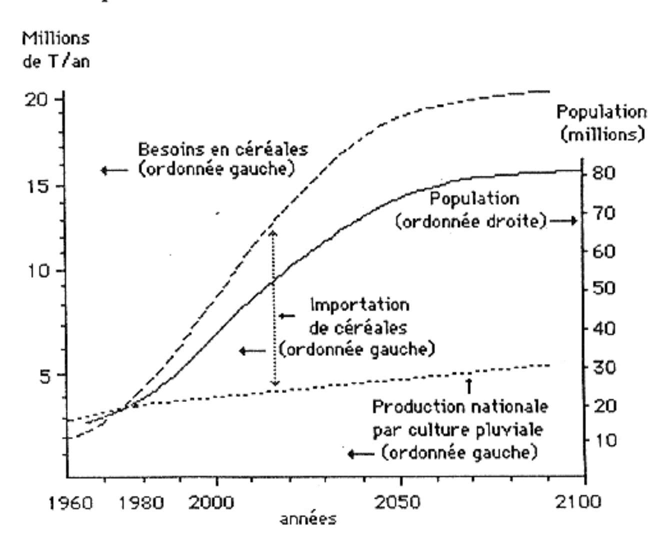


Fig. 15 Situation céréalière du Maroc

Problème d'évolution

L'évolution de la société présente deux dangers :
1.Toutes les solutions techniques créent leur propre danger et vont vers un désastre. Dès la perception du danger, il faut s'adresser à une autre solution technique.

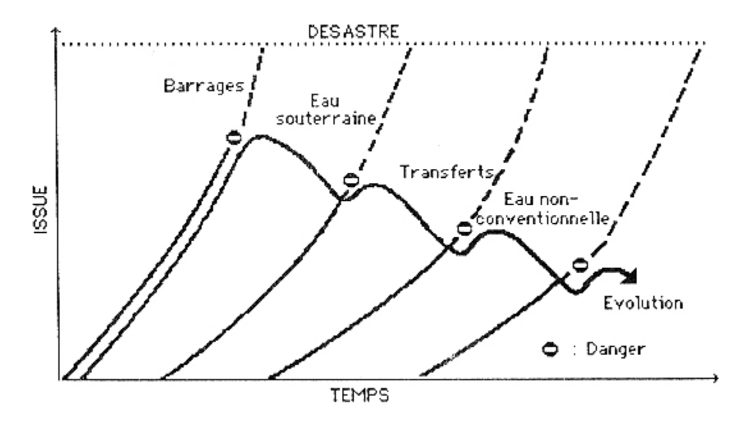


Fig.16 Evolution imposée par les dangers des solutions techniques

2. La tendance naturelle de l'humanité va vers l'urbanisation.

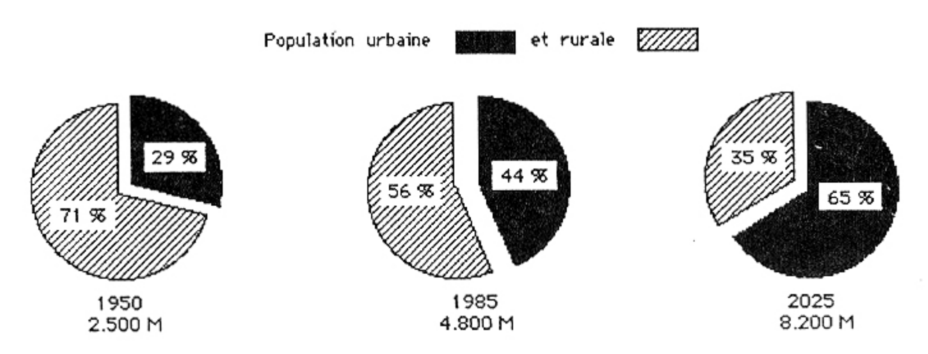


Fig.17 Tendance vers l'urbanisation

Les causes de limitation des ressources d'eau à la portée de la population humaine et l'énumération des problèmes liés à l'eau amènent à la conclusion que :

L'avenir de l'humanité en croissance rapide dépend avant tout du développement par l'eau, d'autant plus que les aléas du climat et ses risques majeurs la menacent.

CLIMAT

MECANISME

L'atmosphère constitue le moteur du climat; la différence d'insolation entre équateur et pôles fournit l'énergie de la circulation atmosphérique.

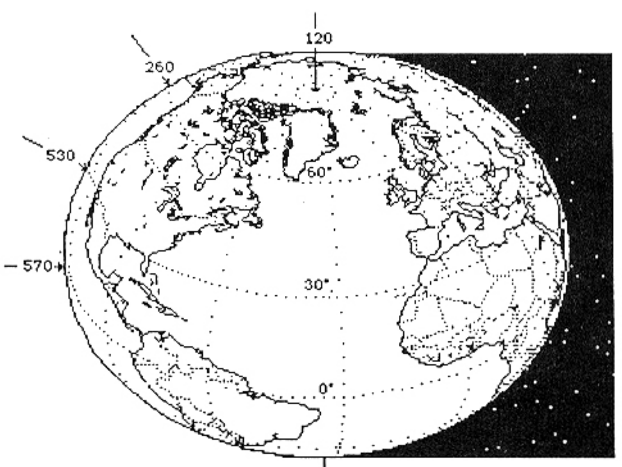


Fig.18 Variation de l'insolation avec la latitude (en calories/cm2)

L'océan joue un grand rôle comme réservoir de chaleur par stockage des excédents, source d'eau douce par évaporation et régulateur de température par circulation. L'interaction soleil- atmosphère-océan-continents provoque le régime climatique de notre Terre avec sa variabilité suivant les latitudes et régions et ses fluctuations dans le temps.

Le climat s'évalue d'après le dosage des divers paramètres : précipitations, température, pression atmosphérique, vents, humidité de l'air, nébulosité, etc... . La bonne connaissance acquise dans ce domaine explique la variabilité du climat à la surface du globe et facilite la prévision météorologique. Par contre, les fluctuations dans le temps ou modifications du climat restent lourdes d'incertitude, alors qu'elles sont capitales pour l'organisation et la planification des sociétés humaines. Pour pouvoir prédire ces modifications du climat, il convient de fouiller le passé de notre planète.

Jusqu'au début du 20e siècle, la géologie seule pouvait fournir quelques informations sur les grandes glaciations du quaternaire. Dans les années 1920, Milankovitch avança sa Théorie astronomique concernant les grands cycles de variations climatiques entre périodes glaciaires et inter-glaciaires.

Théorie astronomique

Notre Terre opère plusieurs mouvements simultanés :

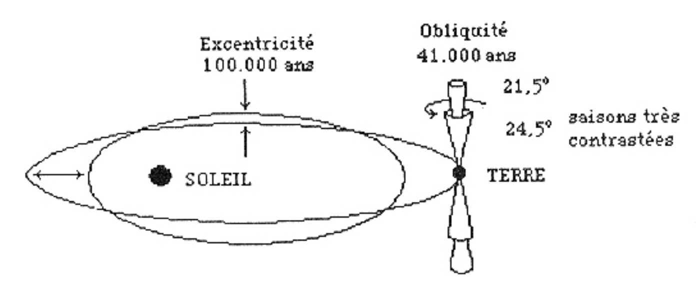


Fig.19 Facteurs des grands cycles du climat

1. Elle accomplit sa rotation sur elle-même en 1 jour et sa révolution autour du soleil en 1 an; cette révolution presque circulaire devient ovale au cours des ans; ce phénomène d'excentricité se répète tous les 100.000 ans.

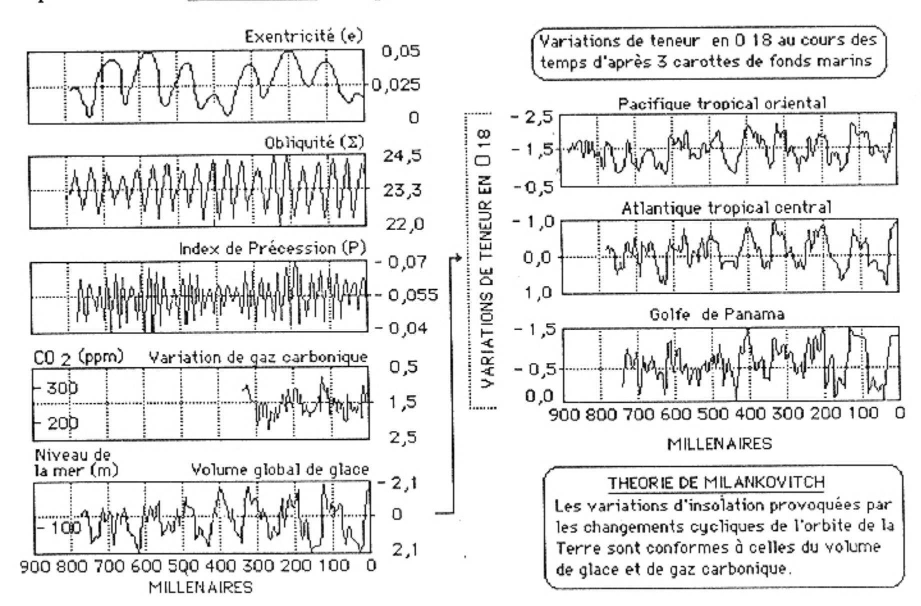


Fig.20 Cycles résultants de la relation Terre-Soleil

2. L'axe de rotation oscille de 3° en 41.000 ans et crée le phénomène d'obliquité.

3. La conjuguaison de l'excentricité et de l'obliquité provoque la précession répétée tous les 23.000 ans. Actuellement, nous sommes plus près du soleil dans l'hémisphère Nord pendant l'hiver.

Ces 3 phénomènes combinés créent un écheveau d'effets dont il convient de démêler le rythme grâce à la paléoclimatologie.

Mais, auparavant, complétons la connaissance du mécanisme par la

Théorie océanographique

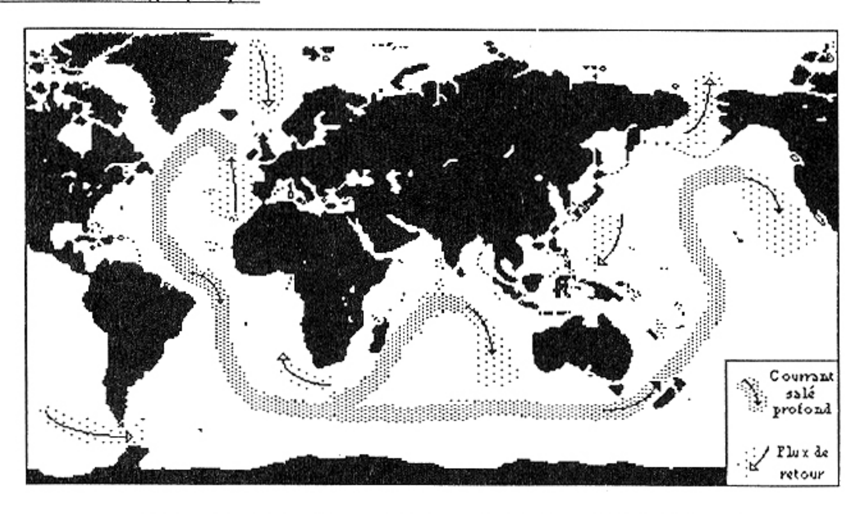


Fig.21 Rôle de l'océan (complémentaire de la théorie astronomique)

Une réorganisation massive et brusque du système océan-atmosphère se produit entre les périodes glaciaires et inter-glaciaires sous forme du déclenchement en moins de 50-100 ans d'un grand courant salé profond et d'une élévation du CO_2 de l'atmosphère.

PALEOCLIMATOLOGIE

Elle permet de reconstituer les climats anciens d'après cinq méthodes qui opèrent à diverses échelles de temps:

1. les sondages des fonds marins avec carottage révèlent 600.000 ans
   (l'océan contient plus de l'isotope O^{18} que les glaces polaires; qlq. mm représentent 10.000 ans.)

2. un sondage de la calotte antarctique raconte 160.000 ans
   (analyse H_2, O_{18}, CO_2, CH_4 dans les inclusions de bulles d'air)

3. l'étude du radiocarbone sur les poussières autorise 40.000 ans.

4. la palynologie ou étude des pollens fossiles retrace 10.000 ans.

5. la dendrochronologie révèle 2.300 à 200 ans
   (par examen isotopique des anneaux de troncs d'arbre).

Histoire des grands cycles

Historique de 600 millénaires

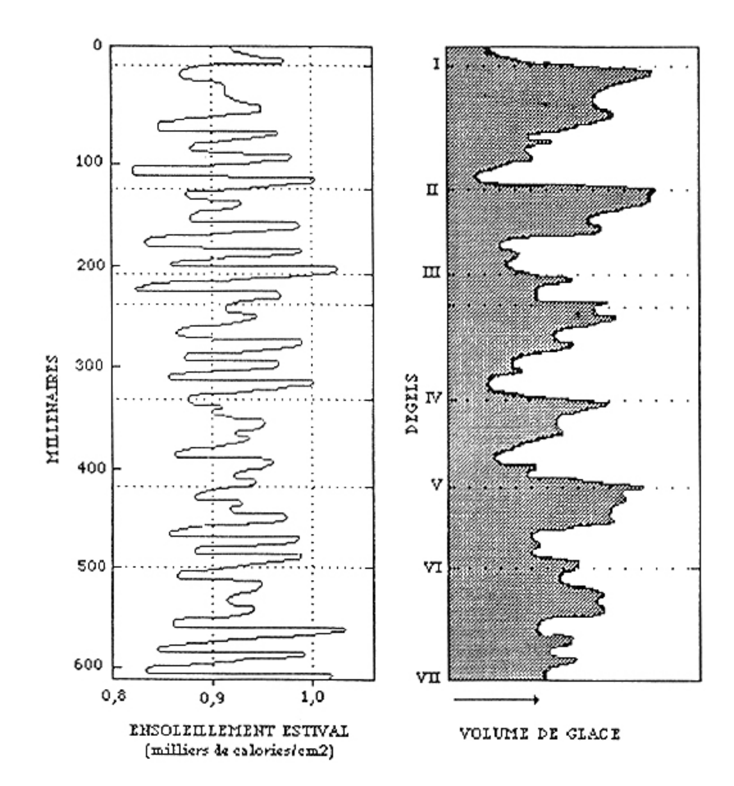


Fig.22 Effets des cycles astronomiques (carotte de fonds marins)

Remarquer (à gauche) la parfaite corrélation de l'ensoleillement estival calculé par Milankovitch avec les cycles glaciaires déterminés par l'analyse de O 18 dans les carottes de fonds marins et (à droite) la glaciation progressive et le brusque dégel identifié par les mêmes carottes.

Historique de 150 millénaires

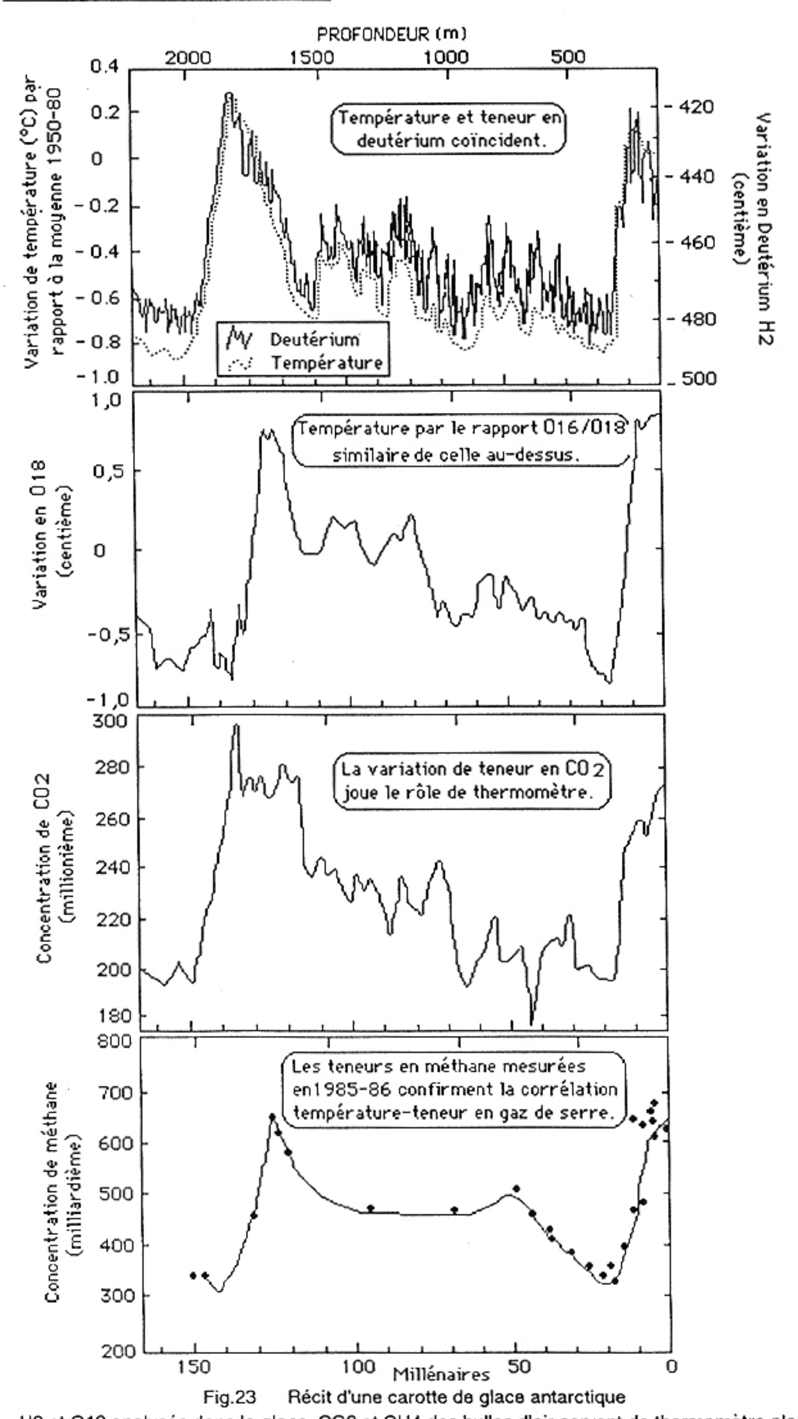


Fig.23 Récit d'une carotte de glace antarctique

H2 et O18 analysés dans la glace, CO2 et CH4 des bulles d'air servent de thermomètre planétaire

Historique de 40 millénaires

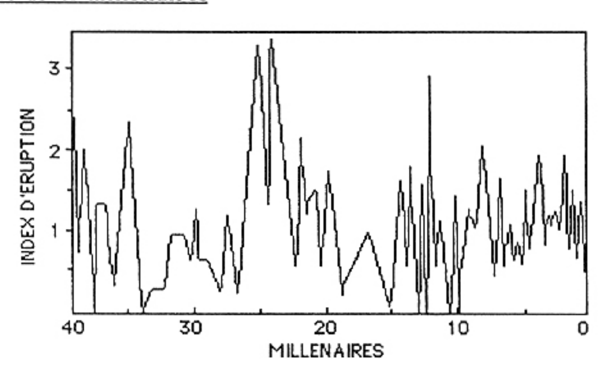


Fig.24 Activité volcanique reconstituée (par radiocarbone)

Les aérosols d'activité volcanique et les poussières d'une planète aride en période glaciaire accentuent la baisse de température.

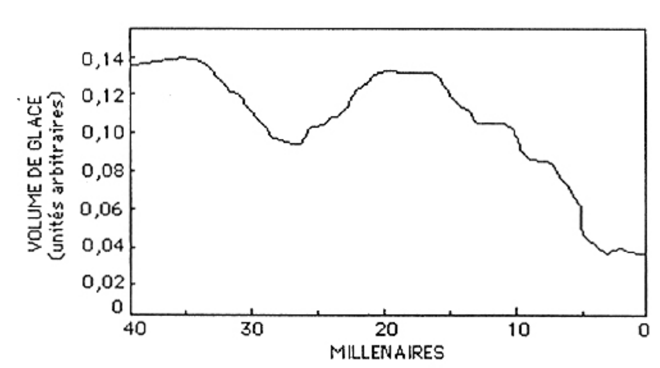


Fig.25 Reconstitution du volume de glace de l'hémisphère Nord (d'après la carotte glaciaire)

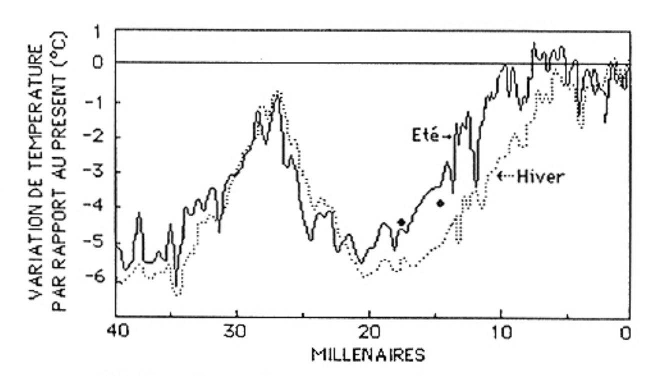


Fig.26 Reconstitution de la température de l'Hémisphère Nord (d'après la carotte glaciaire)

Historique de 14 millénaires (Holocène)

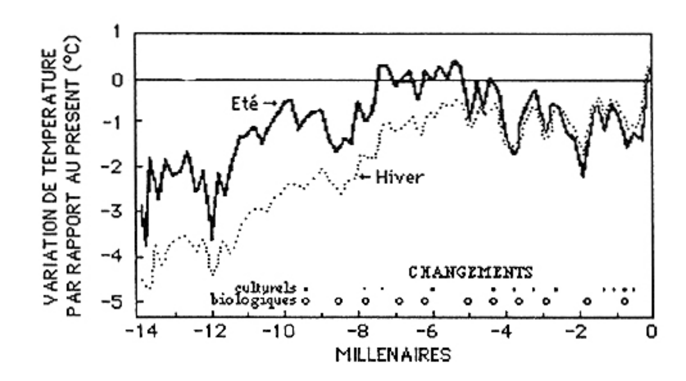


Fig.27 Température de l'hémisphère Nord durant l'Holocène(détail de fig.22)

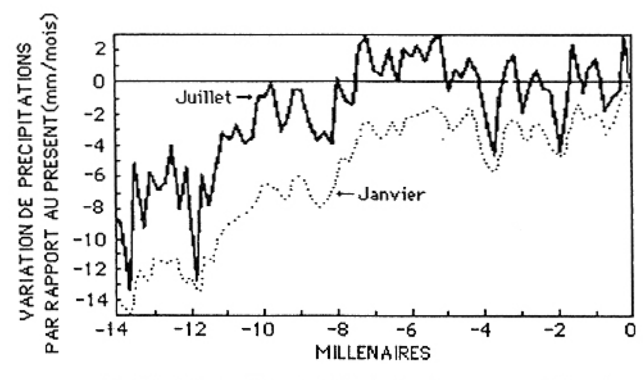


Fig.28 Pluviométrie de l'Hémisphère Nord durant l'Holocène (par modèle)

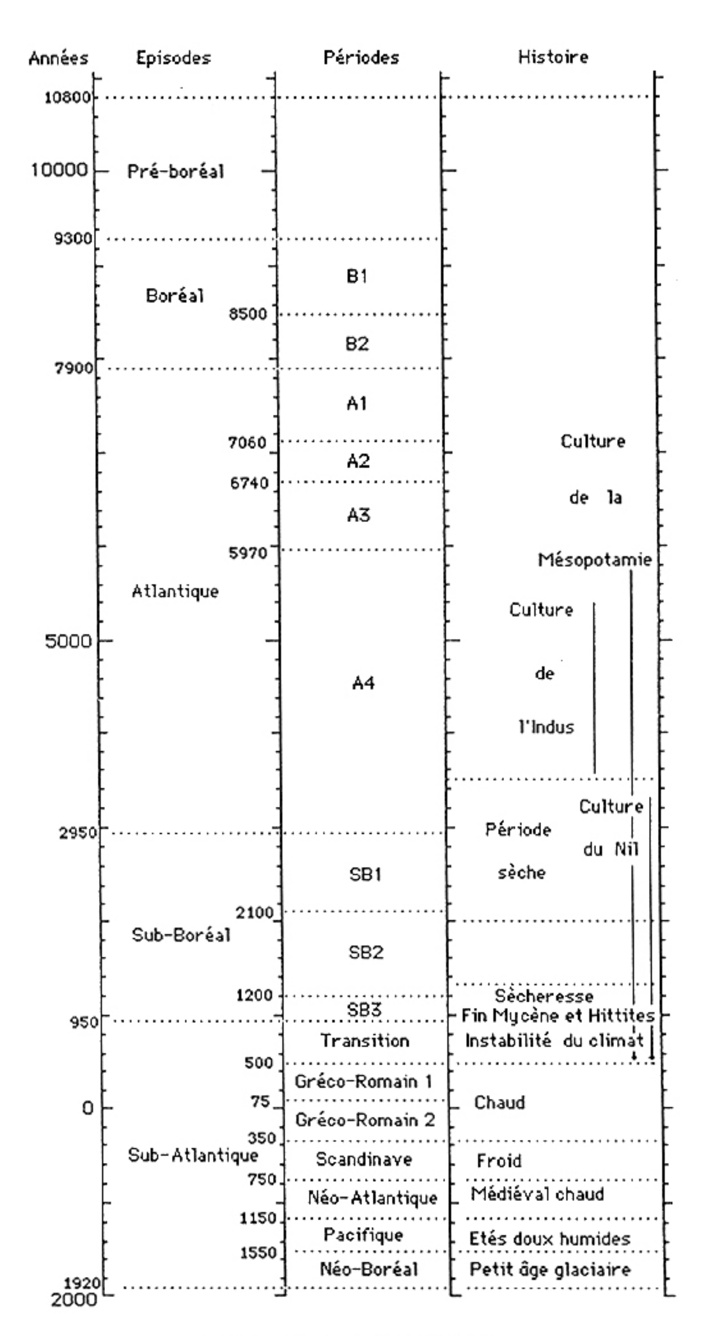


Fig.29 Etude des pollens fossiles

Dernière période glaciaire (- 18.000 ans)

Banquise
Glaciers
H Anticyclone
B Dépression

Situation 1989

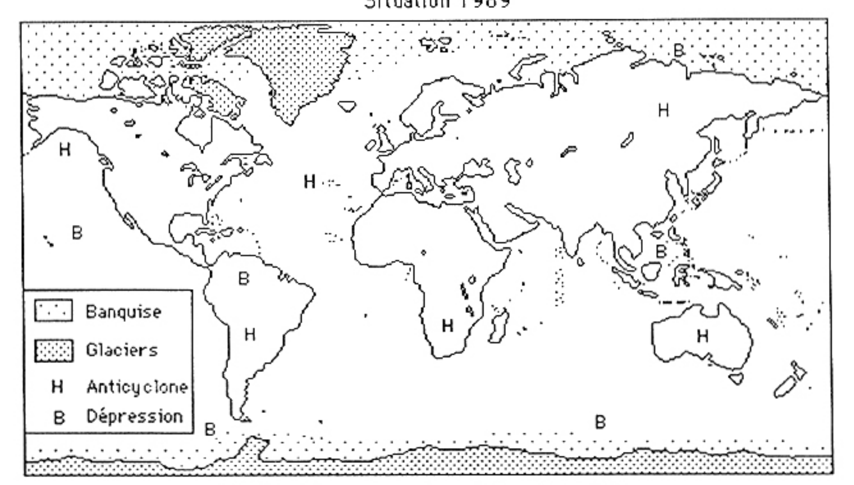


Fig.30 Comparaison des extrêmes climatique

Les effets climatiques de la dernière glaciation furent globaux. L'épaisseur des glaciers atteignait 3 km.

Conclusions sur les grands cycles climatiques

La paléoclimatologie confirme la périodicité des cycles glaciaires en parfaite conformité avec la théorie astronomique de Milankovitch. Elle révèle, en outre que, sur le dernier million d'années, notre planète est libre de glace comme à présent, durant seulement 10% du temps. Ces périodes inter-glaciaires durent 9000-12000 ans. Le présent inter-glaciaire vieillit : il atteint maintenant 10.800 ans. Et, dans deux mille ans au plus, une nouvelle glaciation interviendra.

Mais notre humanité désire surtout comprendre les évènements climatiques à plus petite échelle pour en déduire les prédictions mensuelles, annuelles et décennales. Elle reconstitue alors l'histoire des petits cycles.

Histoire des petits cycles

Historique millénaire

La dendrochronologie ou analyse isotopique des anneaux d'arbres capables de vivre longtemps (cas des sequoia, cèdres, sapins, notamment) joue un rôle prépondérant dans l'identification des petits cycles à récurrence décennale

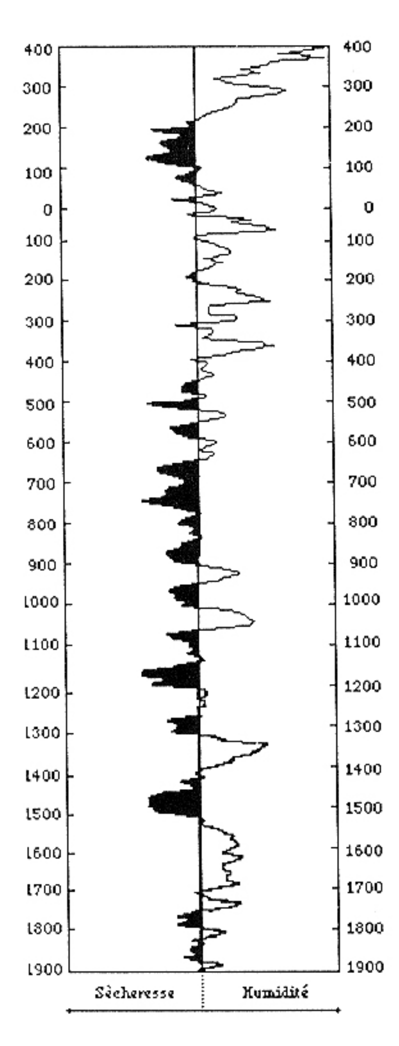


Fig.31 Sècheresses enregistrées par les *Sequoïa* en Californie

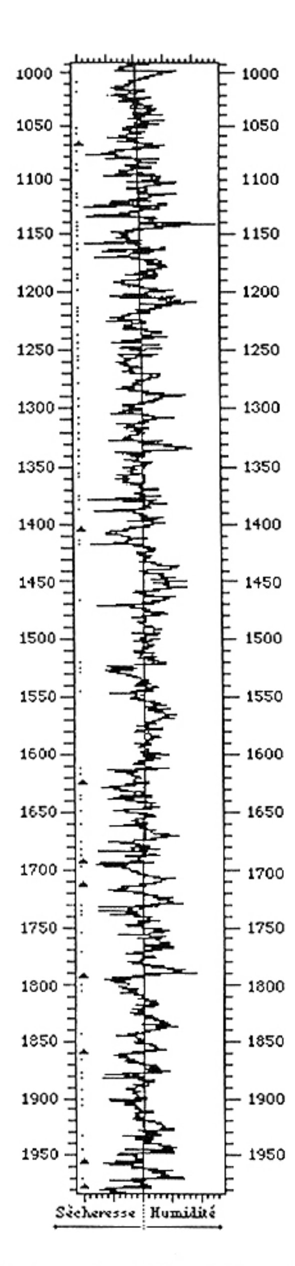


Fig.32 Sècheresses enregistrées par les Cèdres du Maroc (triangles pour les plus fortes)

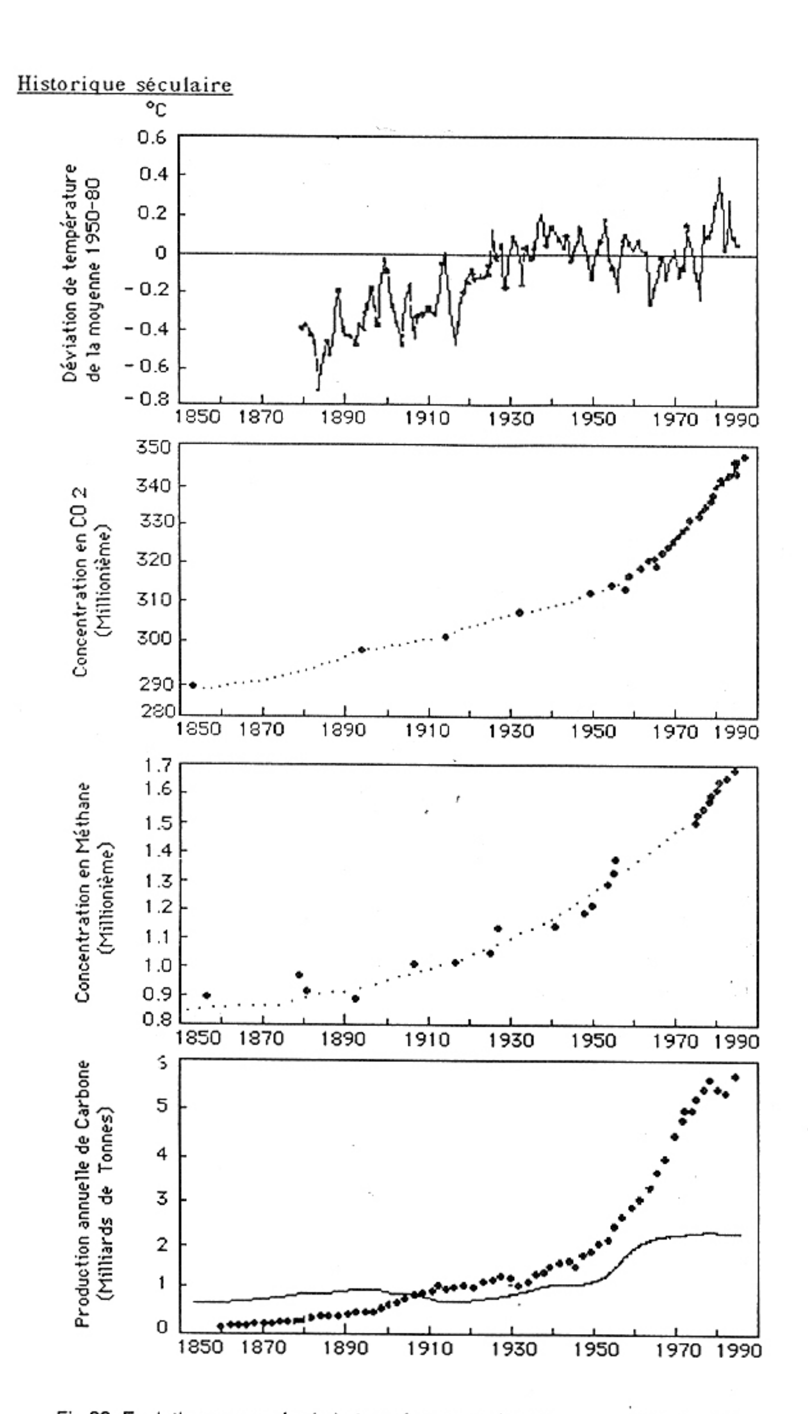


Fig.33 Evolution comparée de la température et des teneurs en CO2 et méthane

Mélange de données post-1958 mesurées directement et pré-1958 par les bulles d'air contenues dans la glace. Les données de C (4e fig.) sont de source historique.

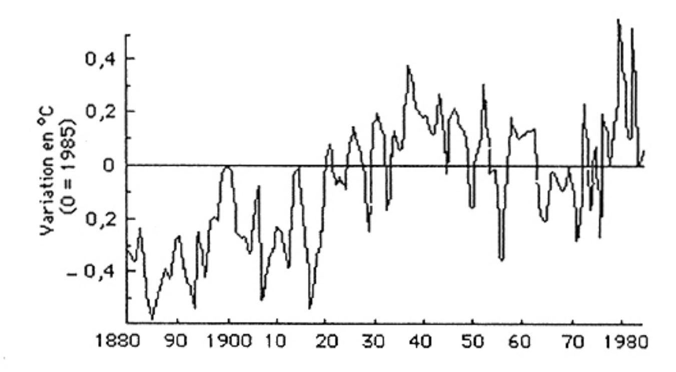


Fig.34 Evolution de la température annuelle dans l'hémisphère Nord

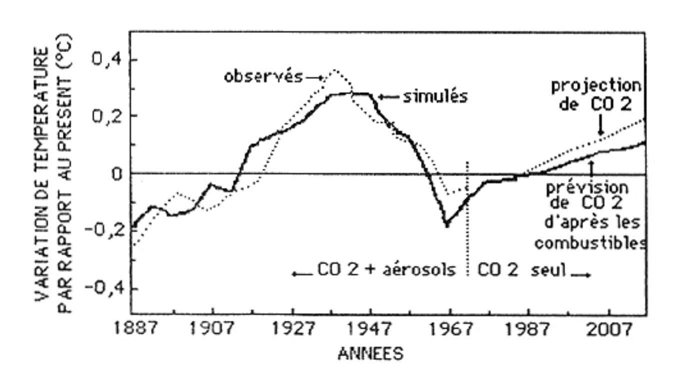


Fig.35 Relation Température-CO2 (réalité et prédiction)

Le taux de croissance du gaz carbonique demeure constant depuis 1850. Cependant, la température a crû jusqu'en 1937, décru ensuite pour croître à nouveau depuis 1972. L'extrapolation calculée par ordinateur à partir de 1972 suppose une activité volcanique constante et un accroissement de gaz carbonique dans l'atmosphère. Dans ces conditions, l'augmentation prévisible de température n'apparait pas catastrophique.

QUATRE RISQUES MAJEURS EN PERSPECTIVE

LES 2 GRANDES OSCILLATIONS

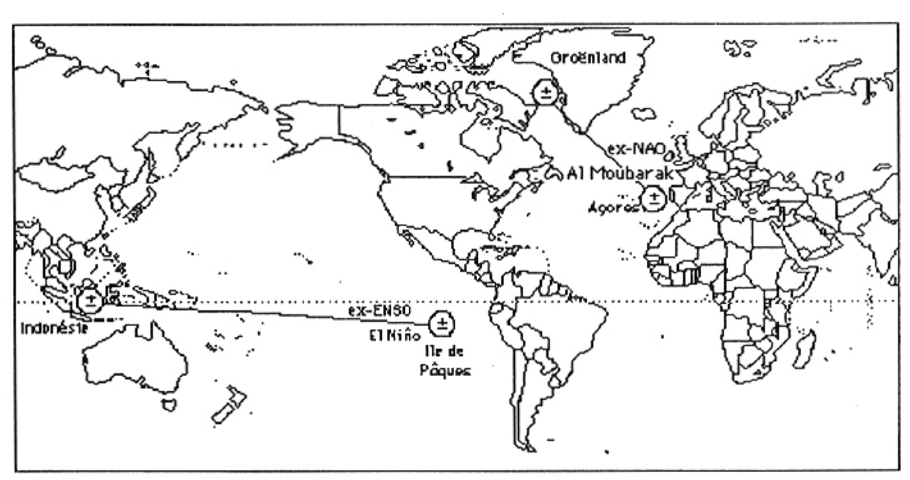


Fig.36 Situation des 2 grandes oscillations

1. **El Niño**

El Niño ....des pêcheurs. Chaque année, à la Noël (El Niño = Enfant-Jésus), l'océan se réchauffe de 1 à 2° C., au large de l'Equateur et du nord-Pérou; la pêche devient moins fructueuse; le phénomène dure 3 mois, environ.

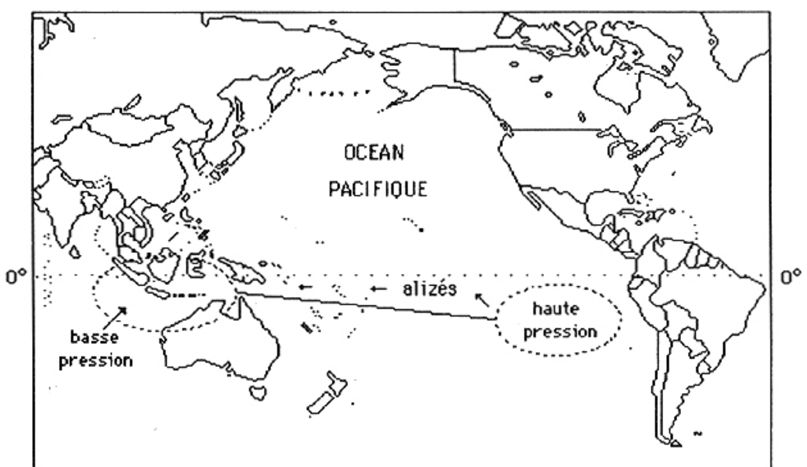


Fig.37 Situation d'El Niño

El Niño..........des scientifiques . Certaines années, le phénomène est plus intense - le réchauffement atteint 7° C.-, plus étendu - jusqu'au sud du Pérou et au Pacifique central -, plus durable - un an et plus -.
A cette échelle, il influence le climat de la planète : ici, inondations; là, sècheresses.
Les plus importants: 1953,1957-58,1965,1972-73,1982-83.

Mécanisme

Le réchauffement anormal est lié à l'**Oscillation Méridionale** dont les causes demeurent inconnues, bien que le fonctionnement soit déchiffré.

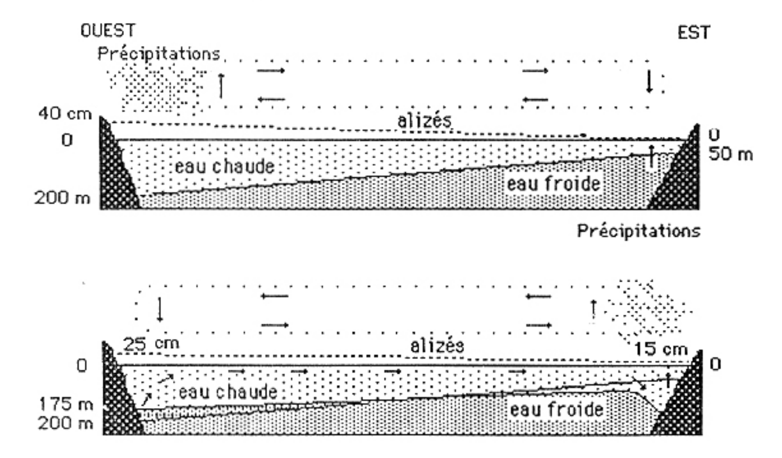


Fig.38 Phénomène El Niño

De Janvier à Octobre, la haute pression centrée sur l'île de Pâques oriente à l'Ouest les alizés qui repoussent l'eau chaude vers l'Indonésie où cette action relève le niveau de l'océan de 0,40 m et abaisse la couche d'eau froide jusqu'à 200 m.

D'Octobre à Janvier, la haute pression sur l'île de Pâques faiblit; les alizés s'évanouissent et changent de direction; l'eau chaude accumulée à l'Ouest s'écoule, alors, vers l'est où le niveau de l'océan s'élève de 0,15 cm. Cette action abaisse la couche d'eau froide à l'est et la relève à l'Ouest.

Quand le phénomène est intense, de fortes précipitations interviennent sur les rivages généralement ensoleillés d'Equateur et du Pérou, tandis qu'une sècheresse inhabituelle affecte l'Indonésie et, même l'Inde.

El Niño et le climat du Maroc

Le recueil des données sur El Niño commença en 1950. Les Niños forts et modérés figurent en noir et à hauteurs respectives sur l'historique du climat de la saison céréalière au Maroc (Janvier-Avril).

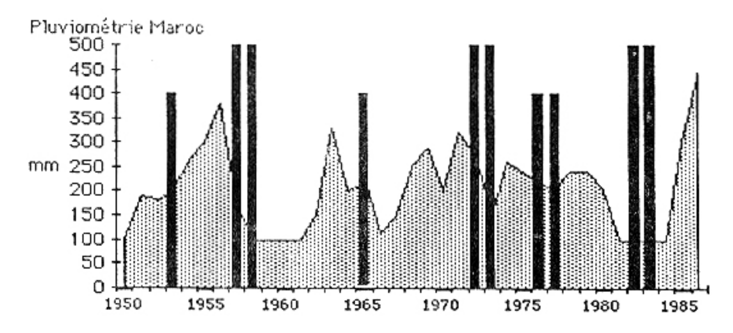


Fig.39 Relation du Niño avec le Maroc

Une relation semble apparaitre pour deux des trois forts Niños (1957-58, 1982-83) en correspondance avec les grandes sècheresses de 1958-61 et de 1981-84. Peut-être aussi, le Nino fort de 1972-73 et les modérés de 1965 et 1976-77 ont-ils influencé le climat marocain.

2. **Al Moubarak** (ex-NAO : North Atlantic Oscillation)

Un phénomène analogue au Niño, dénommé Al Moubarak (Le Béni, en arabe)[1] se produit sur le nord de l'Océan Atlantique, mais de moindre intensité. Il influence cependant le Maroc ainsi que le Portugal, l'Espagne et l'Algérie.

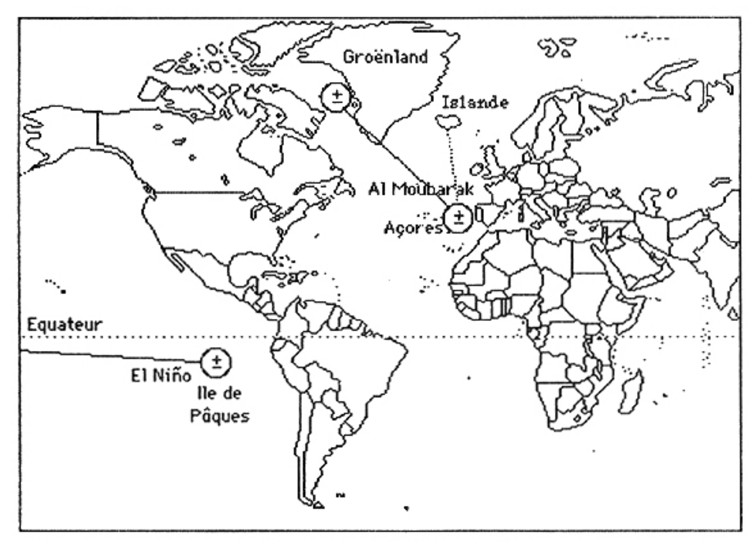


Fig.40 Situation d'Al Moubarak

D'abondantes précipitations hivernales au Maroc tendent à coïncider avec les grandes valeurs négatives de l'index Al Moubarak (ex-NAO) résultant de dépressions anormales sur les Açores et de hautes pressions sur le Groenland et l'Islande.

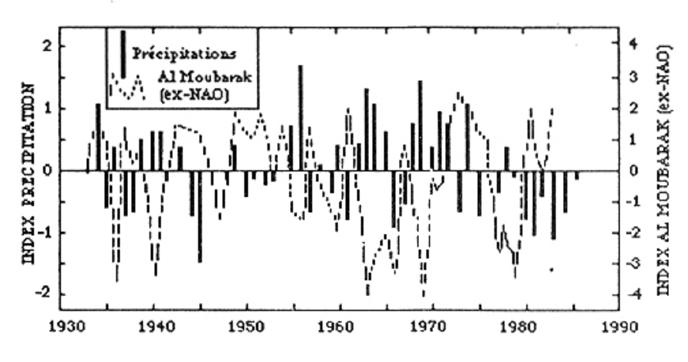


Fig.41 Mécanisme d'Al Moubarak (ex- NAO)

Pourrait-on prévoir les précipitations hivernales du Maroc d'après les données de l'été précédent au Groenland ou en Islande ? L'etude d'Al Moubarak (ex- NAO) s'ébauche seulement. De sérieux espoirs apparaissent.

Des prévisions relativement précises apporteraient au pays un considérable bienfait socio-économique.

[1] Terme choisi par Sa Majesté Hassan II, Roi du Maroc.

EFFET DE SERRE

Une inquiétude amplifiée par les médias grandit depuis les années 1970. La teneur croissante de gaz carbonique, gaz rare de l'atmosphère (0,03%), amplifie l'effet de serre inhérent à notre planète.

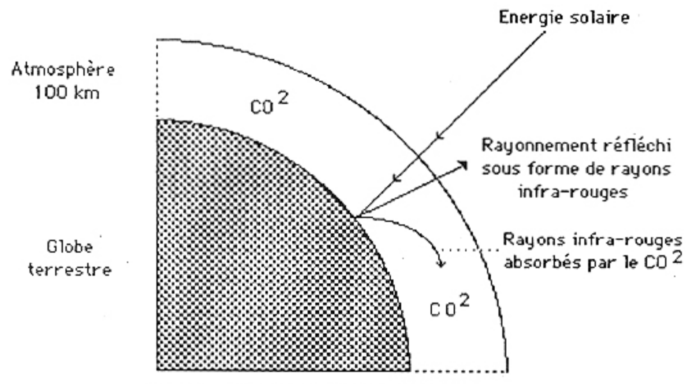


Fig.42 Mécanisme de l'effet de serre

L'absorption des rayons infra-rouges d'après la teneur en gaz carbonique provoque un réchauffement de l'atmosphère; un excès engendrerait une modification du climat. Il convient de replacer cette situation dans le contexte scientifique des paléoclimats (fig 19 et 26-28) où il apparait que la teneur en CO_2 varie en fonction de la température et non l'inverse.

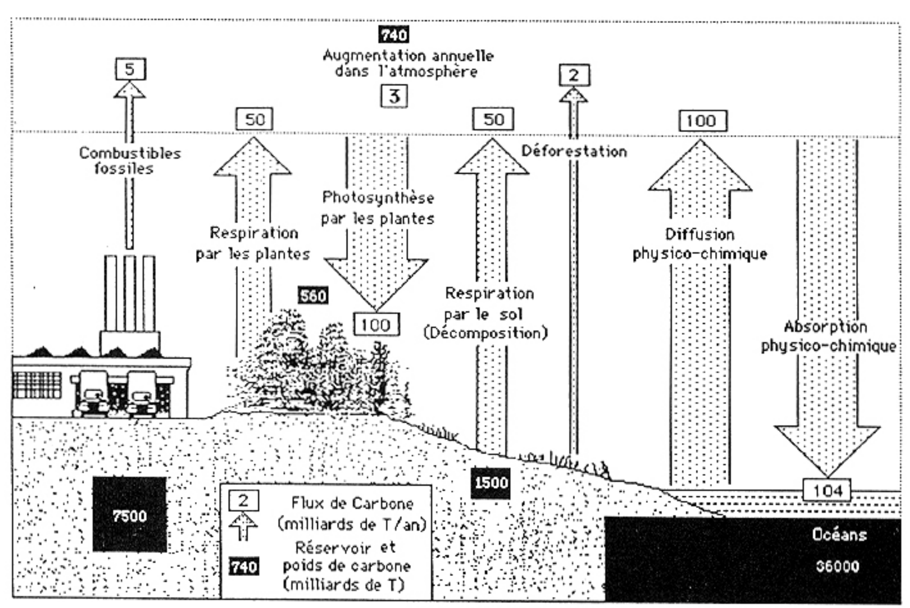


Fig.43 Bilan global du cycle annuel de carbone

On connait trop peu le rôle de l'immense réservoir de carbone des océans pour estimer saturée leur capacité d'absorption du CO_2, car ils en contiennent 50 fois plus que l'atmosphère. D'autre part, en 100 ans, la température crût de 0,5 ° C. et le CO_2 de 14% (295-350 ppm). Dans tous les pronostics du réchauffement calculés par ordinateur, les océans furent, soit omis, soit traités très grossièrement.

AEROSOLS VOLCANIQUES ET AUTRES POUSSIERES

Un autre phénomène important vient troubler l'atmosphère : les aérosols volcaniques et les poussières qui diminuent l'insolation de la Terre et provoquent un refroidissement.

Les grandes éruptions volcaniques projettent des millions de tonnes de fines cendres ou aérosols dans la haute atmosphère où elles circulent puis demeurent stationnaires pendant un an ou plus. L'histoire montre que des hivers rigoureux et des étés froids succédèrent à ces éruptions : 1815-17, 1883-84, 1956-57, 1963-64. Les tenants de la théorie du refroidissement considèrent que l'activité volcanique marquée de la 1re moitié du siècle est responsable de la baisse de température observée.

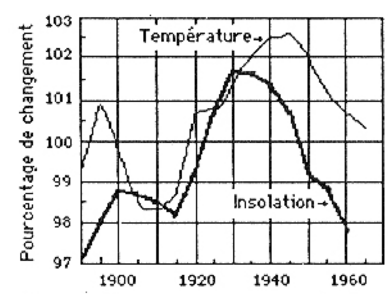


Fig.44 Température et insolation

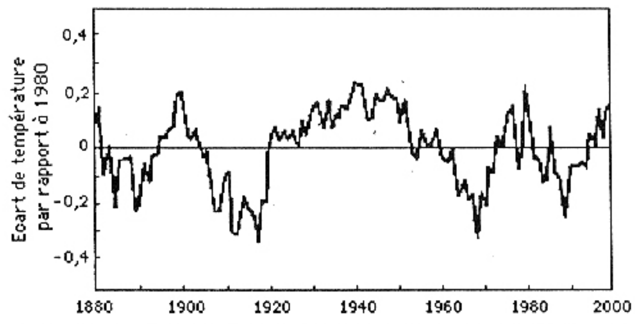


Fig.45 Température d'après l'activité volcanique historique et prévisible (en maintenant constants CO2 et albédo depuis 1980)

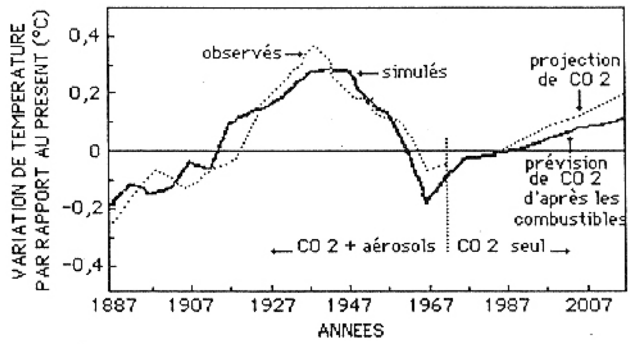


Fig.46 Température observée 1887-1972 et prédite par modèle

Durant les périodes glaciaires, la quantité d'aérosols et de poussières atteignait 30 fois la quantité actuelle.

SECHERESSES

La sècheresse constitue un mal endémique et un fléau récurrent de notre Terre.

Récurrence

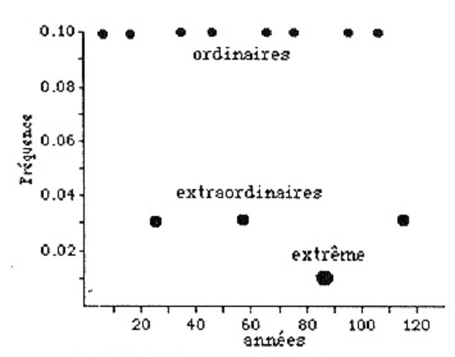


Fig.47 Fréquence des sècheresses

Cependant, le mal demeure localisé et de durée variable donnant une gamme de sècheresses : ordinaires (1-2 ans), extraordinaires (3-4), extrêmes (5-6 ans et +). Fréquence et durée augmentent avec l'aridité. Reprenons l'exemple du Maroc.

Histoire des sècheresses par dendrochronologie

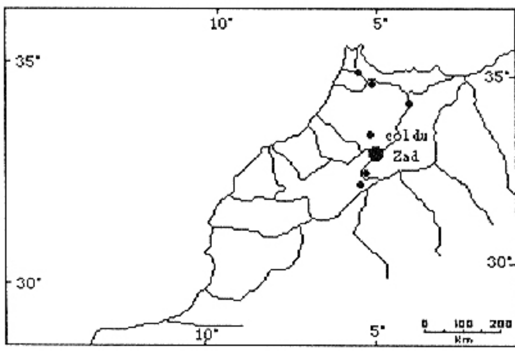


Fig.48 Lieu de prélèvement

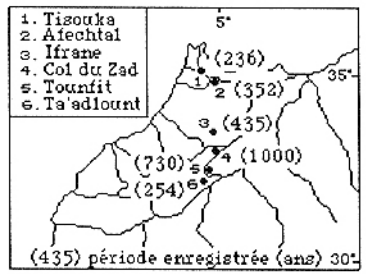
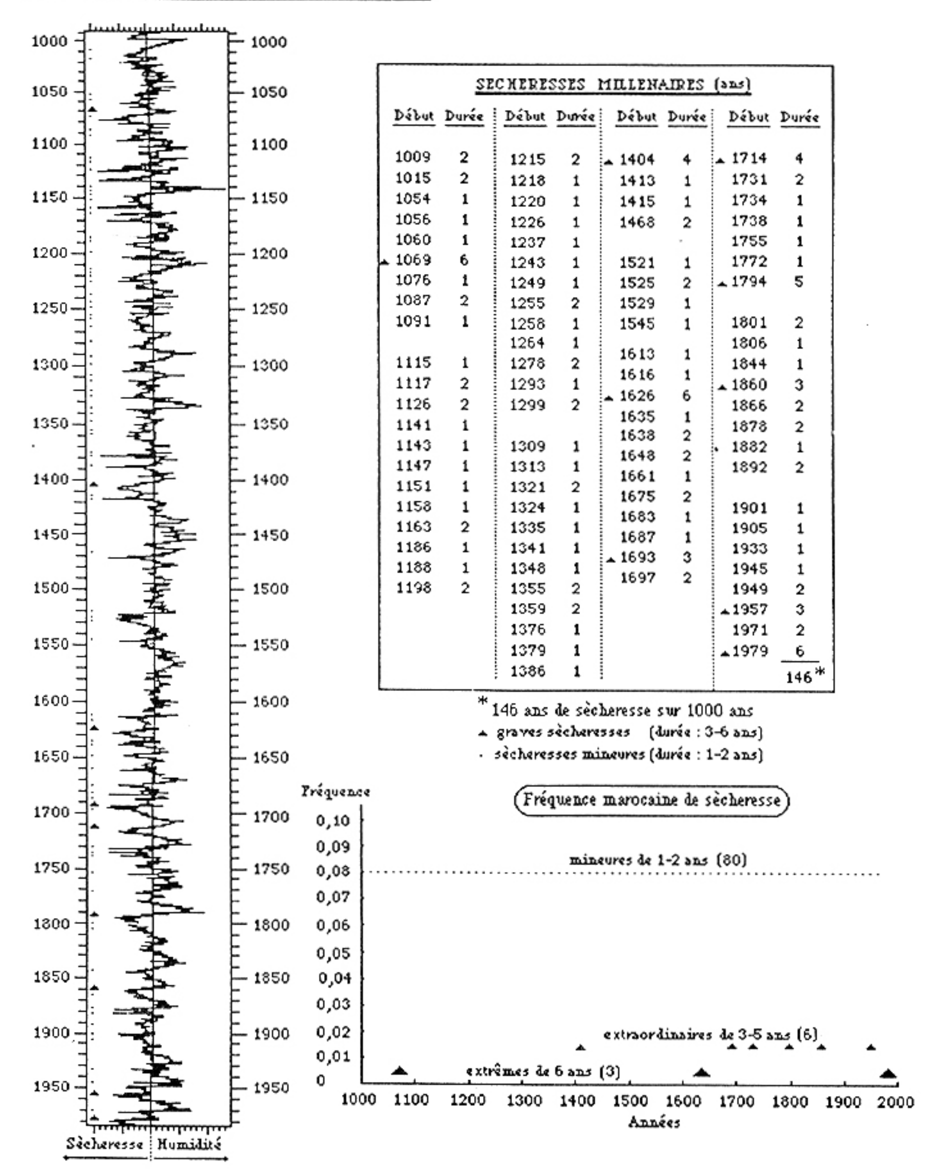


Fig.49 Sites et âge des sujets

Climat marocain du dernier millénaire



SECHERESSES MILLENAIRES (ans)

Début	Durée	Début	Durée	Début	Durée	Début	Durée
1009	2	1215	2	▲ 1404	4	▲ 1714	4
1015	2	1218	1	1413	1	1731	2
1054	1	1220	1	1415	1	1734	1
1056	1	1226	1	1468	2	1738	1
1060	1	1237	1			1755	1
▲ 1069	6	1243	1	1521	1	1772	1
1076	1	1249	1	1525	2	▲ 1794	5
1087	2	1255	2	1529	1		
1091	1	1258	1	1545	1	1801	2
		1264	1	1613	1	1806	1
1115	1	1278	2	1616	1	1844	1
1117	2	1293	1	▲ 1626	6	▲ 1860	3
1126	2	1299	2	1635	1	1866	2
1141	1			1638	2	1878	2
1143	1	1309	1	1648	2	· 1882	1
1147	1	1313	1	1661	1	1892	2
1151	1	1321	2	1675	2		
1158	1	1324	1	1683	1	1901	1
1163	2	1335	1	1687	1	1905	1
1186	1	1341	1	▲ 1693	3	1933	1
1188	1	1348	1	1697	2	1945	1
1198	2	1355	2			1949	2
		1359	2			▲ 1957	3
		1376	1			1971	2
		1379	1			▲ 1979	6
		1386	1				146*

* 146 ans de sècheresse sur 1000 ans
▲ graves sècheresses (durée : 3-6 ans)
· sècheresses mineures (durée : 1-2 ans)

Fig.50 Données millénaires fournies par *Cedrus Atlanticus*

L'étude dendrochronologique démontre que :
... une grave sècheresse de 4 ans au col du Zad correspond à des sécheresses de 5-6 ans vers le sud et de 2-3 ans vers le Nord.
... les graves sècheresses (durée supérieure à 2 ans au col du Zad) affectent l'ensemble du Maroc.
... la sècheresse de 1979 constitue un accident extrême, intervenu 3 fois seulement en 1000 ans et non pas un changement climatique vers un régime plus désertique.
... les graves sècheresses épuisent l'humidité du sol sur une grande profondeur, critère le plus marquant et le plus méconnu de ces sècheresses, car les conditions

de disette d'eau se perpétuent durant 1 à 3 ans après le retour de précipitations normales

... les sècheresses mineures (durée de 1 à 2 ans au col du Zad) affectent seulement quelques régions du pays et font apparaître la notion de climats régionaux (p.00).

... des années normales au col du Zad comportent des sècheresses, ailleurs, au Maroc.

Caractère régional des sècheresses

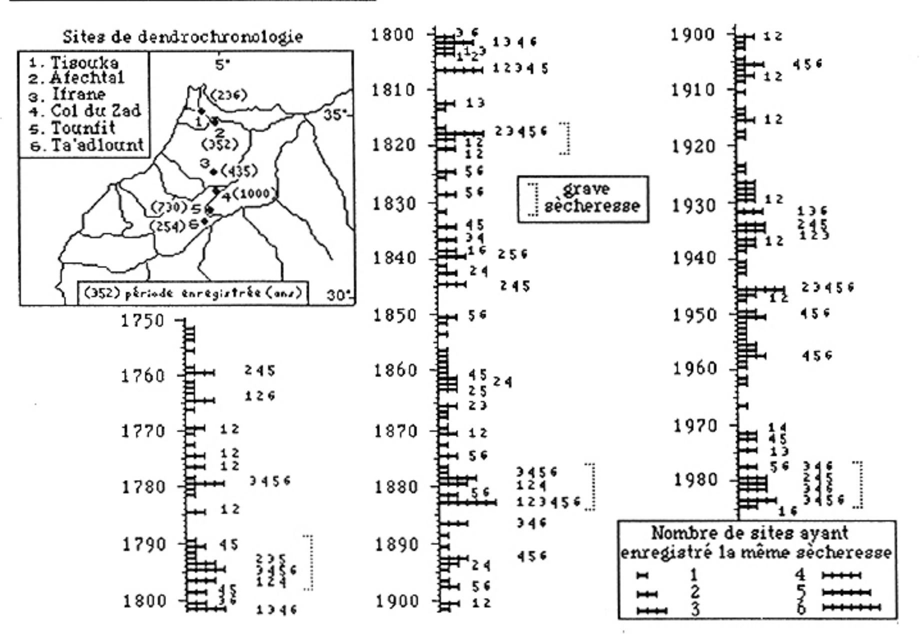


Fig.51 Sites ayant enregistré la même sècheresse

Sècheresses et histoire

Les sècheresses importantes et les grandes épidémies restèrent associées au cours du millénaire : famine et peste noire (14e s.), disette et choléra (1735-40), famine et la grande peste (1790-1800), famine et peste (1815-20), disette et typhus (1935-38). Les cèdres du Rif et du Moyen-Atlas témoignent de ces calamités.

Prédiction indicative des sècheresses

Bien que la science refuse toute prévision météorologique au-delà de 5 jours, l'économie politique d'une nation réclame une prédiction indicative à long terme (plusieurs années ou décennies) et une prédiction agro-météorologique à court-terme(quelques mois) du climat et des sècheresses. Selon la longueur du terme, deux démarches apparaissent :

Echéances décennales (long-terme) et tâches solaires

L'*étude dendrochronologique* apporte des indications valables, d'après une analyse critique des 1000 ans de données climatiques.
... elle informe, avec haute probabilité, qu'une sècheresse mineure interviendra, en moyenne, chaque décennie ou plus exactement au cours d'une période de 11 ans; cette sècheresse d'une durée moyenne de 1,6 an peut varier entre des extrêmes de 0,7-2,7 ans.
... elle indique une récurrence à une périodicité approximative de 20 ans, analogue au cycle solaire (magnétique).

Dans le même ordre d'idées, le cycle d'évolution du nombre des *tâches solaires* d'une périodicité de 11 ans, bien connue depuis 3 siècles (Galilée), fournit une indication précieuse.

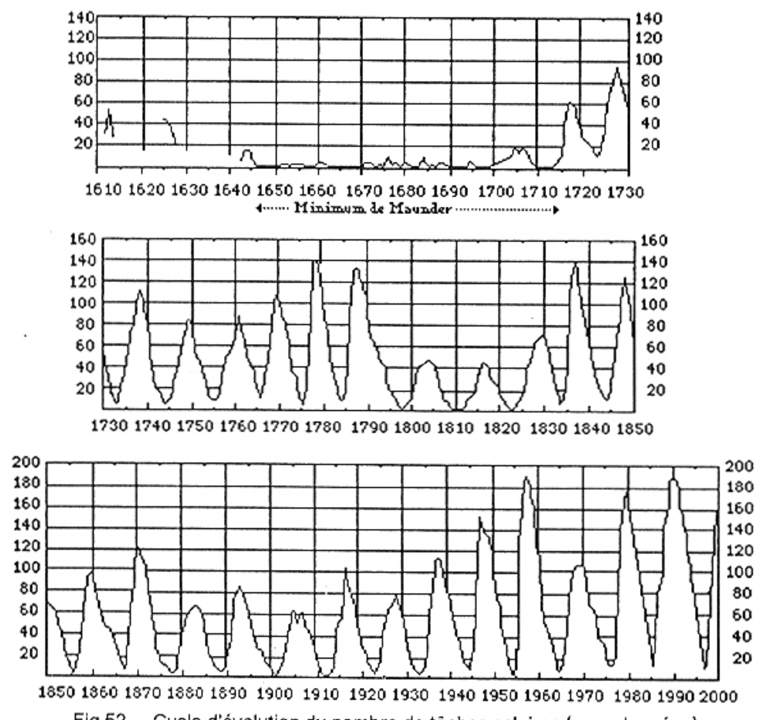
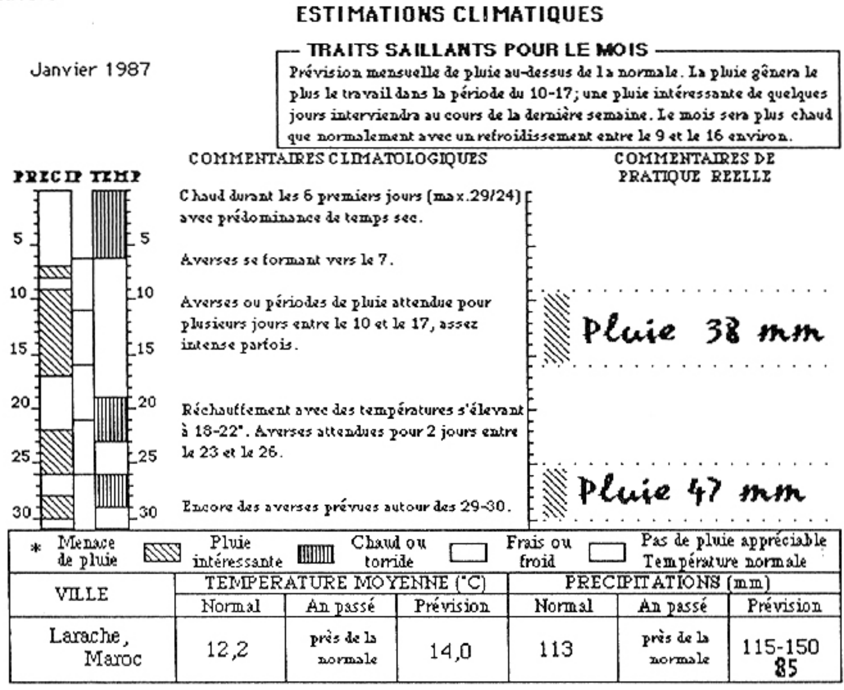


Fig.52 Cycle d'évolution du nombre de tâches solaires (en ordonnées)

Echéance mensuelle et semestrielle (court-terme)

Dans le second cas de prédiction plus orienté vers l'agro-climatologie, le traitement des données climatiques des dernières années apporte des indications valables.



ESTIMATIONS CLIMATIQUES

Janvier 1987

TRAITS SAILLANTS POUR LE MOIS

Prévision mensuelle de pluie au-dessus de la normale. La pluie gênera le plus le travail dans la période du 10-17; une pluie intéressante de quelques jours interviendra au cours de la dernière semaine. Le mois sera plus chaud que normalement avec un refroidissement entre le 9 et le 16 environ.

PRECIP TEMP

COMMENTAIRES CLIMATOLOGIQUES

Chaud durant les 6 premiers jours (max.29/24) avec prédominance de temps sec.

Averses se formant vers le 7.

Averses ou périodes de pluie attendue pour plusieurs jours entre le 10 et le 17, assez intense parfois.

Réchauffement avec des températures s'élevant à 18-22°. Averses attendues pour 2 jours entre le 23 et le 26.

Encore des averses prévues autour des 29-30.

COMMENTAIRES DE PRATIQUE REELLE

Pluie 38 mm

Pluie 47 mm

* Menace de pluie — Pluie intéressante — Chaud ou torride — Frais ou froid — Pas de pluie appréciable Température normale

VILLE	TEMPERATURE MOYENNE (°C)			PRECIPITATIONS (mm)		
	Normal	An passé	Prévision	Normal	An passé	Prévision
Larache, Maroc	12,2	près de la normale	14,0	113	près de la normale	115-150 85

Fig.53 Echantillon de fiche mensuelle de prédiction du climat

CLIMAT ET CIVILISATION

La civilisation évolua sous la double influence de l'héritage biologique et du climat. 3 aspects du climat interviennent : température, saisons, pluviosité.

Notamment, la pluviosité a façonné la **civilisation agricole** grâce à une

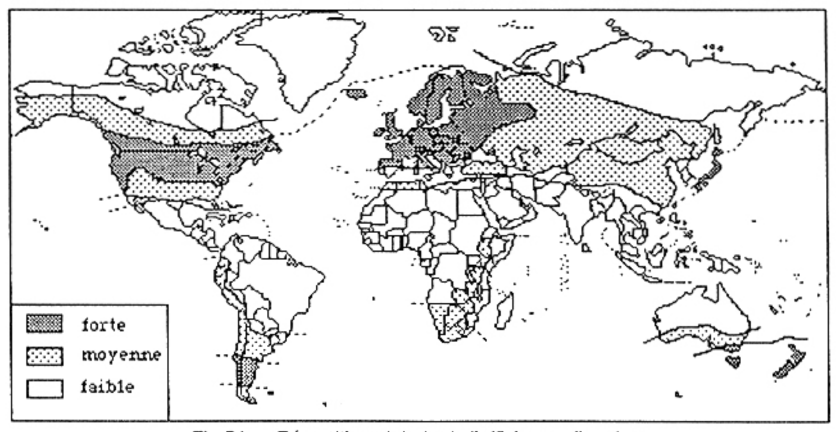


Fig 54 Répartition globale de l'efficience climatique

bonne périodicité qui confère 2 grands avantages : une plus grande production par hectare et une plus grande garantie de bonne récolte à travers les années.

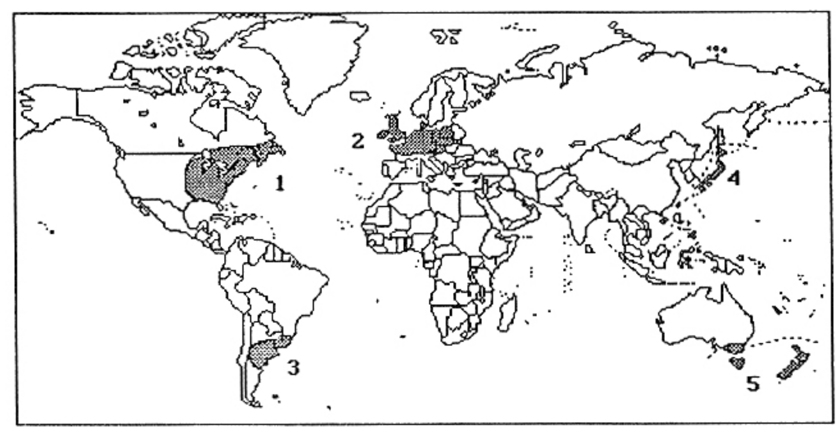


Fig.55 Les cinq paradis terrestres

Cycles, répétition, rythme, périodicité

A première vue, l'histoire de la vie est un enregistrement de cycles où apparaîssent 3 notions : la répétition, la régularité ou rythme, la régularité à intervalles prévisibles ou périodicité. L'histoire de la civilisation présente une certaine harmonie avec l'histoire du climat des 2 derniers millénaires.

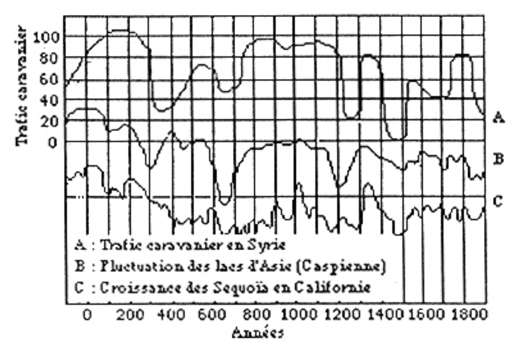


Fig.56 Interprétation des cycles climatiques

La construction de la courbe C intervint après l'établissement des courbes A et B.

Ce constat de cycles et de périodicité apparut vers les années 1940 avec l'école des géographes américains (E. Huntington, Wheeler).

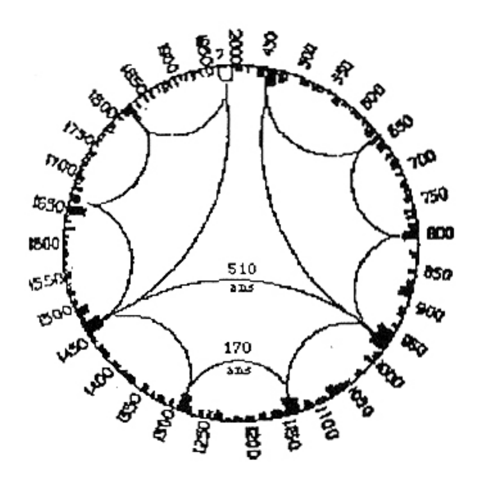


Fig.57 Horloge des sècheresses (Wheeler, 1943)

Les grandes migrations

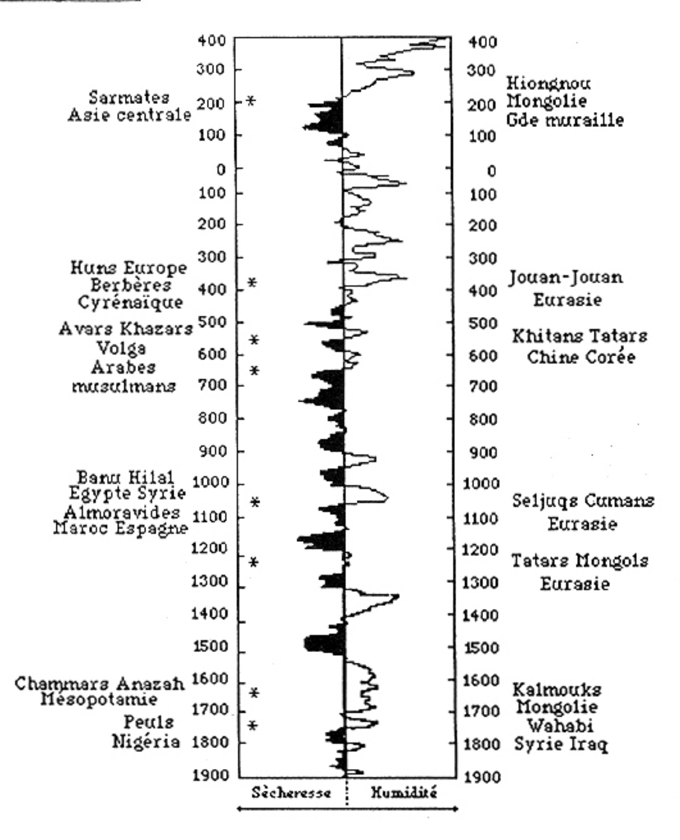


Fig.58 Migrations et cycles climatiques d'après les *Sequoïa* de Californie

HUMANITE

Relativité Eau-Humanité

L'eau, née longtemps avant la Terre, s'évadera de notre planète par évaporation et entraînera l'extinction de l'humanité.

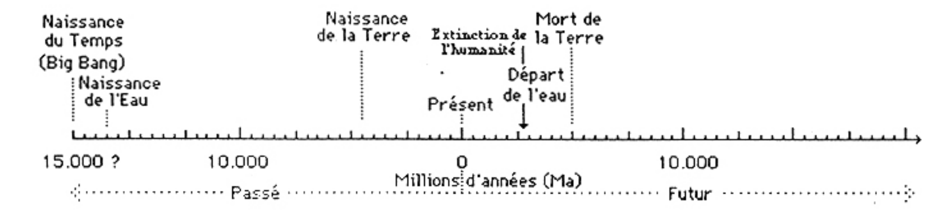


Fig.59 Destinées de l'eau et de l'espèce humaine

Reconstitution géologique et historique

Pour mieux comprendre l'évolution de l'humanité, replaçons les grands évènements climatiques et l'avènement de l'homme dans le contexte géologique.

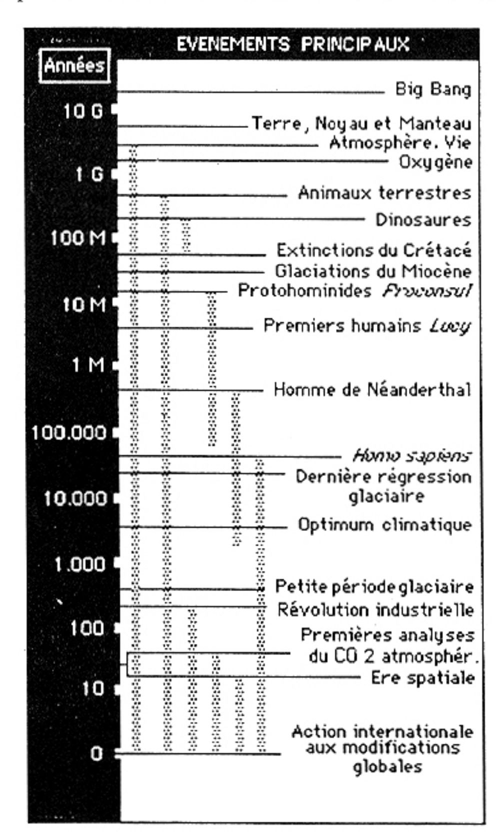


Fig.60 Etapes pré-humanité et humanité

VERS L'HOMME

L'humanité constitue le plus complexe chaînon de la vie engendrée à la suite de la naissance sur la Terre d'un atmosphère et d'un océan primitifs.

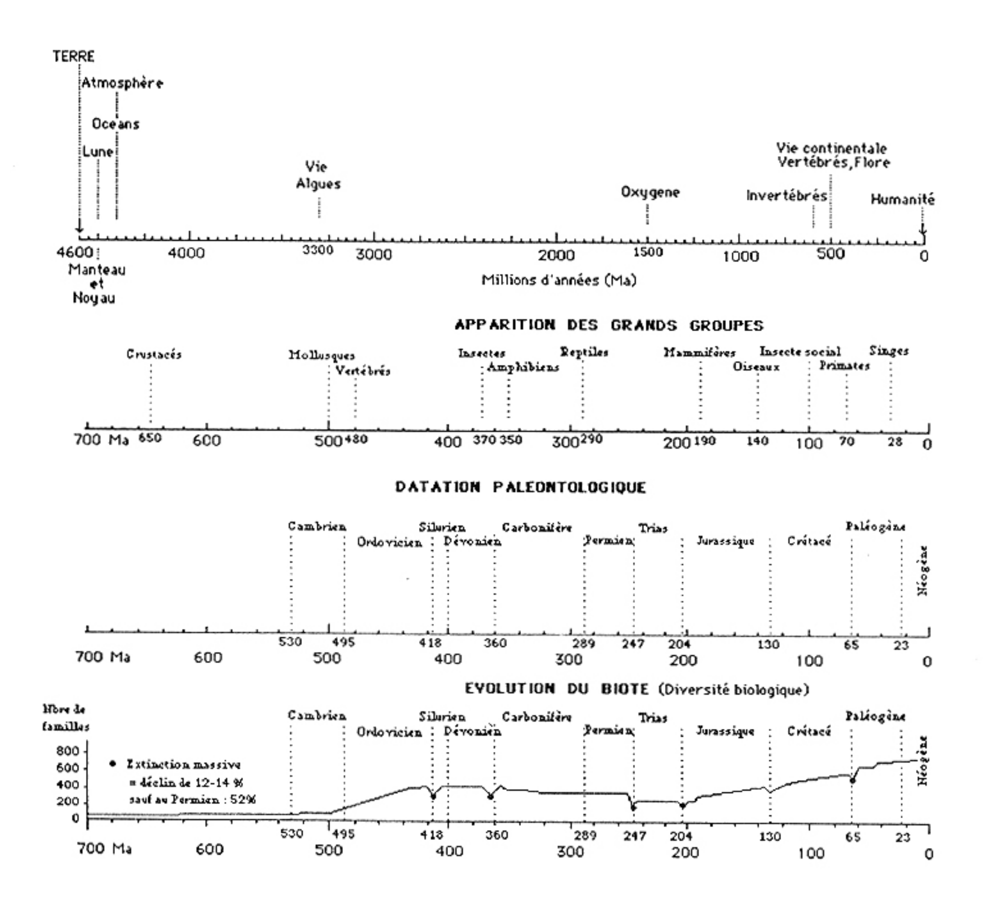


Fig.61 Histoire de la Terre

VERS L'HUMANITE

L'explosion démographique du XXe siècle apparait un évènement unique et extraordinaire quand on retrace la lente évolution de l'espèce humaine qui comptait 10 millions d'individus au début de la préhistoire

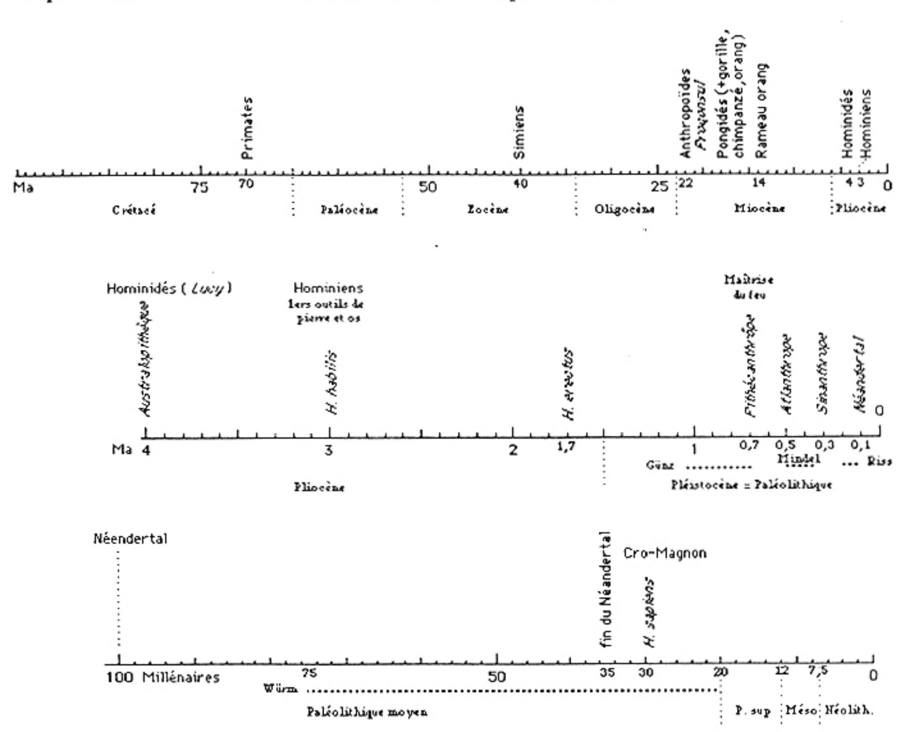


Fig.62 Histoire de l'homme

HUMANITE ET DEMOGRAPHIE

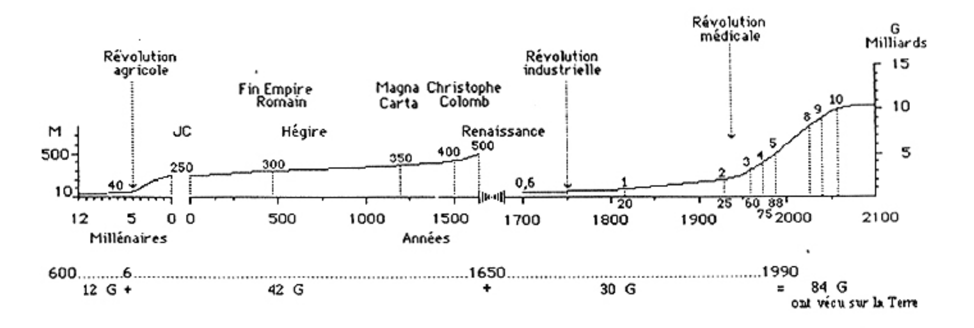


Fig.63 Histoire démographique de l'humanité

De la préhistoire au présent, la population humaine subit trois transitions démographiques à la suite de révolutions culturelles majeures. La troisième, en cours, portera l'humanité à 10 milliards d'individus.

L'EAU A DISPOSITION DE L'HUMANITE

L'humanité vient de modifier, pour la première fois, le cycle de l'eau, en l'amputant de 3.500 km3/an, résultat de la consommation réelle.

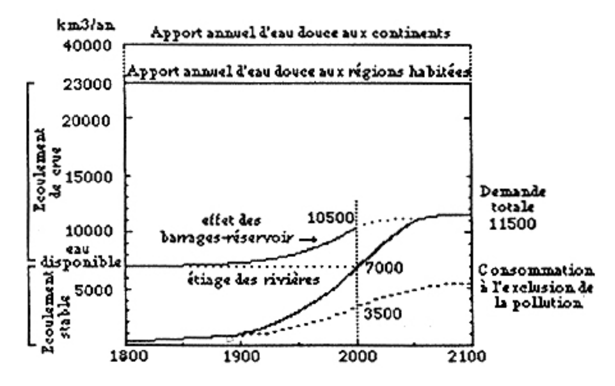


Fig.64 Situation globale de l'eau et de la demande

Les ressources disponibles apparaissent à peine suffisantes pour satisfaire les besoins en dépit d'un effort considérable effectué au XXe siècle pour aménager par barrages-réservoir de nouvelles ressources à partir de l'eau de crue.

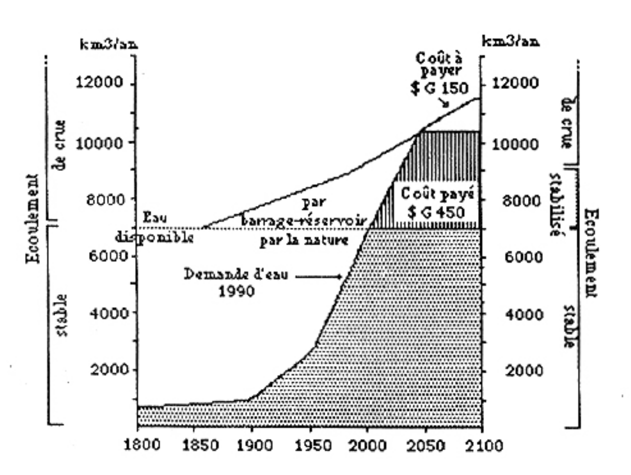


Fig.65 Problème de l'eau et de l'homme

Globalement, une situation de crise menace l'humanité, sous forme de pénuries d'eau chronique à l'échelon national.

PENURIES D'EAU NATIONALES

L'organisation de l'humanité en Etats et Territoires alloue *de facto* une quantité déterminée d'eau naturelle (ressource d'eau) à chaque nation ou groupe de population. Au sein d'une nation, la ration individuelle s'amenuise avec la croissance démographique jusqu'à créer une pénurie chronique quand elle tombe au-dessous de 500 m3/an/hab d'eau aménagée, équivalent de 1000 m3/an /hab. de ressource naturelle. Pour la 1re fois dans l'histoire de l'humanité, 20 nations entrèrent en pénurie chronique, au cours de ce siècle.

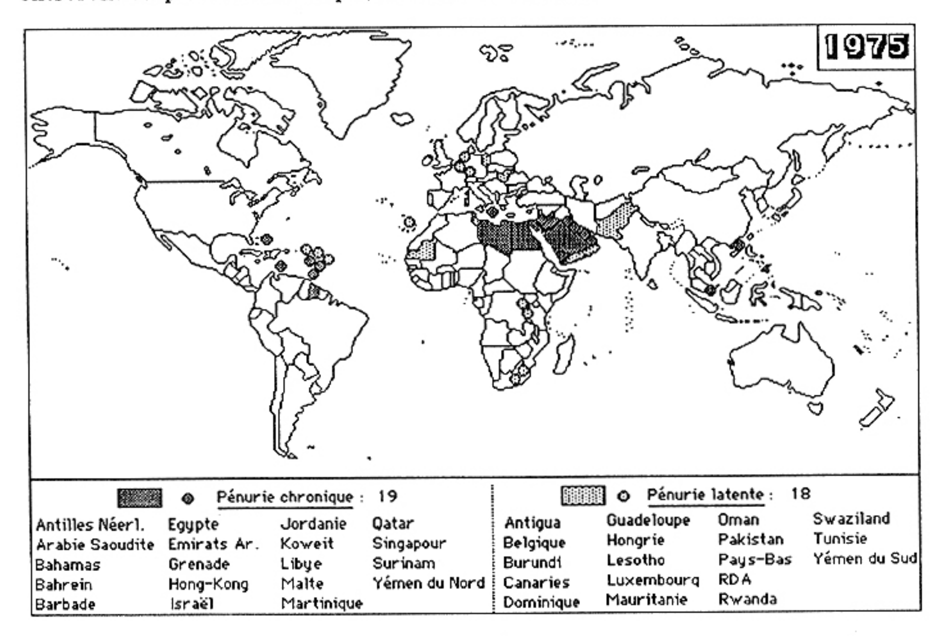


Fig.66 Situation acquise

En bonne connaissance de l'évolution démographique des 100 prochaines années, il devient possible de dérouler le film des pénuries d'eau chroniques à venir.

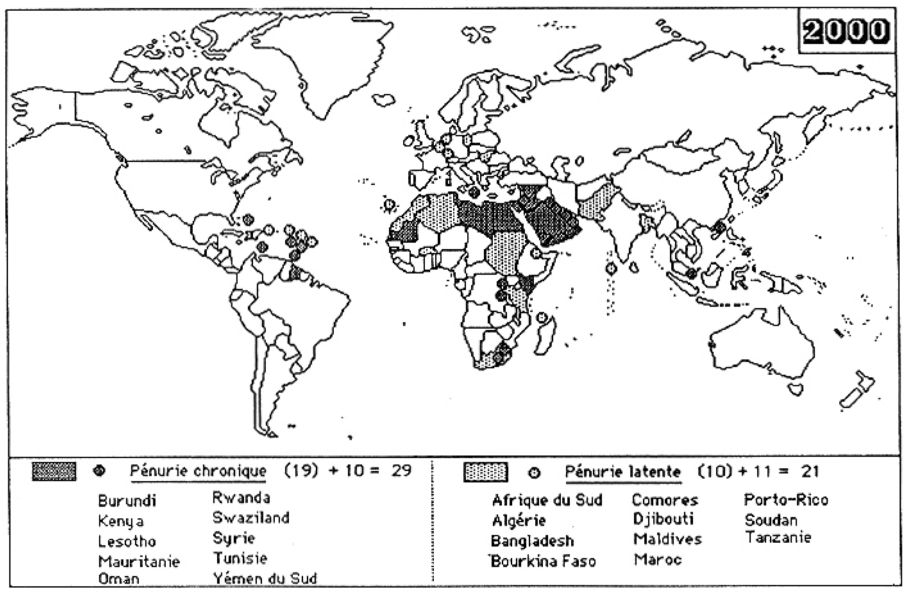


Fig.67 Prospective 2000

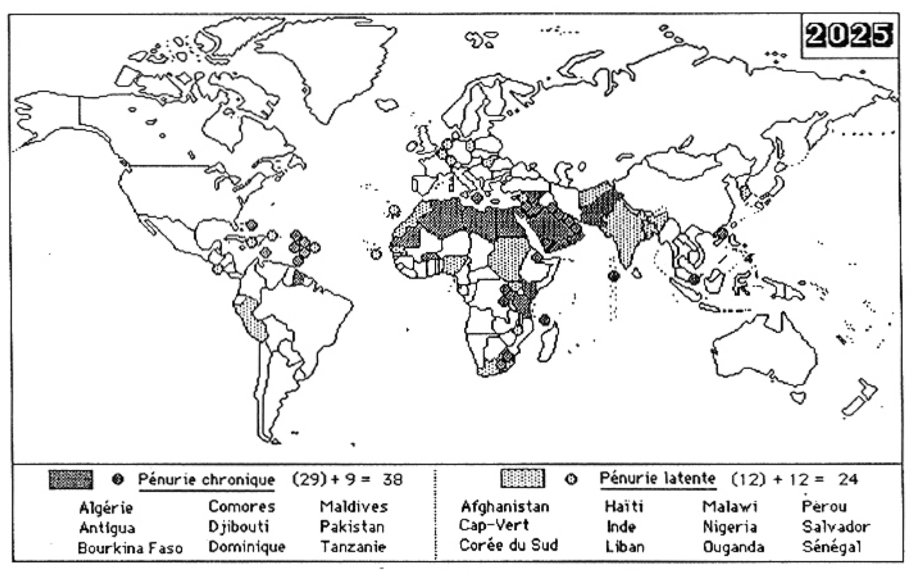


Fig.68 Prospective 2025

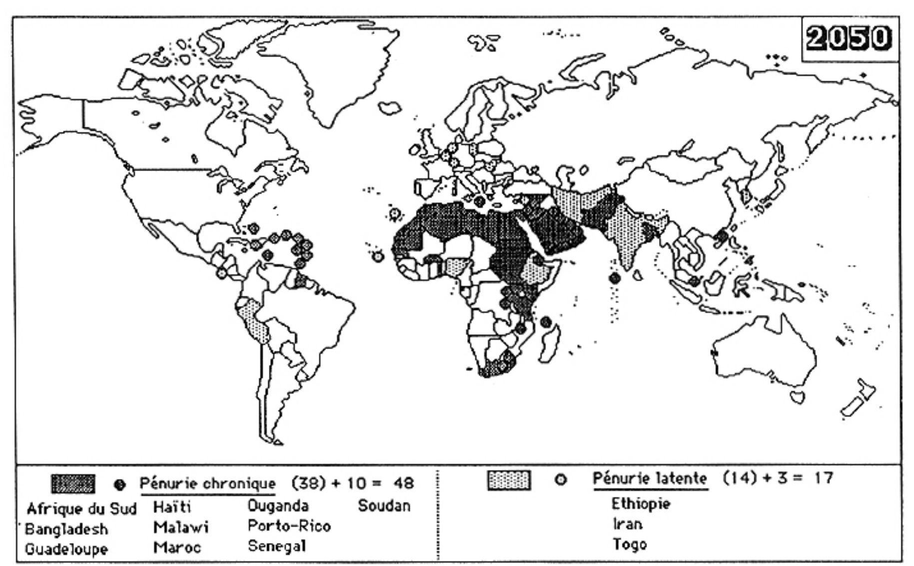


Fig.69 Prospective 2050

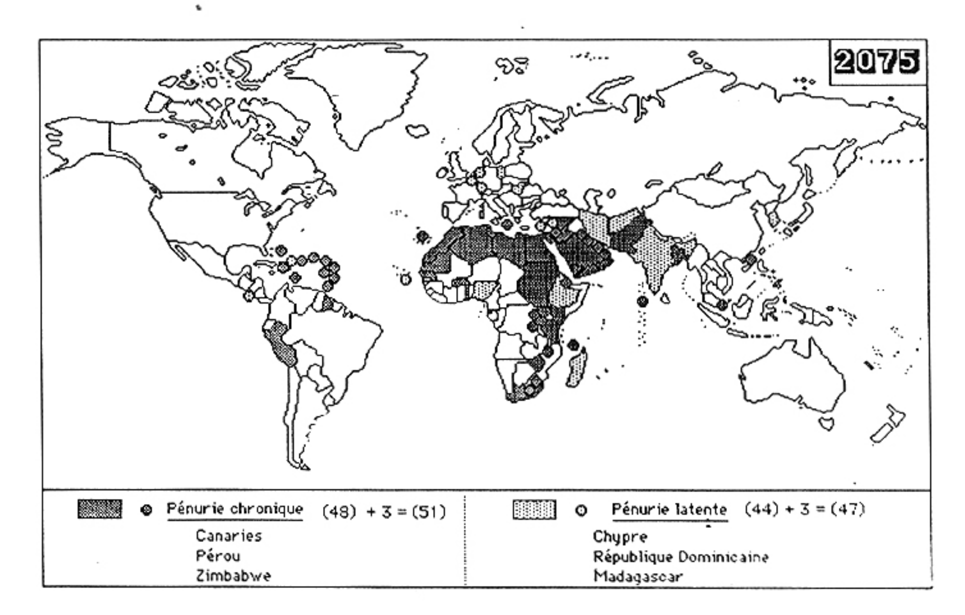


Fig.70 Prospective 2075

Ainsi apparait le scénario vraisemblable de la fin du 21e siècle :

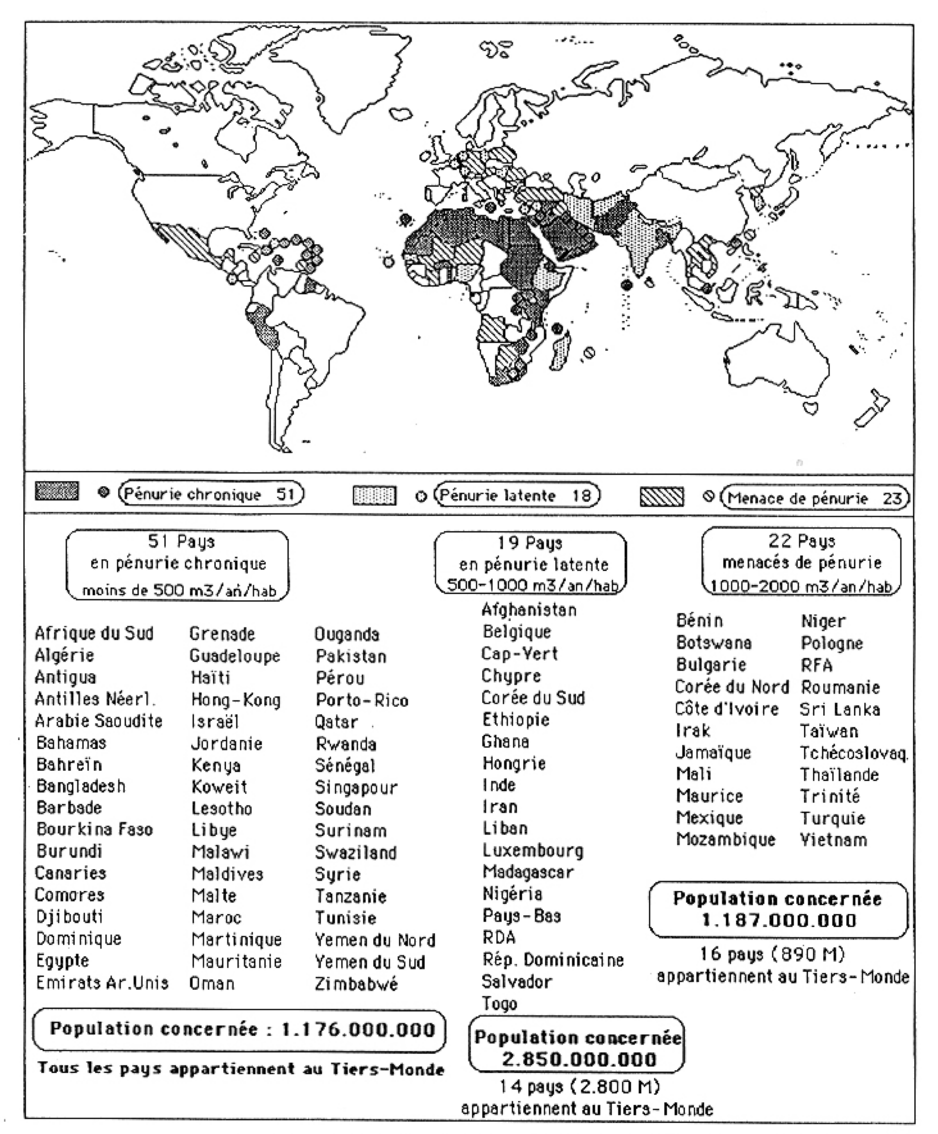


Fig.71 Bilan prospectif des pénuries nationales en fin de 21e siècle

L'équivalent de la population habitant notre planète, à présent (1990), soufrira de pénurie d'eau, dans un siècle.

Un tel présage parait insuportable.

QUE FAIRE ?

ERREURS ET ESPOIRS

Examinons le problème aux niveaux national et international.

Approche nationale

L'eau douce de nos rivières et de notre sous-sol, patrimoine commun de l'humanité depuis son origine, vient de perdre ce privilège en deux millénaires et se retrouve emprisonnée par les frontières des nations.

Sans dramatiser, les problèmes de nutrition deviendront exceptionnels. La production de céréales nécessaire à l'humanité devra doubler en un siècle. Le doublement ne pourra pas se produire par la culture pluviale, suivant l'usage du 20e siècle. Trop de pays en développement ont adopté cette approche, sous l'influence du modèle des pays à climat tempéré et en ont connu les méfaits.

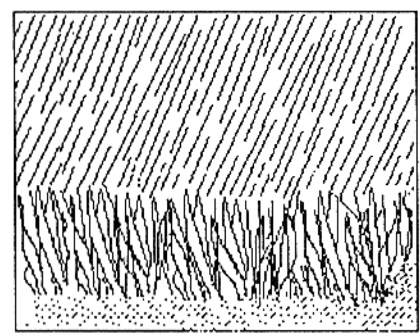
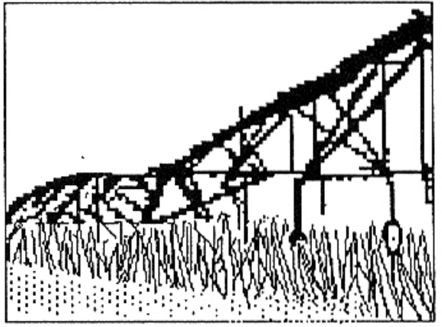



Fig.72 Culture des céréales

Pour atteindre ou maintenir l'auto-suffisance céréalière nationale, il est nécessaire de donner la priorité à l'irrigation, dès à présent, et d'irriguer même les déserts.

Le moyen le plus moderne et le plus efficace de forte production des céréales consisterait à utiliser le **Centre-pivot**.

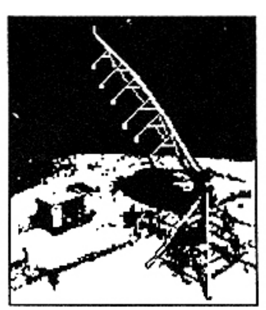


Fig.73 Centre-pivot sur son puits foré

L'Arabie Saoudite et la Libye viennent d'en faire la preuve en se rendant auto-suffisantes en sept ans.

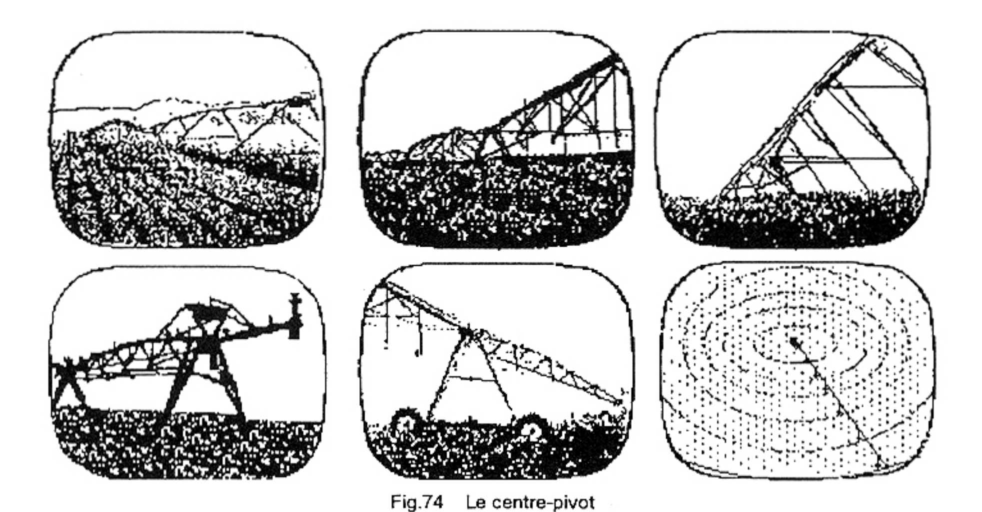


Fig.74 Le centre-pivot

Approche internationale

Deux Conférences mondiales sur l'eau (1967 et 1977) omirent de traiter globalement le sujet des pénuries d'eau nationales et de prévenir, ainsi, l'opinion publique sur cette crise majeure qui frappera 70 nations et en menacera 24 autres en un siècle, en affectant 6 milliards d'individus, soit l'entière population actuelle de notre planète.

Seul, un symposium des pays atteints ou menacés de pénurie d'eau, à objectif précis et bien préparé à l'avance, représenterait un gage de réussite.

Pour une nouvelle stratégie de grands transferts d'eau

Redonner à l'eau douce son privilège de patrimoine commun de l'humanité en transférant vers les pays menacés l'écoulement excédentaire de certains grands fleuves par delà les frontières nationales ou sous la mer.

Le progrès technologique associé à la solidarité permettrait de dessiner une redistribution internationale de l'eau par conduites à grand diamètre (2-4 m) pour l'eau, doublées le cas échéant d'une conduite de pétrole à la traversée de déserts détenteur de cette énergie, afin d'assurer le relèvement ou l'exhaure de l'eau. Ces oléo-aqueducts deviendraient la réalité du siècle prochain.

Prenons l'exemple de l'Afrique.

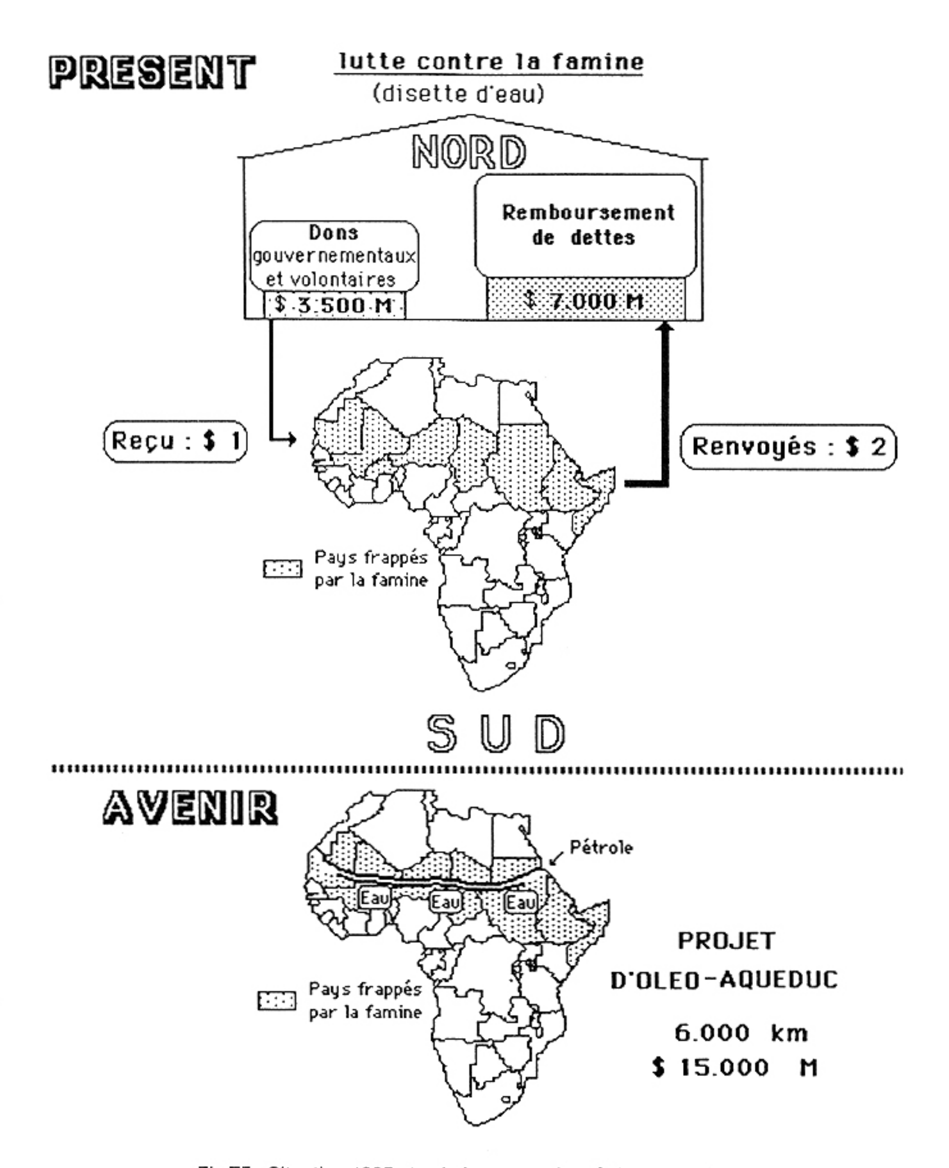
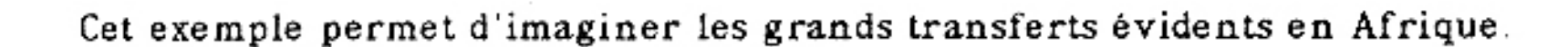
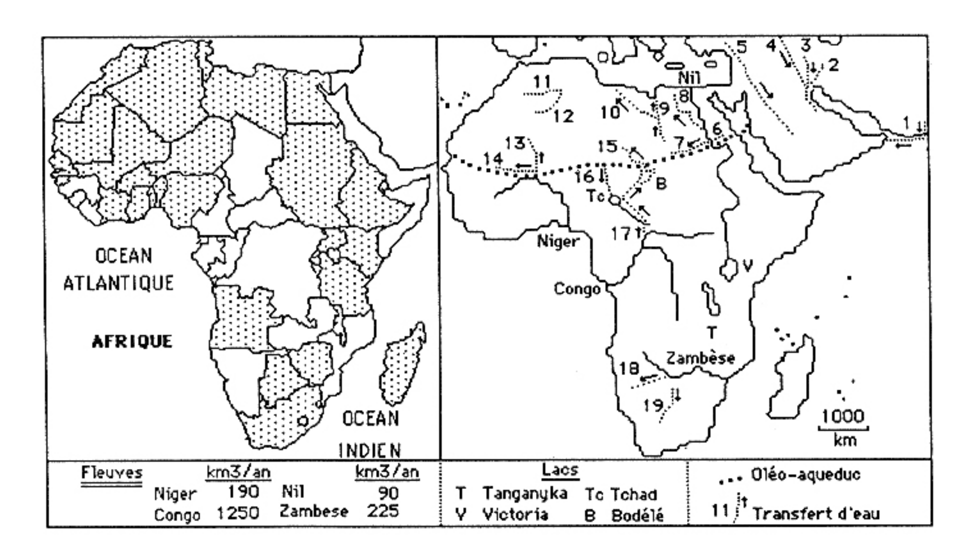


Fig.75 Situation 1985 et solution contre les sècheresses du Sahel



Cet exemple permet d'imaginer les grands transferts évidents en Afrique.



TRANSFERTS D'EAU

	Longueur (km)		Longueur (km)
1. Pakistan-Emirats A.U.	700 C	10. Sarir-Tripoli	900 C
2. Shatt el Arab-Koweit	150 C	11. Hassi Rmel-Ghardaïa-El Golea-Timimoun	700 I
3. Tigre(Fl.)-Koweit	250 C	12. Hassi Rmel-Figuig-Errachidia	750 I
4. Turquie-Iraq-Koweit-Arabie S.	2400 C	13. Niger (Fl.)-Taoudeni	650 I
5. Turquie-Syrie-Jordanie-Arabie S.	2200 C	14. Niger (Fl.)-Tichitt	650 I
6. Merowe-Abu Hamed (Nil)	200 I	15. Faya Largeau-Zouar	400 I
7. Ed Debba-Wadi el Milk (Nil)	400 I	16. Bilma-Agadem	300 I
8. Assouan-Kharga-Dakhla-Farafra-Qattara	100 I	17. Ubangui (Fl.)-Logone (Fl.)	200 I
9. Koufra-Sarir-Syrte	1700 C	18. Zambèse-Grootfontain	700 I
		19. Okavango (Lac)-Kalahari	750 I

C = Projet conçu ; I = Projet imaginé

Débit : 0,1 à 6 m3/s (n°1), 23 m3/s (n° 9-10)

Coût : $ 4 M/km (n°1) à $ 15 M/km (n° 9-10)

Fig.76 Grands transferts et projets

Un projet gigantesque se réalise en Libye (n° 9) avec une première tranche de $ 3,6 milliards (prix 1989), suivie par le projet n° 10; le coût total atteindra $ 25 milliards, y compris l'agriculture irriguée par centre-pivots. Les projets n° 2 et 3 passent au stade de construction (coût : $ 1,5 milliard). D'autres projets conçus jusqu'à l'étude de pré-faisabilité font l'objet de pourparlers avancés (n° 4 et 5) mais leur coût fait hésiter ($ 20 milliards). Le projet n°1 pose encore un problème technologique par les 650 km sous la mer, à 600 mètres de profondeur pour amener 6 m3/sec.

Exemple particulier du Sahara

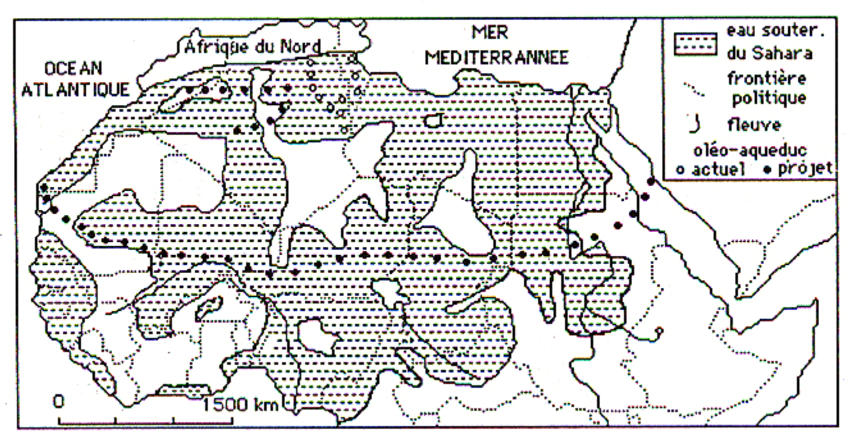


Fig.77 Réservoirs d'eau souterraine du Sahara

L'eau souterraine existe en abondance sous les deux-tiers du territoire saharien. Le moment arrive où, désormais, il conviendra de forer un puits d'eau avec un puits de pétrole, pour satellite.

Des oléoducs et gazoducs parcourent ce désert vers une destination finale : la Méditerranée. Pourquoi ne pas forer des puits d'eau au long de ces conduites. Si l'eau s'avère jaillissante, l'énergie servira plus tard quand la pression baissera inéluctablement en fonction de l'exploitation pour l'agriculture irriguée par centre-pivots. Si l'eau ne jaillit pas, l'énergie permettra le pompage pour l'irrigation.

Ailleurs, où les oléoducs ou gazoducs n'existent pas au-dessus des réservoirs d'eau souterraine, pourquoi ne pas installer des conduites d'énergie dans ou vers des zones privilégiées pour l'irrigation et créer de vastes étendues de colonisation. Une telle stratégie surpasse de loin la pratique traditionnelle de déforestation en faveur de l'agriculture, si répandue dans les régions tropicales et tempérées.

Ainsi, pourrait se transformer la vie au Sahel et dans le désert.

Bienfaisance éventuelle des pays riches en eau

Dans un siècle, trente-et-une des 200 nations et territoires disposeront d'une ration individuelle supérieure à 10.000 m3/an.

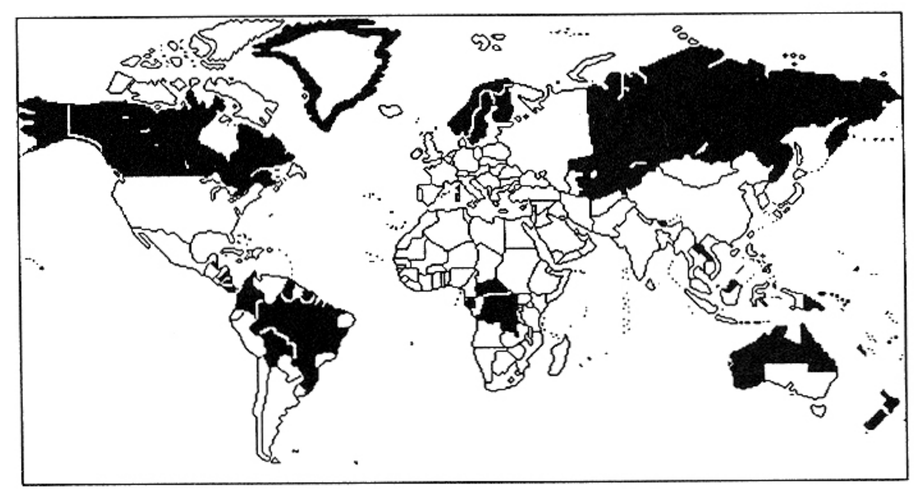


Fig.78 Nations riches en eau dans un siècle

La perspective d'une nouvelle politique et stratégie de l'eau se dessine.

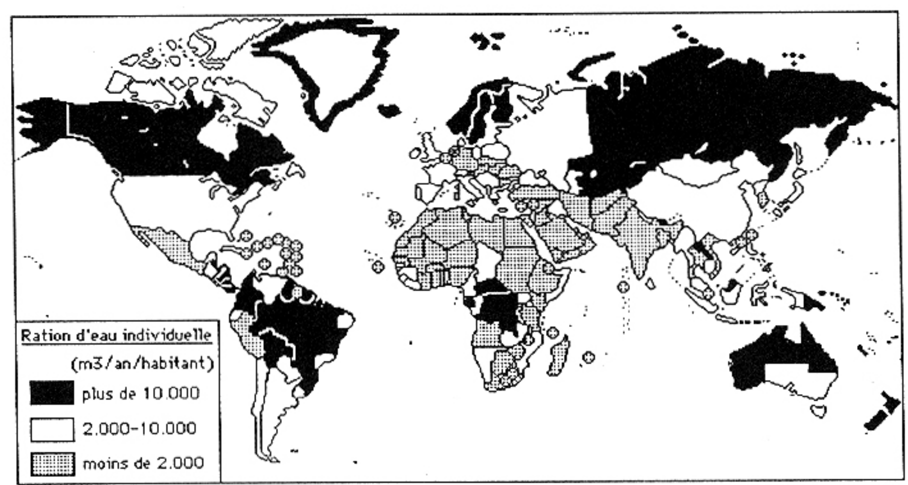


Fig.79 Enjeu 2075 des nations riches et pauvres en eau

Résumé

Au 21e siècle, la contrainte de l'eau gérée au niveau national dominera et compromettra le développement économique et social de la majeure partie des nations.

Peut-être, les pays nantis ne resteront pas insensibles à cette poussée lente et irrésistible, humble et forcenée, vers la vie décente par l'eau.

Ainsi se réaliserait le rêve de voir les pays nantis et les pays riches en eau conjuguer leurs moyens et leurs efforts dans une vaste entreprise de transferts inter-états et rendre à l'eau sa vocation originelle de bien commun de l'humanité.

CONCLUSION

Au cours du siècle écoulé, l'humanité a porté atteinte au cycle de l'eau pour la première fois en amputant 10% de l'écoulement global et en polluant une quantité égale.

Les avancées technologiques permirent cette modification :
... électricité pour élever l'eau,
... mode de construction des grands barrages et canaux (béton et terre),
... engins pour déplacer la terre,
... sondeuses et pompes pour l'eau souterraine,
... métal et plastique por les conduites,
... produits chimiques pour la pollution ou le traitement des eaux.

L'économique et le politique intégrèrent l'eau des villes et l'eau des champs.Le social introduisit une équité par l'eau.

Le concept de gestion de l'eau évolue :
... les mesures non-techniques remplacent les grandes structures,
... le critère économique fait une place au social.

Dans le même temps, la science de l'eau se perfectionne : la notion de cycles biogéochimiques se fait jour, avec une meilleure connaissance des flux vitaux de notre planète : le carbone, l'azote, le soufre, le phosphore, afin de mieux évaluer les changements de climat en discussion ainsi que les effets toxiques sur l'eau aux doses infinitésimales.

*****

Comment se présente l'avenir du prochain siècle ? Deux réponses s'offrent :

... une réponse d'évidence sur le rationnement inévitable de l'eau et sur sa détérioration de qualité,
... une réponse conjecturelle sur la modification de climat avec nouvelle distribution de la pluie et de la température.

Des mesures communes aux deux réponses paraissent souhaitables pour la société :
... efficacité accrue d'application de l'eau d'irrigation,
... réduction du gaspillage d'eau urbaine,
... réduction des émissions de S, N et C dans l'atmosphère,
... prévention et/ou élimination de la pollution de l'eau.

Une nouvelle gestion de l'eau apparait :
... harmonisation du développement et de la conservation de l'environnement,
... effort accru sur les mesures non-techniques pour agir sur les mentalités et les comportements.

POÉSIE-POÉTIQUE. POÈME-POÈTE ?
(RÉFLEXIONS)

Mohamed Aziz LAHBABI

Réfléchir, c'est renvoyer, dans une autre direction, le son, la lumière... ce qui exige une activité corporelle et transitive.

Réfléchir à une idée, un événement, un fait, une situation, ... c'est penser, analyser, examiner. Ce qui exige de mobiliser la raison.

Quant à la poésie, c'est un ouvrage/ art dont l'objet relève du senti, du vécu existentiel. Emotions, frissons spontanés, idées... qui s'expriment en une langue particulière où dominent des rythmes, sonorités, images et musicalité. La poésie obéit au cœur ; elle relève du psychisme. Ses raisons ne sont point impliquées par la Raison.

Dès lors, n'est-ce pas paradoxal de méler la réflexion à la poésie dans le même titre ?

Si, au moins en apparence.

Cependant, l'être humain qui raisonne/ réfléchit, n'est-il pas le même qui «poétise» ses émotions et sentiments ? Il constitue une unité où raison et cœur se complètent.

A. - **Tention et mobilité de la poésie.**

Il semble que la principale caractéristique de la poésie est justement une tension continue pour disposer du langage, l'assumer tout en s'efforçant de le faire éclater. Le poète a beau presser les mots pour en exprimer tout le suc, le débit de celui-ci reste limité à un seuil donné. A ce niveau, l'expérience devient épreuve exténuante.

Les vrais poètes acceptent le défi.

A force de faire le don de soi, le poète finit par confondre son «art» avec une lutte d'affranchissement où se confond sa personne propre avec celle d'autrui pour les arracher à l'incommunicabilité, aux malentendus, pour les faire co-frissonner avec lui. Le poète est, comme les grands comédiens qui ne distinguent plus leur personne des personnages qu'ils incarnent. Le rôle, la fonction et l'être n'en font qu'un. C'est le péril de la tension vers la transcendance de soi par sublimation de

l'amour. Les «soufi»(s) l'appellent extase[1]. Pour le philosophe et le poète, c'est le pur amour (l'agapé, l'amicitia), et que d'autres apppellent «la folie des extasiés».

La poésie est un appel et une entrouverture sur l'intimité dont les conséquences sont la tension et la mobilité. Celles-ci caractérisant la poésie, soulèvent une double question :

- Où s'alimente le mouvement mobilisateur et les soubassements dynamiques de la tension ?

- Et de quelle nature est ce mouvement ?

Cette double question renvoie à deux interrogations :

- Qui «poétise» ?

- Et à partir de quelles sources ?

La réponse la plus simple, qui «va de soi», consiste à affirmer que la poésie est l'expression approximative, mais aussi la plus profonde des frémissements de l'être, de sa nostalgie, de ses aspirations à un langage adéquat à ses colères, sentiments, projets, déceptions, espoirs,... Toutefois, ne peut-on espérer que le poète pourrait, un jour prochain, dépasser les langues sans âge, ni goût, ni couleur, vers une expression qui épouserait entièrement les passions, les emportements humains, les pensées..., dans leurs méandres les plus complexes, pour un dire absolu au niveau des amours absolument violents ou absolument tendres ?

* * *

En posant une telle question, on donne l'impression de réduire les problèmes de la poésie à la simple relation entre l'exprimé et l'expression. Alors on fait marche arrière par rapport à ce qui a déjà été dit. Et pourtant, le paradoxe demeure.

En effet, la relation entre l'être humain et l'être du mot/ des mots, fait problème, mais le problème ne s'y réduit pas totalement. En réalité, la question se pose en trois termes qui s'impliquent : *l'amour, la mort* et le *mot*.

* * *

L'amour, c'est l'attachement à la vie : on s'aime soi-même, on s'aime à travers l'autre, on aime l'autre à travers soi-même, on aime tout ce qui maintient la vie ou contribue à l'améliorer et, par sublimation, on aime Dieu. Mais on aime Dieu dans l'élan de l'attachement à la vie, le Dieu soutien et protecteur contre le mal et la mort.

Pourtant, il arrive qu'on sacrifie sa vie, par amour, «on préfère la mort à...», «on ne tient pas à survivre à...». C'est là un pardoxe, car la mort se présente comme l'anti-amour, comme la négation dialectique de la vie.

Ce rapport amour-mort, comment en rendre compte ?

(1) Un soufi = un mystique musulman.

Le langage discursif échoue radicalement à exprimer le sens-essence de l'amour et de la mort et, à fortiori, leur rapport. A ce niveau, le mot est bien au dessous de son rôle, de ce qu'on aurait souhaité voir remplir comme rôle.

* * *

Un autre paradoxe :

Le mot s'avère essentiellement une condition sine qua non dans le poème. Et pourtant, il se refuse, par impuissance congénitale, d'exprimer la totalité du contenu vécu.

Cette impuissance apparaît davantage vis-à-vis de l'amour et de la mort. Si la mort est l'antithèse de l'amour, le mot se dresse en négation de la négation. Verbalement parlant, nous ne savons que de l'à-peu-près sur l'amour et la mort. La prose en a toujours été là, à ce seuil infranchissable. Le recours à la poétique n'est donc qu'un subterfuge en vue de «manipuler», de «dribler» le mot pour déjouer la difficulté à exprimer. A la limite, on peut dire que la poétique est une déclaration de guerre au langage, - par une autre forme du langage, un langage autre en perpétuelle invention. Davantage : la poétique invente et réinvente sans cesse, même son propre langage. Elle est langage d'auto-invention par auto-destruction-récréatrice, par des phrases qu'elle décole au profit de combinatoires novices, au profit de tournures vierges. Les mots assurent, eux aussi, des modifications fondamentales de leurs significations.

B. - Le poème et ses dimensions

On parle du «poème» comme s'il était un concept clair et distinct. Supposons qu'il en soit ainsi. Alors, quand peut-on considérer qu'un poème est «fait» ?

Lorsqu'on le déclame ?

A cette phase, il est, déjà devenu discours.

Lorsqu'on le lit ?
En ce moment, il est déjà incarné graphiquement, visualisé par l'écriture.

Dans les deux cas, le poème s'avère bi-dimensionnel (il coïncide avec le temps mis à le lire, le réciter ou le chanter, et avec l'espace occupé sur la page). La lecture et l'écriture purement bi-dimensionnelles démunient le poème de ses sous-jacents et de son au-delà par rapport à l'audible et au visible.

Où trouver donc l'essentiel du poème, ce qui lui donne son identité, l'individualise dans l'espèce des expressions ?

En d'autres termes : où trouver l'essence poétique du poème ?

Le lyrisme, la véhémence, le savoir-bien-dire, la calligraphie, voire l'émotion, se présentent dans le dit et l'écrit. A ce niveau, il y a communication. Alors, le poème est.

Toutefois, affirmer l'existence du poème ne répond qu'en partie à la question précédente : *le poème est*, mais nous ne savons rien de son histoire : à quel moment il fut pour le poète ?

Son existence objective a-t-elle eu une préhistoire ?

Que peut-on savoir de l'instant où la préhistoire (émotionnelle, subjective) s'objectiva en passant dans l'histoire ?

Qui peut en témoigner ?

Autrement dit : quelle est la nature du procès qui élève des mots puisés dans un quelconque dictionnaire, au rang d'instruments «poétiques», chargés de frémissements, d'impulsions, de passions, de tremblements de pensées, dans une traversée de joie et de douleur ?

Comment des dictionnaires constitués tire-t-on une version poétique de mots lexicologiquement neutres ?

Autrement dit : par quel processus, des mots passent-ils du statut de moyens finis à des usages infinis ?

Bien d'autres problèmes mériteraient d'être soulevés et qui, eux aussi, resteront sans solutions définitives, dans les systèmes présents du langage. En voici un majeur qui découle de l'ensemble de ceux qui ont été posés précédemment. Il s'agit de savoir si le poème précède les mots et procède d'eux ou, inversement, si ce sont les mots qui précèdent le poème et procèdent de lui. Cela veut dire : savoir si les mots sont de simples moyens d'explicitation, par le dire et l'écrire, des sentiments et des pensées dans l'univers extérieur de la communication, ou bien si les mots sont véritablement créateurs du sentir, du pensé et du vécu.

Quelle que soit la réponse, nous serons paradoxalement amenés à nous poser une question cruciale : sur quoi se fonde la séparation entre le subjectif et l'objectif, séparation qui camoufle le côté actif du langage, l'aspect vivant, humain du poème ?

Etant expression intime, la poésie nous révèle la personne du poète. Or, il nous semble que la personne est, la seule et unique réalité où s'unissent, à la fois l'un et le multiple, étant donné que la personne est le multiple qui tend, continuellement, vers son unité dispersée. Une interférence constitutionnelle.

La personne est réflexion et poésie, raison et cœur.

* * *

«Sphynxié», le mot se démode, mais garde son mutisme : il s'agite et ne dit... mot. Son secret faisant partie du mystère des grandes nuits, nous effraie. Qui saurait intenter un procès au mur de Chine, détruire le silence de la grande Pyramide ?

La destruction du mot (Sphynx, Mur, Pyramide), du mot portail du silence ne se ferait que par un renversement radical des systèmes actuels de la communication parlée et écrite, en vue d'inventer de nouveaux systèmes.

Un poète arabe disait qu'il lui arrivait de souffrir davantage pour ne composer un vers que pour subir l'extraction d'une molaire[2]. Plus qu'une maïeutique, c'est un véritable accouchement dans la douleur. Socrate faisait accoucher ses

(2) Al-Farasdaq (+ 110 H/730). Cela fait penser à Céline qui pestait contre «la phrase pas rentable qui vous tue le bonhomme» pour retrouver «le rythme vital».

interlocuteurs des idées qu'ils portaient déjà en eux. Le poète passe-t-il par l'état de grossesse comme période prénatale du poème ?

Certes, toute œuvre d'art a une histoire datée qui s'écrit[3]. Cependant. le datage enregistré ne correspond pas à la réalité «poétique» du poème : elle n'englobe pas les soubassements qu'engendrent les activités imaginatives et affectives, ni les efforts de remémoration qui ressuscitent et revivifient les souvenirs. Ces diverses pratiques subjectivo-mentales se situent en un lieu qui échappe aux systèmes codifiés du parlé et de l'écrit. La poésie étant sans références objectivement communes, comment garantir la réalité véritable et l'authentique vérité du poème ?

Nulle réponse.

La seule conviction qui nous reste acquise, c'est qu'il y a inadéquation entre le langage du poème, comme discours ou comme écriture (l'extériorité : travail formel d'élaboration, choix des mots, prosodie...) et entre le translangage et le sous-langage (l'intériorité : le contenu = le senti, l'intuitionné, le vécu...). Inadéquation, mais aussi instantanéité.

* * *

Plus plausible serait de supposer une certaine mixture intercréative, une complémentarité, une co-constitution : le poète se fait par le poème en le faisant. En une autre manière : le poème fait son auteur au fur et à mesure qu'il s'élabore (alors que le poète l'élabore). Au départ, pas de lois, ni de code, mais un simple jeu sans règles où le joueur se confond avec le jeu. A ce point, on ne saurait parler de maître du jeu, mais d'une exécution d'orchestre qui se déroule au fur et à mesure que la partition se fait participation. Un champ se crée où une partie engendre une autre, sans préalable prévu, sans code visible. Le langage joue et, en jouant, se fait lui-même champ de jeu(x). Le poète pense faire des vers et finit par s'apercevoir qu'il a été emporté vers des horizons aux virtualités imprévues.

On est maintenant fondé d'affirmer l'intéraction poème-poète, poésie-poétique. Sans cette fusion, le poème se réduirait au simple «nazm»[4]. Les mots collés les uns aux autres peuvent véhiculer des significations, contenir des étincelles de sens, mais ceux-ci ne se séparent pas des non-sens et des contresens. Il existe bien des poèmes «automatiques»...

C'est un «phénomène» litéraire, comme l'anarchie, dans l'histoire politique, en est un autre. La circulation des sens à travers les phonèmes et les signes ont besoin d'un «nazm», d'un minimum d'ordre pour éviter la déconstruction du code, c'est-à-dire des conventions qui permettent le passage des communications. Les signes manifestent une conscience en soif de communiquer un message, de se raconter, de faire appel, de solliciter un écho, une participation affective, un témoignage de sympathie...

---

(3) Le poète est né le..., et appartient au courant romantique ou, ... le poème a été composé à l'occasion de ...

(4) On distingue en arabe, entre «shi'r» (poésie : de sha'ara = sentir, savoir, prendre conscience) et «nazm» (versification : «nazama» = organiser, ordonner et, par glissement de sens, jux-taposer des mots).

Le cœur palpite et la langue se réveille. Plutôt : le cœur et la langue se réveillent, au même instant, et se mettent, simultanément, à palpiter. Dans l'esprit et le cœur, à la fois, se forgent les langages. Et c'est dans le langage que se produisent les sens. Tout sens est multiple et le mot est multiplicateur de sens. Par cette richesse même se maintient l'écart entre contenant et contenu du poème. Les normes n'interviennent qu'au niveau de la «fabrication» du poème, tandis que la poésie, elle, est hors normes. C'est en cette anormalité que réside le mystère.

2 ^{ème} Partie

ABSTRACTS

Abderrahmane EL FASSI

DE MES MEMOIRES A PROPOS D'UN COLLEGUE QUE NOUS AVONS PERDU - PREMIERE PARTIE -

En revoyant mes souvenirs avec un membre de l'Académie du Royaume du Maroc, feu Haj M'hammed BAHNINI, à travers la marche d'une vie et le produit d'un esprit et depuis la première rencontre dans les quartiers de FES, jusqu'à celle dans l'enceinte de l'Académie et de ses pavillons, je dois dire que l'étude de ce texte donne une image de la personnalité du défunt, sa formation linguistique et patrimoniale, ses lectures et ses fonctions.

Pour que le texte ne soit pas uniquement une énumération d'évènements, il marque alors un arrêt critique et méditée que les deux collègues ont eu l'occasion d'étudier ; qu'il s'agisse de textes d'auteurs classiques ou de contemporains, de par ce que ces deux collègues ont en général comme potentialité patrimoniale, techniques d'analyses et comme connaissance en matière d'histoire de la littérature et d'histoire des Arabes et des Musulmans.

C'est ainsi que nous parcourons ce texte qui présente le comportement du défunt dans les milieux des écrivains comme Al Asbahani, Ibnou Qotaïba, Al Jahid et Attaouhidi, parmi les auteurs classiques et comme Al Aquad et Taha Houcine, parmi les contemporains.

Quant aux idées qui apparaissent et ne quittent pas le texte, que ce soit dans cette première partie ou dans celles qui suivront et qui seront publiées successivement, il s'agit d'une nouvelle lecture critique des textes classiques pour mettre l'accent sur les éléments auxquels les historiens et critiques de la littérature n'ont pas prêté attention, particulièrement en ce qui concerne les relations de ces textes avec les cours généraux et particuliers des évènements de l'époque. Dans cette sérieuse approche, il y a une tentative d'établir les caractéristiques d'une leçon littéraire qui coordonne l'originalité avec la modernité, le rejet traditionnel avec le rejet moderne, ce dont nos écoles, nos universités et notre produit de critique, ont besoin avec insistance.

* * *

FROM MY MEMORIES ABOUT A COLLEAGUE THAT WE HAVE LOST - PART ONE -

Looking over my souvenirs with a member of the Academy of the Kingdom of Morocco, the late Haj M'hammed BAHNINI, through a march of a life and a product of a spirit, since the first meeting in the neighborhoods of FES, until the one in the precinct of the Academy and its pavilions, I must say that the study of this text gives an image of the defunct's personality, his linguistic and patrimonial training, his readings and his duties.

Instead of only enumerating events, this texte marks a critical and meditating pause that the two colleagues had the opportunity to study, whether it concerns authors of classical texts or contemporary ones, according to what these colleagues generally have as a patrimonial potentiality, technics of analysis, and as a khowledge in the matter of literature's history and Arabs and Moslems history.

In this way, we glance through this text which presents the behaviour of the defunct in the environments of writers such as Al Asbahani, Ibnou Qotaïba, Al Jahid and Attaouhidi among the classical authors and as Al Aqu'ad and Taha Houcine among the contemporary ones.

As for the ideas that appear and don't leave the text whether it concerns the first part or the following ones which will be successively published, it concerns a new critical reading of these classical texts in order to emphasize the elements for which historians and critics of literature did not pay attention especially for what concerns the relations between these texts and the general and particular courses of the era's events. In this serious approach there is an attempt to establish caracteristics of a literary lesson which coordinates between originality and modernity and between traditional rejection and modern one, that our schools, universities and critical product, need insistently.

* * *

«RECUERDOS DEL MALOGRADO COMPANERO»

1e parte

Tras los recuerdos del miembro de la Academia Real Marroqui ; el defunto Hadj Mohamed Bahnini. El presente texto describe la personalidad del defunto a traves de su vida, su producción, sus nociones, su formación lingüéstica, antropológica, su lectura y sus funciones, y desde el primer encuentro de la comemoración de Fes hasta la inauguración de la Academia Real Marroqui.

Para que no sea el texto un simple recorrido, se hace una pausa donde se inspira a un largo criterio sobre los textos que se estudiaron en comun, tanto los antiguos como los contemporanes, gracias a su repertorio cultural y de los instrumentos analiticos como tambien a la historia de literatura arabe musulmana en general.

El perfil del texto, expone los pasos del defunto en las ciencias de los antiguos ; El Asbahani, Ibn Kotaiba ; y El Tauhidi, y de los contemporaneos, El Acaad, Taha Houssain.

Respecto a la ocurrencia del texto, tanto en su primera parte como en su procidimiento que seran publicados proximamente. Es la nueva visión sobre los textos antiguos para llamar atenciones a los historiadores de la literatura y sus critas, prencipalmente a la relación de textos con los hechos de innovación. En éste acercamiento se intenta de constituir un parametro de cursos de letras que reune entre lo tradicional y lo moderno, y erige lo clasico con el contemporaneo, ésto lo que es necesario para nuestros colegios, universidades, como tambien para nuestra producciòn critica.

* * *

Mohamed CHAFIK

EXTRAIT DES PROVERBES BERBERES

Ce texte présente 215 proverbes berbères (Amazighis) dans leur originalité berbère, leur définition, leur explication ou la présentation de leurs correspondants dans les proverbes, les poèmes et les adages arabes.

Les proverbes berbères trouvent leur inspiration dans le mode de vie des milieux agricoles et pastoraux. Certains d'entre eux sont répandus au niveau du Grand Maghreb, d'autres sont courants au niveau provincial ou régional. Il est possible qu'un seul proverbe ait plusieurs récits en ce qui concerne le vocabulaire, la formulation, la construction ou la structure. L'objectif de la publication de ces proverbes est de permettre au lecteur, non connaisseur de la langue berbère, de devenir familier avec, et non de s'étendre dans la connaissance de leurs ascendants et descendants.

Certains proverbes berbères ont été traduits en Arabe dialectal mais l'on ne pourrait les entendre traduits que dans de rares occasions, juste pour les expliquer à celui qui ignore la langue berbère. Il y a également d'autres proverbes berbères dont chacun présente une moralité à son annecdote, racontée généralement aux jeunes au cours de certaines circonstances à leur première éducation, dans le but de leur inculquer des principes de moralité et les initier à la pratique des méthodes linguistiques traditionnelles.

Ce qui est remarqué, c'est que les proverbes traduits vers l'Arabe populaire dialectal, ont gardé les caractéristiques de constitution berbère, en ce qui concerne la structure de la phrase et l'enchaînement des mots à l'intérieur de cette phrase. La raison en est que, si la traduction est spontanée et non révisée, elle ne dépasse pas le mot à mot, dans la plupart des cas.

* * *

EXTRACT OF BERBER'S PROVERBS

This texte presents 215 berber's proverbs (Amazighis) in their berber originality, their definition, their explanation or the presentation of their correspondents with Arab proverbs, poems and adages.

The berber proverbs find their inspiration in the way of life of the agricultural and pastoral environment. Certains, among them, are widely known at the level of the Grand Maghreb, others are in current, at the provincial and Regional levels. It is possible that one proverb has many accounts for what concerns the vocabulary, formulation, construction and structure. The purpose of this proverbs publication

is to permit to the reader who does not know the berber's language, to guet familiar with them and not to enlarge on the knowledge of their ascendants and descendants.

Certain berber proverbs have been translated into dialectal Arabic but we could hear them translated only in rare occasions, just to explain them to the one who ignore berber language. Also, there are other berber proverbs from which, each one presents a morality in its anecdote that we generally tell to young people during their first education in order to iniate them in the practice of traditional linguistic methods.

What has been noticed, was that the translated proverbs into dialectal popular Arabic, have kept the characteristics of berber constitution for what concerns the structure of the sentence and the words connection within this sentence. The reason is that, if the translation is spontaneous and not revised, it does not pass beyond the word for word, in most of the cases.

* * *

«SINTESIS SOBRE PROVERBIOS AMAZIGUIA»

El ensayo presenta 215 proverbios Amziguia des de su mismo origen Amazigui, lo arabiza, lo esplica como tambien lo compara con los ejemplos, poesias y leyes arabes.

Los proverbios amaziguia provienen de un modo de vida canpesina, algunos de ellos esta conocido y extendido a nivel del gran Magreb, otros usados a nivel provencial o zonas. Se puede considerar un provebio mas que une novela respecto a su lenguaje o/a su morfologia y su estructura. El objetivo de publicar éstos proverbios es, para todos aguellos lectores que no sean amazigui, lo mismo para ampliar sus conocimienstos con el fin de asociarse se y conocer sus raices etnológicos.

De los provebios amazigui que han sido traducidos al arabe marroqui, no han sido escuchados por el traductor, excepto en pocas ocasiones, aunque el inters es para todo aquel que ignora el amazigui.

Como también es, en cada proverbio amazigui hay un sentido de narracción que cuenta hechos desde su origen con el proposito de formales prencipios eticos y de entrenarlos para manejar conceptos lingueśticos tradicionales de ellos. Lo observable en los proverbios traducidos al dialecto arabe marroqui, han conserva sus caracteristicas estructureles amaziguí en la construcción de las fraces y en su proceso de palabras ; la casvalidad está en la traduccion espontanea no revisada pasada literalmente normal.

Abdelaziz BENABDELLAH

LA JURISPRUDENCE JURIDIQUE AU MAROC : CARACTÉRISTIQUES ET PARTICULARITÉS

Le droit au Maroc renfermait depuis les premiers temps, plusieurs aspects de la vie, en plus de ce qui fait l'objet de nos jours, d'une vigilance particulière se rapportant au statut personnel, à l'héritage, aux appropriations, aux biens des orphelins, au habous « Waqf », au contrôle des notaires, des documentalistes et des contrats. Le juge s'occupait du fonctionnement de l'enseignement dans sa juridiction et du secteur de l'économie locale dans la mesure où il était responsable de l'économie du marché ainsi que de la distribution des aumônes légales « Zakats ». Cette extension de spécialisation revenait dans le temps, à l'étendue de la juridiction législative sur l'ensemble des services civilisationnels.

La première réalisation des Almoravides était de baser les jugements du pays sur le droit et l'élimination de ce qui n'est pas jugement légal. Depuis les Almohades, chaque grande cité avait son juge qui nommait ses adjoints dans les centres locaux. Dans les campagnes, c'était le droit coutumier qui prédominait et malgré tout, la population utilisait le droit musulman dans les jugements de leurs litiges par respect à la religion, tout en tenant compte de ce que leur dictait la coutume.

Au 16e siècle apparaîssait une discordance doctrinale et des lacunes dans l'appareil juridique. Malgré l'attachement du Maroc depuis le 10e siècle Hégirien à la Doctrine Malékite, le Roi Sidi Mohammed BEN ABDALLAH avait senti une sorte de perturbation et de flottement dans la procédure juridique. C'est ainsi qu'il avait promulgué un dahir ordonnant à la justice de rédiger les jugements en deux exemplaires à remettre à la partie gagnante et au condamné. Avant lui, Moulay Ismaïl avait remarqué un manque de compétence des juges en matière de nécessité de la chose jugée et il avait alors ordonné l'établissement d'un système de formation juridique.

A cette époque, les domaines juridiques et ses catégories étaient diversifiés et il y avait notamment, le droit des cités, le droit militaire, le droit des pélerins, le droit des femmes et celui du marché. De même que le droit marocain avait été renforcé par des références qui se comptent par centaines analysant les principes juridiques dans le cadre de l'originalité malékite. A côté de cela, le droit marocain se distinguait par une liberté de conception et de jugement qui prouvait une richesse de notre patrimoine jurisprudentiel, qui avait été mis en valeur à l'échelle internationale par Feu Sa Majesté Mohammed V et par Sa Majesté Hassan II, que Dieu le glorifie.

* * *

THE JURIDICAL JURISPRUDENCE IN MOROCCO : CHARACTERISTICS AND PARTICULARITIES

The law in Morocco included since the first times past, many aspects of life in addition to what nowadays demands a particular vigilance related to personal status, inheritance, appropriations, orphans property, habous « Waqf », notaries, documentalists and contracts check. The Judge dealed with the functionning of teaching in his jurisdiction and the local economic sector since he has been responsable for the market economy and for the distribution of the legal alms « Zakats ». This extension of specialization turned back in times past to the sweep of legislative jurisdiction in all civilizational services.

The first realization of Almoravids has been the country's jugements based on law and the elimination of all what is not a legal jugement. Since the Almohads, each big city had its Judge who appointed his deputies in the local centers. In the open country, the customary law has been predominating and in spite of everything, the population has used the islamic law for its judgements to settle litigations with respect to religion, taking into consideration what the custom dictated for them.

In the XVIth century, it has appeared a doctrinal discord and lacunas in the machinery of the law. Despite the fondness of Morocco, since the Xth Hegirian century, to the Malekite doctrine, the King Sidi Mohammed BENABDALLAH has felt a sort of disturbance and hesitation in the Judicial procedure. That has been how he has promulgated a dahir in which he has ordered to Justice to draw up two copies in order to give them to the winner and to the condamned parties. Before him, Moulay Ismaïl has noticed a lack of judges competence in the necessity of decision making and be has then ordered the establishement of a Jurisdictional Training System.

During that epoch, the juridical domaines and their categories has been so diversified that there has been notably, cities law, military law, pilgrims law, women law and the market law. In the same way, moroccan law has been reinforced with hundreds of references analysing judicial principles in the frame of Malekite originality. Besides this, moroccan law has been distinguished from others by a liberty of conception and judgement which has shown proof of richness of our Jurisdictional patrimony that has been developed at the international level by the Late his Majesty Mohammed V and His Majesty Hassan II, may God glorify him.

* * *

CONOCIMIENTO JURIDICO EN MORRUECOS CARACTERISTICAS Y PICULIARIDADES

Desde la edad primaria la justicia en Marruecos abarcaba distintos aspectos de la vida. Por lo tanto se vigilaba las cuistiones relacionadas con el status personal, justar las herencias, propriedades, los intereses de los huerfanos, los asuntos Islamicos, el control de los notarios, lo notariado y los contratos. El juez se encargaba

de dirigir la enseñanza en sus Zonas, como tambíen dirigia el sector economico regional puesto era el contable del zoco y responsable de repartir el pago del diezmo (Zakat). Esta capacidad de especializacion proviene de la extensividad juridica que era entonces sobre todas las regiones Urbanas.

Lo primero que realizarón los El Morabetin, es devolver las leyes del país a los jueces, y anular el archivo de leyes legislativas. Desde la era de los Al-Mohades se convertió cada zona municipal mayor un juez para la junta que se encarga de eligir sus sustitutos en los centros locales. Respecto a lo rural la costumbre era corriente, anque la población se quiaban para gobernar por la legislacion Islamica para resolver sus agonias, creyendo en la legislación y por las costumbres consideradas.

En el siglo VI apareció la discrepancia dogmatica, y las disminiciones y devisiones en él cuerpo judicial, anque desde el siglo X del Hira. Marruecos ha tomado la doctrina Maliki, el sultan Sidi Mohamed Ben Abdellah sintió una especie de desorden y perturbación en la regla judicial, entonces ha emitido un decreto que ordena a los jueces de redactor los vertidictos en dos folios y entregarlos a los litigantes. Como su antisesor Moulay Ismail observo que los jueces ignoran mucho las precisiones de los veridictos, es cuando ordeno de crear el sistema de formación de Jueces.

En ésta época el dominio judicial y su tipologia eran de mucha variedad, entre ellas : Juzgados Ubranos, Juzgados Militares, Juzgados femeninos, Juzgados de perigrinación. Juzgado de Zacos, como tambíen la justicia marroquí adquirio un gran repertorio que analiza los principios judiciales y los nuevos hechos en el marco tradicional Maliki. Paralelamente la justicia marroquí se distinguia por la libertad en la concepción y dictaminacion, justificacion de la riqueza en nuestra etnea marroquí entendida y valorada internacionalmente por el Malogrado Rey Mohamed V y Su Majesta el Rey Hassan II que Dios lo glorefique.

* * *

Mohamed Larbi KHATTABI

LES CHEVAUX ET L'EQUITATION DANS LES OUVRAGES DES ANDALOUS

La bibliothèque arabe est bien enrichie par un certain nombre d'ouvrages qui se préoccupent des chevaux et de l'équitation. De même que les dictionnaires arabes accordent une large place au vocabulaire du language concernant les caractéristiques des chevaux, leur constitution physique, leur condition de vie, leurs bons ou mauvais attraits et tout ce qui est en rapport entre autres, avec l'équitation, les courses de chevaux et les armements. Le texte cite un certain nombre de ces ouvrages avec une indication de leurs contenus.

Le texte met l'accent sur l'un de ces livres qui s'intéressent aux chevaux et à l'équitation. Il s'agit de l'ouvrage «Siratu Ajdad Al-Injad Fi Maratibi Al-Jihad», «Le comportement des ancêtres du secours dans la hiérarchie d'une guerre sainte», d'un auteur inconnu. Cet ouvrage se compose de trois parties :

Première partie : Les caractéristiques du cheval et de l'arme ainsi que ce qui est en rapport avec l'apprentissage de l'équitation et l'initiation au port d'armes et des lances.

Deuxième partie: L'attention portée à la santé des bêtes et les moyens de soigner leurs maladies et faire face à leurs contingences.

Troisième partie: Cette partie est perdue. L'auteur la fait connaître par une brève définition ambigue dans laquelle il dit : «C'est la résultante des deux introductions et l'évolution des deux niveaux». La plus importante partie dans cet ouvrage est la première qui est ordonnée en neuf chapitres : L'initiation à l'équitation - L'usage de l'arme - La dénomination des membres du cheval et de sa condition physique - Les couleurs et les bons attraits des chevaux - Les caractéristiques déterminantes de la noblesse de caractère et la délivrance du cheval - Les noms des armes - L'évocation des courses de chevaux et leurs antécédents ainsi que l'indication de divers mots se rapportant aux chevaux.

* * *

HORSES AND HORSEMANSHIP IN THE ANDALUSIAN WORKS

The Arabic library is rich with a certain number of works which go in for horses and horsemanship. In the same way, Arabic dictionaries concede a large place to the vocabulary of a language which concerns horses characteristics, and all what

is in relation whith horsemanship, horse racing and armaments among others. The text cites a certain number of works with an indication of their contents.

This text emphasizes one of these books which are interested in horses and horsmanship. It concerns the work «Siratu Ajdad Al-injad, Fi Maratibi Al-jihad», «The behaviour of aid's ancestors and the hierarchy of holy war», by an unknown author. This work consists of three parts :

First part : Horses and arms characteristics in addition to what is in relation with the working knowledge of horsemanship, and an initiation to carrying fire arms and spears.

Second part : The attention paid to beasts health and the means to treat their diseases and provide for contingencies for them.

Third part : This part is lost. The author has presented it with a brief but ambiguous definition in which he said : «It is the result of the two introductions and an evolution of two levels». The most important part in this work is the first one which is organized in nine chapters : Initiation to horsemanship - The denomination of horse's constituent parts and its physical condition - Colours and the good attractions of horses - The determining characteristics of the horse behaviour's nobleness and deliverance - The armaments names - Evocation of horse races and their antecedents, in addition to different words relating to horses.

* * *

«EL CABALLO Y LA EPICA EN LAS OBRAS ANDALUZAS»

La biblioteca Arabe está enrequecida por las obras que tratan del ca bollo y la épica, juntamente las obras lexicograficas que trazan una inmensa connexción lingüéstica caracterizada en los aspectos y comportamientos, lo apreciable y lo detestable del cabollo, como también, todo lo que está relacionado con la épica, concursosy armamentos etc... El texto recita y señala a to das aguellas obras referidas a éste mismo contenido.

El ensayo hace una pausa con un libro que conciene al caballo y la épica y es : «Conducta abuelica hijvélica en la catigoria de guerra». El autor es desconocido, el libro consiste en tres tomos :

Prime tomo : Caracteristicas del caballo y armamento, y todo lo que está relacionado a montar caballo, entrenamiento sobre tomar espadas y arcos.

Segundo tomo : Tratamientos de bestias, instrumentos de sanidad, sus enfermedades y sus accidentes.

Tercer tomo : Desaparecido, el autor to dió a conocer de una forma corta y ambigüa, dice en él ; el resultado de dos prefacios y la elevación de dos grados), lo interesante que éste libro es primer tomo, está clasificado en nueve capitulos : enseñar y montar a cabollo - manejar el armamento - consejos de interes al jinete - nombramientos de musculos del cabollo y sus comportamiento - ccolores y aspectos apresiados en el caballo - cualidades del caballo y su generosidad, y nombres de armas - recuerdo de consursos y carreras - recuerdo de palabras que conciernen al caballo.

Hadj Ahmed BENCHEKROUN

L'INTERPRÉTATION PERSONNELLE DANS LA JURISPRUDENCE ET LE DROIT

Le texte introduit une série de recherches relatives à l'interprétation personnelle dans la jurisprudence et le droit en référence aux principes fondamentaux de la législation islamique : le Coran, la Sunna (Dogme), le Consensus et l'Analogie qui constituent la jurisprudence, c'est-à-dire le déploiement des efforts pour parvenir à formaliser les jugements légaux à partir de leurs preuves, à condition que ce soit fait par ceux qui jouissent d'un esprit d'influence et de connaissances élargies dans les sciences que nécessite ce domaine.

Si on prenait l'exemple de la jurisprudence du temps des compagnons du Prophète (Assahaba), on la trouverait dans leurs consultations juridiques délibératoires. La règle religieuse dit que : « Celui qui s'évertue et réussit, aura une double récompense divine et celui qui s'évertue sans pouvoir réussir, n'en aura qu'une seule ».

Celui qui analyse les règles législatives dans les versets coraniques, trouverait qu'elles sont justifiées par l'idée qu'elles recherchent l'intérêt général et qu'elles réprimandent les vices. C'est pourquoi il appartenait aux laborieux dans la jurisprudence, d'appliquer leurs efforts avec minutie en fonction de ce qui a été dit pour tout ce qui n'a pas de texte législatif explicite de référence, car cela est une confirmation de Dieu.

* * *

THE PERSONAL INTERPRETATION IN THE JURISPRUDENCE AND THE LAW

The text introduces a series of researches related to the personal interpretation in jurisprudence and law refering to the fundamental principles of islamic legislation : The Koran, Sunna (Dogma), Consensus and Analogy which have constituted the jurisprudence ; that is to say, the deployment of efforts to reach a formalization of legal judgements based on their evidences at the condition to be made by the one who has the spirit of influence and an enlarged knowledge, in the necessary sciences for this domain.

If we take the example of jurisprudence in the period of then, the Prophet's companions (Assahaba), we would find it in their deliberating juridical consultations. The religious rule says that : « The one who does his utmost and succeeds, will have double divine recompense and the one who does his utmost without being able to succeed, will have only one ».

The one who analyses the legislative rules in the Koranic Verses, will find them justified by the idea that they inquire into the general interest and they reprimand all the vices. That is why the laborious in jurisprudence need to apply their efforts with minutiae according to what has been said on all what doesn't have an explicit legislative reference text, because that is the confirmation of God.

* * *

ORIENTACIONES EL CONOCIMIENTO LEYES

El texto facilita a una sevie de investigaciones consagrados al conocimiento y leyes con la excepcion a la base legeslativa islamica : El Coran Sunna (dogma) reuniones mediciónes que constituyen las aplicaciones, con el sentido de hacer fuerzos para llegar a la deducción de leyes legeslativas de sus mismos indicios, la condición para quien debe de realizarlo, hobres de gran experiencia los cuales estan bien informados sobre éste dominio.

Si daremos el ejemplo de estos fuerzos con la era apostolica, encontramos que existe en sus dictamenes legislativas especialmente usados, y la regla legislativa dice : (quién aplica y acierta Tiene dos reconpensas y quien aplica y se equivoca Tiene una recompensa).

Cual quiera que prosigue el versiculo legislativo en el libro de Al-Lah (Coran) lo encuentra justificado para consiguir intereses o apartar depravaciónes, por éllo los aplicadores deben de realizar con toda precisión consistente a lo anterior, no es inequivoco por que es confirmacion de Dios.

* * *

Abdelhadi BOUTALEB

CRISE D'IDENTITÉ AU SYSTÈME D'ENSEIGNEMENT DANS LE MONDE ISLAMIQUE

Le texte détermine la notion d'identité qui représente une série de spécificités et de distinctions caractérisant un individu, un peuple ou une Nation et qui ont été héritées d'un passé ayant une histoire et un patrimoine. Ce texte soulève également le problème de crise d'identité dans le monde islamique comme elle est apparue à l'éducation dans le monde islamique en tant qu'élément de contradiction entre les orientations culturelles et les bases de la dignité islamique à l'instar de ce qui a créé une contradiction entre l'identité et ce qui a influé sur l'éducation. Il est à noter que dans le monde islamique, il y a deux sortes d'enseignement : un enseignement originel religieux et un enseignement moderne qui a porté préjudice et a détruit l'unité de personnalité éducationnelle de la population islamique dans les pays qui souffrent de crise d'identité.

Quant à la réalité de l'enseignement dans certains pays islamiques, elle ne reflète pas l'identité islamique et quand elle le fait, c'est avec une sorte de brouille et de perturbations qu'elle la reflète dans la mesure où elle représente une combinaison de systèmes pédagogiques étrangers qui se rejettent et qui sont en contradiction avec la nature de la société islamique. C'est ce qui apparaît clairement à travers les résultats d'une investigation établie par l'I.S.E.S.C.O.

Il est donc nécessaire de remédier à cette crise pour sortir de son cercle et il est nécessaire de consolider les principes fondamentaux de l'enseigement dans leur conception islamique qui relient l'éducation à l'enseignement, c'est-à-dire qui relient le comportement au savoir pour former un musulman modèle avec un équilibre dans sa personnalité établie par des perspectives mentales, spirituelles, dogmatiques et comportementales.

Les moyens de mise en valeur de l'enseignement dans les pays islamiques se révèlent dans la nécessité de chercher une concordance entre la pratique et la théorie, une intégration des programmes d'enseignement dans l'action de développement et le renforcement de ces programmes par des contenus positifs dans une perspective de continuité et de rénovation du début à la fin de la vie. Tel est le moyen pratique et l'instrument civilisationnel pour remédier à la crise d'identité dans les systèmes d'enseignement afin de créer une dynamique efficace qui pousse le monde islamique à son développement et à son progrès.

* * *

IDENTITY CRISIS IN EDUCATION SYSTEM IN THE ISLAMIC WORLD

The text determines the notion of identity representing a series of specificities and distinctions characterizing a person, a people or a Nation which have inherited a past with a history and a patrimony. This text also rises the problem of identity crisis in the Islamic World as it appears in education in the Islamic World. It is considered as an element of contradiction between cultural orientations and the basis of islamic dignity like what has created a contradiction between identity and what has influenced education. It is worth noting that in the Islamic World, there are two kinds of education : An original and religious education and a modern one which has inflicted prejudice and has destroyed the unity of educational personality of islamic population in countries which suffer from the identity crisis.

As for the reality of education in certain islamic countries, it doesn't reflect the islamic identity and when it does, it reflects it, with a sort of disagreement and perturbations since it represents a combination of foreign pedagogical systems which fall back on each other and which are at variance with the nature of islamic society. That is what appears clearly through investigation results established by the I.S.E.S.C.O.

It is therefore necessary to remedy this crisis in order to come off this circle and it is necessary to consolidate the fundamental principles of education in their islamic conception which connect education to teaching, that is to say, which bridge the behaviour to knowledge in order to turn out an exemplary moslem with an equilibrium in his personality, established with mental, spiritual, dogmatic and behavioral perspectives.

The means which show education to advantage in islamic countries, reveil themselves in the necessity to find a concordance between practice and theory, an integration of education programs in the developing action and a reinforcement of these programs with positive contents in a perspective of continuity and renovation from the beginning to the end of life. This is the practical mean and the civilizational instrument which would help to remedy the identity crisis in education systems in order to create an efficient dynamism which would carry the Islamic World to its development and its progress.

* * *

CRISIS DE IDENTIDAD EN LOS SISTEMAS DE ENSENAZA EN EL MUNDO ISLAMICO

El texto determina la identidad que es una serie de especificaciones y distinciones que caracteriza el individuo o un pueblo o una nación que los hereda del antiguo,

de la historia o del patrimonio. Como tambien el texto se dedica a las apariencias de las crisis de identidad en el mundo islamico y sus motivaciones, cómo surgierón en la educación del mundo islamico, como una contradicción entre la corroente cultural y la dignidad islamica, de lo cual surge la contradictoria entre la identidad y lo que sufre la educación.

Lo que es observable que el mundo islamico tiene dos formas de educación : educación religiosa, y la educación moderna, son prejuicios que condujieron a destrozar la unidad educativa islamica en los países que carecen de crisis de identidad.

Respecto a la realidad de la enseñanza en algunos países islamicos no reflejan la identidad, islamica, o es de la forma nuvlada y embrollada, por que está fundida con las demas sistemas educativas extrangeras que se inpugna y contradice con la naturaleza de la sociedad islamica. El lo que consiste claramente en la investigacion ralizada por la Organizacion Islamica de Educacion de la Ciencias y de la Cultura.

Entonces es necesario de tratar ésta crisis para salir de su circulo, como es necesario de consolidar prencipios fundamentales de la enseñanza enfocada por el Islam que reune entre la educación y la enseñanza, es decir entre el comportamiento y la sabeduria para formar un musulman modelo donde equilibra su personalidad en perspectivas mentales, espirituales, dogmaticas y comportamentales.

Las medidas para evolucionar la enseñanza en los países islamicos como alternativa es la necisidad de unir entre lo ciertifico y lo teorico y integrar programas de enseñanza en el movimiento del desarrolla, reforzar programas con los contenidos posetivos, la continuidad de enseñanza y su renovación desde sus raices hasta al final. Ese es el medio cientifico instrumental civilizado para tratar las crisis de identidad en los sistemas de enseñanza para renacer la dinámica eficaz que empuja a la evolucion y adelanto en todos los sentidos en el mundo islamico.

* * *

Ahmed Sidqi DAJANI

LES PROLOGUES DANS LES LIVRES DE NOTRE PATRIMOINE

Le lecteur peut remarquer que les livres du patrimoine arabe se caractérisent par leurs prologues. Ces livres commencent tous par ce qui est comunément connu chez les musulmans par «Al basmala»[1], puis «Al hamdala»[2], puis encore «Ass'alsala»[3] pour arriver au terme : «ensuite...».

Ces prologues ont été développés avec le temps dans leur formulation qui a connu plus de soins et de détails.

Pour prendre davantage connaissance des prologues des livres du patrimoine, il nous appartient de voir l'origine de cette tradition pour remarquer qu'elle remonte aux discours du Prophète comme modèle à suivre, discours qui commençaient par «louange à Dieu», puis suivait «att'achah'oud''[4] pour arriver à «ensuite»...

C'est ainsi que les prologues des livres édités, sont devenus un art raffiné, exprimant l'esprit de la civilisation islamique et ses valeurs.

Ce qui attire l'attention, c'est que le contenu du prologue d'un livre délimite l'accumulation de connaissance dans toute la civilisation humaine, ce qui a amené Al Maqrizi à citer les points mentionnés dans le prologue avant d'arriver au terme : «ensuite...».

Dans une comparaison entre les prologues des livres de notre patrimoine et ceux de la civilisation occidentale, nous remarquons que ce qui est commun aux préambules des livres occidentaux est qu'il n'y a pas de contrainte particulière dans leur rédaction et qu'elles sont dénuées de toute dimension spirituelle.

---

(1) «Al basmala», formule de glorification de Dieu à prononcer : «bi-smi-llah», au nom de Dieu. Abrégé d'un verset coranique qui sous-entend «l'ouverture», «le commencement» de toute action : «Au nom de Dieu le Très Miséricordieux, le Tout Miséricordieux».

(2) «Al hamdala» formule de glorification de Dieu à prononcer : «Al hamdu li-llah», Dieu soit loué. Abrégé d'un verset coranique exprimant le remerciement du Bon Dieu pour tout événement : «Louange à Dieu, Seigneur des Mondes».

(3) «Ass'alsala'', abrégé d'une expression que les musulmans répètent chaque fois qu'ils prononcent le nom du Prophète Mohammed : «Que la prière et le salut de Dieu soient sur le Prophète et ses Compagons».

(4) «Att'achah'oud», abrégé d'un acte de foi en l'Islam : «J'atteste qu'il n'y a point d'autre divinité que celle de Dieu et que Mohammed est le Messager de Dieu».

* * *

Certains livres qui sont apparus au siècle dernier présentaient nécessairement un prologue traditionnel mais sous une forme simple. Cela était dû à l'apparition d'une nouvelle génération d'auteurs qui a subi les conséquences d'une perturbation survenue à la culture de la Nation, ce qui a séparé les citoyens de leur patrimoine et a incité plusieurs d'entre eux à prendre le livre occidental pour modèle.

* * *

THE PROLOGUES IN OUR PATRIMONY'S BOOKS

The reader can notice that books of Arab's patrimony are characterized by their prologues. All these books begin with what is commonly known with Moslems by «Al basmala»(1), then «Al hamdala»(2), after that «Ass'alsala»(3) to lead to the word : «then...».

The prologues have been developed with time, in their formulation which has known more care and more details.

To have more knowledge about the prologues of patrimony's books, we need to set eyes on the origine of this tradition to notice that it goes back to the Prophet's speeches as a model to follow, speeches which started by «Praise be to God», then followed «Att'asha'houd»(4) to lead to the word «then...».

In a like manner, prologues of the edited books became a refined art expressing the spirit of islamic civilization and its values.

What attracts attention, is that the content of a book's prologue delimits the accumulation of knowledge in all human civilization. This induces Al Maqrizi to quote the points mentioned in the prologue before leading to the word «then...».

In a comparison between the prologues of our patrimony's books and the ones of occidental civilization, we can notice that what is common to preambles of the ocidental books is that there is no particular constraint in their drafting and they are deprived from all spiritual dimension.

---

(1) «Al basmala», formula of glorification of God, to be pronounced : «bi-smillah...», «In the name of God».
Abridgment of a coranic verse which implies the «opening», the «begining» of every action : «In the name of God, Most Gracious, Most Merciful».

(2) «Al hamdala», formula of glorification of God, to be pronounced : «Al hamdu li-llah», «Praise be to God».
Abridgement of a coranic verse expressing thanks to God for every event : «Praise be to God, The Cherisher and Sustainer of the Worlds».

(3) «Ass'alsala», abridgment of an expression that Moslems repeat every time they pronounce the Muhammad Prophet's name.
«May prayer and Salute of God be upon the Prophet and his Companions».

(4) «Att'ashah'oud», abridgment of a deed of faith in Islam : «I attest that there is no divinity other than the one of God and that Muhammad is the Messenger of God».

Certain books which have appeared during the last century have presented necessarily a traditional but simple prologue. This has been related to the appearance of new generation of authors who have been subject to the consequences of a perturbation supervened to the Nation's culture and that is what has separated citizens from their patrimony and has incited many of them to take occidental books as a model.

* * *

«LA APERTURA EN LOS LIBROS DE NUESTRO PATRIMONIO»

El lector puedo observar en los libros de nuestro patrimonio arabe, una distinción en las aperturas que todas empiezan por (Bismi Al-Lani-En el nombre de Dios), (Al-Hamdu Li-Lahi-Alabado sea Dios), (Alabado our el profeta Mohamed) hasta llegar a (Ama Baad - Como después). Con él tiempo éstas aperturas se evolucionarón en su elaboracion, cuales se aumento su cuidado con mas detalles.

El cono cimiento sobre las aperturas de libros en nuestro patrimonio, invita a ver su origen en la cultura para discubrir su raiz que proviene de los discursos del profea Mohamad, es como modelo valido de usar, comienzan todos con Al hamdu Li-Lahi, despues le sigue et testigar a Dios para llegar hasta «Después». Asi se han convertido estas aperturas de libros en obras de arte que demuestran el espírito de la cevilization musulmana y su moralidad.

Lo notable en et contenido de ésta apectura del llibro es interes de la sabeduria acumulada de cada civilización humana. Asi expone El Makrizi Al Naffat que narra desde la apertura Al hamdu hasta llegar a «Como después».

Si hacems la comparación de éstas aperturas y de apertura de los libros de la cultura oxidental, encontramos en el conjunto de las presentaciones de libros oxidentales una escaces de condiciones cordinadas en su redacción y la falta de consideración espiritual.

Durante et siglo ultimo, aparecierón algunos libros que cuidaban las aperturas tradicionales, pero con una forma sencilla, hasta que aparecierón la nueva generación de escritores que conllevarón la cultura a una perturbación que influyó en la cultura de la nación y de separar la joventud de su patrimonio para tomar el libro oxidental como modelo.

Mohamed Aziz LAHBABI

L'UNIVERSALISME DE WILLIAM SHAKESPEARE

William Shakespeare est considéré comme étant le maître du théâtre international et le plus grand génie de la littérature humaine. Ses œuvres se caractérisent par l'universalisme à travers les positions et comportements de certains de ses principaux acteurs.

La caractéristique apparente dans le théâtre de Skakespeare est la présence du Maroc. Cela revient aux relations commerciales et diplomatiques qui existaient entre la Grande-Bretagne et le Maroc, ce qui avait constitué chez les Anglais une idée d'humour et de sympathie pour les Marocains et a éveillé la curiosité de connaître le Maroc réputé par le soleil, le sucre et la bravoure. Il n'est pas étonnant que Shakespeare se soit intéressé par le Maroc et les Marocains à travers les trois personnages dont deux parmi les nobles qui sont « Othello » et un marocain, « Le marchand de Venise » ainsi que « Harron » dans la pièce théâtrale « Titus Andronicus ».

Quant à l'universalisme de Shakespeare, il apparaît dans toutes ses pièces théâtrales dans lesquelles il exprime ses positions et des sentiments humains valables en tout temps et en tout lieu, que ce soit dans « Othello », « Le marchand de Venise », « Macbeth », « Le Roi Lear » ou « Comme ça me chante »... Shakespeare est considéré comme étant un grand philosophe avec une force d'observation et de mémoire, une précision dans l'expression, couronnée par une sensation poétique et dramatique. Il s'agit d'un génie basé sur une intrigue du secret et d'ambiguïté et c'est la rencontre de la mélancolie avec la poésie.

L'immense production originelle de Shakespeare et sa dimension mondiale avaient soulevé un grand débat à propos du dramaturge lui-même grossissant un drame qu'il n'a pas écrit mais qui fait partie du fond shakespearien. Est-ce que le dramaturge avait une existence ? Est-ce que les pièces théâtrales appartenaient à lui ou à un autre dramaturge ? Certains pensent qu'elles appartiennent à Freuid, d'autres pensent qu'elles appartiennent à Jacques Pierre, d'autres encore à Marlowe... Les versions sont devenues plus nombreuses depuis le 16ᵉ siècle à nos jours. Malgré cela, le théâtre de Shakespeare est une réalité qui contribue à l'enrichissement de l'expérience humaine.

* * *

La existencia resaltada en el teatro de Shakespeare, es la presenica marroqui, gracias a las relaciónes economicas y diplomaticos que unierón Marruecos y la gran Britaña, desde entonces los ingleses formarón una idea simpatica agradable sobre los Marroquies, la curiosidad de conocer Marruecos país conocido por su sol y la valentia. No es extraño que Shakespeare se enteresa por Marruecos y por los Marroquies ; a traves de tres personalidades, dos de ellas son nobles : « Otelo », El Marroqui comerciante de Venecia » ; y Hárron en la obra teatral « Titus Andronicus ».

Respecto a las extensividades de Shakespeare, consiste en « todas las obras teatrales que manifiesta en ellas, principios y sintimientos humanos validos en cualquier tiempo – espacio como en « Otelo » o en « El comerciante de Venecia » o en « Makebeth » o en « El Rey Lear » o/y en « Como me grata ami ».

Se considera Shakespeare como gram filosofo sin ninguna disposición, fuerte en su observación y en la inteligencia, la expresión minuciosa coronada con los sentidos poéticos y dramatico Es una genialidad concentrada sobre la trauma del secreto y la ambigüédad, juntamente todo se manifiesta en la melancolia poetica.

La inmensa producción teatral etnologica de Shakespeare, plantó grandes discusiónes sobre su personalidad, al plasmar la melancolia de la forma discreta no escrita ; es decir, a travers del sentido Shakespersimo : ? Es que el autor tiene lugar y existencia ¿ , Es que las obras son de él o de otros autores ? Pues, algunos autores dicen que son de Froéd y otros dicen de Yac Bier y los terceros dicen de Marloo...

Como éstos dichos hay muchos que abundan desde el siglo XVI hasta la fecha. Sin embargo, el teatro Shakesperismo es una pura realidad, no le cabe ninguna duda, coopera y aún está cooperando de enriquecer la experiencia humana.

Abdellatif BERBICH

RÉFLEXIONS SUR LES PHÉNOMÈNES TECHNIQUES ET MORAUX RÉSULTANT DE L'ÉVOLUTION DES SCIENCES MÉDICALES

Les sciences médicales ont vu au cours des dernières décennies, des évolutions exceptionnelles rapides.

Avec la fin de la 2e Guerre Mondiale, ces sciences ont beaucoup bénéficié de l'évolution sensible qu'ont connu les autres sciences, particulièrement dans les domaines de biochimie, de physique nucléaire et de connaissance de l'homme. Ces évolutions avaient permis de réaliser de grands espoirs qui étaient considérés comme faisant partie de l'utopie ou de la science fiction.

L'origine de cette étonnante évolution revient à la découverte des groupes antigènes et à la découverte également du Système de l'Histocompatibilité des Antigènes (H.L.A.). Il est légitime, que l'homme se demande avec insistance et sérieux sur les horizons et les limites de ces évolutions. Il est certain qu'il s'agisse d'évolutions au service de la santé de l'homme et de l'allègement de ses douleurs. La qualité des informations qui sont devenues disponibles, nécessite du médecin un effort pour en connaître le maximum avec tous les moyens techniques mis à sa disposition pour que son diagnostic soit complet et significatif et pour parvenir au traitement efficace correspondant.

Comment parvenir à faire face à cette croissance rapide des informations médicales ? Cela est possible avec la spécialisation et les échanges de connaissance entre spécialistes, en utilisant le téléphone, l'ordinateur et en se référant aux œuvres, aux périodiques et aux publications scientifiques.

Si les évolutions des sciences médicales et leurs techniques connaissent de nombreux côtés positifs, ils posent tout de même des problèmes d'éthique concernant les domaines de procréation, d'amélioration des naissances, d'hygiène, de secret médical, de frais des soins de maladies incurables, de transplantation d'organes, etc...

Le chercheur se trouve devant une équation difficile : chaque fois qu'il essaie de surmonter un des nombreux problèmes d'éthique, il s'étonne de l'apparition de nouvelles évolutions techniques et scientifiques soulevant avec elles de nouveaux problèmes d'éthique qui nécessitent des solutions rationnelles rapides.

* * *

Quoiqu'il en soit, il s'est avéré que l'homme qui a été capable de trouver des solutions aux problèmes précédents, est également en mesure d'en trouver pour ceux à venir.

* * *

REFLEXIONS ON TECHNICAL AND MORAL PHENOMENA RESOLTING FROM THE EVOLUTION OF MEDICAL SCIENCES

Medical sciences have seen, during the last decades, exceptional and rapid evolutions.

With the end of the Second World War, these sciences have benefited a lot from the sensitive evolution that other sciences have known particularly in the domain of biochimestry, nuclear physics and the knowledge of mankind. These evolutions have permitted to realize the great hopes which have been considered as part of utopia or fiction science.

The origine of these estonishing evolutions goes back to the discovery of antigen groups and also to the discovery of Antigen's Histocompatibility System (H.L.A.). It is legitimate that man could wonder with insistance and seriousness about the horizons and limits of these evolutions.

Sure it concerns evolutions for the benefit of human health and the relief of his pains.

The quality of informations which have become available, necessitates from the doctor, an effort to know the maximum of all technical means at his disposal in order to have a diagnosis as complete and significant as possible, and arrive to the corresponding and adequate remedy.

How to face and handle these rapid increases of medical informations ? It is possible with specialization and experience exchanges between specialists, using telephone, computer and refering to works, periodicals and scientific publications.

If the medical sciences and their technics have numerous aspects, we can say that nevertheless they raise ethical problems concerning the fields of births, hygiene, medical secrecy, expenses of incurable deseases and organs transplant...

The scholar is facing a dilemma : Anytime he tries to surmont one of the numerous ethical problems, he is estonished by new apparition of scientific and technical evolutions raising with them new ethical problems which necessitate rapid and rational solutions.

To a certain extent, it has been shown that man, who has been able to find solutions to previous problems is also able to find others for the furure ones.

CONCENTRACIONES EN LAS APARIENCIAS TECNICOS Y MORALES SURJIDAS POR LA EVOLUCION DE LAS CIENCIAS MEDICINALES

Se ha visto en las ultimas decadas una evolución rapida en las ciencias medicinales en la forma excepcional. En los finales de la 2e guerra mundial se venificiaron esas ciencias de una evolucion sensible, como tambien se ha visto en las demas ciencias que se venificiaron especialmente en el campo Beo Quimica Fisica Nuclear, y en el conocimiento humano. Con ésta evolución se permitió de consiguir durante la ultima mitad del siglo XX, deseos que eran antes deseos soñados considerados como ciencia imaginaria.

El origen de esta evolucion chocante, viene por el discubrimiento de una serie de tejidos y el discubrimiento del sistema conocido (H.L.A.) ; es dicir, el sistema de adaptación de Tejidos. Es curioso de preguntar con la precision y seriedad por éste horizonte evolutivo y sus limites, pues, sin la menor duda es una evolución puesta a la disposicion de la salud humana, y para disminuir sus dolores. Por lo tanto cuantos conocimientos acrecentados y disponibles que debe aplicar el médico para informarse del máximo de ella, y instrumentarse tecnicamente para acertar un buen diagnostico y consiguir una buena curación adecuada.

Entonces ; se plantea la pregunta ¿ Cómo se puede confrontarse a éste aumento rapido en el conocimiento medicinal ? es posible, con la especializacion, con una amplia dialogación entre los especialistas, usar el teléfono y la computadora, recurrir a las obras, a los informes y a las publicaciones cientificas.

Si de una parte, la evolucion de las ciencias medicinales alcanzaron muchos adelantos posetivos, pues de lo contrario plantarón una serie de problemas morales que conciernen a los aspectos de la ginecologia, los tratamientos, secretos del médico, los costes de tratamiento de enfermedades dificiles, y las plantaciones de organos.... etc. Todo ésto, el investigador lo encuentra problematicamente dificil, cada intento realizado para resolver algun problema de los problemas morales, se sorprende de nuevo de alguna aprición evolutiva técnica cientifica que conlleva problemas morales nuevas y que necesita una solución logica rapida ; ya que la persona quién le encontró soluciones previas es capaz de superar las nuevas.

Mohamed Allal SINACEUR

DOCUMENT CHINOIS DU DÉBUT DE CE SIÈCLE

La Chine avait avec l'Islam une ancienne et solide relation citée dans « Nouvelles de Chine et de l'Inde », constituées au III[e] siècle de l'Hégire, par un certain nombre d'écrivains et aventuriers tels que Ibn El Fakih, El Messaoudi, El Kazouini et tant d'autres. Seulement les livres nationalistes ne sont pas aussi intéressants comme le sont les groupements islamiques qui ont occupé les Empires chinois et cristallisé leur tendance islamique dans un climat culturel, ce qui a réservé à la culture islamique un horizon, une délivrance et des expériences qui ont élargi son rayonnement.

Dans le cadre de la considération portée aux Musulmans de Chine, nous nous permettons de publier cette lettre qui appartient à un grand leader des Musulmans en Chine du début du XX[e] siècle. Il apparaît du cachet officiel se trouvant dans la dernière page du manuscrit, que cette lettre a été écrite sur du papier de soie. En publiant cette lettre comme document qui exprime la situation spirituelle et sociale des Musulmans de Chine au début de ce siècle, nous promettons au lecteur de faire une recherche à ce sujet et de la publier dans l'un de nos prochains numéros de notre revue « Academia ».

Le cachet apparaissant à la dernière page du manuscrit est une signature administrative officielle de la Famille (Tezang), un historien du 10[e] mois lunaire chinois de l'année 1905.

Nous en sommes reconnaissants au propriétaire de ce document, Maître BENDAHO, avocat en France qui nous a permis de faire une copie de l'original qu'il garde dans sa bibliothèque personnelle.

* * *

CHINEESE DOCUMENT FROM THE BIGINING OF THIS CENTURY

China had with Islam an ancient and solide relation mentioned in « News of China and India », constituted in the IIIrd hegirian century, by certain writers and adventures such as Ibn Al Fakih, El Messaoudi, El Kazouini and others. But the nationalist books are not as interesting as do the islamic groups who had occupied the chineese empires and had demonstrated their islamic tendancy in a cultural climat

which had reserved to the islamic culture a horizon, a delivery and experiences which had enlarged its radiation.

In the frame of consideration beared on Moslems of China, we take the liberty to publish this letter which belongs to a great leader of Moslems in China of the begining of the XX^{th} century. It appears from the official seal which exists at the last page of the manuscript that this letter was written on a tissue paper.

In publishing this letter as a document which expresses the spiritual and social situation of chineese Moslems at the bingining of this century, we promise to the reader to do a reaserch on this subject and to publish it in one of our next issues of our magazine « Academia ».

The seal appearing at the last page of the manuscript is a formal administrative signature of the Family (Tezang), a historian of the 10^{th} chineese lunar month of the year 1905.

We are grateful to the owner of this document, Master BENDAHO, a lawyer in France who allowed us to make a copy of the original which he keeps in his personal library.

* * *

DOCUMENTO CHINO
DESDE EL PRINCIPIO DEL SIGLO XX

La China y el Islam, relaciónes antiguas, documento habla de ella el que obro « noticias de China y la India » recopiladas en el siglo tercero de la Hira (año musulman). Los autores que se condujieron por éste libro, son los aventureros : Ibn Fakeh, El Masoudi, El Kazaovani y o otros. No obstante los libros de otras nacionalidades, no se han interesado como se intereso la serie islamica la cual habitó el imperio Chino y reflejó su identidad islamica en un ambiente cultural que a haorró a la cultura Islamica horizontes, fruto y experiencias elumunadas de extender.

Desde la consideración a los musulmanes chinos, nos permite de publicar ete ensayo de un lider musulman en China, a partir del siglo XX, es lo que demuestra el sello oficial que aparece en la ultima pagina del manoescrito de seda. Publicamos éste ensayo como documento que expresa los aspectos espirituales, sociales de los musulmanes chinos en los principios de éste siglo. Si Dios quiere prometemos al lector un articulo sobre éste tema lo cual será publicado proximamente en nuestra revista « Academia ». La apareción del sello en la ultima pagina del manoescrito, señal oficial administrativo de la familia (Tesang) el historiador es del mes decimo lunar Chino año 1905.

Por nuestra parte presentamos toda gratitud al Sr. Bendaho, profesor Letrado en Francia, propietrario de éste manoescrito y que nos permitio de fotocopiarlo.

* * *

3ème Partie

ACTIVITÉS DE L'ACADEMIE

Récéption de M. Pu SHOUCHANG

Membre Associé

de l'Académie du Royaume du Maroc

1re session de l'année 1991

Casablanca

27 Avril 1991

SPEECH OF THE NEW ASSOCIATED MEMBER

Pu SHOUCHANG

I am greatly honored to have been elected a member of the prestigious Academy of the Kingdom of Morocco, and to be among the ranks of eminent scholars representative of different cultures and disciplines. I take it to be an honor not only to me personally, but to my country and my people as well. Between China and Morocco, there have always been a strong sense of affinity and very friendly relations. I can still remember vividly the successful visit of the late Premier Zhou Enlai to Morocco in 1963. I was very fortunate to be able to accompany him on that visit. Since then the friendly ties between China and Morocco have further expanded and strengthened. If I can contribute to this growing friendship through my affiliation with the Academy of the Kingdom of Morocco, I will be more than gratified.

With your permission I would like to say a few words in tribute to my predecessor, the late Professor Huan a dear friend of mine. His distinguished service as a diplomat and outstanding achievements as a scholar earned him high esteem in China. His association with the Academy of the Kingdom of Morocco was most fruitful and gratifying to him. I heard him say many times how inspiring it was to participate in the Academy's sessions. It also gave him great pleasure to know that he was contributing to the friendly ties between China and Morocco. I am sure we will long remember him as an outstanding scholar and a dedicated worker for Sino-Moroccan friendship.

Like my predecessor, I am also a student of international relations. We in China have been following closely the massive changes in international relations in recent years. I would like to take this opportunity to tell you about China's perception of the world situation and to explain China's position on how to cope with global problems.

With the setting in of the last decade of the Twentieth Century, we have seen breath-taking changes unfolding in the international arena. Indeed, the changes are more swift and profound than people ever imagined, with long-term impact on the interaction among States. People over the world are gratified with some of the changes. The Cold War is over. Tension between the United States and the Soviet Union has been relaxed. Progress has been made in East-West disarmament. Military confrontation has abated. Peace and development have gained further momentum.

But the world has by no means entered into a millennium of universal peace. Power politics still exist. Relaxation of East-West tension has not led to moderation of North-South confrontation. Political, economic and ethnic conflicts among Nations, temporarily kept in the background during the Cold War, have come to the fore and been intensified, causing violence and even war in some regions. A case in point is the Gulf crisis which developed into the devastating Gulf War. The highly volatile domestic developments in both the Soviet Union and Eastern Europe add to people's concern.

What we are witnessing is the disintegration of the bipolar global power structure. It is a natural result of the global diffusion of political power which started in the 60's with the emergence of power centers other than the United States and the Soviet Union. However, a multipolar global structure is yet to take shape. The world is in transition from the old structure to the new. With the existing equilibrium upset, all the elements of international relations are in flux. We are entering a period for which there is perhaps no precedent in uncertainty and complexity.

Such is the world in which we find ourselves. The common stake that we all have in making sure the world is safe international response to a common challenge is called for. There is much talk about establishing a new international order. But what kind of new order should be established ? We could contribute better to building a stable and creative world order, if we first form some conception of it.

First of all, the new international order must be truly a new one and vastly different from the old, which was based on hegemony and power politics. If history teaches anything, it is that a new world equilibrium will last only if it is compatible with the aspirations of all Nations.

Under the new order, all States must be equal, no matter whether they are big or small, strong or weak, rich or poor. World affairs should be managed by all the States with equal rights, instead of being dominated by one or two big powers or by a group of powers.

Under the new order, every country is entitled to choose its own political, economic and social system, ideology and developmental strategy in the light of its domestic conditions, free from any interference or imposition from without.

Under the new order, there should be mutual respect for sovereignty and territorial integrity among the States. International disputes should be settled fairly through peaceful means without the use or the threat of use of force.

The new order should have an economic dimension besides its political one. The economic relations between the developed and the developing countries have become increasingly unbalanced. The developing countries are seriously hampered in their economic development by such economic stresses as heavy debts, unfavorable trade terms and reverse flow of capital. A new international economic order should redress this situation, do away with the unfairness and inequality in the economic relations between the developed and the developing countries and base those relations on equality and mutual benefit.

In discussing the kind of international order which we hope to establish, the

Five Principles of Peaceful Co-existence championed by China ever since the 50's are of particular relevance. The Five Principles are : Mutual respect for sovereignty and territorial integrity, mutual non-aggression, non-interference in each other's internal affairs, equality and mutual benefit and peaceful co-existence. In less than forty years, these principles have won ever wider acceptance as norms governing inter-state relations and have proved viable for maintaining peace and stability. People realize that an alternative to the old order is possible, and are beginning to see the outline of a new one. A new international order built on the basis of the Five Principles of Peaceful Co-existence would most certainly be more responsive to people's demands for peace and development.

The new order, as envisaged above, is admittedly a lofty goal. But it is not too lofty to attain. We are entering a period of great vicissitudes in the international arena. The challenge is tremendous, yet the opportunity is there. Changes are not unique to recent decades : they are the very soul of history. Changes have always demanded adjustments. The price for failure to respond has often been high, whereas the rewards for seizing opportunities have been aqually great. The determination of the people all over the world to achieve peace and development will enable them to rise to the challenge and grasp opportunities. A new international order will surely be brought about, no matter how long and how much arduous effort it takes.

I thank you for giving me this chance of sharing my thoughts with you. I look forward to a very fruitful association with the Academy of the Kingdom of Morocco and I am sure I will benefit greatly from the wisdom and knowledge of all its eminent scholars.

Thank you.

Récéption de M. Alfanso de la Serna

Membre Associé

de l'Académie du Royaume du Maroc

1re session de l'année 1991

Casablanca

27 Avril 1991

DISCURSO DEL NUEVO MIEMBRO ASOCIADO

Alfonso DE LA SERNA

Desde los tiempos lejanos de Atenas, cuando traspasar la puerta del jardín de los olivos de Academos significaba poder oir la palabra de Platón, la entrada en una Academia trae siempre consigo un sentimiento de emoción propio de los instantes solemnes.

Debo la emoción de hoy a la benevolencia de Su Majestad el Rey Hassan II de Marruecos, que ha tenido a bien nombrarme miembro asociado de esta Academia, y a quien expreso desde aquí mi profundo agradecimiento ; la debo también a la hospitalidad de todos usteds, señores académicos, que me aceptan como colega suyo. En 1983 y con ocasión de mi partida de Rabat, - terminada mi misión de Embajador de España -, Su Majestad, me nombró mienbro correspondiente de la Academia del Reino de Marruecos. Me dijo entonces : «Así le veremos con frecuencia en Marruecos». Debo responder hoy que no he dejado apenas un solo dia de recordar este país, lo cual es una forma de regresar. Y, en efecto, a él vuelo cotidianamente en mis estudios y trabajos que siguen centrados en Marruecos.

Hoy, que Su Majestad me eleva al rango de miembro asociado, me siento doblemente unido a la Academia, doblemente reconocido a la gentileza de ustedes, y, claro está, doblemente agradecido a Su Majestad.

Cuando digo que siento una inevitable emoción no exagero que quiero preciasar que me impresiona profundamente incorporarme a una institución en la que veo a eminentes téólogos, filósofos, científicos, juristas, escritores, historiadores, economistas, ingenieros, arquitectos, catedráticos, politicos, sociólogos... Yo no soy solo un diplomático. Y qué es un diplomáticos Qué puedo ofrecer yo ?. El gran filósofo español Ortega y Gaset, dijo un día, con sutil ironía que escondía una honda verdad, que los diplomáticos éramos «casi» todo : casi jurista, casi politicos, casi intelectuales, casi hombres de sociedad, pero también creo que estaba señalando algo que era, en cierto modo - y esto lo pienso, quizás, para consolarme - nuestra pequeña grandeza y gran servidumbre : que no siendo sabios de nada somos, al menos, «especialistas en ideas generales». Esto es todo lo que yo puedo traer aquí : algunas ideas generales sobre algunas cosa ; y hoy lo haré expresando ciertas ideas de ese carácter sobre la esencia la esencia de la diplomacia en nuestro mundo.

Pero esas ideas generales las adquirimos, justamente, por que intentamos ver las cosas, los pueblos con los que nos toca vivir y trabajar, en su conjunto ; no queremos fragmentarlos y quedarnos solo con un trozo que nos agrada conservar, o al contrario, con uno que nos complacemos malignamente en denostar, sino que aspiramos a comprenderlos en su integridad, a verlos en perspectiva, distinguiendo los mil matices que hay en la vida, no sólo el blanco y el negro. Por eso, los

diplomáticos parecemos a veces demasiado fríos, eclécticos, nada radicales, poco comprometidos : por que nuestro oficio nómada, nuestra vida de peregrinación, nos han ido enseñando la complejidad de la condición humana, la diversidad del mundo.

Aquéllos que ejercen nuestro oficio con fidelidad a su vocación lo hacen, sobre todo, con amor a la tierra en donde trabajan. Tratan de vencer los peligros de nuestra trashumancia congénita, de pasar por encima de la frivolidad y banalidad que acompañan y amenazan nuestra vida profesional ; intentan dirigirse a nuestro verdadero objetivo y practicar una diplomacia original y profunda, no la epidérmica y convencional como es nuestra tentacion permanente. Intentan, en fin, penetrar en lo más hondo del país extranjero en que viven. Nuestro deber y nuestro honor de representantes de nuestra patria nos obligan, en primer lugar, a servir a sus intereses, pero nos parece que no podemos hacerlo bien si no explicamos con perfecta claridad a nuestros gobernantes cuáles son los intereses del país en donde estamos ; cuáles son sus deseos y aspiraciones, cuál su realidad, su personalidad verdadera. Y por ello, en cierto modo, nos tenemos que convertir un poco en representantes, también, del país ante el que estamos acreditados. Yo creo que un buen diplomático es aquél que lo es en doble dirección, el que estimula el diálogo, pues los diálogos van en doble sentido ; si no, serían monólogos.

En el siglo XVII, un diplomático y escritor español, Antonio de Vera y Zúñiga, escribió un libro titulado «El Embajador» que durante muchos años figuró en el equipaje de los embajadores europeos de la época. En él sostenía que el buen embajador debía ser un «experto en sublime tercería», expresión que es muy difícil de traducir e incluso de comprender en el idioma español actual, pero que aludía al oficio de, digámoslo así, «celestini de «courtière», para expresar el trabajo de quien pone en relación a dos posibles amantes.

Diré, para terminar, que este oficio de abrir el diálogo entre dos que no se conocen bien, de intentar comprendre al «otro» - ese «otro» al que, por no saber cómo es, convertimos en nuestro enemigo - ; esta profesión que trata de ver las cosas en su conjunto, en su integridad ; esta carrera de peregrinos que van por el mundo para descubrir cómo es en su rica variedad y decírselo a los que no lo saben, es la carrera diplomática a la que pertenezco y a la que he servido durante cuarenta años. Como yo no tenía cosas importantes que decir a ustedes, como venía casi con las manos vacías, he querido describirla aquí tal como yo la veo. A ella debo el privilegio de haber conocido, entre otros muchos países, este amgnífico país que es Marruecos y de haber comprendido que, después de mil trescientos años de historia vivida al lado de mi país, de historia de guerras y de paces, de amistades y enemistades, Marruecos no es «el otro», sino el que puede ser nuestro mejor amigo. No ha sido mérito mío sino mérito del oficio que me trajo aquí. Por eso creo que el honor de estar hoy en la Academia corresponde, en realidad, a la profesión diplomática, no a mí ; lo cual no disminuye ni un ápice mi gratitud a Su Majestad el Rey y a la Academia.

Esto es lo poco que yo podía decirles en el momento en que entro en la Academia del Reino de Marruecos, un lugar en donde hay riqueza de sabiduría y generosidad de corazón. Un lugar que da luz y no sombra. Es como el olivar de «Academos», en Atenas. Recuerdo ahora los versos de Antonio Machado, un gran poeta español, que pensando en alguien que era muy sabio y muy generoso, dijo de él :

«Como el olivar * mucho fruto lleva * poca sombra da»